كون إيغلدن

سادة البراري

الجزء الثاني من
السيرة الملحمية لفاتح
المغولي جنكيزخان

رواية

مكتبة الكتب العربية

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سادة البراري

الجزء الثاني من
السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيزخان

رواية

تأليف
كون إيغلدن

مترجمة
مروان سعدالدين

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي Lords of The Bow

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر HarperCollinsPublishers

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © Conn Iggulden

2008

All rights reserved

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ISBN: 978-614-421-132-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

tarjem@mbrfoundation.ae

www.mbrfoundation.ae

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إلى ابنتي صوفي

القسم الأول

"انتبهوا، سيأتي شعب من الشمال، ويصبح أمة عظيمة. سوف يحمل أفراده الأقواس والرماح. إنهم قساة ولا يعرفون الرحمة. سيزأر صوتهم مثل هدير البحر، سيمتطون جيادهم، وكل منهم يعرف موقعه مثل رجل سيخوض معركة".

جيريمايا 50: 41، 42

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead

مقدمة

كان خان النيمنز عجوزاً، ويرتجف في الرياح التي تهب على التل. بعيداً إلى الأسفل، كان الجيش الذي جمعه يقف ضد رجل يدعو نفسه جنكيز. وقفت أكثر من اثنتي عشرة قبيلة مع النيمنز عند أسفل التل بينما كان العدو يهاجم مرة تلو الأخرى. كان الخان يسمع الصيحات والصرخات التي ينقلها إليه هواء الجبل، لكنه كان كفيفاً تقريباً ولا يمكنه رؤية المعركة.

تمتم مجدداً لكاهنه العرّاف: "أخبرني بما يحدث".

لم يكن كوكشو قد بلغ الثلاثين من عمره بعد، وكانت عيناه حادتين، إلا أن ظلالاً من الشك خيّمت عليه.

"سلّم مقاتلو جاجيرات أقواسهم وسيوفهم يا مولاي. لقد فقدوا شجاعتهم، كما توقعت".

قال الخان وهو يلف رداءه حول جسده النحيل: "لقد منحوه شرفاً كبيراً بإظهار خوفهم. أخبرني عن رجالنا: هل ما زالوا يقاتلون؟".

لم يجب كوكشو لوقت طويل بينما كان يراقب الحشد الكبير من الرجال والجياد في الأسفل. كان جنكيز قد فاجأهم جميعاً، ظهر من المراعي عند الفجر على الرغم من أن أفضل المستطلعين قال إنه لا يزال على بعد مئات الأميال. كان رجال اعتادوا على النصر قد ضربوا تحالف النيمنز بكل ضراوة، لكن كانت هناك فرصة لصدّ هجومهم. لعن كوكشو بصمت قبيلة جاجيرات، التي كانت قد جلبت الكثير من رجال الجبال والذين كان يعتقد أنهم ربما ينتصرون ضد أعدائهم. حتى وقت قصير، كان تحالفهم شيئاً بعيد المنال، ومستحيلاً قبل بضع سنوات؛ وصمد في وجه الهجمة الأولى فقط، ثم بعثره الخوف فتنحّت قبيلة جاجيرات جانباً.

فيما كان كوكشو يراقب، أطلق لعنة بصوت خافت، وشاهد كيف أن بعض

الرجال الذين رحّب بهم خانه قد قاتلوا حتى ضد إخوانهم. كانت لديهم ذهنية قطعان الكلاب، التي تحوّل وجهتها وفقاً لقوة الرياح.

قال أخيراً: "ما زالوا يقاتلون يا مولاي. لقد صمدوا ضد الهجوم وسهامهم تصيب رجال جنكيز، وتقتلهم".

شبك خان النيمنز يديه النحيلتين معاً، وبانت براجم أصابعه البيضاء.

"ذلك جيد يا كوكشو، لكن ينبغي أن أنزل إليهم لتشجيعهم".

ألقى الكاهن العرّاف نظرة قلق شديدة على الرجل الذي خدمه طيلة حياته.

"ستموت إذا فعلت ذلك يا مولاي. لقد رأيت ذلك. سيدافع أتباعك عن هذا التل حتى ضد أرواح الموتى". أخفى خجله. كان الخان قد وثق بمستشاره، لكن عندما شاهد كوكشو أول خطوط النيمنز تتداعى، أدرك أن موته قادم مع السهام المتطايرة. كل ما كان يريده عندها هو الهرب بعيداً.

تنهد الخان: "لقد خدمتني بإخلاص يا كوكشو. أنا ممتن لك. أخبرني مجدداً الآن عمّا تراه".

سحب كوكشو نفساً سريعاً وعميقاً قبل أن يجيب.

"لقد انضم أشقاء جنكيز إلى المعركة الآن. يقود أحدهم الهجوم على جانبي محاربينا. إنه يخترق صفوفهم". توقف قليلاً، وعض شفتيه. مثل ذبابة تطنّ في الهواء، شاهد سهماً يتجه نحوهما وينغرس حتى ريشه في الأرض على بعد أقدام فقط من المكان الذي يجثمان فيه.

قال وهو ينهض على قدميه من دون أن يشيح ببصره بعيداً عن فوضى القتل العارمة بعيداً في الأسفل: "ينبغي أن نصعد إلى الأعلى يا مولاي".

نهض الخان العجوز معه، يساعده محاربان. كان وجهاهما خاليين من أي تعبير فيما كانا يشاهدان مصرع أصدقائهما وإخوانهما، لكنهما تسلقا التل عند إيماءة كوكشو، وساعدا الرجل العجوز على الصعود.

سأل بصوت متهدج: "هل قمنا بشن هجوم مضادّ يا كوكشو؟". استدار

كوكشو وفزع مما رآه. كانت السهام تتطاير في الهواء تحته، وتبدو كما لو أنها تتحرك ببطء شديد. كانت قوة النيمنز قد انشطرت نصفين نتيجة الهجوم. كانت الدروع التي أمر جنكيز بصنعها وفقاً لنماذج تشن أفضل من الجلود المدبوغة التي يستعملها النيمنز. كان كل رجل يرتدي درعاً حديدياً طويلاً بسماكة إصبع ومحبوكاً بقماش سميك فوق رداء حريري. مع ذلك، لم يكن يستطيع صدّ ضربة قوية، على الرغم من أنه غالباً ما كان يوقف رأس السهم عن النفاذ. شاهد كوكشو محاربي جنكيز يقاومون عاصفة السهام. تمّ سحق صفوف مقاتلي قبيلة ميركيت تحت الأقدام، ورمى من تبقى منهم أسلحتهم وجثوا يلهثون بجهد. وحدهم مقاتلو الأويرات والنيمنز تابعوا القتال، ثائرين، يعرفون أنهم لن يصمدوا طويلاً. كان التحالف الكبير قد تشكل لمقاومة عدو واحد وستنتهي بنهايته كل آمال الحرية. تقطب جاجبا كوكشو، مفكّراً في مستقبله.

"قاتل الرجال بكبرياء يا مولاي. لن يهربوا من هؤلاء، ليس وأنت تشاهدهم". رأى مئة محارب لدى جنكيز يصلون إلى سفح التل ويحدّقون بخبث إلى خطوط الأتباع. كانت الرياح شديدة البرودة على مثل ذلك الارتفاع وشعر كوكشو باليأس والغضب. كان قد قطع شوطاً طويلاً ليلقى الفشل على تل جاف وأشعة الشمس الباردة تلفح وجهه. كل تلك الأسرار التي كان قد اكتسبها من والده، وأضاف إليها، ستضيع بضربة سيف أو سهم تُنهي حياته. للحظة، كره الخان العجوز الذي كان قد حاول أن يقاوم القوة الجديدة في السهول. كان قد فشل وجعله ذلك يبدو أحمق، بغض النظر عن القوة التي كان يتمتع بها من قبل. بصمت، لعن كوكشو الحظ السيىء الذي أصابه.

كان خان النيمنز يلهث فيما كانوا يتسلقون، ولوّح بيد متعبة للرجلين اللذين يمسكان ذراعيه. قال وهو يهز برأسه: "ينبغي أن أرتاح هنا".

ردّ كوكشو: "يا مولاي، إنهم قريبون للغاية". تجاهل التابعان الكاهن العرّاف،

وساعدا الخان على الجلوس على حافة صخرية معشوشبة.

قال الخان: "إذاً، لقد خسرنا؟ كيف يمكن لكلاب جنكيز أن تصل إلى هذا التل إذا لم يكن فوق أجساد النيمنز الموتى؟".

لم ينظر كوكشو في عيني التابعين. كانا يعرفان الحقيقة مثله أيضاً، لكن لم يكن أحد يرغب بقول ذلك وتحطيم آخر أمل للرجل العجوز. في الأسفل، كانت الأرض مليئة بأشلاء القتلى، مثل مستند مخطوط بالدم على العشب. كان مقاتلو الأويرات قد قاتلوا بشجاعة وتصميم، لكنهم انهاروا أخيراً. تحرك جيش جنكيز برشاقة، واستفاد من كل نقطة ضعف في الخطوط. استطاع كوكشو رؤية مجموعات من مئات وعشرات الرجال الذين يتسابقون عبر ساحة المعركة، وقادتهم يتواصلون بسرعة مذهلة. لم يصمد في وجه العاصفة إلا مقاتلو النيمنز الذين يتمتعون بشجاعة كبيرة، لكن ذلك لم يكن كافياً. اختبر كوكشو لحظة أمل عندما تجمّع المحاربون مجدداً عند أسفل التل، لكن تلك كانت مجموعة صغيرة من الرجال المرهقين وتم القضاء عليهم في الهجمة التالية.

تمتم كوكشو: "لا يزال أتباعك مستعدّين للموت من أجلك يا مولاي". كان ذلك كل ما استطاع قوله. كان الباقي من الجيش الذي بدا ماهراً وقوياً جداً في الليلة السابقة قد تبعثر في الأرجاء. كان يستطيع سماع صرخات المحتضرين.

أومأ الخان برأسه، وأغلق عينيه.

قال بصوت أعلى قليلاً من الهمس: "كنت أعتقد أننا نستطيع الانتصار اليوم. إذا انتهى الأمر، قل لأبنائي أن يلقوا أسلحتهم. لن أدعهم يلقون حتفهم من دون سبب وجيه".

كان أبناء الخان قد لقوا حتفهم عندما اجتاحهم جيش جنكيز. حدّق التابعان إلى كوكشو عندما سمعا الأمر، وكانا يخفيان حزنهما وغضبهما. سحب الرجل الأكبر سناً سيفه وتفقّد نصله، وكانت الشرايين في وجهه وعنقه بادية للعيان، مثل خيوط دقيقة تحت الجلد.

"سأنقل الأمر لأبنائك يا مولاي، إذا سمحت لي بالذهاب".

رفع الخان رأسه.

"قل لهم أن يحافظوا على حياتهم يا موراخ حتى يروا إلى أين يقودنا جنكيز هذا".

كانت هناك دموع في عيني موراخ ومسحها بغضب بينما كان يواجه التابع الآخر، متجاهلاً كوكشو كما لو أنه ليس موجوداً هناك.

قال بهدوء: "احمِ الخان يا بني". أحنى الشاب رأسه، ووضع موراخ يداً على كتفه، ومال إلى الأمام حتى تلامس الجبينان للحظة. من دون أن ينظر إلى الكاهن العرّاف الذي كان قد أحضرهم إلى التل، نزل موراخ المنحدر بخطوات واسعة.

تنهد الخان، وكان ذهنه مليئاً بالشكوك. همس: "قل لهم أن يسمحوا للفاتح بالمرور". شاهد كوكشو أن نقطة عرق تتوقف على أنفه وترتعش هناك. "ربما سيكون رحيماً مع أبنائي بعد أن يقتلني".

بعيداً في الأسفل، شاهد كوكشو التابع موراخ يصل إلى الثُلّة الأخيرة من المدافعين. وقفوا على أقدامهم بحضوره؛ وكانوا رجالاً مرهقين، محطمين على الرغم من أنهم رفعوا رؤوسهم وحاولوا عدم إظهار خوفهم. سمعهم كوكشو يودّعون بعضهم فيما كانوا يمشون بخطوات بطيئة نحو العدو.

عند أسفل التل، شاهد كوكشو جنكيز نفسه قادماً عبر حشد من المحاربين، ودرعه ملطخ بالدماء. شعر كوكشو بالرجل يرمقه بنظرة عابرة. ارتعش ولمس مقبض خنجره. هل سيحافظ جنكيز على حياة كاهن عرّاف كان قد مرّر سكينه على عنق خانه؟ كان الرجل العجوز يجلس مطأطَأ الرأس، ورقبته نحيلة تماماً. ربما ستنقذ مثل تلك الجريمة حياة كوكشو، فقد كان في تلك اللحظة خائفاً جداً من الموت.

حدّق جنكيز إلى الأعلى من دون أن يتحرك لوقت طويل وترك كوكشو يده

تسقط إلى جانبه. لم يكن يعرف ذلك المحارب البارد الذي جاء من حيث لا يدري أحد مع شمس الفجر. جلس كوكشو إلى جانب خانه وشاهد مقاتلي مؤخّر حشد النيمنز يلقى حتفه. ردد تعويذة حماية قديمة كان والده قد علّمه إياها، تجعل الأعداء في صفه. بدا أن سماع الكلمات غير المترابطة يخفف من توتر الخان العجوز.

كان موراخ التابع الأول في النيمنز، ولم يكن قد قاتل ذلك اليوم. بصرخة عويل، اندفع نحو خطوط رجال جنكيز من دون التفكير بتوفير حماية لنفسه. صرخ مقاتلو مؤخّر حشد النيمنز في أعقابه، فقد تلاشى تعبهم. تسببت سهامهم بفوضى بين رجال جنكيز، لكنهم وقفوا بسرعة وأطلقوا سهامهم بشكل مفاجئ، وكشفوا عن أسنانهم في أثناء تقدمهم. عندما قتل موراخ أول من وقف ضده، حاصره اثنا عشر رجلاً من كل جانب، وجعلوا أضلاعه مخضبة بالدماء من وقع ضربات سيوفهم.

استمر كوكشو في إنشاده، واتسعت عيناه عندما نفخ جنكيز بوقاً وابتعد رجاله عن الناجين اللاهثين من النيمنز.

كان موراخ لا يزال حياً، ويقف مصاباً بدوار. رأى كوكشو أن جنكيز صرخ بوجهه، لكنه لم يسمع الكلمات. هزّ موراخ رأسه، وبصق دماً على الأرض بينما كان يرفع سيفه مرة أخرى. لم يكن هناك سوى قلة من مقاتلي النيمنز الواقفين وكانوا جميعاً جرحى، ودماؤهم تسيل حتى أقدامهم. رفعوا أيضاً سيوفهم، وكانوا يترنحون في أثناء قيامهم بذلك.

صرخ جنكيز: "لقد قاتلتم جيداً. استسلموا لي وسأرحب بكم إلى نيراني. سأمنحكم ذلك الشرف".

كشّر موراخ غضباً، وكانت أسنانه حمراء. قال: "أبصق على شرف الذئاب".

جلس جنكيز ساكناً، من دون حراك على جواده قبل أن يهزّ كتفيه استخفافاً، ويشير بيده مرة أخرى. اندفع الخط إلى الأمام، واختفى موراخ والآخرون في

حشد الرجال الذين قضوا عليهم.

عالياً على التل، نهض كوكشو على قدميه، سكنت أنشودته في حنجرته بينما كان جنكيز يترجل ويبدأ صعود المنحدر. كانت المعركة قد انتهت. كان الموتى بالمئات، لكن آلافاً آخرين كانوا قد استسلموا. لم يكن كوكشو يهتم بما حدث لهم.

قال كوكشو بهدوء وهو ينظر إلى أسفل التل: "إنه قادم". انكمشت معدته، وارتعشت العضلات في ساقيه مثل جواد يزعجه الذباب. كان الرجل الذي وحّد قبائل السهول تحت راياته يصعد المنحدر لغاية في نفسه، ووجهه خالٍ من أي تعبير. استطاع كوكشو أن يرى أن درعه قد تعرض لضربات كثيرة وأن العديد من قطعه المعدنية معلق بخيوط. كان القتال صعباً، لكن جنكيز تسلق من دون أن ينبس ببنت شفة، كما لو أن الإجهاد لم يكن يعني شيئاً له.

همس الخان، محطماً السكون: "هل نجا أبنائي؟". مدّ يده وأمسك بردن رداء كوكشو.

قال كوكشو بنوبة مرارة مفاجئة: "لم ينجوا". تراجعت اليد، وسقط الرجل العجوز على الأرض. بينما كان كوكشو يراقب، نظرت إليه العينان ذات اللّون الحليبيّ مرة أخرى وكانت هناك قوة بالطريقة التي تماسك بها.

قال الخان: "إذاً، دع جنكيز هذا يأتي. ما الذي يهمني الآن؟".

لم يرد كوكشو، ولم يكن يستطيع أن يشيح بناظريه عن المحارب الذي تسلق التل. كانت الرياح باردة وتلسع عنقه، وكان يشعر بأنها عذبة أكثر من أي وقت مضى. كان قد شاهد رجالاً يواجهون الموت؛ وكان قد منحهم إياه في طقوس ظلامية، وحرّر أرواحهم من أجسادهم. كان يرى أن موته قادم مع الخطوات الثابتة لذلك الرجل، وكاد للحظة أن يجازف ويهرب. لم تكن الشجاعة التي أبقته هناك. كان رجل كلمات وتعاويذ، وأكثر إثارة للخوف بين النيمنز مما كان عليه والده. كان الهرب يعني الموت المحقق في الشتاء التالي. سمع همساً بينما كان

ابن موراخ يسحب سيفه، لكنه لم يشعر بالراحة لذلك. كان هناك شيء مهيب بشأن تقدم المدمّر بشكل ثابت. لم تستطع الجيوش إيقافه. رفع الخان العجوز رأسه وشاهده يأتي، وشعر باقترابه بالطريقة نفسها التي تتلمس فيها عيناه الكفيفتان الشمس.

توقف جنكيز عندما اقترب من الرجال الثلاثة، يحدّق إليهم. كان طويلاً وجلده يلمع من الدّهن وموفور الصحة. كانت عيناه صفراوين مثل عيني ذئب، ولم يرَ كوكشو رحمة فيهما. فيما وقف كوكشو متجمداً، سحب جنكيز سيفاً ما زال يقطر دماً. تقدم ابن موراخ خطوة إلى الأمام ليقف بين الخانين. نظر إليه جنكيز بغضب شديد، وتوتّر الشاب.

قال جنكيز: "انزل عن التل أيها الفتى، إذا أردت أن تعيش. لقد رأيت ما يكفي من أفراد شعبي يموتون اليوم".

هزّ المحارب الشاب رأسه من دون أن ينبس ببنت شفة، وتنهد جنكيز. بحركة سريعة، نحّى السيف جانباً، ومدّ يده الأخرى في الهواء، ودفع بخنجر في حنجرة الشاب. فيما كانت الروح تغادر ابن موراخ، وقع على جنكيز وذراعاه مفتوحتان. همهم جنكيز بينما كان يلتقط الثقل ويدفعه بعيداً. شاهد كوكشو الجسد يتدحرج ببطء على المنحدر.

بهدوء، مسح جنكيز الخنجر ووضعها في غمد على خصره، وظهر عليه التعب فجأة.

قال: "كنت سأكرّم النيمنز لو أنك انضممت إلي".

حدّق إليه الخان العجوز بعينين خاليتين من أي تعبير.

أجاب بصوت قوي: "لقد سمعت ردّي. أرسلني الآن إلى أبنائي".

أومأ جنكيز برأسه. أنزل سيفه ببطء ظاهر. أزال رأس الخان عن كتفيه، وأرسله يتدحرج إلى أسفل التل. لم يرتعش الجسد كثيراً من قوة الضربة وانحنى قليلاً فقط إلى أحد الجانبين. استطاع كوكشو سماع الدماء تتقطّر على الصخور

فيما كانت كل أحاسيسه تصرخ طلباً للحياة. شحب لونه عندما استدار جنكيز إليه، ونطق بكلمات متلاحقة يائسة.

"ربما لن تريق دماء كاهن عرّاف يا مولاي. لن تفعل ذلك. أنا رجل سلطة، وأفهم السلطة. اضربني وستجد أن جلدي حديد. بدلاً من ذلك، اسمح لي بأن أخدمك. دعني أعلن انتصارك".

أجاب جنكيز: "كيف أبليت مع خان النيمنز حتى أحضرته إلى هنا ليموت؟".

"ألم أحضره إلى هنا بعيداً عن المعركة؟ رأيتك قادماً في أحلامي يا مولاي. لقد فتحت لك الطريق بأفضل ما أستطيع. ألست مستقبل القبائل؟ إن صوتي صوت الأرواح. أقف في الماء، فيما تقف أنت على الأرض والسماء. اسمح لي بأن أخدمك".

تردّد جنكيز، وكان سيفه ثابتاً تماماً. كان الرجل الذي يواجهه يرتدي سترة رمادية داكنة فوق رداء وطماقات (أغطية جلدية للساقين) متسخة. كانت ملابسه مزينة بأشكال من الخيوط البنفسجية التي أضحى لونها أسود تقريباً نتيجة تراكم الدهون والأوساخ عليها. كان الحذاء الذي ينتعله كوكشو مربوطاً بحبل، ومن النوع الذي قد ينتعله رجل إذا قرر آخر مالك له عدم استعماله مجدداً.

على الرغم من ذلك، كان هناك شيء بالطريقة التي تلمع بها العينان في الوجه الداكن. تذكر جنكيز كيف كان إيلوك الذئاب قد قتل كاهن والده. ربما كان مصير إيلوك قد تحدد في ذلك اليوم الدموي قبل عدّة سنوات مضت. راقبه كوكشو، منتظراً الضربة التي ستنهي حياته.

قال جنكيز: "لا أريد قاصًّا آخر، لدي ثلاثة رجال يدّعون أنهم يتكلمون مع الأرواح".

شاهد كوكشو الفضول في نظرة الرجل، ولم يتردد. قال: "إنهم أولاد يا مولاي. دعني أريك". من دون انتظار ردّ، مدّ يده داخل سترته وأخرج قطعة رفيعة من

الفولاذ مربوطة كيفما اتفق إلى مقبض بوق. شعر بأن جنكيز رفع سيفه ومدّ كوكشو راحة كفه الفارغة لإيقاف الضربة، وأغلق عينيه.

بجهد وإرادة كبيرين، تحمّل الكاهن العراف الرياح التي تلسع جلده والخوف الشديد الذي يعتصر جوفه. تمتم الكلمات التي كان والده قد علمه إياها وشعر بالسكينة تغمره بقوة وسرعة أكبر حتى مما كان يتوقع. كانت الأرواح معه، وقد هدّأت من روعه. في لحظة، كان في مكان آخر ويراقب ما يجري.

اتسعت عينا جنكيز عندما وضع كوكشو الخنجر على ذراعه، وأدخل النصل الرفيع في اللحم. لم تظهر على الكاهن أي علامات ألم بينما كان المعدن يقطع لحمه؛ وراقب جنكيز، مذهولاً، بينما كان النصل يثقب الجلد إلى الطرف الآخر. أصبح لون المعدن أسود بينما كان ينغرس في اللحم، وطرفت عينا كوكشو ببطء، بكسل تقريباً، عندما سحبه.

راقب كوكشو عيني الخان الشاب عندما كان يُخرج الخنجر، وكانتا مثبتتين على الجرح. سحب كوكشو نفساً عميقاً، وشعر بالطمأنينة تزداد حتى لم يعد يشعر بأطرافه. همس، وكان يعرف الجواب: "هل هناك دماء يا مولاي؟".

تقطب حاجبا جنكيز. لم يكن قد أغمد سيفه، لكنه تقدم إلى الأمام ومرّر إبهامه القاسي على الجرح البيضاوي في ذراع كوكشو. أقرّ بتحفّظ: "لا. إنها مهارة مفيدة. هل يمكن تعلمها؟".

ابتسم كوكشو، ولم يعد يشعر بالخوف. "لن تأتي الأرواح إلى أولئك الذين لم يتم اختيارهم يا مولاي".

أومأ جنكيز، وتنحّى جانباً. حتى في الرياح الباردة، كانت رائحة الكاهن العرّاف مثل تيس كبير ولم يكن يعرف ما يفعله بالجرح الغريب الذي لم ينزف.

همهم جنكيز ومرّر أصابعه على طول سيفه، ووضعه في غمده. قال: "سأمنحك سنة تحياها أيها الكاهن العرّاف. إنه وقت كافٍ لتثبت كفاءتك".

جثا كوكشو على ركبتيه، ووضع وجهه على الأرض. قال والدموع تبلل الغبار على وجنتيه: "أنت الخان العظيم، كما توقعت". شعر بأن طمأنينة همسات الأرواح تغادره آنذاك. مدّ ردنه إلى الأمام ليخفي بقعة الدماء التي أخذت تكبر بسرعة.

رد جنكيز: "أنا كذلك". نظر إلى أسفل التل، إلى الجيش الذي ينتظر عودته. "سيسمع العالم اسمي". عندما تكلم مجدداً، كان ذلك بصوت خافت جداً، وبذل كوكشو جهداً لسماعه.

"هذا ليس وقت الموت أيها الكاهن العرّاف. نحن شعب واحد ولن تكون هناك معارك أخرى بيننا. سأجمع شملنا جميعاً. ستقع المدن في قبضتنا، وستكون لدينا أراضٍ جديدة نمتطي جيادنا فيها. ستبكي النساء، وسأكون سعيداً لسماع ذلك".

نظر إلى الأسفل إلى الكاهن الملقى على وجهه، وتقطب حاجباه. "ستعيش أيها العرّاف. لقد قلت ذلك. انهض من ركوعك، وسر معي".

عند أسفل التل، أومأ جنكيز إلى شقيقيه، كشيون وخاسار. كان نفوذ كل منهما قد ازداد بمرور السنين مذ بدأوا تجميع القبائل، لكنهما كانا لا يزالان يافعين وابتسم كشيون عندما مشى شقيقه بينهما.

سأل خاسار، وهو ينظر إلى كوكشو ويحدق بردائه الرث: "من هذا؟".

أجاب جنكيز: "كاهن وعرّاف قبيلة النيمنز".

قاد رجل آخر جواده حتى أضحى قريباً منهم وترجل، وعيناه ثابتتان على كوكشو. كان أرسلان سابقاً حداد قبيلة النيمنز وعرفه كوكشو عندما اقترب. كان الرجل قاتلاً، كما تذكر، وقد تم نفيه. لم يكن مفاجئاً وجود أمثاله بين ضباط جنكيز الموثوقين.

قال أرسلان: "أتذكرك. هل مات أبوك إذاً؟".

أجاب كوكشو، بنبرة غاضبة: "قبل سنوات، يا خائن العهد".

للمرة الأولى، أدرك أنه فقد السلطة التي كان قد اكتسبها بجهد كبير مع قبيلة النيمنز. لم يكن هناك الكثير من الرجال في تلك القبيلة الذين يتجرأون على النظر إليه من دون خفض أبصارهم، خوفاً من اتهامهم بعدم الولاء ومواجهة سكاكينه وناره. قابل كوكشو نظرة الخائن للنيمنز من دون أن يرف له جفن. سوف يعرفونه على حقيقته.

راقب جنكيز التوتر بين الرجلين بشيء من المتعة. "لا تتعمد الإساءة أيها الكاهن العرّاف. ليس لأول محارب ينضوي تحت راياتي. لم يعد هناك نيمنز الآن، ولا صلات قبلية. لقد استحوذت عليها كلها".

أجاب كوكشو مباشرة: "لقد رأيت ذلك في الرؤيا. لقد باركتك الأرواح".

تجهم وجه جنكيز لدى سماعه تلك الكلمات. "كانت نعمة قاسية. لقد تم جمع الجيش الذي تراه حولك بقوة ومهارة. إن كانت أرواح آبائنا تقودنا، فلا يمكنني رؤيتها لأنها رقيقة للغاية".

طرفت عينا كوكشو. كان خان النيمنز ساذجاً وسهل الانقياد. أدرك أن رجله الجديد لا يقع بالقدر نفسه تحت تأثيره. على الرغم من ذلك، كان الهواء عذباً في رئتيه. لقد عاش ولم يكن حتى يتوقع ذلك قبل ساعة مضت.

استدار جنكيز إلى شقيقيه، وصرف كوكشو عن أفكاره.

قال لخاسار: "اجعل الرجال الجدد يقسمون على الولاء لي هذا المساء، عند مغيب الشمس. وزّعهم بين الباقين حتى يشعروا بأنهم جزء منا، بدلاً من أن يكونوا أعداء مغلوبين. افعل ذلك بحرص. لا يمكنني الاحتراس من الخناجر في ظهري".

أحنى خاسار رأسه قبل أن يستدير مبتعداً بخطوات واسعة بين المحاربين إلى حيث كانت القبائل المهزومة لا تزال تجثو.

شاهد كوكشو ابتسامة عطف بين جنكيز وشقيقه الأصغر كشيون. كان الرجلان صديقين وكان كشيون قد بدأ يتعلم كل ما يستطيعه. حتى أصغر

التفاصيل ستكون مفيدة في السنوات القادمة.

قال جنكيز، وهو يربت على ظهر شقيقه: "لقد حطمنا التحالف يا كشيون. ألم أقل ذلك؟ جاءت جيادك المدرعة في الوقت المناسب".

أجاب كشيون، منتشياً بالمديح: "كما علمتني".

قال جنكيز مبتسماً: "مع الرجال الجدد، سيكون هذا جيشاً ينطلق في السهول. لقد حان الوقت لتحديد الدرب، أخيراً". فكّر للحظة. "أرسل فرساننا في كل اتجاه يا كشيون. أريد استطلاع الأرض بحثاً عن كل عائلة متجولة وقبيلة صغيرة. اطلب منهم المجيء إلى الجبل الأسود في الربيع القادم، قرب نهر اونون. إنه سهل منبسط سيتسع للآلاف من شعبنا. سنجتمع هناك، ونستعد للانطلاق".

سأل كشيون: "ما هي الرسالة التي سأنقلها إليهم؟".

قال بهدوء: "اطلب منهم المجيء إلي. قل لهم إن جنكيز يدعوهم للتجمّع. لم يعد هناك أحد يقف ضدنا الآن. يمكنهم أن يلحقوا بي أو قضاء أيامهم الأخيرة ينتظرون ظهور محاربيّ في الأفق. قل لهم ذلك". نظر حوله برضا. خلال سبع سنوات، كان قد جمع أكثر من عشرة آلاف رجل. مع الناجين من قبائل التحالف المهزومة، كان قد أصبح لديه ضعف ذلك العدد تقريباً. لم يعد هناك أحد في السهول يمكنه تحدّي قيادته. أشاح بنظره بعيداً عن الشمس إلى الشرق، وتخيل مدن تشن الكبيرة الثرية.

"لقد أبقونا متفرقين ألف جيل يا كشيون. لقد قاموا باستغلالنا حتى لم نعد أكثر من كلاب متوحشة. ذلك هو الماضي. لقد جمعت الشمل، وسوف يرتعشون خوفاً. سأمنحهم سبباً لذلك".

الفصل الأول

في غسق يوم صيفي، امتد معسكر المغول أميالاً في كل اتجاه، وكان التجمع الكبير لا يزال يبدو صغيراً مقارنة بالسهل الذي يمتد عليه في ظل الجبل الأسود. كانت الخيام تنتشر في كل مكان على مدّ النظر، وحولها آلاف النيران المشتعلة التي تستخدم للطهو تضيء الأرض. خلف ذلك، كانت قطعان الجياد، والماعز، والأغنام، والثيران ترعى العشب لسد جوعها الدائم. كان يتم سوقها مع بزوغ الفجر بعيداً نحو النهر والمراعي الجيدة قبل أن تعود إلى المضارب. على الرغم من أن جنكيز كان يضمن السلام، إلا أن التوتر والشبهة كانا يزدادان كل يوم. لم يكن أحد هناك قد شاهد مثل ذلك الحشد من قبل، وكان سهلاً أن يشعر المرء بأنه محاصر بتلك الأعداد الكبيرة من الناس. كان يتم تبادل إهانات سرية وعلنية لأن الجميع كانوا يشعرون بالضغط الناجم عن العيش بالقرب من محاربين لا يعرفون بعضهم. في الأمسيات، كانت تقع مشاجرات كثيرة بين الشبان، على الرغم من منعها. كان يُعثر عند بزوغ كل فجر على جثة واحد أو اثنين من أولئك الذين حاولوا تسوية نزاع أو ضغينة قديمة. كانت هناك همسات بين القبائل بينما كانت تنتظر سماع سبب قطعها كل تلك المسافة البعيدة عن أراضيها.

انتصبت خيمة جنكيز نفسه في وسط خيام وعربات الجيش، ولم تكن مثل أي شيء شاهده أحد من قبل في السهول. كانت أطول بمرة ونصف وأعرض بمرتين من الخيام الأخرى، ومبنية من موادّ أقوى من شبكات الأغصان الصغيرة للخيام التي حولها. كانت الخيمة ثقيلة جداً ولا يمكن تفكيكها بسهولة، ويتم نصبها على عربة مزوّدة بإطارات تجرها ثمانية ثيران. عندما يهبط الليل، كان مئات المحاربين يتجهون سيراً إليها، فقط لتأكيد ما قد سمعوه.

في الداخل، كانت الخيمة الكبيرة تُضاء بمصابيح شحم الضأن، التي تشع وهجاً

دافئاً على قاطنيها وتجعل الهواء ثقيلاً. كانت هناك رايات حربية معلقة على الجدران، لكن جنكيز ترفّع عن كل ما يدل على الثروة، وكان يجلس على مقعد خشبي قاسٍ. كان أشقاؤه يستلقون على بطانيات وسروج مصنوعة من شعر الجياد، يشربون وينشدون لتمضية الوقت.

كان يجلس أمام جنكيز محارب شاب يبدو عليه القلق، لا يزال يتعرق من الرحلة الطويلة التي كانت قد انتهت به إلى مثل ذلك الحشد. لم يكن يبدو أن الرجال حول الخان يعيرون اهتماماً له، لكن المبعوث كان يعرف أن أيديهم ليست بعيدة أبداً عن أسلحتهم. لم يكن يبدو عليهم التوتر أو القلق من وجوده، وفكّر ملياً أن أيديهم ربما كانت دائماً بالقرب من أحد السيوف. لقد كان شعبه قد اتخذ قراره، وكان يأمل أن يعرف الزعماء الأكبر سناً ما الذي يفعلونه.

قال جنكيز: "إذا كنت قد انتهيت من تناول الشاي، سأسمع الرسالة".

أومأ المبعوث، ووضع الكوب على الأرض عند قدميه. ابتلع الرشفة الأخيرة بينما كان يغلق عينيه ويقول: "هذه هي كلمات بارشوك، خان اليوغر".

تلاشت الأحاديث والضحكات حوله عندما تكلم، وكان يعرف أنهم يصغون جميعاً. ازداد قلقه. "عرفت مسروراً عن مجدك، يا مولاي جنكيزخان. كنا قد تعبنا بانتظار أن يعرف شعبنا بعضه ويسمو. لقد أشرقت الشمس، والنهر خالٍ من الجليد. أنت الخان العظيم الذي سيقودنا جميعاً. سأكرس قوتي ومعرفتي لك".

توقف المبعوث، ومسح العرق عن جبينه. عندما فتح عينيه، شاهد أن جنكيز كان ينظر إليه بازدراء، فتقلصت معدته خوفاً.

قال جنكيز: "الكلمات رائعة، لكن أين أبناء اليوغر؟ لقد كانت لديهم سنة للوصول إلى هذا المكان. إذا كان ينبغي علي البحث عنهم...". ترك الوعيد يحوم في الأرجاء.

تكلم المبعوث بسرعة: "يا مولاي، استغرق الأمر شهوراً لبناء عربات السفر. لم نكن قد انتقلنا من أرضنا منذ عدة أجيال. كان ينبغي تفكيك خمسة معابد كبيرة، حجراً إثر آخر، وترقيم كل واحد منها حتى نستطيع بناءها من جديد. تطلبت حمولة واحدة من الرقاع اثنتي عشرة عربة ولا يمكن نقلها بسرعة".

سأل جنكيز، بعد أن انحنى إلى الأمام مهتماً بما سمعه: "هل تعرفون الكتابة؟".

أومأ المبعوث من دون تفاخر. "منذ سنوات عديدة يا مولاي. لقد جمعنا كتابات الأمم في الغرب، كلما كانوا يسمحون لنا بالمقايضة معهم. خاننا رجل علم عظيم، وقد نسخ حتى أعمال تشن وكزي كزيا".

قال جنكيز: "إذاً، سأرحب بتلاميذ ومعلمين في هذا المكان؟ هل تقاتلون بالرقاع؟".

تلّون وجه المبعوث عندما ضحك الرجال في الخيمة بصوت خافت. "هناك أربعة آلاف مقاتل أيضاً يا مولاي. سيتبعون بارشوك أينما يقودهم".

أجاب جنكيز: "سيتبعونني، وإلا سنتركهم مثل الجيفة على العشب". للحظة، لم يكن بوسع المبعوث سوى أن يحدّق، لكنه بعد ذلك نظر إلى الأرضية الخشبية المصقولة، وبقي صامتاً.

كظم جنكيز غضبه، وقال: "لم تقل متى سيأتون، تلاميذ اليوغر هؤلاء".

"ربما يكونون على بعد أيام فقط خلفي يا مولاي. لقد غادرت منذ ثلاثة شهور مضت وكانوا مستعدين تقريباً للرحيل. لن يطول الأمر الآن، إذا كان لديك صبر".

قال جنكيز بهدوء، وهو يفكر: "سأنتظر من أجل أربعة آلاف. هل تعرف كتابة تشن؟".

"لم أتعلم القراءة يا مولاي. يمكن لخاني قراءة كلماتهم".

"هل تقول تلك الرقاع كيف يمكن بناء مدينة من الحجارة؟".

تردّد المبعوث عندما شعر بالاهتمام الشديد الذي يبديه الرجال من حوله.

"لم أسمع شيئاً مماثلاً من قبل يا مولاي. يكتب أبناء تشن عن الفلسفة، كلمات بوذا، كونفوشيوس ولاو تسي. لا يكتبون عن الحرب، أو حتى إذا كانوا يفعلون ذلك، لم يسمحوا لنا برؤية تلك الأوراق".

قال جنكيز بحدّة: "إذاً، لن تفيدنا بشيء. احصل لنفسك على وجبة طعام، واحرص على ألا تبدأ شجاراً بتفاخرك. سأحكم على اليوغر عندما يصلون".

انحنى المبعوث قبل أن يغادر الخيمة، وتنهد بارتياح حالما أصبح خارج الجو المفعم بالدخان. مرة أخرى، تساءل إن كان خانه يفهم ما كان قد وعد به بكلماته. لم يعد أفراد اليوغر يحكمون أنفسهم بعد ذلك.

نظر المبعوث حوله على المعسكر الشاسع، وشاهد أضواءً تتلألأ على امتداد أميال. ربما لم يكن أمام خان اليوغر أي خيار.

غمّست هولن قطعة من القماش في دلو من الماء، ووضعتها على جبين ابنها. لطالما كان تيموج أضعف من أشقائه، وكان مرضه يبدو عبئاً إضافياً أكثر من خاسار أو كشيون، أو تيموجن نفسه. ابتسمت باستياء من فكرة أنها ينبغي أن تنادي ابنها جنكيز، وهي كلمة جميلة تعني المحيط لكنه تجاوز ذلك المعنى المعتاد بطموحه. لم يكن قد شاهد البحر أبداً من قبل خلال ست وعشرين سنة من حياته، ولم تكن قد شاهدته بنفسها، بالطبع.

اضطرب تيموج في نومه، وفزع عندما تحسست معدته بأصابعها.

قالت بورت: "إنه هادئ الآن. ربما سأغادر لبعض الوقت".

نظرت هولن ببرود إلى المرأة التي كان تيموجن (جنكيزخان) قد اتخذها زوجة. كانت بورت قد منحته أربعة أبناء سالمين، وكانت هولن قد فكّرت لبعض الوقت أنهما ستكونان أختين، أو صديقتين على الأقل. كانت المرأة الشابة مليئة بالحياة والبهجة في ما مضى، لكن أحداثاً كانت تعتمل في مكان ما عميقاً داخلها حيث لا يمكن رؤيتها. كانت هولن تعرف الطريقة التي ينظر بها تيموجن إلى

ابنه البكر. لم يكن يلعب مع جوشي الصغير أبداً، ويكتفي بتجاهله. كانت بورت قد كافحت ضد ذلك الارتياب، لكنه كان قد تطور بينهما مثل إسفين حديدي في خشب قاسٍ. لم ينفع أن كل أبنائه الثلاثة الآخرين كانوا قد ورثوا لون عينيه الصفراوين. كانت عينا جوشي بنيتين داكنتين، وبشرته سوداء مثل شعره في ضوء خافت. بينما كان تيموجن شغوفاً بالآخرين، كان جوشي يهرب إلى أمه من دون أن يستطيع فهم البرودة في تعبيرات وجه والده عندما ينظر إليه. شاهدت هولن المرأة الشابة ترمق باب الخيمة، إنها تفكر من دون شك بأبنائها.

وبّختها هولن: "لديك خدم يضعونهم في أسرّتهم. إذا أفاق تيموج، سأكون بحاجة إليك هنا".

بينما كانت تتكلم، مرّرت أصابعها فوق عقدة داكنة تحت جلد بطن ابنها، على بعد أصابع فقط من شعر فخذه الداكن. كانت قد رأت مثل ذلك الجرح من قبل، عندما يرفع الرجال أوزاناً ثقيلة جداً. كان الألم شديداً، لكن معظمهم كان يسترد عافيته. لم يكن تيموج يتمتع بمثل ذلك الحظ، ولم يسبق له ذلك. لم يكن يبدو كمحارب بينما كان ينتقل نحو الرجولة. عندما كان ينام، كان وجهه يبدو مثل شاعر، وكانت هولن تحبه لأجل ذلك. ربما لأن والده كان سيسر لرؤية الآخرين وقد أصبحوا رجالاً، فقد كانت دائماً حنونة بشكل خاص مع تيموج. لم يكن قد أصبح قاسياً، على الرغم من أنه تحمل الكثير مثلهم. تنهدت في قرارة نفسها، وشعرت بعيني بورت تنظران إليها في الدجنة.

قالت بورت: "ربما سيستعيد عافيته". فزعت هولن. كان جلد ابنها قد تقرّح تحت الشمس ونادراً ما حمل نصلاً أكبر من سكين طعام. لم تكن تعترض على ذلك خاصة بعد أن بدأت تعرف تاريخ القبائل التي تنضم إليهم بسرعة أذهلت حتى كبار السن. لا يمكن أن يكون الجميع مهرة في استعمال الأسلحة وامتطاء الجياد، كما قالت لنفسها. كانت تعرف أنه يكره السخرية والازدراء اللذين يلاحقانه في عمله، على الرغم من أن قلة كانت تجرؤ على تحمّل مخاطرة أن

يسمعها جنكيز. رفض تيموج أن يذكر الإهانات وكانت تلك شجاعة خاصة به. لم يكن أحد من أبنائها يفتقر للروح المعنوية العالية.

نظرت كلتا المرأتين بينما كان باب الخيمة الصغير ينفتح. تقطب حاجبا هولن عندما شاهدت كوكشو يدخل ويحني رأسه لهما. جالت عيناه الثاقبتان على جسد ابنها المستلقي على ظهره، وكافحت حتى لا تُظهر امتعاضها، ولم تكن تفهم حتى ردّ فعله ذلك. كان هناك شيء في الكاهن العراف، يجعلها تشمئز منه، وقد تجاهلت المبعوثين الذين بعث بهم. للحظة، تمالكت نفسها، تكافح بين السخط والإرهاق.

قالت ببرود: "لم أطلبك".

بدا كوكشو غافلاً عن تلك النبرة. "أرسلت عبداً لألتمس لحظة معك، يا أم الخان. ربما لم يصل بعد. المعسكر كله يتكلم عن مرض ابنك".

شعرت هولن أن نظرة الكاهن العراف تسمّرت عليها، وأنه ينتظر أن يتم الترحيب به بشكل رسمي، بينما كانت تنظر إلى تيموج مرة أخرى. كان يراقب دائماً كما لو أن شخصاً آخر بالداخل ينظر إلى الخارج. كانت قد شاهدت كيف دفع نفسه إلى الدوائر الداخلية حول جنكيز ولم تكن تحبه. ربما كانت تنبعث من المحاربين رائحة روث الأغنام، ودهن الضأن، والعرق، لكن تلك كانت روائح رجال أصحاء. كانت رائحة كوكشو مثل اللحم المتعفن، على الرغم من أنها لم تكن تعرف إن كان ذلك من ملابسه أو لحمه.

بمواجهة صمتها، كان يجدر به مغادرة الخيمة، أو المخاطرة باستدعائها للحراس. بدلاً من ذلك، تكلم بصفاقة، متأكداً نوعاً ما أنها لن تطرده. "لدي مهارة في المداواة، إذا كنت تسمحين لي بفحصه".

حاولت هولن أن تبتلع اشمئزازها. لم يكن باستطاعة كاهن أولخونوت سوى أن ينشد بجانب تيموج، من دون نتيجة. قالت أخيراً: "مرحباً بك في بيتي يا كوكشو". رأته يسترخي تماماً ولم تستطع التخلص من الشّعور بأنها قريبة للغاية

من شيء بغيض. "ابني نائم. يشعر بألم شديد جداً عندما يستفيق، وأريده أن يرتاح".

عبر كوكشو الخيمة الصغيرة، وجثم بجانب المرأتين. ابتعدت كلتاهما عنه من دون وعي.

"يحتاج إلى المداواة أكثر من الراحة، على ما أعتقد". ألقى كوكشو نظرة على تيموج، وانحنى مقترباً ليشم رائحة أنفاسه. فزعت هولن عندما مدّ يده إلى بطن تيموج العاري وتحسس منطقة الكتلة، لكنها لم تمنعه. تأوّه تيموج في نومه، وحبست هولن أنفاسها.

بعد وقت، أومأ كوكشو لنفسه. "ينبغي عليك أن تجهّزي نفسك أيتها الأم العجوز. سيموت هذا الابن".

مدّت هولن يدها بسرعة، وأمسكت الكاهن العرّاف من معصمه. أدهشته قوتها.

"لقد أفرغ ما في معدته أيها الكاهن العرّاف. لقد سبق ورأيت ذلك عدّة مرات من قبل. رأيت ذلك حتى مع الجياد والماعز وكانت تعيش دائماً".

أبعد كوكشو قبضتها المرتعشة بيده الأخرى. كان يسعده رؤية الخوف في عينيها. مع الخوف، يمكنه امتلاكها جسداً وروحاً. إن كانت أماً شابة من النيمنز، ربما كان سعى لإقامة علاقة معها مقابل مداواة ابنها، لكن في هذا المعسكر الجديد، يحتاج إلى إثارة إعجاب الخان العظيم. أبقى وجهه خالياً من أي تعبير بينما كان يجيب.

"هل رأيت لون الكتلة الداكن؟ إنها شيء لا يمكن استئصاله. لو كانت على الجلد، لكنت أحرقتها، لكنها ستنشب مثل المخالب في معدته ورئتيه. إنها تستهلكه تماماً ولن تتوقف حتى يموت".

قالت هولن بحدّة، والدموع في عينيها: "أنت مخطئ".

خفض كوكشو بصره حتى لا ترى نظرة انتصاره آنذاك.

"أتمنى أن أكون كذلك أيتها الأم العجوز. لقد رأيت هذه الأشياء من قبل، وهي شرهة جداً. ستستمر في مهاجمته بعنف حتى يهلكا معاً". لتوضيح قصده، مدّ يده، وضغط على الورم. اضطرب تيموج، وأفاق يسحب نفساً عميقاً.

قال تيموج لكوكشو وهو يلهث: "من أنت؟". كافح ليجلس، لكن الألم جعله يصرخ ويستلقي على السرير الضيق. سحبت يداه بطانية ليغطي عُريّه، وتورّدت وجنتاه عندما أمعن كوكشو النظر فيه.

قالت هولن: "إنه كاهن عرّاف يا تيموج. سيجعلك تشعر بتحسن". كان تيموج يتصبب عرقاً، ووضعت قطعة القماش على جلده بينما كان يستلقي للخلف. بعد وقت، هدأ تنفسه، واستغرق في نومٍ عميق مرة أخرى. فقدت هولن بعضاً من توترها، إن لم يكن الرعب الذي أحضره كوكشو إلى بيتها.

قالت: "إن كان الأمر ميؤوساً منه أيها الكاهن العرّاف، لماذا لا تزال هنا؟ هناك رجال ونساء آخرون يحتاجون إلى مهارتك في المداواة". لم تستطع إخفاء المرارة في صوتها، ولم تتوقع أن يكون كوكشو يستمتع بذلك.

"لقد حاربت ما ينهشه مرتين من قبل في حياتي. إنها إحدى الشعائر الشريرة، وهي خطيرة على الرجل الذي يمارسها وعلى ابنك أيضاً. أقول لك هذا حتى لا تيأسي، لكن سيكون من الحماقة أن تتمتعي بالأمل. اعتبريه ميتاً وإذا استعدته، ستعرفين الفرح".

شعرت هولن بقشعريرة تسري في جسدها، ونظرت في عيني الكاهن العرّاف. كانت تنبعث منه رائحة الدماء، كما أدركت، على الرغم من أن لا أثر لها يظهر على جلده. جعلتها فكرة أنه يقوم بلمس ابنها تشبك يديها بإحكام، لكنه كان قد أخافها بكلامه عن الموت وكانت عاجزة أمامه.

همست: "ماذا تريدني أن أفعل؟".

جلس ساكناً من دون حراك بينما كان يفكر. "سيتطلب الأمر كل قوتي لإحضار الأرواح إلى ابنك. سأحتاج إلى معزاة لأوقف استفحال المرض وأخرى

لأنظّفه بدمها. لدي الأعشاب التي أحتاج إليها، إن كنت قوياً بما يكفي".

سألت بورت فجأة: "ماذا إن فشلت؟".

سحب كوكشو نفساً عميقاً، وأخرجه من بين شفتيه. "إذا أخفقت قوتي عندما أبدأ الإنشاد، سأنجو. إذا وصلت إلى المرحلة النهائية وأخذتني الأرواح، ستشاهداننني عندها أخرج من جسدي. سأعيش لبعض الوقت، لكن من دون الروح، سأكون جسداً خاوياً. هذا ليس شيئاً سهلاً أيتها الأم العجوز".

نظرت إليه هولن، متشككة مرة أخرى. كان يبدو مقنعاً جداً، لكن عينيه السريعتين كانتا تراقبان دائماً، تشاهدان تأثير كلماته.

"اجلبي معزاتين يا بورت. ولنرَ ما يستطيع القيام به".

كان الظلام مخيماً في الخارج وبينما كانت بورت تجلب الحيوانين، استعمل كوكشو قطعة القماش ليمسح صدر وبطن تيموج. عندما ضغط بأصابعه على فم تيموج، استيقظ الشاب مجدداً، وعيناه تمتلئان رعباً.

قال له كوكشو: "ابقَ مستلقياً أيها الفتى. سأساعدك إن كانت لديك القوة". لم ينظر حوله عندما كان يتم إدخال المعزاتين إلى الخيمة وسحبهما إلى جانبه، فقد كان تركيزه منصباً على الشاب الذي يعتني به.

ببطء الشعائر الدينية، أخرج كوكشو أربعة أوعية نحاسية من ثوبه، ووضعها على الأرض. وضع مسحوقاً أبيض في كل منها، وأشعل فتيلاً مشمعاً من الموقد. بعد وقت قصير، جعلت أفاعٍ من الدخان الرمادي-الأبيض الجو خانقاً في الغرفة. تنفس كوكشو بعمق، ليملأ رئتيه. سعلت هولن في يدها وتورّد خدّاها. كان الدخان يجعلها تشعر بالدوار، لكنها لم تكن لتترك ابنها وحيداً مع رجل لا تثق به.

بصوت خافت، بدأ كوكشو ينشد بأقدم لغة لشعبهم، والتي كانت منسية تقريباً. استرخت هولن عندما سمعتها، وتذكرت أصوات المعالجين والكهنة العرافين في شبابها. أعادت تلك اللغة ذكريات بائسة لبورت، التي كانت قد

سمعت زوجها يقول الكلمات القديمة في إحدى الليالي قبل وقت طويل مضى وهو يذبح الرجال ويدفع قطعاً من قلب محترق بين شفتيها. كانت لغة الدم والقسوة، المناسبة تماماً للسهول في الشتاء. لم تكن هناك كلمة منها عن العطف، أو عن الحب. فيما كانت بورت تصغي السمع، تغلغلت خيوط من الدخان إليها، وجعلت جلدها خدراً. استحضرت الكلمات المشوشة مجموعة من الصور الشريرة وسدّت فمها بيدها.

تذمر كوكشو منها، وقد اتسعت عيناه: "اهدئي يا امرأة. اصمتي لأن الأرواح قادمة". تابع إنشاده بقوة أكبر، خدراً بينما كان يردد العبارات مراراً وتكراراً، ويرفع صوته ويزيد إلحاحه. أطلقت المعزاة الأولى ثغاءً يائساً عندما وضعها فوق تيموج، ونظرت في عيني الشاب الخائفتين. بسكينه، شق كوكشو حنجرة المعزاة وأمسك بها فيما كانت الدماء تسيل وتتبخر فوق ابن هولن. صرخ تيموج من الحرارة المفاجئة، لكن هولن لمست بيدها شفتيه فهدأ.

ترك كوكشو المعزاة تسقط من يده، وكانت لا تزال تركل. أصبح نشيده أسرع وأغلق عينيه، ومدّ يده نحو معدة تيموج. لدهشته، بقي الشاب ساكناً وكان على كوكشو أن يضغط الكتلة بقوة ليجعله يصرخ. أخفت الدماء الالتواء الحاد بينما كان يحل الجزء المتداخل من الأمعاء ويدفعه خلف جدار العضلات. كان والده قد علّمه الطريقة مع ورم حقيقي، وكان كوكشو قد شاهد الرجل العجوز ينشد فيما الرجال والنساء يصرخون، ويصيح أحياناً أمام أفواههم المفتوحة حتى يدخل ريقه حناجرهم. كان والد كوكشو قد مضى بهم بعيداً بعد إرهاقهم حتى شعروا بالضياع والجنون وصدّقوا ما يقوم به. كان قد شاهد ذلك الورم المنتفخ ينكمش ويموت بعد مرحلة الألم المبرّح والتصديق تلك. إذا منح رجل نفسه تماماً لكاهن عراف، تكافئ الأرواح أحياناً تلك الثقة.

لم يكن هناك شرف بالاستفادة من مهارة في خداع شاب بمعدة ممزقة، لكن المكافآت ستكون عظيمة. كان تيموج شقيق الخان ومثل ذلك الرجل سيكون

دائماً حليفاً ثميناً. فكّر في تحذيرات والده بشأن أولئك الذين يسيئون الاستفادة من الأرواح بالأكاذيب والخدع. لم يفهم الإنسان أبداً القوة، أو كيف يمكنها الاستيلاء على المرء. تحوم الأرواح حول المعتقد مثل ذباب حول قطعة لحم. لم يكن من الخطأ نشر معتقد في معسكر الخان. لا يمكن لذلك سوى أن يزيد من سلطته.

تنفس كوكشو بجهد عندما كان ينشد، ورفع عينيه بينما كان يدفع بيده عميقاً في بطن تيموج. مع صرخة فرح، حرك يده بقوة وسحب قطعة صغيرة من كبد عجل كان قد خبّأها عن الأنظار. في قبضته، كانت تهتز مثل شيء حي، وتراجعت بورت وهولن عندما شاهدتاها.

استمر كوكشو بالإنشاد بينما كان يسحب المعزاة الثانية إليه. كافحت أيضاً، لكنه دفع يده داخل أسنانها الصفراء، على الرغم من أنها أطبقت على مفاصله. دفع قطعة اللحم الفاسدة داخل المريء حتى لم يعد بوسع الحيوان فعل شيء سوى ابتلاعها بنوبات تقلص لا إرادية. عندما شاهد الحنجرة تتحرك، ضربها بقوة، أرغم قطعة الكبد على النزول إلى معدة المعزاة قبل أن يفلتها من يده.

قال، وهو يلهث: "لا تدعيها تلمس الحيوان الآخر، وإلا ستنتشر وتعيش مجدداً، وربما تعود إلى ابنك". تساقط العرق من أنفه بينما كان ينظر إليهما.

"سيكون من الأفضل حرق المعزاة حتى تصبح رماداً. ينبغي عدم تناول لحمها لأنه يحتوي على المرض. كوني واثقة من ذلك. لا أملك القوة للقيام بذلك مجدداً".

ترك نفسه يتداعى كما لو أنه فقد وعيه، على الرغم من أنه كان لا يزال يتنفس مثل كلب تحت الشمس.

سمع تيموج يقول مستغرباً: "لقد ذهب الألم. إنه مزعج، لكنه لم يعد كما كان من قبل". شعر كوكشو أن هولن تنحني فوق ابنها، وسمعه يلهث عندما لمست المكان الذي تلتقي فيه أحشاؤه بعضلات معدته.

قال تيموج: "الجلد سليم". كان كوكشو يسمع الدهشة في صوته، واختار تلك اللحظة ليفتح عينيه ويعدّل جلسته. كانت عيناه باهتتين وجال ببصره في سديم الدخان.

كانت أصابعه الطويلة تبحث في جيوب ردائه، وأخرجت قطعة من شعر فرس مجدول ملطخ بدم قديم.

قال لهم: "لقد كانت هذه مباركة. سأربطها فوق الجرح حتى لا يدخل إليه شيء".

لم يتكلم أحد عندما أخرج قطعة القماش الوسخة من ردائه، وجعل تيموج يجلس. أنشد كوكشو بصوت خافت بينما كان يلفها حول بطن الشاب، يخفي القطعة القاسية من الشعر بلفة إثر أخرى من القماش ويشدّها بإحكام حتى اختفت عن الأنظار. عندما عقدها، رجع كوكشو إلى الخلف، راضياً لأن البطن لن ينتفخ ويفسد كل عمله.

قال بملل: "حافظ على التعويذة في مكانها مقدار دورة قمر. إذا تركتها تسقط، ربما يجد المرض طريقه للظهور مرة أخرى". أغلق عينيه، كما لو أنه مرهق. "ينبغي أن أنام الآن، هذه الليلة ومعظم الغد. احرقوا تلك المعزاة قبل أن تتركوها تنشر المرض. ينبغي أن تكون ميتة في غضون ساعات على الأكثر". نظراً إلى أنه كان قد دهن الكبد بسمٍ يكفي لقتل رجل راشد، كان يعرف أنه يقول الحقيقة. لن يكون هناك حيوان موفور الصحة ليفسد إنجازه.

قالت هولن: "شكراً لما فعلته. لا أفهم الأمر...".

ابتسم كوكشو متعباً.

"استغرقني الأمر عشرين سنة من الدراسة حتى أتقن ذلك، أيتها الأم العجوز. لا تعتقدي أنك تستطيعين فهمه بأمسية واحدة. سيتعافى ابنك الآن، كما لو أن المرض لم يصبه أبداً".

"ينبغي أن اطلب منك ألا تخبري أحداً عما شاهدته. لا تزال هناك قبائل

تقتل أولئك الذين يمارسون السحر القديم. إنهم يعتبرونهم خطيرين جداً". هزّ كتفيه استخفافاً. "ربما يكون الأمر كذلك". بتلك الطريقة، كان يعرف أن الحكاية ستنتشر عبر المعسكر قبل أن يستيقظ في اليوم التالي. كان هناك دائماً من يطلب تعويذة ضد المرض، أو لعنة ضد عدو. سيجلبون حليباً ولحماً إلى خيمته، ومع القوة يأتي الاحترام والخوف. كان يتوق إلى أن يشعروا بالخوف منه، لأنهم سيمنحونه عندها أي شيء. هل يهم فعلاً إن لم يكن قد أنقذ حياة هذه المرة؟ سيكون هناك إيمان عندما تعلق حياة أخرى بين يديه. كان قد أسقط حجراً في النهر وستذهب التموجات بعيداً.

كان جنكيز وقادته لوحدهم في الخيمة الكبيرة عندما ارتفع القمر فوق حشد شعبه. كان اليوم حافلاً لهم جميعاً، لكنهم لم يكونوا ليناموا طالما بقي مستيقظاً وسيكون هناك تثاؤب وعيون مرهقة في اليوم التالي. بدا جنكيز نشيطاً كما كان ذلك الصباح، عندما رحب بمئتي رجل وامرأة من قبيلة توركيك التي كانت حتى ذلك الوقت إلى الشمال الغربي منهم ولم يستطع أفرادها فهم أكثر من بضع كلمات مما كان يقوله. على الرغم من ذلك، كانوا قد جاؤوا.

قال جنكيز، وهو ينظر بفخر حوله إلى الرجال الذين كانوا معه منذ الأيام الأولى: "يشهد كل يوم مجيء المزيد منهم، ولا يزال هناك شهران على انقضاء الصيف". بعمر الخمسين، كان أرسلان قد أصبح عجوزاً بعد سنوات الحرب. كان وابنه جيلم قد جاءا إلى جنكيز عندما لم يكن لديه شيء سوى دهائه وأشقائه الثلاثة. كان كلاهما قد بقيا مخلصين له تماماً طيلة سنوات قاسية، وكان جنكيز قد أفسح لهما طريق النجاح والحصول على زوجات وثروة. أومأ جنكيز لصانع السيوف الذي كان قد أصبح قائداً، سعيداً برؤية ظهر الرجل منتصباً كما كان دائماً.

لم يحضر تيموج نقاشاتهم، حتى عندما كان على ما يرام. من بين كل أشقائه، لم يكن يُظهر كفاءة للتكتيكات. كان جنكيز يحبه، لكنه لم يستطع الوثوق به

لقيادة آخرين. هزّ رأسه، مدركاً أن الأفكار تتوارد في ذهنه. كان مرهقاً أيضاً، على الرغم من أنه لم يكن يسمح بإظهار ذلك.

قال كشيون: "لم تسمع بعض القبائل الجديدة بتشن من قبل أبداً. القبائل التي جاءت هذا الصباح ترتدي ملابس لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. إنهم ليسوا مغولاً، مثلنا".

قال جنكيز: "ربما. لكنني سأرحب بهم. دعهم يثبتون أنفسهم في الحرب قبل أن نحكم عليهم. إنهم ليسوا تتاراً، أو أعداء دم لأي رجل هنا. على الأقل لن يتم استدعائي لحل خلاف يعود إلى عشرات الأجيال. سيكون هذا مفيداً".

تناول جرعة من كوب فخاري، وتلمّظ بشفتيه من مرارة الشراب الأسود.

"توخوا الحذر في المعسكر يا إخواني. لقد جاؤوا لأنهم لا يرغبون بأن يتركوا لنا سبباً للقضاء عليهم. إنهم لا يثقون بنا بعد. لا يعرف الكثيرون منهم سوى اسمي ولا شيء آخر".

قال كشيون: "لدي رجال يسترقون السمع عند كل نار. سيكون هناك دائماً بعض الأشخاص الذين يسعون لاستغلال الأمر لصالحهم في مثل هذا الحشد. حتى عندما نتكلم هنا، ستكون هناك ألف محادثة أخرى تتكلم عنا. سيتم سماع حتى الهمسات، وسأعرف إن كان عليّ التصرف".

أومأ جنكيز إلى شقيقه، فخوراً به. كان كشيون قد أصبح رجلاً مربوعاً مع كتفين عريضين للغاية من التدرب على الرمي بالقوس. كانا يرتبطان بعروة لا يمكن لجنكيز ادّعاء وجودها مع أي شخص آخر، حتى مع خاسار.

"على الرغم من ذلك، أشعر بالإثارة عندما أسير عبر المعسكر. فيما نحن ننتظر، يصبحون قلقين، لكن هناك المزيد من القادمين ولا يمكنني التحرك بعد. أبناء اليوغر وحدهم سيكونون مفيدين للغاية. أولئك الموجودون هنا ربما يختبروننا، لهذا كونوا مستعدين ولا تدعوا أي إهانة تمر من دون عقاب. سأثق بحكمكم، حتى إذا رميتم عشرة رؤوس عند قدميّ".

نظر القادة في الخيمة بأعين بعضهم من دون أن يبتسموا. مقابل كل رجل كانوا قد أحضروه إلى السهل الكبير، كان اثنان آخران قد جاءا لوحدهما أيضاً. كانت الأفضلية التي يتمتعون بها ألاّ أحد من أقوى القادة يعرف مدى دعمهم لبعضهم. كان كل من يدخل ظل الجبل الأسود يشاهد حشداً واحداً ولا يفكر بحقيقة أنه مؤلف من مئات الفئات المختلفة، التي تراقب بعضها بارتياب متبادل.

أخيراً، تثاءب جنكيز.

قال بإرهاق: "نالوا قسطاً من النوم يا إخواني. الفجر على وشك أن يبزغ، وينبغي نقل القطعان إلى مراعٍ جديدة".

قال كشيون: "سأعرّج على تيموج قبل أن أنام".

تنهد جنكيز.

"لنأمل أن يمنحه أب السماء العافية. لا يمكنني أن أفقد شقيقي المرهف الإحساس".

تأفف كشيون، فتح الباب الصغير بقوة وخرج إلى الهواء الخارجي. عندما غادروا جميعاً، نهض جنكيز، فرك رقبته المتيبسة بحركة سريعة من يديه. كانت خيمة عائلته قريبة، لكن أبناءه سيكونون نائمين. كانت ليلة أخرى سيندس فيها داخل البطانيات من دون أن تعلم عائلته بأنه قد جاء إلى البيت.

الفصل الثاني

حدّق جنكيز إلى شقيقه الأصغر بانزعاج. كان تيموج قد أمضى الصباح يخبر كل من يود الاستماع بشأن العلاج الذي يعرفه كوكشو. كان المعسكر مكاناً مزدحماً على الرغم من حجمه الكبير، وتنتشر فيه أي أنباء بسرعة. بحلول الظهيرة، سيكون النبأ في أفواه المتجولين الجدد خارج السهول.

قال جنكيز، وهو ينظر إليه: "إذاً، كيف تعرف أنه لم يكن سوى التواءٍ بسيطٍ في الأمعاء؟". بدا أن تيموج يقف واثقاً بنفسه أكثر من المعتاد في خيمة العائلة ووجهه يشع إثارة وشيئاً آخر. كلما كان يذكر اسم كوكشو، كان صوته ينخفض إلى تمتمة تقريباً. وجد جنكيز دهشته مثيرة للغضب.

"رأيته يسحبه مني يا شقيقي! لقد تلوّى، وتقلّب في يده، وكدت أتقيأ عندما شاهدته. لقد ذهب الألم معه". لمس تيموج بيده المكان وانكمش من الألم.

علّق جنكيز: "لم يذهب تماماً، إذاً".

هزّ تيموج كتفيه استخفافاً. كان لون المنطقة فوق وتحت الضمادة مزيجاً من البنفسجي والأصفر، على الرغم من أنه كان على وشك أن يختفي.

"كان ينهشني حياً من قبل. هذا ليس أسوأ من كدمة".

قال جنكيز، مستغرباً: "على الرغم من ذلك، قلت إنه لم يكن هناك جرح".

هزّ تيموج رأسه، وقد عادت إليه الإثارة. كان قد استكشف المنطقة بأصابعه في الظلام قبل الفجر. تحت القماش المشدود بإحكام، كان يشعر بتمزق في العضلة التي لا تزال ضعيفة تماماً. كان واثقاً أنه تم تمزيق الورم هناك.

"يتمتع بالقدرة يا شقيقي، أكثر من أي دجّال رأيناه من قبل. أثق بما رأيته. تعرف أن العينين لا تخدعان".

أومأ جنكيز برأسه: "سأكافئه بجياد، وأغنام، وملابس جديدة. ربما خنجر وأحذية جديدة. لا يمكنني أن أترك الرجل الذي أنقذ شقيقي يبدو مثل

متسول".

انتاب تيموج شكٌ مفاجئ. "لم يكن يريد أن تنتشر القصة يا جنكيز. إذا كافأته، سيعرف الجميع ما فعله".

أجاب جنكيز: "الجميع يعرفون ذلك. أخبرني كشيون عند الفجر وقد جاءني ثلاثة آخرون لإخباري بشأن ما حدث قبل أن أراك. ليست هناك أسرار في هذا المعسكر، ينبغي أن تعرف ذلك".

أومأ تيموج برأسه، وقد استغرق في التفكير. "إذاً، لن يمانع، أو سيصفح إذا فعل ذلك". تردّد قبل أن يتابع كلامه، قلقاً من نظرة شقيقه. "بعد إذنك، سأتعلم منه. أعتقد أنه سيقبلني تلميذاً، ولم يسبق لي أن شعرت بمثل تلك الرغبة إلى معرفة...". توقف عن الكلام عندما تقطب حاجبا جنكيز.

"كنت آمل أنك ستستأنف واجباتك مع المحاربين يا تيموج. ألا تريد أن تحارب معي؟".

تورّد تيموج خجلاً ونظر إلى الأرض.

"تعرف كما أعرف أنا أنني لن أصبح أبداً ضابطاً عظيماً. ربما أتعلم حتى أصبح جديراً بالقيادة، لكن الرجال سيعرفون دائماً أنني ارتقيت اعتماداً على صلة الدم وليس على مهارتي. اسمح لي بأن أتعلم من كوكشو. لا أعتقد أنه سيمانع".

جلس جنكيز ساكناً من دون حراك بينما كان يفكر بالأمر. كان تيموج أكثر من مرة موضوعاً للتسلية بين القبائل. كانت رمايته سيئة للغاية، ولم يحظَ بالاحترام على الرغم من جهوده لتعلم استعمال السيف. كان يرى أن شقيقه الأصغر يرتعش، ووجهه يمتلئ خوفاً يرفضه جنكيز. لم يكن هناك مكان لتيموج بين القبائل، وكان جنكيز قد تمنّى في أمسيات عديدة أن يجد له شيئاً يمكنه القيام به. على الرغم من ذلك، كان متردداً في السماح له بالمضي قدماً في ما يريده بسهولة كبيرة. كان رجال مثل كوكشو منعزلين عن القبائل. كان الجميع

يخشاهم بالتأكيد، وكان ذلك جيداً، لكنهم لم يكونوا جزءاً من العائلة. لم يكن مرحباً بهم كأصدقاء قدماء. هزّ جنكيز رأسه باستخفاف. لقد كان تيموج يعد دائماً من خارج القبائل – مراقب- ربما كانت تلك هي الطريقة التي ستكون عليها حياته.

"شرط أن تتدرب على استعمال السيف والقوس ساعتين كل يوم. اقطع وعداً بذلك، وسأؤيد خيارك، دربك".

أومأ تيموج برأسه، وهو يبتسم باستحياء.

"سأفعل ذلك. ربما سأكون مفيداً لك كعرّاف أكثر مما لو كنت محارباً".

أصبحت عينا جنكيز قاسيتين. "لا تزال محارباً يا تيموج، على الرغم من أن ذلك لم يكن أبداً سهلاً بالنسبة لك. تعلم ما تريده من هذا الرجل، لكن في أعماق قلبك، تذكر أنك شقيقي وابن والدنا".

شعر تيموج بالدموع في عينيه، وخفض رأسه قبل أن يراه شقيقه ويخجل منه.

قال: "لن أنسى ذلك".

"إذاً، قل لأستاذك الجديد أن يأتي إلي ويحصل على مكافأته. سأحتضنه أمام قادتي وأجعلهم يعرفون أن مكانته عالية عندي. سيضمن ظلي أن تتم معاملتك باحترام في المعسكر".

انحنى تيموج قبل أن يستدير مبتعداً، وبقي جنكيز وحيداً، وأفكاره تتوارد على نحو غامض. كان يأمل بأن يقسو عود تيموج ويحارب مع أشقائه. كان عليه أن يواجه كاهناً عرافاً يحبه، وكان كوكشو متغطرساً جداً. تنهد جنكيز. ربما كان الأمر مبرراً. كانت المداواة استثنائية وتذكر كيف أن كوكشو كان قد مرّر سكيناً عبر لحمه من دون إراقة قطرة دم. يقال إن لدى تشن رجال يعملون بالسحر، كما يتذكر. ربما يكون مفيداً وجود رجال يماثلونهم. تنهد مجدداً. لم يكن وجود شقيقه كأحد هؤلاء الأشخاص في مخططاته أبداً.

مشى خاسار الهوينى عبر المعسكر، يستمتع بالنشاط والضوضاء. كان يتم بناء خيم جديدة في كل مساحة خالية من الأرض، وكان جنكيز قد أمر بتجهيز حفر عميقة للمراحيض عند كل تقاطع. بوجود عدد كبير من الرجال، والنساء والأطفال في مكان واحد، كان ينبغي معالجة مشكلات جديدة كل يوم ولم يكن خاسار يجد متعة في التفاصيل. بدا أن كشيون يستمتع بالتحدّيات، وقد نظّم مجموعة من خمسين رجلاً قوياً لتجهيز الحفر والمساعدة في نصب الخيام. استطاع خاسار رؤية اثنين منهم يبنيان ملجأ لمجموعة من السهام الجديدة المصنوعة من أشجار البتولا لحمايتها من المطر. صنع العديد من المحاربين سهامهم، لكن كشيون كان قد أمر بصنع أعداد كبيرة للجيش، وكانت في كل خيمة مرّ بها خاسار نساء وأطفال مشغولون بالريش، الخيوط والصمغ، ويربطون كل خمسين منها معاً ليتم أخذها بعيداً. كانت كِيَرَة[1] القبائل تجأر وتُخرج ما في جوفها كل الليل لصنع رؤوس السهام، وكان كل فجر يشهد خروج أقواس جديدة إلى الساحات لاختبارها.

كان المعسكر الشاسع مكاناً للحياة والعمل، وقد أسعد خاسار أن يرى شعبه مُجدّاً في عمله. على مسافة بعيدة، بدأ مولود جديد الصراخ وابتسم لسماع صوته. تبعت قدماه سبلاً في الأعشاب كانت قد بليت حتى ظهر الطين تحتها. عندما يغادرون، سيبدو المعسكر مثل لوحة شاسعة من الأشكال كافح ليتخيلها.

مسترخياً على تلك الحال، لم يلاحظ في البداية الاضطراب عند التقاء دروب أمامه. وقف سبعة رجال غاضبين يصارعون لجعل فحل يجلس على الأرض. توقف خاسار ليراقبهم يخصون الحيوان، وفزع عندما ضرب بحافره رجلاً في معدته وتركه يتلوى على الأرض. كان الحصان يافعاً وقوي العضلات. واجه الحصان الرجال مستفيداً من قوته الهائلة لفك الحبال التي ربطوه بها. حالما يتم إرغامه على الجلوس على الأرض، سيقيدون قوائمه ويصبح عاجزاً أمام سكين الخصي. لم يكن يبدو أنهم يعرفون تماماً ما يقومون به، وهزّ خاسار رأسه

مستمتعاً، وبدأ المشي متجاوزاً المجموعة.

عندما استدار حول الحصان الذي يركل بقوائمه، نشب على قائمتيه الخلفيتين، وأوقع أحد الرجال الذين يمسكون به. صهل بغضب، وتراجع نحو خاسار حتى داس على قدمه فصرخ من الألم. استجاب أقرب رجل إليه للصوت، ودفعه بيده في وجهه لإبعاده عن طريقهم.

ثار خاسار غضباً بصوت يماثل صهيل الحصان المقيد. وجّه ضربة بالمقابل. ترنّح الرجل بعد أن أصيب بدوار، ورأى خاسار الآخرين يلقون حبالهم، وفي عيونهم شيء خطير. استفاد الحصان من الحرية غير المتوقعة ليندفع مبتعداً، وانطلق عبر المعسكر ورأسه للأسفل. صهلت كل الأحصنة الأخرى التي حولهم استجابة لندائه، وبقي خاسار بمواجهة رجال غاضبين. وقف أمامهم من دون خوف، مدركاً أنهم سيتعرفون على درعه.

قال، متوقعاً أن يخفف من التوتر: "سيتم القبض على حصانكم وإعادته إليكم".

لم يقولوا شيئاً فيما كانوا يتبادلون النظرات. كانوا جميعاً متشابهين، وأدرك خاسار أنهم أبناء خان ويلا. كان والدهم قد وصل قبل بضعة أيام فقط، مصطحباً معه خمسمئة محارب إضافة إلى العائلات. كان ويلا معروفاً بحّدة الانفعال وافتقاره لروح الدعابة. عندما تجمّع الرجال حول خاسار، فكّر بأن الطباع نفسها قد انتقلت إلى أبنائه.

راود خاسار أمل للحظة بأنهم سيتركونه يذهب من دون قتال، لكن الرجل الذي ضربه كان يشتعل غضباً، وكان هو من اقترب منه مدعوماً بوجود أشقائه. كانت علامة زرقاء قد ظهرت على جانب وجهه حيث لطمه خاسار.

قال أحد الآخرين بحدّة: "من الذي منحك الحق بأن تتدخل؟". كانوا يحتشدون حوله عمداً، ورأى خاسار أن نشاط المعسكر قد توقف حوله. كانت هناك الكثير من العائلات تراقب الحديث، وكان يعرف عميقاً في داخله أنه لا

يستطيع التراجع من دون إلحاق العار بجنكيز، وربما المخاطرة بموقعه في المعسكر.

قال وهو يصرّ على أسنانه: "كنت أحاول المرور. لو أن شقيقك الثور لم يضربني، لكنت وضعت ذلك الحصان على الأرض الآن. في المرة القادمة، أوثق قوائمه أولاً".

بصق أضخمهم على الأرض قرب قدميه، وشدّ خاسار قبضتيه عندما سمع صوتاً.

"ما هذا؟". كان التأثير على الرجال مباشراً، ووقفوا ساكنين من دون حراك. نظر خاسار إلى الرجل الأكبر سناً الذي يتمتع بالسمات المميزة نفسها. لا يمكن أن يكون سوى خان ويلا، ولم يستطع خاسار فعل شيء سوى أن يحني رأسه. لم يكن الأمر قد وصل إلى السيوف بعد، وكان يعرف أنه من الأفضل عدم الإساءة إلى الرجل الذي يمكنه السيطرة على أبنائه.

قال الخان: "أنت شقيق الرجل الذي يدعو نفسه جنكيز. على الرغم من ذلك، هذا معسكر ويلا. هل أنت هنا لتثير غضب أبنائي وتفسد عملهم؟".

استشاط خاسار غضباً. لا شك أنه تم إعلام كشيون بالمواجهة، وسيكون قد أرسل رجالاً في الطريق، لكنه لم يثق بنفسه ليردّ في البداية. كان واضحاً أن خان ويلا يستمتع بالموقف، ولم يكن لدى خاسار شك بأنه شاهد ما كان يحدث منذ البداية. عندما سيطر على انفعاله، تكلم ببطء ووضوح إلى الخان.

"ضربت الرجل الذي ضربني. ليس هناك سبب لرؤية الدماء تسيل اليوم".

رداً على ذلك، زمّ الخان فمه ساخراً. كان لديه مئة محارب رهن إشارته وكان أبناؤه مستعدين لضرب الرجل الذي يقف أمامه متغطرساً وتعليمه التواضع. "كنت أتوقع مثل ذلك الردّ. لا يمكن تنحية الشرف جانباً عندما لا يكون الوضع مناسباً. هذا الجزء من المخيم أرض ويلا. لقد تجاوزت حدودك".

حافظ خاسار على رباطة جأش المحارب ليخفي غضبه. قال: "كانت أوامر

شقيقي واضحة. يمكن لكل القبائل استعمال الأرض فيما نحن نجتمع. ليست هناك أرض لويلا هنا".

تمتم أبناء الخان بين أنفسهم عندما سمعوا تلك الكلمات، وبدا أن الخان نفسه قد تسمّر في مكانه. "قلت إنها موجودة ولست أرى أحداً بمنزلتي ليتحدى كلمتي. على الرغم من ذلك، ستختبئ في ظل شقيقك".

سحب خاسار نفساً ببطء. إذا ادّعى حماية جنكيز، سينتهي الأمر. لم يكن خان ويلا أحمق ليتحدى شقيقه في المعسكر، مع وجود جيش ضخم رهن إشارته. على الرغم من ذلك، كان الرجل يراقبه مثل أفعى تستعد لتوجيه ضربة، وتساءل خاسار إن كانت الصدفة قد وضعت الخان وأبناءه في دربه ذلك الصباح. سيكون هناك دائماً أولئك الذين يرغبون باختبار الرجال الذين يفترض أن يقودوهم في الحرب. هزّ خاسار رأسه لتصفية ذهنه. كان كشيون يستمتع بالسياسة والمناورة، لكن لم يكن لديه ميل إليهما، أو للشجار مع الخان وأبنائه.

شرع بالقول بعد أن رأى انتصاراً في عيني الخان: "لن أريق دماءً هنا، لكنني لن أحتاج إلى ظل شقيقي". بينما كان يتكلم، ضرب بقبضته ذقن أقرب الأشقاء إليه، وجعله يفقد الوعي. جأر الآخرون، ووثبوا عليه وثبة رجل واحد تقريباً. انهمرت الضربات على رأسه وكتفيه وتراجع إلى الخلف، ثم ثبّت قدميه على الأرض وضرب بقوة أحد الوجوه، وشعر بأن الأنف قد انكسر. كان خاسار يستمتع بالقتال مثل أي رجل ترعرع بين أشقاء، لكن التكافؤ كان مستحيلاً وكاد يقع عندما ارتد رأسه إلى الخلف بينما كان يتلقى ضربات قاسية على درعه. كان على الأقل محمياً هناك، وطالما بقي واقفاً على قدميه، يستطيع المراوغة وتفادي لكماتهم بينما يضربهم بكل ما لديه من قوة.

حتى عندما فكّر بالأمر، أمسك به أحدهم من خصره، وأوقعه أرضاً. ركل خاسار بقدميه بقوة، وسمع صرخة عندما كان يحمي رأسه من الأحذية التي تضربه. أين كان كشيون، بحق الأرواح؟ شعر خاسار بالدماء تسيل من أنفه

وشفتيه وكان قد بدأ يتورم. كان رأسه يرنّ من ركلة على أذنه اليمنى. المزيد من ذلك وسيصاب بعاهة دائمة.

شعر خاسار بثقل أحدهم يجثم عليه، ويحاول إبعاد ذراعيه عن وجهه. نظر خاسار عبر فجوة إلى الرجل. تحيّن اللحظة المناسبة ودفع بإبهامه بقوة في عين المهاجم، وبدا أن الضربة كانت موفقة، وتمنّى أن يكون قد جعله كفيفاً. تدحرج ابن ويلا بعيداً يصرخ، واشتدت الركلات.

جاءت صرخة ألم من مكان قريب، وللحظة، أصبح خاسار وحيداً وحاول الوقوف على قدميه. رأى أن غريباً كان قد قفز بين أشقاء ويلا، طرح أحدهم أرضاً وركل آخر بقوة على ركبته. كان القادم الجديد أكثر من فتى بقليل، لكنه يلكم بكل ما أوتي من قوة. ابتسم خاسار له بشفتين متورمتين، لكنه كان يشعر بالدوار ولم يستطع الوقوف.

جاء صوت من خلفه يقول: "أوقفوا هذا!"، وعرف خاسار لحظة أمل قبل أن يدرك أن تيموج لم يصل مع اثني عشر رجلاً لمساعدته. لقد جرى شقيقه الأصغر وحده مباشرة إلى ساحة العراك وأبعد أحد رجال ويلا عنه.

صرخ خاسار، وقلبه يخفق بقوة: "أحضر كشيون". لم يكن تيموج ليفعل شيئاً سوى أن يتعرض للضرب ثم سيكون هناك دم. ربما يقبل جنكيز بشجار يشارك فيه أحد أشقائه، لكن أن يشارك فيه الثاني، فهذا سيعني هجوماً شخصياً على عائلته لا يمكن له تجاهله. بدا خان ويلا غافلاً عن الخطر، وسمعه خاسار يضحك عندما وجه أحد أبنائه ضربة قوية على وجه تيموج، وجعله يجثو على ركبتيه. كان الشقيق الأصغر قد فقد أيضاً أفضلية المفاجأة، ويعاني من سيلٍ من الركلات واللكمات. كان أبناء ويلا يضحكون فيما يتناوبون على الوافدين الجديدين وثار خاسار غضباً لدى سماعه تيموج يصرخ ألماً وإذلالاً، وحاول اتقاء ضرباتهم بينما كان يكافح للوقوف.

جاء صوت آخر عندها، وسلسلة من الضربات القاسية التي جعلت أبناء ويلا

يصرخون ويتراجعون إلى الخلف. استمر خاسار بحماية رأسه على الأرض حتى سمع صوت كشيون، حازماً وغاضباً. كان قد أحضر رجالاً معه، حاملين عصيّهم التي سمع خاسار وقع ضرباتها.

قال كشيون بحدّة لخاسار: "قف، إذا كنت تستطيع يا شقيقي. قل لي من الذي تريده ميتاً". بينما كان خاسار يخفض رأسه، بصق بلغماً أحمر على العشب، ووقف على قدميه بجهد كبير. كان وجهه مليئاً بالكدمات والدماء، وتسمّر خان ويلا مكانه عندما رأى ذلك، وقد تلاشت متعته.

قال الخان بسرعة عندما حدّق كشيون به: "كانت تلك مسألة خاصة. لم يطالب شقيقك باحترام مكانته الرسمية".

نظر كشيون إلى خاسار، الذي هزّ كتفيه استخفافاً، وانكمش من الألم عندما احتج جسده المليء بالكدمات.

كان تيموج أيضاً قد وقف على قدميه، بدا لونه شاحباً بلون الحليب. كانت عيناه باردتين وقد جعله خجله يبدو أكثر غضباً مما رآه خاسار أو كشيون من قبل. انتصب الرجل الثالث متألماً، وأومأ خاسار له شاكراً. كان قد تعرض للضرب أيضاً، لكنه ابتسم بينما كان يضع يديه على ركبتيه ويلهث.

تمتم كشيون لشقيقيه، بصوت يكاد يكون مسموعاً: "توخيا الحذر". كان قد أحضر اثني عشر فقط من أتباعه، وكان ذلك كل ما استطاع القيام به لدى سماعه نبأ العراك. لن يصمدوا سوى لحظات أمام رجال ويلا المسلحين. راقبت عيون قاسية في الحشد المشهد، واستعاد الخان بعضاً من ثقته بنفسه.

وأعلن: "تمت تسوية مسألة الشرف. ليست هناك ضغينة بيننا". استدار إلى خاسار ليرى وقع كلماته عليه. وقف خاسار يبتسم بامتعاض. تسمر كل الواقفين هناك في أماكنهم متحفّزين لدى سماعهم جلبة المحاربين المدرعين. لا يمكن أن يكون سوى جنكيز.

همس كشيون للخان: "ليست هناك ضغينة؟ لا يعود لك تقرير ذلك يا ويلا".

استدارت كل العيون لرؤية جنكيز قادماً. مشى مع أرسلان وخمسة رجال آخرين بكامل دروعهم. كانوا يحملون جميعاً سيوفاً قد شهروها ونظر أبناء ويلا إلى بعضهم بقلق بالغ نتيجة ما فعلوه. كانوا قد تكلموا عن اختبار أحد أشقاء جنكيز، وتم ذلك الجزء بشكل جميل. وحده وصول تيموج كان قد سحبهم إلى مياه أعمق ولم يكن أحدهم يعرف كيف سيتم حل المشكلة.

وصل جنكيز إلى المكان، ووجهه جامد مثل قناع. ألقى نظرة خاطفة على تيموج، وللحظة، ضاقت عيناه الصفراوان لرؤية يدي شقيقه الصغير ترتعشان. تكلم خان ويلا قبل أي شخص آخر.

قال: "لقد تمت تسوية المسألة يا مولاي. كان مجرد لهو، وشجاراً على حصان". ابتلع ريقه بصعوبة. "لا حاجة لأن تقوم بالبت في هذه المسألة".

تجاهله جنكيز وصرخ: "كشيون؟".

سيطر كشيون على غضبه ليجيب بصوت هادئ. "لا أعرف كيف بدأ الأمر. يمكن لخاسار أن يخبرك".

فزع خاسار لدى سماع اسمه. أمعن التفكير بكلماته عندما شاهد جنكيز يحدّق إليه. سيسمع المعسكر كله أخيراً ولا يريد أن يبدو مثل طفل يشتكي إلى والده. ليس إن كان يتوقع أن يقودهم في الحرب بعد ذلك.

قال وهو يصكّ أسنانه: "أنا راضٍ عن دوري بهذا الأمر يا شقيقي. إذا احتجت للمزيد من النقاش مع هؤلاء الرجال، سأفعل ذلك في يوم آخر".

قال جنكيز بحدّة، متفهماً الخطر الكامن في ذلك إضافة إلى أبناء ويلا أنفسهم: "لن تفعل شيئاً. أنا أمنع ذلك".

أحنى خاسار رأسه، وأجاب: "كما تشاء يا مولاي".

نظر جنكيز إلى تيموج، ولاحظ خجله من تعرضه للضرب علانية والذي ترافق مع غضب شديد كان قد أدهش خاسار وكشيون من قبل.

"تحمل علامات أيضاً يا تيموج. لا أصدق أنك كنت جزءاً من ذلك".

أجاب كشيون: "حاول إيقافهم. ضربوه حتى جثا على ركبتيه و...".

صرخ تيموج: "كفى! في الوقت المناسب، سأرد كل ضربة". تورّد خجلاً، وبدا أنه على وشك البكاء مثل طفل. حدّق به جنكيز، واختفى غضبه فجأة. همهم لنفسه، هزّ رأسه، وشق طريقه بخطوات واسعة بين الأشقاء ويلا. كان أحدهم بطيئاً جداً ودفعه جنكيز أرضاً بكتفه، من دون أن يبدو أنه قد شعر بذلك. رفع الخان يديه ملتمساً العذر، لكن جنكيز أمسك به من ردائه وسحبه إليه. عندما سحب سيفه من غمده، سحب محاربو ويلا سيوفهم التي صدر عنها صوت معدني.

صرخ جنكيز بهم بصوت كان قد سُمع في مئة معركة: "توقفوا!". تجاهلوا الأمر، وعندما اقتربوا، رفع جنكيز الخان مثل غرير في قبضته. بضربتين سريعتين، أعمل سيفه عبر فخذي الرجل وأحدث جروحاً بليغة في العضلات.

قال: "إذا كان قد تم إرغام شقيقي على الجثو يا ويلا، فلن تقف مجدداً". كان الخان يصرخ والدماء تسيل على قدميه عندما سقط. قبل أن يستطيع المحاربون الوصول إليه، حدق جنكيز إليهم.

"إذا رأيت سيفاً واحداً مرفوعاً خلال عشر دقات للقلب، لن يعيش رجل أو امرأة أو طفل واحد من ويلا بعد هذا المساء".

تردّد الضباط بين المحاربين، ورفعوا أيديهم لإيقاف الآخرين. وقف جنكيز أمامهم من دون وجل بينما وقع الخان عند قدميه على أحد جانبيه، يئن. كان الأبناء لا يزالون يقفون ساكنين من دون حراك، يتملكهم الرعب مما كانوا قد رأوه. بجهد وإرادة كبيرين، صدرت عن الخان إيماءة جعلت ضباطه يتراجعون. أغمدوا سيوفهم وتبعهم المحاربون، وقد اتسعت عيونهم دهشة. أومأ جنكيز برأسه.

قال: "عندما ننطلق، ستكونون يا أبناء ويلا حراساً لشقيقي". تمتم خاسار موافقاً، ووجهه المتورم خالٍ من أي تعبير: "إذا أردتهم أن يكونوا كذلك".

"إذاً، لقد انتهى هذا. ليس هناك نزاع دم وقد رأيت أن العدالة تحققت".

نظر جنكيز في عيون أشقائه الذين بادلوه إياها بينما كان يعود بخطوات واسعة إلى الخيمة الكبيرة وأعمال ذلك اليوم. ربّت خاسار على كتف الشاب الذي كان قد ساعده، واصطحبه معه بدلاً من تركه يتعرض للضرب مجدداً.

قال خاسار بينما كانوا يمشون: "لقد جاء هذا الرجل لمساعدتي. إنه لا يعرف الخوف يا شقيقي".

للحظة، نظر جنكيز إلى الشاب، ولاحظ افتخاره بنفسه. سأل بفظاظة، وكان لا يزال منزعجاً مما رآه: "ما اسمك؟".

"تسوبودي من يوريانخي يا مولاي".

قال جنكيز: "تعال لرؤيتي عندما ترغب بالحصول على جواد ودرع جيدين". ابتسم تسوبودي، ولكزه خاسار بلطف في كتفه، موافقاً على ذلك. خلفهم، تركوا خان ويلا لترعاه نساؤه. مع مثل تلك الجروح، لن يقف منتصباً أبداً، أو حتى ربما لن يمشي مجدداً.

بينما كان جنكيز وأشقاؤه يمشون بين القبائل المجتمعة في ظل الجبل الأسود، كان الكثيرون ينظرون إليهم برهبة وإعجاب. كان قد أظهر أنه لا يقبل التحدي وتم تحقيق نصر صغير آخر.

شوهدت قبيلة اليوغر بينما كان الصيف ينقضي ومياه الفيضانات من التلال تملأ نهر اونون إلى حافة الطوفان. كانت السهول لا تزال خضراء نضرة والقبّرة تقفز وتطير عندما تتجاوزها عربات اليوغر.

كان عرضاً مؤثراً للقوة، وردّ عليه جنكيز بجعل خمسة آلاف من فرسانه يقفون في صفوف أمام المعسكر الكبير. لم يأتِ لملاقاتهم بنفسه، وكان يعرف أن غيابه سيُعدّ استنكاراً لتأخرهم. اتخذ أبناء ويلا وضعاً حول خاسار عندما مضى للقاء الوافدين الجدد ولم يجرؤ أحد من أبناء الخان على أكثر من التحديق إلى مؤخّر رأسه.

عندما اقترب اليوغر، دنا خاسار من العربة التي كانت تقود الأفعى الداكنة من الناس والحيوانات. جال ببصره على المحاربين ليحكم عليهم. كانوا مسلحين جيداً ويبدون أشدّاء ومتأهبين، على الرغم من أنه كان يعرف أن المظهر قد يكون خادعاً. سيتعلمون التكتيكات التي حققت النصر لجنكيز، أو تكليفهم بنقل الرسائل ضمن الحشد.

كان اليوغر تجار جياد ومعلّمين، وكان خاسار سعيداً لرؤية القطيع الكبير الذي يرافقهم. كانت هناك ثلاثة جياد لكل محارب، وكان يعرف أن المعسكر سيكون مشغولاً خلال الشهر التالي عندما تأتي القبائل الأخرى للمقايضة وتجديد سلالات أنسابها.

عندما ارتفعت يده، اتخذ المحاربون حول عربة القيادة موقفاً دفاعياً، وأياديهم على مقابض سيوفهم. فكّر خاسار أن اليوغر كان لديهم من دون شك إمدادات جيدة من الفلز حتى يحمل ذلك العدد الكبير منهم سيوفاً. ربما ستكون هناك مقايضة بالفولاذ أيضاً. كان لا يزال هناك كثيرون في المعسكر لا يحملون سوى خناجر إلى جانب أقواسهم. نظر خاسار إلى رجل صغير الحجم أشيب الشعر أمام العربة. كان هو من رفع ذراعه لإيقاف القافلة، ورأى خاسار كيف أن المحاربين ينظرون إليه بانتظار الأوامر. على الرغم من أن رداء الرجل كان بسيطاً، إلا أنه كان بالتأكيد خان اليوغر، بارشوك. قرّر خاسار تشريفه بأن يتكلم أولاً.

قال بشكل رسمي: "أهلاً بك في المعسكر يا مولاي. أنتم آخر قبيلة كبيرة تصل، لكن مولاي جنكيز كان قد استلم رسالتك الودّية وخصص مرعى لعائلاتكم".

أومأ الرجل النحيل مستغرقاً في التفكير بينما كان ينظر إلى الفرسان الذين ينتظرون بالتشكيل خلف خاسار.

"أرى أننا آخر الواصلين. لا يمكن أن أصدّق بسهولة أن هناك المزيد من

المحاربين في العالم، نظراً لحجم الحشد في هذا السهل. أنتم أوائل الرجال الذين نراهم منذ أيام عديدة". هزّ رأسه مندهشاً من الفكرة. "سيقدم اليوغر ولاءهم لجنكيز، كما وعدت. دلّنا على مكان ننصب فيه خيامنا وسنتكفل بالباقي".

مقارنة ببعض زعماء القبائل الآخرين، قدّر خاسار فظاظة الرجل، وابتسم. قال: "أنا شقيقه، خاسار. سأدلّك بنفسي".

"تعال اجلس بجانبي إذاً يا خاسار. أنا متعطش للأنباء". ضرب الخان بيده على المقعد الخشبي للعربة، ترجل خاسار، وأرسل جواده إلى الصف الأول من محاربي ويلا بضربة على ردفه.

قال الخان لخاسار الذي صعد ليجلس إلى جانبه: "إذا كنا الأخيرين، ربما لن يطول الأمر قبل أن يصوّب جنكيز هذا السهم العظيم إلى أعدائه". طقطق بارشوك للثور وتحركت العربة متمايلة. شاهد خاسار كيف حافظ محاربو اليوغر على التشكيل حوله وكان سعيداً بذلك. يستطيعون ركوب الجياد على الأقل.

"وحده من يستطيع تحديد ذلك يا مولاي". كانت الكدمات التي سببها له أبناء ويلا على وشك أن تختفي، على الرغم من أنه شعر بأن عيني بارشوك تنظر إليها من دون تعليق. كان المعسكر هادئاً لبعض الوقت بعد رؤية ما حلّ بويلا، لكن مع نهاية الصيف، كان النشاط قد عاد إليه مجدداً؛ وبعد وصول اليوغر آنذاك، اعتقد أن شقيقه سيتحرك خلال بضعة أيام فقط. شعر بأن الإثارة تدبّ فيه عندما خطرت له تلك الفكرة. كانت لديهم القبائل، وسيأخذ منها جنكيز عهود الولاء. بالمحصلة، ستأتي الحرب، وسيرفع وأشقاؤه أقدام تشن عن أعناق شعبهم.

لاحظ بارشوك بينما كان يوجّه العربة حول أكمة في العشب: "تبدو مبتهجاً يا خاسار". كان الرجل العجوز نحيلاً لكن قوياً، وبدت عيناه تشعان ألقاً باستمرار.

"كنت أفكر أننا لم نجتمع أبداً من قبل يا مولاي. كان هناك دائماً عداوة دم،

أو رشوة من تشن لإبقائنا منشغلين بعضنا ببعض". أشار بيده ليدل على كل المعسكر في السهل. "هذا؟ هذا شيء جديد".

تمتم بارشوك، يراقبه عن كثب: "ربما ينتهي بتدمير شعبنا". كشّر خاسار، وتذكر أن كشيون وجنكيز قد أثارا المسألة نفسها وردّد كلماتهما. "نعم، لكن لن يكون هناك واحد منا، سواء أكان رجلاً، أو امرأة أو طفلاً حياً خلال مئة سنة. كل من تراهم هنا سيكونون عظاماً".

شاهد بارشوك يتجهم محتاراً، وتمنّى أن تكون لديه قدرة كشيون على الكلام عندما تابع القول: "ما هدف الحياة إذا لم يكن الانتصار؟ سبي النساء واحتلال الأرض؟ أفضّل أن أكون هنا وأرى ذلك على أن أقضي حياتي بسلام".

أومأ بارشوك برأسه. "أنت فيلسوف يا خاسار".

ضحك خاسار بصوت خافت. "أنت الوحيد الذي يعتقد ذلك. لا، أنا شقيق الخان العظيم وهذا زماننا".

الفصل الثالث

تكلم بارشوك اليوغر طيلة ساعات بينما كانت الشمس تغرب خارج الخيمة الكبيرة. كان جنكيز مفتوناً بمعرفة الرجل وإذا سمع شيئاً لم يفهمه، كان يجعل الخان يعيده مراراً وتكراراً حتى يتضح معناه.

من بين كل الموضوعات، كان كل ما يتعلق بتشن يجعل جنكيز ينحني إلى الأمام في مقعده مثل صقر، وعيناه تشعّان اهتماماً. كان أفراد قبيلة اليوغر قد جاؤوا من أرض بعيدة في الجنوب الغربي، تحدّوا صحراء غوبي ومملكة كزي كزيا. وجد جنكيز متعة بالغة في كل تفصيل استطاع بارشوك تقديمه عن قوافل تشن التجارية، ملابسهم وعاداتهم، والأهم من ذلك كلّه أسلحتهم ودروعهم. كان صحيحاً أن التجار قد لا يكون لديهم أفضل الحرّاس، لكن كل معلومة صغيرة كانت تجري في صحراء مخيلة جنكيز مثل مياه نبع، وتغوص عميقاً.

قال جنكيز عندما توقف بارشوك ليتنحنح برشفة من الشاي: "لقد جلب لك السلام الثروة والطمأنينة. ربما كنت تستطيع التقرب من ملك كزي كزيا والتحالف معه ضدي. هل فكّرت بالأمر؟".

أجاب بارشوك، مخففاً من التوتر بصدقه: "بالطبع. لكن إذا كنت قد منحتك الانطباع بأنني صديقهم، سيكون ذلك شيئاً زائفاً. إنهم يعملون بالتجارة معنا لأن لديهم أسواقاً لجلود النمور الثلجية من الجبال، الخشب القاسي، وحتى بذور نباتات نادرة لتساعدهم في دراستهم للمداواة. بالمقابل، يبيعوننا الحديد الخام، السجاد، الشاي وأحياناً رُقع يكونون قد كتبوا عليها عدّة مرات". توقف قليلاً، وابتسم بمرارة على تجمع الرجال. "أحضروا محفّاتهم وحرّاسهم إلى بلدات اليوغر، لكن كنا نستطيع قراءة الامتعاض في كل وجه، حتى أولئك الذين يدعونهم عبيداً". كانت الذكريات قد جعلت وجهه يستشيط غضباً، ومسح جبينه قبل أن يتابع. "نظراً إلى أنني تعلمت لغتهم، كنت أعرف تماماً أنني لا

أستطيع طلب مساعدتهم. ينبغي أن تراهم لتفهم ذلك يا مولاي. حتى أفراد إمبراطورية تشن يعتبرونهم شعباً منفصلاً، على الرغم من أنهم يشتركون في الكثير من العادات نفسها. إنهم يدفعون جزية لإمبراطور تشن، وعلى الرغم من تمتعهم بحمايته، إلا أنهم يعتبرون أنفسهم منفصلين عن جارهم القوي. إن غطرستهم كبيرة يا مولاي".

انحنى بارشوك إلى الأمام، ومدّ يده ليمس ركبة جنكيز. لم يبدُ أنه لاحظ الطريقة التي انتصب بها الرجال المحيطون بهما.

"كنا نحصل على الفتات منهم طيلة أجيال عديدة يا مولاي، بينما كانوا يحتفظون بأفضل اللحم خلف قلاعهم وأسوارهم".

تمتم جنكيز: "وتودّ رؤيتهم مهزومين".

"أودّ ذلك. كل ما أطلبه هو تسليم مكتباتهم إلى اليوغر لدراستها. إضافة إلى ذلك، كنا قد رأينا جواهر نادرة وحجراً مثل الحليب والنار. إنهم لا يقايضون مثل تلك الأشياء بغض النظر عما نعرضه عليهم مقابلها".

راقب جنكيز الخان عن كثب عندما كان يتكلم. كان بارشوك يعرف أنه ليس له الحق بالمطالبة بغنائم الحرب. لم تكن القبائل تحصل على أموال مقابل القتال وكانت تكسب تقليدياً كل ما تفوز به أو تغنمه. كان بارشوك قد طلب الكثير، لكن جنكيز لم يستطع التفكير بمجموعة أخرى ربما ترغب بالحصول على مكتبات مملكة كزي كزيا. جعلته الفكرة نفسها يرغب بالابتسام.

"تستطيع الحصول على الرُقاع يا بارشوك. أعدك بذلك. أي شيء آخر سيذهب للمنتصرين وسيتم تقديمه بين يدي أب السماء. لا يمكنني منحك أي شيء بشكل خاص".

تراجع بارشوك إلى الخلف، وأحنى رأسه بتردد.

"سيكون ذلك كافياً، مع كل شيء آخر سنأخذه منهم. لقد رأيت أفراد قبيلتي يُساقون على الطريق بجيادهم يا مولاي. كنت قد رأيتهم يتضورون جوعاً فيما

يزداد أفراد مملكة كزي كزيا بدانةً من تناول محاصيل لا يشاركون بها أحداً. لقد أحضرت محاربيّ لأجعلهم يدفعون ثمن غطرستهم، وبلداتنا وحقولنا فارغة خلفنا. أبناء اليوغر معك بخيامهم، جيادهم، ملحهم ودمائهم".

مدّ جنكيز يده، ووثق الرجلان العهد بمصافحة سريعة، أخفت جدّية مثل ذلك الإعلان. انتظرت القبائل خارج الخيمة، وكان جنكيز سيطلب عهداً مماثلاً منها كلها حالما يصبح مستعداً. كان تقديمها في خلوة برهاناً على الدعم الذي لم يكن جنكيز يستخفّ به.

قال: "أطلب منك شيئاً واحداً يا بارشوك، قبل أن نخرج إليهم". توقف بارشوك في وسط الحشد وقد أصبح وجهه جامداً مثل قناع عندما أدرك أن حديثه لم ينتهِ بعد.

قال جنكيز: "كان شقيقي الأصغر قد عبّر عن اهتمامه بالتعلّم. قف يا تيموج بحيث يستطيع رؤيتك". نظر بارشوك إلى الشاب النحيل الذي وقف وانحنى له. ردّ على الإيماءة بخفض رأسه قليلاً قبل أن يستدير إلى جنكيز.

"سيقود كاهني العرّاف كوكشو خطواته في هذا المجال عندما يحين الوقت، لكنني أودّ أن يقرأا ويتعلما كل ما يعتبرانه جديراً بالاهتمام. يتضمن ذلك الرُقاع التي لديك الآن وأي أوراق قد نحصل عليها من أعدائنا".

قال بارشوك: "اليوغر تحت إمرتك يا مولاي". لم يكن ذلك بالشيء الكبير، ولم يفهم لماذا بدا جنكيز محرجاً من إثارة ذلك الموضوع. ابتسم تيموج من خلفه، وأحنى كوكشو رأسه كما لو أنه نال شرفاً عظيماً.

قال جنكيز: "تم الأمر إذاً". كانت عيناه متعبتين، تطرفان في الأضواء التي تم إشعالها في دجنة المساء. "إذا كان أفراد كزي كزيا أثرياء كما تقول، سيكونون أول من يرانا عندما نتحرك. هل يدعمهم أبناء تشن؟".

هزّ بارشوك كتفيه استخفافاً. "لا يمكنني تأكيد ذلك. أراضيهم تحدّ بعضها، لكن أفراد كزي كزيا كانوا دائماً منفصلين في مملكتهم. ربما يحشد أبناء تشن

جيشاً ضدك لمواجهة أي تهديد لاحق. أو ربما يتركونهم يموتون عن آخرهم من دون أن يحركوا ساكناً. لا يستطيع أحد أن يتوقع كيف يفكرون".

هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً.

"لو أنك أخبرتني قبل عشر سنوات أن قبيلة كيريت ستواجه حشداً عظيماً، كنت سأضحك، وأعتبر نفسي محظوظاً لأنني لم أكن في طريق المعركة. أدعوهم الآن إخواني. ليس مهماً أن يقف محاربو تشن ضدنا. إذا فعلوا ذلك، سأحطمهم جميعاً بسرعة. في الحقيقة، أفضّل مواجهتهم جميعاً في سهل على تسلق أسوار مدنهم".

قال بارشوك بهدوء، وشعوره بالإثارة يتصاعد: "حتى المدن تسقط يا مولاي".

رد جنكيز: "وستسقط. سيحدث ذلك في الوقت المناسب. لقد أظهرت لي نقطة ضعف تشن بمحاربي كزي كزيا هؤلاء. سأمزقهم هناك ثم أستخرج قلوبهم من أجسادهم".

رد بارشوك: "لي الشرف بأن أخدمك يا مولاي". وقف وانحنى، وبقي على تلك الحال حتى أشار له جنكيز بأن ينتصب في وقفته.

قال جنكيز، وهو يقف ويتمطّى: "لقد اجتمعت القبائل. إذا كان علينا عبور الصحراء، سنحتاج إلى الماء والعلف لجيادنا. حالما أتلقى العهود، لن يكون هناك ما يجعلنا نبقى في هذا المكان". توقف عن الكلام لحظة.

"جئنا إلى هنا كقبائل يا بارشوك. سنغادر كأمة. إذا كنت تسجل الأحداث في تلك الرُقاع كما وصفت، تأكد من كتابة ذلك".

تألقت عينا بارشوك، مفتوناً بالرجل الذي يقود الحشد العظيم.

"سأحرص على فعل ذلك يا مولاي. سأعلم الكتابة لكاهنك العراف وشقيقك حتى يستطيعا قراءتها لك".

طرفت عينا جنكيز دهشة، وتخيل صورة شقيقه يكرر كلمات مكتوبة على جلود عجول مدبوغة.

قال: "سيكون مثيراً للاهتمام رؤية مثل ذلك الشيء". أمسك بارشوك من كتفه، ومنحه شرف مغادرة الخيمة برفقته، والقادة يسيرون خلفهما. في الخارج، استطاعوا سماع الهمس بين القبائل المجتمعة التي تنتظر الرجل الذي سيقودها.

حتى في ظلمة الصيف، كان المخيم يشع بلون أصفر تحت النجوم، تضيئه عشرة آلاف شعلة ترفرف في الهواء. كان قد تم إخلاء الوسط على شكل حلقة واسعة حول خيمة جنكيز، وكان المحاربون من مئة قبيلة قد تركوا عائلاتهم للوقوف معاً تحت الضوء المتقطع. من رجل إلى الذي يقف بجانبه، كانت دروعهم مصنوعة من الجلد القاسي أو قطع أنيقة من الحديد المنسوخة عن دروع تشن. حمل بعضهم وَشمَ قبائلهم، بينما كان معظمهم خالين من أي علامة مميزة، وكان ذلك يدل على أنهم جدد، وأنه لا توجد سوى قبيلة واحدة تحت السماء. كان العديد منهم يحملون سيوفاً جديدة، خرجت من الكير التي كانت تعمل ليلاً ونهاراً منذ مجيئهم إلى السهل. قام رجال يتعرقون تحت الشمس بتجهيز حفر كبيرة، ونقلوا الفلز إلى اللهب، وراقبوا بمتعة بينما كان الحدّادون يصنعون أسلحة يمكنهم حملها. كان أكثر من رجل قد أحرق أصابعه لأنه مسّها قبل أن تبرد تماماً، لكن لم يسبق لهم أبداً أن حلموا باقتناء سيف طويل ولم يمانعوا ذلك.

كانت الرياح تعصف بالسهل دائماً، لكن النسيم ذلك المساء كان عليلاً بينما كانوا ينتظرون جنكيز.

عندما جاء، نزل بارشوك اليوغر على درجات العربة، ووقف في الصف الأول حول إطارات الخشب والحديد. وقف جنكيز للحظة، ينظر من فوق رؤوس الحشد سعيداً بحجمه. نزل أشقاؤه، وأرسلان، وجيلم وأخيراً كوكشو من العربة، وتوقف كل منهم قليلاً لينظر إلى الصفوف التي تمتد بعيداً تحت الضوء.

أصبح جنكيز وحيداً، وأغلق عينيه للحظة. شكر أب السماء لأنه أحضره إلى ذلك المكان، مع مثل ذلك الجيش الذي سيتبعه. قال كلمات مقتضبة لروح

والده في حال كان الرجل يراه. كان يعرف أن ياسوجي سيكون فخوراً بابنه. كان قد جهّز أرضية جديدة لشعبه، ووحدها الأرواح يمكنها القول أين سينتهي الدرب. عندما فتح عينيه، شاهد أن بورت كانت قد أحضرت أبناءه الأربعة ليقفوا في الصف الأول، وكان ثلاثة منهم أصغر من أن يُتركوا لوحدهم. أومأ جنكيز بحدّة لهم، وتوقف بصره عند أكبرهم جوشي، وتشاغاتي الذي كان قد أطلق عليه اسم عرّاف الذئاب. بعمر التاسعة تقريباً، كان جوشي يخاف والده وقد خفض بصره فيما حدّق تشاغاتي به، وكان قلقه واضحاً.

صرخ جنكيز: "جئنا إلى هنا من مئة قبيلة مختلفة". أراد أن يصل صوته بعيداً، لكن حتى حنجرة مدرّبة في ساحة المعركة لا يمكن أن تدفع الصوت إلى أقصى حدود ذلك الحشد. ينبغي بأولئك الذين لا يستطيعون سماعه الانتباه إلى الذين يستطيعون ذلك.

"لقد أحضرت الذئاب، وأولخونوت، وكيريت إلى هذا السهل. لقد أحضرت ميركيت، وجاجيرات، واويرات، والنيمنز. كانت قبائل ويلا، وتوفان، واليوغر، ويوريانخي قد جاءت إلى هنا". عندما كان يقول اسم كل مجموعة، كان يعلو الهتاف من حيث تجلس. لاحظ كيف أنهم بقوا معاً حتى في تلك الليلة. لن يكون استيعاب أولئك الذين يعتبرون الانتماء للقبيلة فوق كل اعتبار آخر سهلاً. لم يكن ذلك مهماً، كما قال لنفسه. سيجعل أبصارهم تشمخ عالياً. كانت ذاكرته قوية عندما أخذ يلفظ اسم كل قبيلة كانت قد قطعت مسافة طويلة للانضمام إليه في ظل الجبل الأسود. لم يترك أحداً، وكان يعرف أن إغفال أي اسم سيكون ملحوظاً وسيتذكره الجميع.

تابع: "علاوة على ذلك، كنت قد استدعيت أولئك الذين لا قبيلة لهم، لكن لا يزال لديهم كرامة، واستجابوا لنداء الدم. لقد جاؤوا ليكونوا برعايتنا. وأقول لكم جميعاً، ليست هناك قبائل تحت أب السماء. هناك أمة مغولية واحدة وقد تجمّعت هذه الليلة، في هذا المكان".

هتف بعض أولئك الذين كانوا يستمعون، بينما بقيت وجوه آخرين قاسية مثل الحجر. حافظ جنكيز على قناع المحارب في كل ملامحه. كان بحاجة لأن يفهموا أن لا انتقاص في الكرامة في ما يطلبه.

"نحن إخوان بالدم، وقد بقينا منفصلين لوقت أطول كثيراً مما يعرفه أي شخص هنا. أقول إن هناك عائلة كبيرة من كل القبائل، وصلة دم بينكم جميعاً. أدعوكم يا إخواني إلى رايتي، وسنمضي قدماً عائلة واحدة، أمة واحدة". توقف قليلاً، ليحكم على رد الفعل. كانوا قد سمعوا الفكرة من قبل والتي تم تناقلها همساً في التجمع من قبيلة إلى أخرى. على الرغم من ذلك، أدهشهم سماعها منه. لم يهتف أغلبية الرجال وكان عليه أن يثور نوبة غاضب مفاجئة. كانت الأرواح تعرف أنه يحبهم، لكن شعبه كان يثير الغضب أحياناً.

"ستكدّسون غنائم تعادل الجبل الذي خلفكم. سيكون لديكم جياد، وزوجات، وذهب، وزيوت، وطعام. ستحصلون على أرض خاصة بكم، وسيخافكم كل من يسمع باسمكم. سيكون كل رجل هنا خاناً لأولئك الذين ينحنون له".

هتفوا عند سماع ذلك، على الأقل، وخاطر جنكيز برسم ابتسامة صغيرة على وجهه سعيداً بأنه قد عثر على النبرة الصحيحة. سيدع القادة الأقل منزلة يقلقون بشأن طموح أولئك الذين من حولهم، فقد كان يعني كل كلمة مما يقوله.

صرخ بهم: "الصحراء العظيمة إلى الجنوب". عمّ الصمت فوراً، وشعر بأن انتباههم مثل قوة تجذبه. "سنعبرها بسرعة لا تتخيلها ممالك تشن. سننقض على أولها كما تنقض الذئاب على الحملان، وسيتبعثرون أمام سيوفنا وأقواسنا. سأمنحكم ثرواتهم ونساءهم. هناك سأثبّت رايتي، وستهتز الأرض بينما أقوم بذلك. ستعرف أمنا الأرض أن أبناءها وإخوانها قد عثروا على ميراثهم وستكون سعيدة بسماع الرعد في السهول".

تعالى الهتاف مجدداً، ورفع جنكيز ذراعيه طالباً منهم السكوت، على الرغم من أن ذلك أسعده.

"سنتحرك إلى بلد جاف، وسنأخذ كل الماء الذي نحتاج إليه لهجوم واحد مفاجئ. بعد ذلك، لن نتوقف حتى يحدّنا البحر من كل اتجاه. أنا جنكيز الذي يقول هذا وكلمتي حديد".

صرخوا إعجاباً، وأشار جنكيز بإصابعه إلى خاسار، الذي وقف ينتظر على الأرض تحته. رفع خاسار سارية ثقيلة من أغصان البتولا الفضية مربوط إليها ثمانية ذيول جياد. تمتم الحشد عندما رآها. عرف البعض الذيل الأسود الخاص بميركيت أو الأحمر العائد للنيمنز، مربوطة مع الأخرى. كانت كل منها راية خان إحدى القبائل الكبيرة، وكان جنكيز قد جمعها كلها في السهل. بينما كان جنكيز يتناول السارية، رفع إليه خاسار ذيل جواد مصبوغ باللون الأزرق الخاص باليوغر.

ضاقت عينا بارشوك عندما شاهد تلك الرموز القوية، لكن مع الحشد الذي خلفه، كان لا يزال يشعر بالإثارة، ويتطلع قدماً نحو المستقبل. عندما شعر أن عيني جنكيز تقعان عليه، أحنى رأسه.

بأصابع رشيقة، عقد جنكيز طرف ذيل الحصان الأخير مع البقية ووضع قاعدة السارية على الخشب عند قدميه. داعب النسيم الراية الملونة، وتحرّكت الذيول، واهتزّت كما لو أنها حيّة.

صرخ قائلاً: "لقد جمعت الألوان. عندما تتحول إلى اللون الأبيض، لن يكون هناك فروق بيننا. ستكون راية الأمة".

عند قدميه، رفع ضباطه سيوفهم واستجاب الحشد لهم. ارتفعت آلاف الأسلحة نحو السماء، وأومأ جنكيز لهم، متأثراً. تطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى هدأت الضوضاء، على الرغم من أنه رفع يده الحرّة، ولوّح بها في الهواء.

"العهد الذي ستقطعونه مُلزم يا إخواني، إلا أنه ليس أقوى من الدم الذي

يجمعنا الآن. اجثوا لي".

جثت الصفوف الأولى مباشرة، وتبعتها الأخرى مشكّلة أمواجاً بشرية بينما كانت تتابع ما يجري. راقب جنكيز عن كثب بحثاً عن أي تردد، لكنه لم يرَ شيئاً. كان قد امتلكهم جميعاً.

صعد كوكشو الدرجات إلى العربة، ووجهه خالٍ من أي تعبير. في أفضل أحلامه، لم يكن قد تخيل مثل تلك اللحظة. كان تيموج قد مهّد له الطريق، وهنّأ كوكشو نفسه لأن علاقته بالشاب وصلت إلى مرحلة يقدم فيها اقتراحات.

عندما جثت القبائل، استمتع كوكشو بمكانته. تساءل إن كان جنكيز قد فكّر بأنه الوحيد بينهم الذي لم يقطع له عهداً. جثا خاسار، وكشيون، وتيموج على العشب مع الآخرين، والخانات والمحاربون على حدٍّ سواء.

صرخ كوكشو من فوق رؤوسهم وقلبه ينبض إثارة: "بقيادة خان واحد، نحن أمة". عاد صدى الكلمات إليه، وملأت الوادي بأمواج عندما ردّدها أولئك الموجودون في الخلف. "أقدّم الخيام، الجياد، الملح والدم بكل شرف".

أمسك كوكشو بحاجز العربة بينما كانوا ينشدون. بعد تلك الليلة، سيعرفون جميعاً الكاهن العراف للخان العظيم. نظر إلى الأعلى بينما كانت الكلمات تندفع من الأفواه من مسافة بعيدة. تحت تلك السماء الصافية، ستهيم الأرواح بحماس شديد ومتعة كبيرة، ولن يراها أو يشعر بها سوى أولئك الذين يتأثرون بقوة بكلماته. عندما أنشد الآلاف، شعر كوكشو بأنهم يدورون في الهواء وتهلل فرحاً. أخيراً، صمتت القبائل، وأخرج زفيراً طويلاً.

تمتم جنكيز من خلفه: "دورك الآن أيها الكاهن العراف". حدّق كوكشو مندهشاً، قبل أن يخرّ على ركبتيه، ويكرر العهد نفسه.

عندما انضم كوكشو إلى الآخرين حول العربة، سحب جنكيز سيف والده. بالنسبة لأولئك الذين كانوا يستطيعون رؤيته، كانت عيناه تلمعان ارتياحاً.

"انتهى الأمر. نحن أمة وسنمضي قدماً. منذ الليلة، لن يفكر أي رجل بقبيلته

وينتابه الحزن. نحن عائلة كبيرة وستصبح كل الأراضي لنا".

أنزل ذراعه بينما كانوا يصرخون، كشخص واحد هذه المرة. كانت رائحة الضأن المشوي قوية في الهواء العليل، نزل عن العربة ببطء بينما كان المحاربون يستعدون لليلة يتناولون فيها الشراب وما يكفي من الطعام لجعل بطونهم تنتفخ. سيشرع المحاربون السكارى بإنجاب ألف طفل قبل الفجر. فكّر جنكيز في العودة إلى بورت في خيمته، وشعر بانزعاج من فكرة ملاقاة عينيها المليئتين بالاتهام. كانت قد قامت بواجبها نحوه، ولا يمكن لرجل إنكار ذلك، لكن أبوّة جوشي بقيت موضع تساؤل مثل شوكة في جلده.

هزّ رأسه لتنقيته من الأفكار التي لا طائل منها، وتناول قربة من الشراب الأسود من كشيون. الليلة، سيشرب حتى الثمالة، كخان لكل القبائل. في الصباح، سيستعدون لعبور الأراضي الجافة في صحراء غوبي والسير على الدرب الذي كان قد اختاره لهم.

الفصل الرابع

عصفت الرياح حول العربات، وحملت رمالاً ناعمة جعلت الرجال والنساء يبصقون باستمرار، ويفزعون من الرمل في طعامهم. عذّبهم الذباب جميعاً. خلال النهار، كان أفراد قبيلة اليوغر قد علّموهم كيف يحمون وجوههم بالقماش، وأن يتركوا عيونهم فقط مكشوفة حتى يبصروا البراري المقفرة أمامهم، التي تومض من الحرارة. اكتشف أولئك الذين يرتدون دروعاً أن خوذاتهم والقطع التي يضعونها على أعناقهم حارة للغاية ولا يمكن لمسّها، لكنهم لم يشتكوا.

بعد أسبوع، صعد جيش جنكيز سلسلة من التلال البنية لدخول سهل شاسع من الكثبان الرملية. على الرغم من أنهم كانوا قد اصطادوا عند سفوح التلال، إلا أن الصيد أصبح نادراً عندما ارتفعت الحرارة. على الرمال الحارة، كانت الإشارة الوحيدة على الحياة وجود عقارب سوداء صغيرة تهرب بعيداً عن جيادهم وتختفي في حفر. بين الحين والآخر، كانت العربات تغوص في الرمال وينبغي عليهم إخراجها في قيظ حر النهار. كان عملاً شاقاً جداً، لكن كل ساعة تضيع كانت تعني قرب نفاد الماء.

كانوا قد ملأوا آلاف القرب المصنوعة من جلود الماعز، التي تمت دباغتها وتعريضها لشمس قوية. نظراً لعدم وجود مصدر آخر، تراجعت كميات المياه بشكل ملحوظ، ونتيجة الحرارة، تم العثور على العديد من القرب وقد انشقّت بفعل ثقل البقية. كانت معهم قرب تكفي لعشرين يوماً فقط وقد مرّ اثني عشر آنذاك. شرب المحاربون دماء مطياتهم، كل يومين، إضافة إلى بضعة أكواب من الماء الدافئ الأجّاج، لكنهم كانوا قد وصلوا إلى حافة الاحتمال، وأصيبوا بالدوار وفتور الهمة، وكانت شفاههم جافة على وشك أن تنزف.

سار جنكيز مع أشقائه في مقدمة الجيش، يبحثون بأبصارهم عن علامة تدل

على الجبال التي قيل له أن يتوقع وجودها. كان أفراد قبيلة اليوغر قد أوغلوا عميقاً في الصحراء، واعتمد على بارشوك لإرشادهم. تقطب حاجباه عندما فكّر بالحوض المنبسط الذي لا ينتهي من الأمواج الصفراء والسوداء، التي تمتد على كل الطريق إلى الأفق. كانت حرارة النهار أسوأ شيء عرفه، لكن بشرته كانت قد أضحت داكنة، وبدت على وجهه خطوط جديدة من الأوساخ والرمال. كان سعيداً تقريباً بالبرد في الليلة الأولى، حتى أضحى قارساً جداً ولم تعد الفراء في الخيام تحمي منه تماماً. كان أفراد قبيلة اليوغر قد علّموا رجال القبائل الأخرى كيف يسخّنون الصخور في النار ثم ينامون على طبقة منها فيما تبرد تدريجياً. ظهرت علامات بنية على ظهور الكثير من المحاربين حيث كانت الحجارة قد أحرقت ملابسهم، لكنهم كانوا يستطيعون التغلب على البرد، إذا نجوا من العطش المستمر، ولن يكون هناك في الصحراء شيء يمكنه إيقافهم عندها. مسح جنكيز فمه بين الحين والآخر بينما كان يقود حصانه، وينقل حصاة بين خدّيه لإبقاء لعابه يسيل.

نظر خلفه بينما كان بارشوك يدفع بجواده إلى جانبه. كان أفراد قبيلة اليوغر قد غطّوا أعين جيادهم بالقماش وكانت الحيوانات تسير عمياء. كان جنكيز قد حاول القيام بالشيء نفسه في ما يخص جياده، لكن الحيوانات التي لم تكن قد اختبرت شيئاً مماثلاً من قبل قاومت وصهلت عند وضع القماش على أعينها حتى تم رفعه، ثم عانت خلال الأيام الحارة. كانت العديد من الحيوانات قد عانت من وجود قشور أوساخ بيضاء مصفرّة على جفونها وكانت بحاجة إلى مراهم مهدّئة إذا استطاعوا الخروج من الصحراء. كانت الحيوانات تتحمل مثلهم، لهذا كان ينبغي تزويدها بحصتها من الماء الثمين. سيراً على الأقدام، كانت الأمة الجديدة ستموت في الصحراء.

أشار بارشوك إلى الأرض، ضرب إحدى يديه بالأخرى، ورفع صوته فوق الرياح التي لا تهدأ. "هل ترى النقاط الزرقاء في الرمل يا مولاي؟".

أومأ جنكيز برأسه، وحرك فمه الجاف حتى يتمكن من الرد. "إنها تشير إلى بداية المرحلة الأخيرة قبل جبال ينشان. يوجد نحاس هناك. كنا قد قايضناه مع مملكة كزي كزيا".

سأل جنكيز بصوت أجش، من دون أن يسمح لآماله بأن تزداد: "ما هي المسافة التي سنقطعها قبل أن نرى تلك الجبال؟".

هزّ بارشوك كتفيه من دون مبالاة مغولية. "لا نعرف بشكل مؤكد، لكن تجاراً من كزي كزيا كانوا لا يزالون نشيطين عندما قابلوا قوافلنا في هذا المكان، ولم تكن جيادهم مغطاة بالغبار. لم يعد المكان بعيداً الآن".

نظر جنكيز إلى الخلف من فوق كتفه على الحشد الصامت للفرسان والعربات. كان قد أحضر ستين ألف محارب إلى الصحراء، ومثل ذلك العدد من زوجاتهم وأولادهم. لم يكن يستطيع رؤية نهاية القافلة التي امتدت إلى الخلف مسافة أميال، وكانت الأشكال تتداخل بعضها مع بعض حتى لم يعد هناك سوى بقع داكنة تتمايل في الحرارة. كان الماء على وشك النفاد تقريباً وسيكون عليهم ذبح القطعان قريباً، وأُخذ اللحم الذي يستطيعون حمله، وتُرِك الباقي على الرمال. تبع بارشوك نظرته وضحك بصوت خافت.

"لقد عانوا يا مولاي، لكن لن يطول الأمر قبل أن نقرع أبواب مملكة كزي كزيا".

تأفف جنكيز مرهقاً. كانت معرفة خان اليوغر قد أحضرتهم إلى هذا المكان المقفر، لكن ليس لديهم سوى كلمته بأن المملكة ثرية وخصبة كما قال. لم يكن مسموحاً لمحاربي اليوغر السفر خلف الجبال التي تحدّ الصحراء إلى الجنوب ولم تكن لدى جنكيز طريقة لوضع خطة هجومه. فكّر بذلك بغضب بينما كان جواده يسحق عقرباً آخر فوق الرمال. كان قد جمعهم كلهم على أمل إيجاد نقطة ضعف في دفاعات محاربي تشن، لكنه كان لا يزال يتساءل كيف سيكون منظر مدينة عظيمة من الحجارة، مرتفعة مثل جبل. بمواجهة مثل ذلك الشيء،

ربما لا يسع فرسانه سوى التحديق بإحباط.

تحول لون الرمال تحت حوافر جواده إلى الأصفر المائل إلى الأخضر بينما كانوا يسيرون، وامتدت شرائط كبيرة من ألوان غريبة بعيداً في كل اتجاه. عندما كانوا يتوقفون لتناول الطعام، كان الأطفال يذرون الرمل في الهواء ويرسمون صوراً بواسطة العصي. لم يكن جنكيز ليشعر بسعادتهم بينما كميات المياه تتناقص وكل ليلة يقضونها تعني الارتعاش برداً على الرغم من الصخور الحارة.

لم يكن هناك شيء يسلي الجيش قبل أن يخلد أفراده إلى النوم. مرتين خلال اثني عشر يوماً، تم استدعاء جنكيز لتسوية نزاع ما بين القبائل لأن الحرارة والعطش يجعلان الأعصاب مشدودة. وفي المرتين، كان قد أعدم الرجال المتورطين في ذلك، وأوضح أنه لن يسمح لأي شيء بأن يهدد السلم في المعسكر. كان يعتبر أنهم قد دخلوا أراضي العدو وإذا لم يستطع الضباط معالجة الشغب، فإن تدخله سيكون قاسياً. كان التهديد كافياً لإبعاد معظم المحاربين حادّي الطباع عن العصيان، لكن حكم شعبه لم يكن سهلاً أبداً من قبل وكان قضاء ساعات طويلة صامتين يجعلهم أكثر عناداً والتعامل معهم أكثر صعوبة.

عندما بزغ فجر اليوم الرابع عشر، وحمل معه الحرارة العالية مرة أخرى، لم يسع جنكيز سوى أن يفزع عندما أبعد عنه بطانياته وبعثر الحجارة تحته ليجمعها خدمه لاستعمالها في الليلة التالية. شعر بأنه متيبس ومتعب، مع طبقة من الرمال الناعمة على جلده والتي جعلته يحك نفسه. عندما تعثر جوشي الصغير به بينما كان يلعب مع أشقائه، صفعه جنكيز بقوة، وأرسله يبكي إلى أمه ملتمساً السلوان منها. كانوا جميعاً حادي الطباع في حرارة الصحراء ووحدها وعود بارشوك بوجود سهل أخضر ونهر في نهاية المطاف هي التي أبقت عيونهم معلقة بالأفق، وتخيلوهما في أذهانهم.

في اليوم السادس عشر، ظهرت تلال سوداء. كان محاربو اليوغر الذين خرجوا مستطلعين قد عادوا يقودون جيادهم خبباً والتي تلهث من الرمل والإجهاد.

حولهم، كانت الأرض خضراء تقريباً مع نحاس وصخور سوداء تبدو مثل نصال حادة. مرة أخرى، رأت العائلات الأشنّة والشيح تتشبث بالحياة في ظل الصخور، وعند الفجر أحضر الصيادون أرانب وجرذان برية علقت في شراكهم الليلية. ارتفعت معنويات العائلات كثيراً، لكنها كانت تعاني كلها من العطش وتقرّح العيون لهذا بقيت الأعصاب مشدودة في المعسكر. على الرغم من تعبهم، زاد جنكيز الدوريات حول القوة الرئيسية وجعل الرجال يتدربون باستعمال الأقواس والسيوف. كانت بشرة المحاربين قد أصبحت داكنة وأصابهم الإرهاق من الصحراء، لكنهم اندفعوا للعمل بقدرة كبيرة على الاحتمال، وقد عقد كل رجل منهم العزم على عدم الفشل تحت عيون الخان العظيم. ببطء، ازدادت سرعة القافلة بشكل غير محسوس مرة أخرى، بينما تم دفع العربات الثقيلة إلى مؤخر الركب.

عندما اقتربوا من التلال، شاهد جنكيز أنهم في مكان أعلى مما كان يتخيل. كانت التلال تتشكل من الصخور السوداء نفسها التي تنتشر في الرمال حولها، وكانت حادة وشديدة الانحدار. لم يكن تسلقها ممكناً، وكان يعرف أنه لا بد من وجود ممر بين القمم وإلا سيكون مرغماً على السير حول قاعدتها. مع نفاد كميات المياه التي يحملونها تقريباً، أضحت العربات أخف وزناً، لكنه كان يعرف أن عليهم العثور على وادي بارشوك بسرعة وإلا سيواجهون خطر الموت. كانت القبائل قد قبلت به خاناً، لكن إذا كان قد أحضرهم إلى مكان حار يتربصهم فيه الموت، وتسبب بمقتلهم، فسيثورون فيما لا تزال لديهم قوة. قاد جنكيز جواده منتصباً على سرجه، فمه مليء بالتقرحات. أما في الخلف، فكانت القبائل تتذمر بتجهم.

جال كشيون وخاسار ببصرهما عبر الهواء الحار عند قاعدة الصخور شديدة الانحدار. مع اثنين من المستطلعين، كانوا قد ساروا أمام الجيش الرئيسي بحثاً عن ممر. كان المستطلعان رجلين خبيرين وقد التقطت العينان الحادتان

لأحدهما ما يمكن أن يكون ممراً بين القمم. بدا الطريق جيداً تماماً لأن المنحدر الصخري كان يتصل بوادٍ ضيقٍ ترددت في جنباته أصداء وقع حوافر جياد الفرسان الأربعة. على كلا الجانبين، كانت الصخور تمتد عالياً نحو السماء، ترتفع إلى مسافة لا يمكن لأي رجل أن يتسلقها، ناهيك عن العربات والجياد. لم يكن الأمر يتطلب مهارة خاصة بتقفي الآثار لملاحظة أن الأرض ممهدة جيدة ودفعت المجموعة الصغيرة جيادها للسير خبباً، متوقعة العثور على طريق إلى مملكة كزي كزيا خلف التلال.

عندما تقدموا إلى الأمام، ألقى المستطلعان اللجامين اللذين يمسكان بهما مشدوهين، ولزما الصمت. كانت نهاية الوادي مسدودة بسور عظيم من الصخور السوداء نفسها التي تتشكل منها التلال. كانت كل صخرة لوحدها أثقل من أي شيء يمكن للقبائل زحزحته وبدا السور غريباً، وغير صحيح بطريقة ما لأعينهم. لم يكن بينهم حرفيون يعملون على الصخور. بحوافه الأنيقة وسطوحه المصقولة، كان واضحاً أن السور من صنع الإنسان، لكن حجمه الكبير كان شيئاً لم يروا له مثيلاً سوى في الصخور الطبيعية والوديان. عند القاعدة، كان هناك إثبات أخير على أنه ليس شيئاً طبيعياً. كانت هناك بوابة من الحديد الأسود والخشب في قاعدة السور، وتبدو عتيقة وقوية.

قال كشيون وهو يهزّ رأسه: "انظروا إلى حجمها! كيف سنعبر من خلال ذلك الشيء؟".

هزّ المستطلعان كتفيهما ببساطة وصفر خاسار بهدوء.

"سيكون سهلاً إيقاعنا في فخ في هذا المكان الكئيب. ينبغي إخبار جنكيز بسرعة، قبل أن يلحق بنا إلى هنا".

"سيرغب بأن يعرف إن كان يوجد محاربين في الأعلى يا شقيقي. تعرف ذلك".

نظر خاسار إلى الصخور شديدة الانحدار على كلا الجانبين، وشعر بأنه غير حصين فجأة. كان سهلاً أن يتخيل رجالاً يُلقون حجارة من الأعلى ولن تكون

هناك طريقة لتفاديها. فكّر في المستطلعين اللذين رافقاهما إلى الوادي. لقد كانا محاربين في كيريت قبل أن يستولي جنكيز على القبيلة. كانا ينتظران الأوامر من دون أن يظهر عليهما شيء، ويخفيان رهبتهما من حجم السور الذي يقف أمامهما.

قال خاسار لشقيقه: "ربما بنوه فقط لصد جيش من الصحراء. ربما لا يوجد رجال عليه".

بينما كان يتكلم، أشار أحد المستطلعين مما جعل أبصارهم تتجه إلى شكل ضئيل يتحرك أعلى السور. لا يمكن أن يكون سوى جندي، وشعر خاسار بقلبه ينقبض. إن كان هناك ممر آخر فإن بارشوك لم يكن يعرفه، وكان العثور على طريق حول الجبال يعني رؤية جيش جنكيز يتداعى. اتخذ خاسار قراره، وكان يعرف أنه قد يعني خسارة حياة المستطلعين.

قال لهما: "قودا جواديكما إلى قاعدة السور ثم عودا إلى هنا مباشرة". أحنى الرجلان رأسيهما، تبادلا نظرة بوجهين خاليين من أي تعبير. معاً، دفعا عقبي قدميهما على جواديهما وصرخا "تشو!" ليجعلاهما يجريان بسرعة. ارتفع الرمل في الهواء عندما بدأا سباقهما إلى قاعدة السور الأسود، وراقب خاسار وكشيون ما يجري بعيون تكافح وهج الشمس.

سأل كشيون: "هل تعتقد أنهما سيصلان إليه؟". هزّ خاسار كتفيه من دون أن ينبس ببنت شفة، مشغولاً تماماً بمشاهدة السور.

اعتقد كشيون أنه شاهد إشارة حادة من الحارس البعيد. كان لدى المستطلعين إحساس بعدم السير معاً، وأبقيا على مسافة بينهما بينما كان جواداهما يعدوان بأقصى سرعتهما، ويغيران اتجاهيهما يميناً ويساراً لتفادي إصابتهما من أي رماة سهام. لوقت طويل، لم يكن هناك صوت سوى صدى حوافر الجوادين، وراقب الشقيقان ما يجري بأنفاس محبوسة.

أطلق كشيون لعنة عندما ظهر صف من رماة السهام على السور. قال وهو

يصك أسنانه: "عودا". اندفعت نقاط داكنة إلى الأسفل على المستطلعين اللذين يقودان جواديهما بسرعة كبيرة، وشاهد كشيون أحدهما ينحرف بتهور عندما وصل إلى البوابة الكبيرة. استطاعا رؤيته يضرب بقبضته على الخشب بينما كان يوجه جواده للعودة، لكن الرماة كانوا يطلقون أمواجاً من السهام، وبعد لحظة، كان قد أُصيب وجواده باثني عشر سهماً. صرخ الرجل المحتضر، وبدأ جواده رحلة العودة، وكانت تزل وتتعثر كلما أصابها سهم جديد. وقعا أخيراً معاً تقريباً، واستلقيا من دون حراك على الرمل.

كان المستطلع الثاني أوفر حظاً، على الرغم من أنه لم يمس السور. لوقت قصير، بدا كما لو أن بوسعه الهروب من السهام، وصرخ خاسار وكشيون به. ثم اهتز في السرج ورفع جواده قائمتيه الأماميتين وانهار، وأخذت قوائمه تركل في الهواء بينما كان يتدحرج فوق فارسه.

استطاع الجواد الوقوف على قوائمه، وعاد مترنحاً إلى الشقيقين، وترك المستطلع جثة هامدة على الأرض خلفه.

ترجل خاسار، وأمسك باللجام. كانت قائمتاه مكسورتين ولم يكن ممكناً امتطاء الجواد مجدداً. بصمت، ربط خاسار اللجام إلى سرجه. لم يكن ليترك الحيوان خلفه مع وجود أفواه كثيرة ينبغي إطعامها في المعسكر.

تمتم خاسار: "حصلنا على الجواب يا شقيقي، على الرغم من أنه لم يكن ما أردته. كيف سنتمكّن من العبور؟".

هزّ كشيون رأسه. قال، وهو يلقي نظرة إلى الخلف إلى الصف الداكن من رماة السهام الذين يراقبونهما: "سنجد طريقاً". رفع بعضهم أذرعهم، على الرغم من أنه لم يكن يعرف إن كان ذلك يعني السخرية منهم أو توديعهم. "حتى وإن كان علينا تحطيمه، صخرة بعد أخرى".

حالما شوهد خاسار وكشيون عائدين يمتطيان حصانيهما لوحدهما، تأهبت قوات جنكيز تحسباً لوجود أحد في أعقابهما. قبل أن يصلا إلى الصفوف

الخارجية للمحاربين الذين يمتطون جيادهم، كان الشقيقان قد تجاوزا مجموعات المناوشة التي بقيت تحدق إلى الجبال التي تركوها خلفهم. كان جنكيز وضباطه قد تعلموا دروساً قاسية في سنوات تحويل القبائل إلى جيش واحد وتسابق الفتية على جيادهم بأقصى سرعة أمامهم لإخباره بقدومهما.

لم يرد أي من الرجلين على أولئك الذين نادوهما. متجهمين وصامتين، قادا حصانيهما إلى خيمة شقيقهما، التي تجثم مثل بزّاقة بيضاء على عربتها. عندما وصلا إليها، ترجل خاسار عن جواده قفزاً، ونظر إلى الرجل الذي تقدم متجهماً ليمسك اللجام.

قال محيياً إياه وقد أرغم نفسه على الابتسام: "تسوبودي". بدا المحارب الشاب متوتراً، وتذكر خاسار أنه كان قد تلقى وعداً بالحصول على درع وحصان جيد. فكشّر من التوقيت.

"لدينا أشياء عديدة نناقشها مع الخان. طالب بحصانك في وقت آخر".

ظهرت خيبة الأمل على وجه تسوبودي، وتأفف خاسار، وأمسك به من كتفه بينما كان يستدير مبتعداً. تذكر شجاعة الفتى عندما قفز بين أبناء ويلا. كان صنيعاً يمكن أن يجازيه عليه.

"ربما تحين اللحظة المناسبة عندما ننتهي مما نحن فيه. تعال معي إذا كنت تستطيع البقاء صامتاً". استعاد تسوبودي ابتسامته خلال لحظة، والتي امتزجت بالقلق من لقاء الخان العظيم نفسه. بفم جاف، صعد درجات العربة وتبع الشقيقين إلى الظل الداخلي.

كان جنكيز مستعداً لهما، ومراسله الشاب لا يزال يلهث إلى جانبه.

سأل بعد أن لاحظ تعبيرات وجهيهما الجادة: "أين المستطلعان؟".

"قتلا يا شقيقي. والممر محروس بسور من الصخور السوداء بارتفاع مئة خيمة، وربما أكثر".

أضاف كشيون: "شاهدنا ربما خمسين من رماة السهام هناك. ليسوا ماهرين

جداً، كما نعرف الآن، لكن لا يمكن تجاوزهم بسهولة. يقع السور في نهاية ممر ضيق، وهو درب بين جانبين صخريين شديدي الانحدار. لم أشاهد طريقاً للالتفاف عليه".

عبس جنكيز، ونهض من مقعده. أصدر صوت طقطقة من حنجرته بينما كان يمشي عبر الخيمة ويتجاوزهما إلى الشمس الساطعة. تبعه خاسار وكشيون، ولم يلاحظا تسوبودي الذي مشى في أعقابهما وقد اتسعت عيناه.

وقف جنكيز على الرمل الأزرق المائل للخضرة أسفله، ينظر إلى الأعلى. كان يحمل عصا في يديه وأشار بها، وقام برسم خط على الأرض. قال بحزم: "اشرحوا لي". كان كشيون من أخذ العصا ورسم بضربات أنيقة. راقب خاسار بذهول بينما كان شقيقه يرسم الوادي الذي كان قد رآه قبل بضع ساعات. إلى أحد الجانبين، رسم كشيون نسخة عن البوابة المقوّسة وحكّ جنكيز ذقنه بغضب.

قال متشككاً: "يمكننا تفكيك العربات لصنع دروع خشبية وجعل الرجال يقتربون".

هزّ كشيون رأسه. "سيجعلنا ذلك نقترب من البوابة على الرغم من سهامهم، لكن حالما نصل إلى هناك، يمكنهم إلقاء الحجارة علينا. من ذلك الارتفاع، ستتحطم ألواح الخشب إلى قطع صغيرة".

رفع جنكيز رأسه، وجال ببصره على صفوف العائلات إلى الصحراء الشاسعة الخالية من الأشجار في كل الاتجاهات. لم يكن لديهم شيء يمكنهم الاستفادة منه.

قال: "إذاً، سيكون علينا أن نسحبهم إلى الخارج. انسحاب على مراحل، مع ترك مواد ثمينة في أجساد الموتى. سأبعث برجال يرتدون أفضل الدروع وسينجون من السهام، لكنهم سيتراجعون خوفاً مع الكثير من الصراخ". ابتسم من الفكرة. "سيعلم ذلك محاربينا القليل من التواضع، ربما".

داس كشيون بحذائه على طول حافة الرسم. "ربما ينفعنا أن نعرف متى

يفتحون البوابة، لكن الوادي ملتوٍ. حالما يغيبون عن أنظارنا، لن تكون هناك طريقة لمعرفة متى يخرجون. إذا استطعت وضع فتيين خلف صخرتين على الجانبين، يمكنهما إرسال إشارة لنا، لكن التسلق صعب وليس هناك مخبأ على تلك الصخور. سيتمكنون من رؤيتهما".

قال تسوبودي فجأة: "هل تسمح لي بالكلام يا مولاي؟".

حدّق به خاسار ساخطاً.

"قلت لك أن تلزم الصمت. ألا ترى أن هذا الأمر مهم؟". تحولت أنظار الرجال الثلاثة إلى المحارب الشاب وتورّد خجلاً.

"أنا آسف. فكّرت في طريقة يمكننا من خلالها معرفة متى يخرجون".

سأل جنكيز: "من أنت؟".

ارتعش صوت تسوبودي بينما كان يحني رأسه. "تسوبودي من يوريانخي يا مولاي". أوقع نفسه في ورطة. "من الأمة يا مولاي. أنا...".

رفع جنكيز يداً. "أتذكر. قل لي بماذا تفكر".

بجهد ملحوظ، أخفى تسوبودي توتره وأخبرهم. فاجأه أنهم لم يكونوا قد فكروا بالأمر. بدت نظرة جنكيز على وجه الخصوص كأنها تخترقه، وأنهى كلامه يشيح ببصره إلى منتصف المسافة بينهم.

عانى تسوبودي بصمت بينما كان الرجال الثلاثة يفكرون. بعد وقت بدا طويلاً، أومأ جنكيز برأسه.

قال بتحفّظ: "ربما ينفع ذلك". بدا أن ثقة تسوبودي بنفسه قد ازدادت قليلاً.

ابتسم خاسار للمحارب الشاب، كما لو أنه مسؤول عن ذكائه.

قال جنكيز: "انظر في الأمر يا كشيون". ابتسم عندما شاهد زهو تسوبودي بنفسه. "ثم سأذهب لرؤية المكان الذي وصفته". تغير مزاجه عندما فكّر بتحطيم بعض العربات التي كانت قد حملت العائلات عبر الصحراء. نظراً لندرة الخشب، كان الكثير منها قد تم إصلاحه وتناقله عبر الأجيال. لم يكن

هناك نفع منها.

"خذ أول عشر عربات تراها واصنع من خشبها متراساً يمكن حمله ونقله".

لاحظ أن نظرة كشيون قد استقرت على خيمة الخان خلفه وتأفف.

"ابدأ بالعربة التالية التي تراها يا شقيقي. لا تفكر بأن تحصل على عربتي".

تحرك كشيون بسرعة بعيداً ليجمع الرجال والمواد التي سيحتاج إليها. بقي جنكيز بمواجهة المحارب الشاب.

"كنت قد وعدتك بحصان ودرع. ما الذي تريده مني غير ذلك؟".

شحب وجه تسوبودي من الارتباك. لم يكن قد فكر بما سيطلبه من الخان، وإنما أراد فقط حل المشكلة التي تزعجه.

"لا شيء يا مولاي. يكفيني أن أقاتل مع شعبي".

حدّق إليه جنكيز، وحك جانب وجهه. "يتمتع بالشجاعة والذكاء يا خاسار. اجعله يقود عشرة رجال في الهجوم على السور". لمعت عيناه الصفراوان عندما وقع بصره على تسوبودي الذي وقف متسمراً في مكانه من الصدمة.

"سأراقب كيف تقود محاربين أكثر خبرة". توقف قليلاً حتى يستوعب تسوبودي ما يقال له، وأضاف ملاحظة لاذعة ليهز ثقة الشاب المتزايدة. قال: "إذا جعلتهم يفشلون، لن تعيش بعد مغيب شمس ذلك اليوم".

انحنى تسوبودي كثيراً رداً على ذلك من دون أن يؤثر التحذير بقوة في شعوره بالإثارة. همهم جنكيز لنفسه.

"اجعلهم يجلبون حصاني يا خاسار. سأرى هذا السور ورماة السهام الذين يعتقدون أنهم يستطيعون الوقوف في طريقي".

الفصل الخامس

لم يكن لدى مدافعي كزي كزيا أي فكرة عن عدد المغول الذين عبروا الصحراء لمهاجمتهم. على الرغم من أن جنكيز وصل إلى حافة السلسلة الصخرية مع اثني عشر ضابطاً، إلا أنه أبقى الجيش الرئيسي خلفه في الوادي المتعرج. كان قد قرر عدم إرسال متسلقين للصعود على قمة السفوح الشديدة الانحدار. اعتمدت الخطة على أن المدافعين سيعتقدون أن المهاجمين رعاة بسطاء. كان وجود المراقبين على القمم سيعني بعض الذكاء في التخطيط على الأقل، ويجعل جنود الحصن يشتبهون بالأمر. عض جنكيز على شفته السفلى بينما كان ينظر إلى حصن كزي كزيا. تجمع رماة السهام مثل النمل على السور، وبين الفينة والأخرى كان أحدهم يطلق سهماً عالياً في الهواء ليحدد المدى الذي يمكن أن يصل إليه في أي هجوم قد يقع عليهم. شاهد جنكيز آخر السهام يغوص في الأرض على بعد اثنتي عشرة خطوة أمامه. كان باستطاعة رجاله إطلاق سهامهم إلى أبعد من ذلك، وبصق باستخفاف باتجاه رماة سهام العدو.

كان الهواء ثقيلاً وساكناً في الوادي الذي لا تهب رياح فيه. كانت حرارة الصحراء لا تزال مرتفعة عندما ترتفع الشمس فوق الرؤوس وتجعل ظلالهم صغيرة جداً. لمس سيف والده طلباً للحظ، ثم أدار جواده في مكانه، وقاده عائداً إلى حيث كان مئة محارب ينتظرونه.

كانوا صامتين، كما أمرهم، لكن الإثارة كانت بادية للعيان على وجوههم الشابة. مثل كل المغول، كانوا يستسيغون فكرة خداع العدو أكثر حتى من التغلب عليه بالقوة.

قال خاسار من وراء كتفه: "تم بناء المتراس الخشبي. إنه قاسٍ، لكنه سيوصلهم إلى قاعدة السور. زوّدتهم بمطارق حديدية ليحاولوا كسر البوابة. من يعرف، ربما يخترقونها".

قال جنكيز: "إذا حدث ذلك، اجعل مئة آخرين مستعدين للهجوم دعماً لهم". استدار إلى كشيون، الذي يقف قريباً للإشراف على التفاصيل الأخيرة. "أبقِ الآخرين في الخلف يا كشيون. سيكون القضاء عليهم سهلاً فيما لن يتمكن سوى عدد قليل من تسلق السور. لا أريدهم أن يركضوا على غير هدى".

رد كشيون: "سأضع أرسلان على رأس المجموعة الثانية". كان خياراً جيداً، وأومأ جنكيز موافقاً. كان الحدّاد يستطيع اتّباع الأوامر في عاصفة من السهام.

خلفهم، بدا أن السور يخيم عليهم على الرغم من أنهم لم يكونوا يستطيعون رؤيته بشكل مباشر. لم تكن لدى جنكيز أي فكرة عما يقع خلف الحجارة الداكنة، أو عدد الرجال الذين يدافعون عن الممر. لم يكن ذلك مهماً. في أقل من يومين، ستصبح آخر قُرب الماء فارغة. ستبدأ القبائل بالتداعي بعد ذلك، وتموت من العطش وطموحاته. ينبغي أن يتم إسقاط الحصن.

كان العديد من الرجال يحملون سيوفاً ورماحاً جميلة لتركها على الرمل، وأي شيء يلفت نظر المدافعين ويجعلهم يخرجون للحصول عليه. كانوا جميعاً من دون استثناء يرتدون أفضل الدروع التي كانت نسخاً عن دروع محاربي تشن. في الحرارة، كانت القطع المعدنية بسماكة إصبع تلسع الجلد العاري، وكانت الملابس الحريرية تحتها سرعان ما تبلى من العرق. تجرعوا الماء من القرب التي كاد ينفد ما بداخلها. كان جنكيز قد ألغى حصص الماء للرجال الذين كانوا على وشك المخاطرة بحياتهم.

قال خاسار مقاطعاً أفكاره: "لقد قمنا بكل ما نستطيع يا شقيقي". راقب كلا الرجلين عندما ظهر كوكشو بين المحاربين، ينثر الماء الثمين فوقهم وينشد. أحنى الكثير من الرجال رؤوسهم لتلقي بركته وتقطب حاجبا جنكيز. تخيل تيموج يقوم بالشيء نفسه في المستقبل ولم يجد مجداً في ذلك.

تمتم جنكيز: "ينبغي أن أكون بين المحاربين".

سمع كشيون وهزّ رأسه. "لا يمكن لأحد أن يراك تهرب من أي شيء يا

شقيقي. قد لا تنجح الخطة وتثور علينا القبائل. لا يمكن رؤيتك كجبان ونصف الجيش لا يعرف الخطة هنا بعد. يكفيهم أن يروك تراقب ما يجري. لقد اخترت أكثرهم رباطة للجأش وشجاعة. سيتبعون الأوامر".

رد جنكيز: "يجدر بهم ذلك".

افترق شقيقاه لإفساح المجال أمام مجموعة الهجوم والمتراس الخشبي العريض. حمله الرجال فوق رؤوسهم بفخر وازداد التوتر بصمت.

قال جنكيز لهم: "أودّ رؤية هذا السور يسقط. إن لم يكن ذلك باستعمال السيوف والمطارق، ليكن ذلك بالخداع. سيموت بعضكم، لكن أب السماء يحب روح المحارب، وستكون موضع ترحيب. ستفتحون طريقاً إلى مملكة جميلة في الخلف. لتصدح الطبول والأبواق. لنجعلهم يسمعون ويقلقون في حصنهم الثمين. ليحمل الصوت الرعب إلى قلوب محاربي كزي كزيا وحتى إلى قلوب محاربي تشن في مدنهم".

سحب المحاربون أنفاساً عميقة، وجهّزوا أنفسهم للجري بأقصى سرعة. من بعيد، أطلق طائر صوتاً حاداً من ارتفاع عالٍ في الجو الحار فوق التلال. هتف كوكشو إن ذلك فأل خير، ونظر معظم الرجال إلى الأعلى نحو الطائر الأزرق فوق رؤوسهم. بدأ اثنا عشر طبّالاً قرع أنغام الحرب وحفّزهم الصوت المألوف جميعاً، وجعل قلوبهم تخفق بسرعة. أشار جنكيز بيده، وجأر الجيش، وصدحت الأبواق. مشت المجموعة الأولى إلى حيث يمكنها دخول الوادي ثم تسارعت خطواتها، مطلقة صرخات تحدٍّ بأصوات خشنة. تُردّد في الأنحاء صرخات تحذير من الحصن.

قال جنكيز وهو يشد يده ويفلتها عن قبضة سيفه: "سنرى الآن".

تحطمت أصوات المحاربين على جانبي الممر بينما كانوا يندفعون عبره. كانوا يعانون من ثقل المتراس فوق رؤوسهم، وقد تشوشت رؤيتهم من العرق. أثبت المتراس أنه يستحق العناء خلال لحظات بعد أن تلقى سهاماً سوداء يهتز ريشها

الملون. كان رماة السهام منضبطين، كما لاحظ جنكيز، يطلقون معاً بعد إصدار أمر لهم. كانت رمية أو اثنتان محظوظتين وفي الوقت الذي وصل فيه المتراس إلى السور، كانت هناك ثلاثة أجساد تستلقي من دون حراك ووجوهها في الرمل.

ملأ دوي مكتوم الممر عندما هاجم رجال المطارق البوابة في السور. احتشد رماة السهام فوق، وانحنوا لإرسال سهامهم إلى الأسفل على المجموعة الصغيرة. صرخ الرجال وتراجعوا عن حافة المتراس الخشبي، وأجسادهم تهتز بينما كانت تتلقى السهم تلو الآخر.

أطلق جنكيز لعنة في قرارة نفسه، وشاهد صخوراً ثقيلة تُرفع إلى حاجز السور. كان قد ناقش ذلك الاحتمال مع قادته، لكنه فزع على الرغم من ذلك عندما رفع ضابط يرتدي خوذة عليها ريش ذراعه وصرخ بأمر. بدا أن الصخرة الأولى تقع لوقت طويل وسمع جنكيز طقطقة عندما دفعت أولئك الموجودين في الأسفل للجثو على ركبهم. بينما كانوا يكافحون للوقوف، ضرب رجال المطارق بقوة أكبر، وكانت ضرباتهم بسرعة ضربات الطبّالين الذين تركوهم خلفهم.

وقعت صخرتان أخريان قبل أن ينكسر المتراس الخشبي. تم إلقاء المطارق على الرمل، وصعدت صرخة رعب كبيرة عندما وجد رماة السهام المتواجدون فوق أهدافاً جديدة. شدّ جنكيز قبضتيه بينما كان يشاهد رجاله يتبعثرون. كانت البوابة في السور قد صمدت، ولم يكن بوسعهم فعل شيء سوى هزّ أسلحتهم بغضب على العدو فوق رؤوسهم. سقط رجل تلو الآخر، ومن دون سابق إنذار، اندفعوا عائدين عبر الممر وكل منهم يسابق الآخرين بيأس.

بينما كانوا يركضون، سقط المزيد منهم صرعى نتيجة موجات السهام التي أصابتهم. تمكن أكثر من اثني عشر رجلاً بقليل من الابتعاد عن مرمى السهام، وضعوا أياديهم على ركبهم وهم يلهثون. خلفهم، كان الممر مليئاً بكل شيء تركوه في أثناء الانسحاب، وكانت الجثث محددة بالسهام التي تبرز منها.

مشى جنكيز ببطء إلى وسط الممر، يحدّق بالمدافعين المبتهجين. استطاع سماع هتافهم وكان صعباً أن يدير ظهره لهم. عندما فعل ذلك، زادت حدّة الصوت ومشى بصلابة مبتعداً حتى وصل إلى مكان كان يعرف أنهم لا يستطيعون رؤيته فيه.

على أعلى نقطة في السور، شاهده ليو كين يذهب، وخفف ارتياحه من تعبير وجهه الجامد الذي أظهره للجنود من حوله. كانوا يبتسمون علانية ويربتون على ظهور بعضهم كما لو أنهم أحرزوا نصراً عظيماً. شعر بأنه يفقد أعصابه من غبائهم.

قال بحدّة: "غيروا الفريق، وأحضروا خمس مجموعات من رماة سهام جدد إلى هنا". اختفت الابتسامات. "لقد خسرنا ألف سهم في الممر، لهذا تأكدوا من ملء كل كنانة مرة أخرى. امنحوا كل رجل كوباً من الماء".

وضع ليو يديه على الحجر العتيق، ونظر إلى الممر. كانوا قد قتلوا كل أولئك الذين جاؤوا إلى الجبال تقريباً، وكان مسروراً من رماة السهام. سجل ملاحظة لتهنئة الضابط المسؤول عن السور. كانت أصوات المطارق قد أقلقته، لكن البوابة صمدت. ابتسم ليو كين بتحفظ. لو لم تكن قد صمدت، كان المغول سيدخلون مباشرة في بناء عالي الأسوار مع رماة سهام إلى كلا الجانبين فوقهم. كان الحصن مصمماً بشكل جميل وكان سعيداً أن مدة خدمته لم تنتهِ قبل أن يشهد اختبار تشييده.

تقطب حاجباه لرؤية قطع الخشب المكسورة على الأرض. كان كل ما قيل له عن القبائل يوحي بأنهم إذا جاؤوا، سيهاجمون مثل حيوانات برية. كان المتراس يدل على تخطيط بارع وقد أزعجه ذلك. سيتأكد من ذكر ذلك في تقريره لحاكم الإقليم، وسيترك له قرار الرد بأفضل ما يمكن على ذلك. استغرق ليو في تأملاته بينما كان ينظر إلى الأسفل إلى الموتى المبعثرين. لم يكونوا قد استعملوا الصخور من قبل، وكان معظمها مغطى بالطحالب منذ سنوات عندما تم وضعها على

السور لاستعمالها عند الحاجة. كان ينبغي سد النقص بالحصول على صخور أخرى من المخازن، على الرغم من أن هناك موظفين لذلك النوع من النشاط العادي. فكر بأن ذلك هو الوقت الذي يقومون فيه بما هو أكثر من توزيع الطعام والماء للرجال.

استدار ليو على وقع خفٍّ يصعد الدرج إلى السور. كان تشن تي إدارياً أكثر منه جندياً، وأسند ليو نفسه للإجابة عن أسئلته التافهة. كان الصعود على الدرج إلى السور قد ترك الرجل البدين يلهث، لهذا كان على ليو أن ينظر بعيداً بدلاً من مراقبة ضعف قائده. انتظر من دون كلام بينما كان تشن تي ينضم إليه على السور وينظر إلى الأسفل بعينين لامعتين، وتنفسه لا يزال مجهداً.

قال تشن لي وهو يستعيد أنفاسه: "لقد جعلت الكلاب تهرب".

أمال ليو رأسه بموافقة صامتة. لم يكن قد شاهد القائد خلال الهجوم. لا شك أنه كان يجلس مرتعشاً مع خليلاته في غرفه الخاصة إلى الجانب الآخر من الحصن. بدعابة ساخرة، فكرّ ليو بكلمات سن تزو عن الحرب الدفاعية. كان تشن تي ماهراً بالتأكيد في الاختباء في موضع منعزل من الأرض، لكن فقط لأن ليو متواجد هناك لصد المهاجمين. على الرغم من ذلك، كان يدين بالاحترام لمنزلة الرجل.

"سأترك الجثث حتى آخر النهار يا مولاي، حتى أكون متأكداً أن الأمر ليس خدعة. سأرسل رجالاً لجمع الأسلحة واسترجاع السهام عند الفجر".

نظر تشن تي إلى الجثث في الوادي. كان يرى صناديق ملقاة على الأرض إضافة إلى رمح جميل بطول رجل. كان يعرف أنه إذا ترك الأمر للجنود، سيؤول كل ما هو ثمين إلى مجموعاتهم الخاصة. لمع شيء ما في الرمال الخضراء والذهبية وركّز بصره عليه.

"ستشرف عليهم يا ليو. أرسل رجالاً الآن للتأكد من أن البوابة لم تصب بأضرار. اجعلهم يجلبون لي كل ما هو ثمين لأتفحصه".

أخفى ليو انزعاجه من جشع القائد البدين الظاهر. لم يكن لدى اليوغر أي شيء ثمين من قبل، كما فكر. لم يكن هناك سبب لأن يتوقع العثور على أكثر من بضع قطع من المعدن المصقول التي تركها رجال القبائل البائسون هؤلاء. على الرغم من ذلك، لم يكن نبيلاً، وانحنى قدر ما يستطيع بدرعه الكامل.

"كما تأمر يا مولاي". ترك تشن تي الذي كان لا يزال يحدق إلى الأسفل، وابتسامة باهتة ترتسم على شفتيه البدينتين. طقطق ليو بأصابعه للفت انتباه مجموعة من رماة السهام الذين كانوا يصطفون بالدور لتناول الماء من دلو.

"سأخرج لتعرية الموتى". سحب نفساً عميقاً، مدركاً أنه سمح لمرارته من الأمر المخجل بالظهور. "عودوا إلى مواقعكم واستعدوا لهجوم آخر".

انطلق الرجال مسرعين لتلبية الأمر، وسقط دلو الماء محدثاً رنيناً، ودار كيفما اتفق بينما كانوا يعودون إلى السور. تنهد ليو لنفسه، قبل أن يركز على المهمة بين يديه. لا شك أن محاربي اليوغر سيدفعون ثمن الهجوم غالياً عندما يسمع الملك بما حدث. في أراضي كزي كزيا المسالمة، سيكون الهجوم حديث البلاط، ربما طيلة شهور. سيتم إيقاف التجارة لجيل، وإرسال غارات عقابية ضد كل مستوطنة اليوغر. لم يكن ليو يحب ذلك النوع من الحروب، وفكّر بأن يطلب نقله إلى مدينة ينشوان. كانوا بحاجة دائماً لحرّاس جيدين يتمتعون بالخبرة.

أصدر أوامر حازمة لاثني عشر رمّاحاً بأن يتبعوه، ونزل على الدرجات الباردة إلى البوابة الخارجية. من الداخل، كانت تبدو سليمة لم يؤثر فيها الهجوم، وفي ظل السور أمعن التفكير في مصير كل من يكون أحمق بما يكفي ليحاول تحطيمها. فكّر بأنه لن يودّ أن يكون بينهم. كان معتاداً على التأكد من أن البوابة الداخلية آمنة قبل أن يرفع يده لرفع عارضة الإغلاق. ربما كان سن تزو أعظم مفكّر عسكري أنجبته تشن على الإطلاق، لكنه لم يكن يفكر بالصعوبات التي يمثلها قيام رجال جشعين مثل تشن تي بإصدار الأوامر.

سحب ليو نفساً عميقاً، ودفع الباب ليفتحه، مما سمح بمرور شعاع من ضوء

الشمس. تأهب الرجال خلفه وأومأ لقائدهم.

"أرى أن يبقى رجلان لحراسة البوابة. ليقم الباقون بجمع السهام التي يمكن استعمالها مجدداً وأي شيء آخر قد يكون ثميناً. إذا كانت هناك مشكلة، ألقوا بكل شيء، واركضوا إلى البوابة. لن يكون هناك كلام، ولن يتجاوز أحدكم مسافة خمسين خطوة، حتى إذا كان هناك زمرد بحجم بيض البط في الرمل. ترقبوا أوامري".

حيّاه الجنود معاً، وربت قائدهم على كتفي اثنين منهم ليبقيا متأهبين عند البوابة. أومأ ليو برأسه، ونظر إلى أشعة الشمس في الخارج بينما كانت عيناه تضيقان. لم يكن يتوقع مهارات عالية من الجنود الذين ينتهي بهم الأمر في الحصن. كانوا جميعاً تقريباً قد ارتكبوا أخطاء في الجيش النظامي، أو أغضبوا شخصاً ذا شأن. حتى تشن تي كان قد اقترف خطأ غير معلن في ماضيه السياسي، وكان واثقاً من ذلك على الرغم من أن الرجل البدين لم يكن ليبوح بمكنونات نفسه لجندي عادي، بغض النظر عن مرتبته.

أخرج ليو زفيراً طويلاً وضعيفاً، وتفقد قائمة الدفاعات في ذهنه. كان قد قام بكل ما يستطيع، لكن على الرغم من ذلك كان لا يزال هناك شعور لا يحبه في قرارة نفسه. خطا فوق جثة، ولاحظ أن الرجل يرتدي درعاً شبيهاً تماماً بدرعه. تقطب حاجباه من ذلك. لم يقم اليوغر بنسخ درع تشن من قبل. كان قاسياً، لكن جودته معقولة واكتشف ليو أن شعوره بالاضطراب يزداد.

مستعداً للقفز إلى الخلف، داس بقوة على يد ممتدة. سمع صوت عظم ينكسر، وعندما لم يلاحظ أي حركة، أومأ برأسه، وتقدم لمسافة أطول. كانت أعداد الجثث عند البوابة كبيرة، واستطاع رؤية رجلين ممدّدين والسهام قد اخترقت حنجرتيهما. كانت مطارق ثقيلة قد سقطت قربهما وحمل ليو إحداها، وأسندها على السور حتى يتم أخذها في طريق عودته. كانت مصنوعة بإتقان.

بينما كان يركّز بصره على نهاية الممر، تهللت أسارير رجاله وتوقفوا لالتقاط

الأسلحة من الرمل. بدأ ليو يرتاح قليلاً، وشاهد اثنين منهم ينزعان سهاماً من جثة تشبه النيص (حيوان من القوارض له أشواك كثيرة) لكثرة الضربات التي تلقتها. خطا خارج ظل السور، وفزع من سطوع الشمس المفاجئ. كان هناك صندوقان على بعد ثلاثين خطوة أمامه، وكان يعرف أن تشن تي يراقب ما يجري ليرى إن كان قد عثر على شيء ثمين فيهما. لم يستطع ليو أن يجد سبباً يدفع برجال القبائل على حمل الذهب أو الفضة إلى معركة، لكنه مشى على الرمال الحارة إليهما، ويده مستعدة على سيفه. هل يوجد فيهما أفاعٍ أو عقارب؟ كان قد سمع عن مثل تلك الأشياء التي يتم استعمالها لمهاجمة المدن، على الرغم من أنه كان يتم إلقاؤها في العادة فوق الأسوار. لم يكن رجال القبائل قد جلبوا معهم منجنيقات أو سلالم لاستعمالها في الهجوم.

سحب ليو سيفه، ودفع مقدمة النصل في الرمل، وقلب الصندوق على جانبه. اندفعت عصافير من الصندوق، وطارت إلى الأعلى عندها رمى بنفسه إلى الخلف مصدوماً.

للحظة، وقف ليو وحدّق إلى الطيور، من دون أن يستطيع فهم سبب تركها في تلك الحرارة على الرمل. رفع رأسه ليراقبها تطير ثم أدرك ما يجري واتسعت عيناه رعباً. كانت الطيور الإشارة. وصل صوت قعقعة مكتوم إلى أذنيه، وبدا أن الأرض تهتز تحت قدميه.

صرخ ليو وهو يلوح بسيفه: "عودوا إلى البوابة!". حوله، شاهد أن جنوده يحدّقون به مصدومين، وبعضهم يحمل ملء ذراعيه سهاماً وسيوفاً. جأر ليو مجدداً: "اركضوا! عودوا!". عندما ألقى نظرة خاطفة على الممر، شاهد الصف الداكن الأول من الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها، واستدار إلى البوابة بنفسه. فكّر وذهنه يعمل بسرعة أنه إذا كان الحمقى بطيئين للغاية، لن يكون بمقدورهم إلقاء اللوم سوى على أنفسهم. تباطأ حتى توقف من شدّة خوفه قبل أن يكون قد قطع أكثر من بضع خطوات. حول البوابة، كانت بعض الجثث

تثب من الأرض، والسهام لا تزال معلقة بها. كان أحدهم قد استلقى من دون حراك حتى عندما كسر ليو يده تحت خفّه. ابتلع ليو خوفه من الهدير الذي يزداد خلفه، وبدأ يجري مجدداً. رأى أن الحراس قد بدأوا إغلاق البوابة، لكن واحداً من العدو كان هناك ليدفع ذراعه في الفتحة. صرخ القبلي ألماً عندما انقطعت يده في الداخل، لكن كان هناك آخرون معه ليفتحوها بالقوة ويجعلوها تسقط على المدافعين.

رفع ليو صوته بثورة غضب ولم يرَ أبداً السهم الذي أصابه في مؤخر عنقه. وقع على الرمل، وشعر بوخزه حتى عندما كان الظلام يطبق عليه. كان متأكداً أنه تم إغلاق البوابة الداخلية. كان قد رأى أنه تم إغلاقها خلفه وكانت الفرصة لا تزال سانحة. شوّشت دماؤه أفكاره وتلاشى وقع الحوافر حتى لم يعد يسمع شيئاً.

نهض تسوبودي من حيث كان يستلقي على الرمل. كان السهم الذي أسقطه أرضاً قد تبعه اثنان آخران علقا في درعه. كانت أضلاعه تؤلمه وكل خطوة تعني ألماً جديداً وإحساساً دافئاً بدم يسيل على فخذه. كان الوادي مليئاً بصوت يشبه الرعد بينما كان صف الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها يقترب منهم. نظر تسوبودي إلى الأعلى عندما سمع أقواساً تطن وشاهد سهاماً سوداء تندفع إلى الأسفل. صهل جواد خلفه وشاهد تسوبودي البوابة تُفتح من ضغط الأجساد عليها، وترنح في سيره نحوها.

نظر حوله بحثاً عن الرجال العشرة الذين وضعهم جنكيز تحت إمرته. عرف أربعة من الأشكال التي تندفع نحو البوابة، بينما رقد الآخرون ساكنين في الرمل، ميتين فعلاً. ابتلع تسوبودي ريقه بألم بينما كان يخطو فوق رجل كان يعرفه من يوريانخي.

ازداد صوت الفرسان حتى أضحى قوياً خلفه، وتوقع أن يسقطوه أرضاً. اعتقد بأن جروحه قد جعلته يصاب بالدوار، لأن كل شيء بدا كما لو أنه يجري ببطء

وكان يستطيع سماع أنفاسه المجهدة من فمه المفتوح. أغلقه، غاضباً من الضعف الذي ظهر عليه. أمامه، كان أولئك الذين نجوا من الهجوم يندفعون عبر البوابة وقد شهروا سيوفهم. سمع تسوبودي طقطقة أقواس، تكتمها صخور السور السميكة. كان قد لمح رجالاً يسقطون بينما كانوا يتقدمون، يبصقون على السهام بينما ينظرون إلى الأعلى ويصرخون. في تلك اللحظة، صفا ذهنه، وتنبهت أحاسيسه. كانت السهام لا تزال تضرب الرمل حوله، لكنه تجاهلها. جأر بأمر للتراجع إلى الوراء عندما وصل محاربوه إلى البوابة. كان صوته خشناً، لكن لارتياحه، استجاب الرجال.

قال لهم تسوبودي، مشيراً بيده: "اصنعوا متاريس من الخشب. التقطوا المطارق". سمع جلجلة الدروع عندما قفز الرجال إلى الرمل الذي يحيط به. ترجل خاسار بسرعة وأمسك تسوبودي بذراعه.

"هناك رماة سهام في الداخل. لا يزال بإمكاننا استعمال الخشب المكسور".

اختفت السهام في الرمل حولهم، ولم يبقَ منها سوى ريش أسود. بهدوء، نظر خاسار إلى الأسفل إلى يد تسوبودي مدة كافية لتذكير المحارب الشاب بمكانته. عندما أفلت تسوبودي قبضته، أصدر خاسار الأوامر بسرعة. حمل كل من حولهما قطعاً من المتراس الأصلي ورفعوها فوق رؤوسهم بينما كانوا يندفعون نحو البوابة.

عندما تم حمل المطارق مجدداً، أطلق رماة السهام فوق رؤوسهم على الجزء الواقع بين البوابتين. حتى مع المتراس القاسي، وجدت بعض السهام أهدافاً لها. على الرمل الساخن في الخارج، أمر خاسار بإطلاق أمواج من السهام إلى الأعلى ضد رماة السهام على السور الخارجي، لإبقاء جنود تشن منشغلين وإفساد هدفهم حتى يستطيع الجيش التحرك. عض شفته من الموقع المكشوف، لكنهم كانوا جميعاً عالقين هناك حتى يتم كسر البوابة الداخلية. علت ضربات المطارق المكتومة على صرخات الرجال المحتضرين.

صرخ خاسار بتسوبودي: "ادخل إلى هناك وتأكد أنهم لن يرتاحوا بينما نحن ننتظر". أحنى المحارب الشاب رأسه، وجرى لينضم إلى الرجال.

مرّ تحت ظل إلى ضوء الشمس الساطع، وألقى نظرة خاطفة على صف رماة السهام باردي العيون الذين يطلقون سهماً إثر آخر على نفق القتل.

لم يكن لدى تسوبودي وقت للتواري تحت قطعة من لوح خشبي مكسور. خدش سهم ذراعه بينما كان يفعل ذلك، وأطلق لعنة بصوتٍ عالٍ. عرف فقط واحداً من الرجال العشرة الذي كان لا يزال حياً.

كانت المسافة بين البوابتين قصيرة عمداً ولم يكن أكثر من اثني عشر محارباً يستطيعون الوقوف فيها في وقت واحد. ما عدا أولئك الذين كانوا يحسنون استعمال المطارق بقوة كبيرة، وقف الآخرون مع قطع من الخشب فوق رؤوسهم، مجتمعين معاً بأفضل ما يستطيعون. كانت الأرض لا تزال رملية وقد امتلأت بسهام مكسورة أكثف من الشعر على كلب. على الرغم من ذلك، لقي المزيد من الرجال حتفهم وسمع تسوبودي أوامر بلغة غريبة فوق رأسه. فكّر وهو يكافح خوفه بأنه إذا كانت لديهم حجارة يلقونها عليهم، سيتم سحق الهجوم كله قبل فتح البوابة الداخلية. شعر بأنه محاصر وعالق في فخ. كان الرجل الأقرب إليه قد فقد خوذته في الهجوم. زعق من الألم وسقط وريش سهم يبرز من عنقه والذي كان قد انطلق من فوقه مباشرة تقريباً. التقط تسوبودي قطعة الخشب التي كان يحملها ذلك الرجل ورفعها إلى الأعلى، وفزع مع تأثير كل ضربة. استمرت ضربات المطارق ببطء يثير الجنون، وفجأة، سمع تسوبودي تنهيدة ارتياح من أحد المحاربين وتغير الصوت عندما بدأ أولئك الأقرب إلى البوابة يركلون ألواح الأخشاب المتداعية.

انهارت البوابة، وسقط الرجال على الأرض الترابية خلفها. لقي أوائل من دخل حتفهم مباشرة عندما قابلهم وابل من السهام أطلقه عليهم صف من الجنود. خلفهم، جأر رجال خاسار بشكل همجي بعد أن شعروا بوجود طريق للدخول.

اندفعوا إلى الأمام، وضغطوا على المجموعة عند البوابة بينما كانوا يتعثرون بالرجال القتلى.

لم يصدّق تسوبودي أنه لا يزال حياً. سحب السيف الذي منحه إياه جنكيز بنفسه، وجرى إلى الأمام في رهط من الرجال الثائرين، متحرراً أخيراً من قيد أرض القتل. لم يكن لدى أولئك الذين يستعملون القوس والنشاب فرصة لتكرار ما قاموا به، وقتل تسوبودي أول أعدائه بضربة مباشرة على حنجرته عندما وقف الجندي متجمداً من خوفه. كان نصف أولئك الذين وصلوا إلى الحصن جرحى والدماء تسيل منهم، لكنهم كانوا قد نجوا وتهللوا عندما التقوا بالصفوف الأولى للمدافعين. تسلق بعض أوائل من دخل درجات خشبية إلى مستوى أعلى، وكشّروا غضباً عندما شاهدوا أن الرماة ما زالوا يطلقون السهام على نفق القتل. أطلقت أقواس المغول سهاماً فوق القتال في الأسفل، والتي أصابت رماة سهام كزي كزيا كما لو أن مطارق ضربتهم.

بدأ جيش جنكيز يتدفق عبر البوابة، وينتشر في الحصن. لم يكن هناك أمر في ما يخص الهجوم في المرة الأولى. حتى يتولى ضباط بارزون مثل خاسار أو أرسلان القيادة، كان تسوبودي يعرف أن بمقدوره قتل العدد الذي يريده من الرجال، وصرخ بعنف ممتلئاً بالإثارة.

بغياب ليو كين لتنظيم الدفاع، انهار محاربو كزي كزيا، وهربوا أمام الغزاة وتبعثروا خائفين. ترك جنكيز جواده في الممر، عبر البوابة الخارجية، ودخل إلى ما وراء البوابة الداخلية المكسورة. كان وجهه مبتهجاً بالنصر والمجد بينما كان محاربوه يمزقون جند الحصن. في كل تاريخهم، لم تحظَ القبائل بفرصة الرد على أولئك الذين أبقوهم تحت سيطرتهم. لم يكن جنكيز يهتم بأن جنود كزي كزيا يعتبرون أنفسهم مختلفين عن جنود تشن. بالنسبة لشعبه، كانوا جميعاً جزءاً من ذلك العرق القديم المكروه. رأى أن بعض المدافعين قد وضعوا أسلحتهم أرضاً وهزّ رأسه، واستدعى أرسلان إليه، فمشى الحدّاد نحوه مسرعاً.

قال جنكيز: "لا أسرى يا أرسلان". أحنى القائد رأسه.

أصبح القتل منهجياً بعد ذلك. كان يتم العثور على الرجال مختبئين في أقبية الحصن وسحبهم لإعدامهم. بينما كان النهار ينقضي، تم تكديس الجنود الموتى على الحجارة الحمراء في الساحة الرئيسية. أصبح بئر هناك عين العاصفة عندما وجد كل رجل جف حلقه وقتاً ليروي عطشه بالماء، دلواً إثر آخر، حتى أخذ كل منهم يلهث لكثرة ما شرب. لقد قهروا الصحراء.

عندما بدأت الشمس بالغروب، مشى جنكيز بنفسه إلى البئر، وصعد فوق أكوام القتلى. صمت المحاربون عندما فعل ذلك، وملأ أحدهم دلواً جلدياً وسلّمه للخان. بينما كان جنكيز يشرب ويبتسم، صرخوا وزعقوا بأصوات عالية بما يكفي لتعود أصداؤها من الأسوار المحيطة بهم. كانوا قد عثروا على طريقهم عبر متاهة الغرف، والقاعات، والممرات، والأروقة والتي كانت كلها غريبة على عيونهم. مثل مجموعة من الكلاب البرية، كانوا قد وصلوا إلى الطرف البعيد من الحصن، وتركوا الحجارة السوداء المغطاة بالدماء خلفهم.

تم العثور على قائد الحصن في جناح من الغرف المزينة بالحرير والقماش الذي لا يقدر بثمن. تطلب الأمر ثلاثة رجال لخلع الباب المصنوع من الحديد والسنديان للوصول إلى تشن تي الذي كان يختبئ مع اثنتي عشرة امرأة خائفة. عندما دخل خاسار بخطوات واسعة إلى الغرفة، حاول تشن تي الانتحار باستعمال خنجر. لشدة خوفه، انزلق الخنجر من يديه المتعرقتين ولم ينجح سوى بإحداث جرح في حنجرته. أغمد خاسار سيفه، وأمسك بيد الرجل البدينة على المقبض، ووجه الخنجر إلى عنقه مرة أخرى. فقد تشن تي أعصابه وحاول أن يكافح، لكن قبضة خاسار كانت قوية، وسحب الخنجر بقوة عبر الحنجرة، وتراجع إلى الخلف عندما تدفق الدم وخرّ الرجل صريعاً.

قال خاسار: "هذا آخرهم". نظر إلى النساء وأومأ لنفسه. كن كائنات غريبة، جلودهن مطلية بمساحيق بيضاء مثل حليب الفرس، لكنه وجدهن جذّابات.

امتزج عبق الياسمين برائحة الدم في الغرفة، وابتسم خاسار بخبث عليهن. كان شقيقه كشيون قد ظفر بفتاة من أولخونوت لتكون زوجة له وكان هناك طفلان في خيمته آنذاك. كانت زوجة خاسار الأولى قد توفيت، ولم تكن لديه واحدة. تساءل إن كان جنكيز سيسمح له بالزواج من اثنتين أو ثلاثة من تلك النساء الغريبات. أسعدته الفكرة كثيراً، ومشى إلى النافذة البعيدة، ونظر إلى أراضي كزي كزيا.

كان الحصن عالياً في الجبال، ورأى خاسار وادياً شاسعاً، مع منحدرات شاهقة تمتد بعيداً على كلا الجانبين. بعيداً في الأسفل، شاهد أرضاً خضراء، مليئة بالمزارع والقرى. تنفس خاسار الصعداء ارتياحاً.

قال وهو يستدير إلى أرسلان والرجال الآخرين الذين دخلوا: "سيكون الأمر مثل قطف فاكهة ناضجة. أرسلوا رجلاً لإحضار شقيقيّ. ينبغي أن يشاهدا هذا".

الفصل السادس

جلس الملك في أعلى غرفة في قصره، ينظر إلى وادي كزي كزيا المنبسط. مع تلاشي ضباب الفجر عن الحقول، كان منظراً بديعاً للغاية. لو أنه لم يكن يعرف أن هناك جيشاً خارج مرمى الأبصار، ربما بدت الأرض مسالمة مثل أي صباح آخر. كانت القنوات تلمع في ضوء الشمس مثل خطوط من ذهب، تحمل الماء الثمين إلى المحاصيل. كان هناك حتى أشكال بعيدة لمزارعين يعملون من دون التفكير في الجيش الذي كان قد دخل بلادهم من الصحراء الشمالية.

لملم راي تشيانغ ثوبه المصنوع من الحرير الأخضر المطرّز بالذهب. وحيداً، كان تعبير وجهه هادئاً، لكن بينما كان يحدق إلى الفجر، عثرت أصابعه القلقة على خيط، وانزعج منه حتى التقطته أظفاره، وسحبه من ثوبه. تقطب حاجباه عبوساً عندما نظر إلى الضرر الذي أحدثه. كان الثوب من نسيج تشن، بالياً ليجلب له الحظ في حالات الطوارئ. كان قد بعث برسالة مع اثنين من أسرع مستطلعيه حالما سمع بنبأ الغزو، لكن الرد تأخر في الوصول.

تنهد، وتابعت أصابعه بحثها من دون أن يعير اهتماماً للأمر. لو أن إمبراطور تشن العجوز كان حياً، لكان هناك خمسون ألف جندي يزحفون للدفاع عن مملكته الصغيرة، وكان واثقاً من ذلك. كانت الآلهة متقلبة لأنها أخذت حليفه في اللحظة التي أصبح فيها بحاجة لمساعدته. كان الأمير وي غريباً، ولم يكن راي تشيانغ يعرف ما إذا كان الابن المتغطرس يتمتع بكرم والده.

فكّر راي تشيانغ بالاختلافات بين أراضيهما، متسائلاً عما إذا كان بمقدوره فعل المزيد لضمان دعم تشن. كان أحد أسلافه البعيدين أميراً من تشن وحكم الإقليم كإقطاعية شخصية. لم يكن يرى عاراً في طلب المساعدة. كانت مملكة كزي كزيا منسية في النزاع الكبير قبل قرون مضت، ولم يلاحظها أحد بينما كان الأمراء الأقوياء يقاتلون بعضهم حتى انفصمت إمبراطورية تشن إلى اثنين. كان

راي تشيانغ الحاكم الرابع والستين منذ تلك الفترة الدموية. منذ موت والده، كان قد أمضى قرابة ثلاثة عقود في الحفاظ على حرية شعبه من ظل تشن، وبنى علاقات مع حلفاء آخرين من دون توجيه إهانة ربما تقود إلى إخضاع مملكته بالقوة للآخرين. كان أحد أبنائه سيرث يوماً ما ذلك السلام الصعب. كان راي تشيانغ يدفع الجزية، يرسل تجاره للمقايضة ومحاربيه للانضمام إلى صفوف الجيش الإمبراطوري. بالمقابل، كان يلقى معاملة الحليف المكرّم.

كان صحيحاً أن راي تشيانغ قد أمر بوضع أبجدية جديدة لشعبه، والتي لا تشبه كثيراً كتابة تشن. كان إمبراطور تشن العجوز قد أرسل إليه نصوصاً نادرة تخص لاو تزو وبوذا ساكياموني لتتم ترجمتها. كانت تلك بالتأكيد إشارة قبول، إن لم تكن موافقة. كان وادي كزي كزيا منفصلاً عن أراضي تشن، تحدّه الجبال والنهر الأصفر. مع لغة جديدة، كان أبناء كزي كزيا سيتحررون تماماً من نفوذ تشن. كانت لعبة خطيرة وحسّاسة، لكنه كان يعرف أنه يتمتع بالرؤية والنشاط لتلمس المستقبل الصحيح لشعبه. فكّر في طرقات التجارة الجديدة التي كانت قد فُتحت إلى الغرب، والثروة التي كانت تأتي منها. كل ذلك كان معرضاً للخطر من قِبَل تلك القبائل التي تجأر في الصحراء.

تساءل راي تشيانغ إن كان الأمير وي سيدرك أن المغول قد وصلوا إلى حدود سوره العظيم في الشمال الشرقي بدخولهم مملكة كزي كزيا. لم يكن مفيداً لتشن آنذاك أن الذئب قد عثر على البوابة المؤدية إلى الحقل.

همس لنفسه: "ينبغي أن تدعمني". أغضبه الاعتماد على جنود تشن ليدعموه عسكرياً، بعد عدّة أجيال من إبعاد شعبه عن التبعية لهم. لم يكن يعرف بعد إن كان يستطيع تحمل ما سيطلبه الأمير وي مقابل ذلك الدعم. كان ممكناً إنقاذ المملكة فقط لتصبح إقليماً مجدداً.

نقر راي تشيانغ بأصابعه غاضباً من فكرة وجود جيش تشن على أرضه. كان بأمس الحاجة إليه، لكن ماذا إن لم يغادر بعد انتهاء المعركة؟ ماذا إن لم يأتِ

أصلاً؟

كان هناك مئتا ألف شخص يحتمون ضمن أسوار ينشوان، وآلاف آخرون يتجمعون خارج البوابات المغلقة. في الليل، كان أكثرهم يأساً يحاول تسلق الأسوار إلى المدينة وكان حراس الملك يجدون أنفسهم مرغمين على إبعادهم بسيوفهم، أو إطلاق وابل من السهام على وسطهم. كانت الشمس تشرق كل يوم على جثث جديدة، ويضطر المزيد من الجنود إلى مغادرة ينشوان لدفنها قبل أن تنشر الأمراض، والعمل تحت نظرات الباقين الغاضبة. كان عملاً كئيباً وغير سار، لكن المدينة لم تكن تستطيع إطعام سوى عدد محدود لهذا بقيت البوابات مغلقة. فتل راي تشيانغ الخيوط الذهبية حتى ظهرت بقع من الدم تحت أظفاره.

نام أولئك الذين كانوا قد وجدوا ملاذاً في الشوارع، وأسرّة كل خان ونُزل. كانت أسعار الطعام ترتفع كل يوم، وانتعشت السوق السوداء، على الرغم من أن الحراس كانوا يشنقون أي شخص يحتكر المؤونة. كانت ينشوان مدينة الخوف وانتظر ساكنوها هجوم البرابرة، لكن ثلاثة شهور كانت قد انقضت من دون ظهور شيء سوى تقارير عن الدمار بينما كان جيش جنكيز يخرّب كل شيء في طريقه. لم يكن قد وصل بعد إلى ينشوان، على الرغم من أن مستطلعيه كانوا يظهرون على مسافة بعيدة.

رن جرسٌ مما جعل راي تشيانغ يفزع. لم يكن يصدق بسهولة أنها كانت ساعة التنين. كان ضائعاً في تأملاته، لكن ذلك لم يجلب له الشعور المعتاد بالطمأنينة قبل أن يبدأ اليوم حقاً. هزّ رأسه من الأفكار الخبيثة التي تضعف عزيمة الرجال الأقوياء. ربما سيجلب الفجر معه أنباءً أفضل. جهّز نفسه ليراه الآخرون، انتصب في عرشه المصنوع من الذهب المصقول وقام بطي الردن الذي سحب منه الخيط في الآخر. عندما سيتكلم إلى وزرائه، سيكون قد ارتدى ثوباً جديداً واستحمّ بمياه منعشة تجعل دمه يتدفق بسهولة أكبر.

رن الجرس مجدداً وفُتحت أبواب القاعة بصمت تام. دخل صف من مستشاريه الذين يثق بهم، ووقع خطواتهم مكتوم لارتدائهم أحذية من اللباد حتى لا يخدشوا الأرضية المصقولة. نظر إليهم راي تشيانغ من دون اكتراث، وكان يعرف أنهم يستمدون ثقتهم من مزاجه. إن أظهر إشارة واحدة على القلق، سيشعرون برعب العامة المنتشر في شوارع المدينة في الأسفل.

اتخذ عبدان موقعيهما إلى جانبي الملك، وأرسلا نسيماً رقيقاً من مراوح كبيرة. لم يعر راي تشيانغ اهتماماً كبيراً لوجودهما، ولاحظ أن وزيره الأول بالكاد يحافظ على هدوئه. أرغم نفسه على الانتظار حتى وضع الرجال جباههم على الأرض وأقسموا عهد الولاء. كانت الكلمات قديمة ومريحة. كان والده وجدّه قد سمعاها آلاف المرات في تلك الغرفة نفسها.

أخيراً، كانوا جاهزين للشروع في عمل النهار وتم إغلاق الأبواب الكبيرة خلفهم. كان من الحماقة التفكير أنهم لوحدهم تماماً، كما فكر راي تشيانغ. كان كل ما يحدث في غرفة العرش يصبح أقاويل في السوق قبل أن تغرب الشمس. راقب الوزراء عن كثب، بحثاً عن إشارة على أنهم يشعرون بالخوف الذي يعتمل في صدره. لم يظهر شيء، فتهللت أساريره قليلاً.

شرع وزيره الأول يقول: "جلالة الإمبراطور، ابن السماء، ملكنا ووالدنا جميعاً. أحمل رسالة من الإمبراطور وي تشن". لم يقترب بنفسه، لكنه سلّم الرقعة لعبد. جثا الشاب ورفع لفة الورق الثمينة وعرف راي تشيانغ الختم الشخصي للأمير وي. أخفى راي تشيانغ بارقة الأمل في صدره بينما كان يمسك بالورقة ويفض الختم الشمعي.

لم يستغرق الأمر منه وقتاً طويلاً لقراءة الرسالة، وعلى الرغم من سيطرته على نفسه، إلا أن حاجبي راي تشيانغ تقطّبا عبوساً. استطاع أن يشعر بالتعطش للأنباء في الغرفة وكان هدوؤه قد تأثر سلباً بما يكفي ليقرأ الرسالة بصوتٍ عالٍ.

"إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر بالنسبة لنا؟

أثخنوا الجراح في هؤلاء الغزاة وسيثأر تشن لذكراكم".

أطبق الصمت على الغرفة بينما كان الوزراء يفكرون في الكلمات. شحب لون واحد أو اثنين منهم، وظهر الانزعاج بادياً عليهم. لن تكون هناك تعزيزات. الأسوأ من ذلك، كان الإمبراطور الجديد قد وصفهم بالأعداء ولم يعد حليفاً كما كان والده. كان ممكناً أنهم سمعوا نهاية مملكة كزي كزيا في تلك الكلمات القليلة.

قال راي تشيانغ بهدوء محطماً الصمت: "هل جيشنا مستعد؟".

انحنى وزيره الأول كثيراً قبل أن يرد، مخفياً خوفه. لم يكن يستطيع أن يقول للملك عن مدى سوء استعداد الجنود للحرب. كانت أجيال من السلام قد جعلتهم أكثر خبرة في التعامل مع غانيات المدينة من الفنون الحربية.

"الثكنات مليئة يا صاحب الجلالة. مع حرّاسك الملكيين لقيادتهم، سيعيدون تلك الحيوانات إلى الصحراء".

جلس راي تشيانغ ساكناً من دون حراك، وكان يعرف ألا أحد هناك سيجرؤ على مقاطعة أفكاره.

قال أخيراً: "هل سنحافظ على المدينة آمنة إذا خرج حراسي الشخصيون إلى السهول؟ الفلاحون؟ لا، لقد أويت وأطعمت المليشيا سنوات. لقد حان الوقت لرد ما كانوا قد اكتسبوه من يدي". تجاهل التوتر الذي ظهر على وجه وزيره الأول. كان الرجل ابن عمه فقط، وعلى الرغم من أنه كان يدير المدينة بانضباط شديد، إلا أنه لم يكن يفكر بمثل عمقه عندما يتعلق الأمر بأي شيء يتطلب فكرة مبدعة.

قال راي تشيانغ: "أرسلوا بطلب قائد جيشي، لأنني سأخطط لهجوم. يبدو أن وقت الكلام والرسائل قد انتهى. سأفكر بكلمات... الإمبراطور وي، وردّي بعد أن نكون قد انتهينا من التعامل مع الخطر الذي يقترب منا".

خرج الوزراء والقلق بادٍ على محياهم. كانت المملكة قد نعمت بالسلام لأكثر

من ثلاثة عقود، ولم يكن هناك أحد يتذكر فظائع الحرب.

قال كشيون وهو ينظر إلى سهل كزي كزيا: "هذا المكان يناسبنا". من خلفه، كانت الجبال تلوح من بعيد، لكن نظرته جالت فوق الحقول الخضراء والذهبية، الخصبة بالمحاصيل الزراعية. كانت القبائل قد قطعت المسافة بسرعة كبيرة خلال الشهور الثلاثة الماضية، وانتقلت من قرية إلى أخرى من دون أن تلقى مقاومة تقريباً. كانت ثلاث بلدات كبيرة قد سقطت في أيديهم قبل أن تمضي الأنباء قدماً، وبدأ شعب المملكة الصغيرة يهرب من الغزاة. في البداية، كانت القبائل تأخذ أسرى، لكن عندما وصل عددهم إلى قرابة الأربعين ألفاً، كان جنكيز قد تعب من أصوات عويلهم. لم يكن جيشه يستطيع إطعام ذلك العدد الكبير منهم ولم يكن يستطيع تركهم خلفه، بيد أن المزارعين البؤساء لم يكونوا يشكلون أي تهديد. كان قد أصدر الأمر واستمر القتل يوماً بأكمله. كانت الجثث تُترك لتتعفن في الشمس، وزار جنكيز تلال الموت مرة واحدة فقط ليشاهد ما يقوم به جنوده. بعد ذلك، لم يفكر فيهم مجدداً.

لم يتم الإبقاء على حياة سوى النساء اللواتي تم توزيعهن كمكافآت، وكان كشيون قد عثر على اثنتين تتمتعان بجمال نادر في صبيحة ذلك اليوم. كانتا تنتظرانه في خيمته واكتشف أن أفكاره تشرد باتجاههما بدلاً من التركيز على الخطوة التالية في الهجوم. هزّ رأسه لتنقية أفكاره.

تابع وهو يلقي نظرة خاطفة على شقيقه الأكبر: "لا يبدو أن الفلاحين مجهزون للحرب على الإطلاق وتلك القنوات ممتازة لسقاية جيادنا".

كان جنكيز يجلس على كومة من السروج إلى جانب خيمته، ويضع ذقنه على يديه. كان مزاج القبائل مرحاً حول الرجلين وشاهد مجموعة من الفتية يثبتون عصياً من شجر البتولا في الأرض. رفع رأسه باهتمام عندما شاهد أن ابنيه الكبيرين كانا ضمن المجموعة التي تتبادل أطراف الحديث ويدفع بعضهم الآخر فيما يتجادلون حول أفضل السبل لتثبيت العصي. كان جوشي وتشاغاتي

يمثلان رفقة خطيرة لفتية القبائل، وغالباً ما كانا يوقعانهم في متاعب ومشاجرات ينجم عنها تلقيهم للصفعات من قبل النساء في الخيام.

تنهد جنكيز، ومرّر لسانه فوق شفته السفلى بينما كان يفكر. "نحن مثل دب مخلبه في العسل يا كشيون، لكنهم سيرتقون بأنفسهم. أخبرني بارشوك أن تجار كزي كزيا تفاخروا بوجود جيش كبير ينتظرنا. لم نلتقِ بهم بعد".

هزّ كشيون كتفيه بلا مبالاة من ذلك الاحتمال. "ربما. لا تزال هناك مدينتهم العظيمة. ربما يختبئون خلف الأسوار هناك. يمكننا جعلهم يتضورون جوعاً حتى يخرجوا منها، أو تحطيم الأسوار عليهم وهم بالداخل".

تقطب حاجبا جنكيز من شقيقه. "لن أكون ليناً جداً يا كشيون. أتوقع التهور من خاسار. أبقيك قريباً مني لتكون صوت التنبيه والإدراك عندما يمتلئ المحاربون غروراً بأنفسهم. لم نخض معركة واحدة في هذه المملكة ولا أريد أن يكون الرجال بدينين وبطيئين عندما نخوضها. اجعلهم يعودون إلى التدريب واطرد الكسل منهم. أنت أيضاً".

تورّد كشيون خجلاً من التوبيخ.

قال وهو يحني رأسه: "كما تشاء يا مولاي". رأى أن جنكيز يراقب أولاده بينما كانوا يمتطون أفراسهم. كانت لعبة مهارة تعلموها من أولخونوت، وتحول انتباه جنكيز عنهم بينما كان جوشي وتشاغاتي يجهّزان نفسيهما لقيادة فرسيهما بأقصى سرعة إلى ما وراء صف العصي في التربة.

أدار جوشي فرسه بسرعة أكبر وانطلق بمحاذاة الخط وقوسه الطفولي مشدود عن آخره. راقبه جنكيز وكشيون بينما كان يطلق سهمه وهو يقود جواده بأقصى سرعة، وقد أصاب النصل العصا الرفيعة. كانت ضربة جيدة، وفي اللحظة نفسها، مدّ جوشي يده اليسرى إلى الأسفل وانتزع قطعة الخشب التي أطلقها، ورفعها مبتهجاً بينما كان يستدير عائداً إلى رفاقه. هتفوا له، إلا أن تشاغاتي تأفف قبل أن يبدأ دوره.

تمتم كشيون: "سيكون ابنك محارباً رائعاً". فزع جنكيز من الكلمات ولم ينظر كشيون إليه لأنه كان يعرف التعبير الذي سيراه.

قال جنكيز بعناد: "يستطيعون التراجع خلف أسوار أعلى من رجل بخمس مرات، ويمكنهم أن يضحكوا علينا فيما نجوب السهول. لماذا سيهتم ملكهم ببضع مئات من القرويين؟ لقد لسعناه بالكاد فيما لا تزال مدينة ينشوان تلك تقبع آمنة وهو يقيم فيها".

لم يجب كشيون بينما كان تشاغاتي يقود جواده إلى صف العصي. قطع سهمه العصا، لكن يده فشلت في انتزاعه قبل أن يسقط. ضحك جوشي على شقيقه، ورأى كشيون وجه تشاغاتي يستشيط غضباً. كانا يعلمان أن والدهما يشاهد السباق.

من خلفه، اتخذ جنكيز قراره، ونهض ليقف على قدميه. "اجمع الرجال واجعلهم يستعدون للمسير. سأرى مدينة الحجارة تلك التي تركت تأثيراً قوياً لدى المستطلعين. بطريقة أو بأخرى، لا بد من وجود سبيل للدخول". لم يُظهر لشقيقه القلق الذي يعتمل في داخله. لم يكن قد شاهد من قبل مدينة محمية بأسوار عالية كما وصفها مستطلعوه. كان يأمل بأن تثير رؤيتها فكرة عن كيفية الدخول إليها من دون أن يدمر الجيش نفسه من غير جدوى على الأسوار.

عندما كان كشيون يغادر لنقل الأوامر، رأى أن تشاغاتي كان قد قال شيئاً لشقيقه الأكبر. قفز جوشي عن فرسه عندما مرّ تشاغاتي بجانبه، ووقع كلاهما على الأرض يتشاجران بالمرافق والأقدام العارية. ابتسم كشيون عندما مرّ بجانبهما وقد تذكر طفولته.

كانت الأرض التي اكتشفوها خلف الجبال خصبة وثرية. ربما سيكون عليهم خوض معارك للحفاظ عليها، لكنه لم يستطع أن يتخيل قوة يمكنها إلحاق الهزيمة بالجيش الذي جعلوه يقطع ألف ميل بعيداً عن وطنه. عندما كان فتى، كان قد دحرج مرة صخرة كبيرة على سفح تل ورأى كيف تزداد سرعتها. في

البداية، كانت بطيئة لكن بعد وقت قصير فقط، لم يعد ممكناً إيقافها.

كان القرمزي لون كزي كزيا للحرب. كان جنود الملك يرتدون دروعاً مطلية بلون أحمر زاهٍ، ولم تكن الغرفة حيث يجتمع راي تشيانغ بقائد الجيش مزينة غير أن أسوارها كانت مطلية باللون نفسه. كانت هناك طاولة واحدة فقط تتخلل الفراغ الذي يتردد الصدى في أرجائه، وقد وقف كلا الرجلين يحدّقان إلى خرائط المنطقة، المثبتة بأثقال رصاصية. كان قد تم التخطيط للانفصال الأصلي عن تشن ضمن تلك الأسوار الحمراء، والتي كانت مكاناً لإنقاذ المملكة الغنية بتاريخها. كان درع القائد جيام مصقولاً ويتوافق تماماً مع الغرفة حتى إنه كاد يختفي بين الأسوار. كان راي تشيانغ نفسه يرتدي قميصاً من الذهب فوق سروال من الحرير الأسود.

كان الجنرال أشيب، ورجلاً يتمتع بالوقار. كان يشعر أن تاريخ كزي كزيا معلق في هواء تلك الغرفة العتيقة، ثقيلٌ مثل المسؤولية التي سيتحملها بنفسه. وضع علامة أخرى من العاج على خطوط الحبر الأزرق الداكن.

"إن معسكرهم هنا يا صاحب الجلالة، ليس بعيداً عن المكان الذي دخلوا منه إلى المملكة. لقد أرسلوا محاربيهم لشن غارات على مسافة مئة وحدة طول في كل اتجاه".

تمتم راي تشيانغ: "لا يمكن للرجل قطع مسافة أطول في يوم واحد، لهذا لا بد أن لديهم معسكرات أخرى لقضاء الليل. ربما نستطيع مهاجمتهم هناك".

هزّ القائد رأسه قليلاً، ولم يكن يرغب بأن يعارض ملكه علانية.

"إنهم لا يرتاحون يا صاحب الجلالة، أو يتوقفون لتناول الطعام. لدينا مستطلعون يقولون إنهم يقطعون تلك المسافة ثم يعودون من الفجر إلى المغيب. عندما يقبضون على أسرى، يصبحون أبطأ، ويدفعونهم أمامهم. ليس لديهم مشاة ويحملون إمدادات معهم من المعسكر الرئيسي".

تقطب حاجبا راي تشيانغ عبوساً، وكان يعرف أن ذلك سيكون انتقاداً كافياً

لجعل القائد يتصبب عرقاً في حضوره.

"إن معسكرهم ليس مهماً أيها القائد. ينبغي أن يشتبك الجيش ويصدّ هؤلاء المغيرين الذين تسببوا بالكثير من الدمار. لدي تقرير عن كومة من الفلاحين القتلى بارتفاع جبل. من سيحصد المحاصيل؟ يمكن أن تتضور المدينة جوعاً حتى إذا تركنا هؤلاء الغزاة اليوم!".

جعل القائد جيام وجهه جامداً مثل قناع بدلاً من المخاطرة بزيادة غضب ملكه.

"سيحتاج جيشنا إلى وقت لتشكيل وتجهيز الأرضية. مع وجود الحرس الملكي لقيادتهم، يمكنني جعل الحقول مليئة بأوتاد معدنية ستصد أي هجوم. إذا كان الانضباط جيداً، سنسحقهم".

قال راي تشيانغ: "كنت سأفضّل لو أن جنود تشن كانوا مع المليشيا الخاصة بي".

تنحنح القائد، وكان يعرف أنه موضوع حسّاس.

"كل ما نحتاجه هو حرسك الملكي يا صاحب الجلالة. المليشيا أفضل قليلاً من الفلاحين الذين يحملون أسلحة. لا يمكن لأفرادها الصمود لوحدهم".

أدار راي تشيانغ عينيه الشاحبتين إلى قائد جيشه.

"كان لدى والدي أربعون ألف جندي مدرّب لبناء أسوار ينشوان. عندما كنت طفلاً، شاهدت الصفوف الحمراء تقدم عرضاً عسكرياً عبر المدينة بمناسبة ذكرى ميلاده، وبدا ألا نهاية لهم". كشّر بغضب. "لقد استمعت إلى حمقى وقمت بخفض التكاليف كثيراً نظراً لغياب المخاطر التي قد تواجهنا. لا يوجد سوى عشرين ألفاً من حرسي الخاص وتريد مني إرسالهم للقتال؟ من سيدافع عندها عن المدينة؟ من سيشكل فرق الأقواس العظيمة ويدافع عن الأسوار؟ هل تعتقد أن الفلاحين والتجار سيكونون نافعين حالما أرسل حرسي للقتال في الخارج؟ ستندلع حرائق وأعمال شغب من أجل الطعام. خطط للنصر من

دونهم أيها القائد. ليست هناك طريقة أخرى".

كان القائد جيام ابن أحد أعمام الملك، وقد حصل على منصبه بسهولة. على الرغم من ذلك، كان يتمتع بشجاعة كافية لمواجهة رفض راي تشيانغ.

"إذا زوّدتني بعشرة آلاف من حرسك يا صاحب الجلالة، سيدعمون الآخرين. سيكونون النواة التي لا يمكن للعدو تحطيمها".

ردّ راي تشيانغ بحدّة: "حتى عشرة آلاف عدد كبير جداً".

ابتلع القائد جيام ريقه.

"لا يمكنني تحقيق النصر من دون الفرسان يا مولاي. مع خمسة آلاف حارس وثلاثة آلاف من أولئك الذين يمتطون جياداً مدرعة، ستكون لدي فرصة. إذا لم يكن بمقدورك منحي ذلك، ينبغي أن تعدمني الآن".

رفع راي تشيانغ عينيه عن الخريطة، ووجد نظرة القائد جيام الثابتة. ابتسم، مسروراً من نقطة العرق التي كانت تسيل على خد الرجل.

"حسناً. يتطلب الأمر موازنة بين منحك أفضل ما لدينا والإبقاء على الرغم من ذلك على عدد يكفي للدفاع عن المدينة. خذ ألفاً من رماة القوس والنشاب، وفرقتين من الفرسان وأخريين من حاملي الرماح. ستكون تلك النواة التي ستقود الآخرين ضد العدو".

أغلق القائد جيام عينيه بصمت شاكراً للحظة. لم يلاحظ راي تشيانغ ذلك لأنه استدار عائداً إلى الخريطة.

"يمكنك تفريغ مخازن الدروع. ربما لا تكون المليشيا حرسي الأحمر، لكن ربما إذا ظهروا بمظهرهم سيجعلهم ذلك شجعاناً. لا شك لدي بأن ذلك سيخفف من الملل الناجم عن شنق الاستغلاليين ويموّه الثكنات العسكرية. لا تخذلني في هذا أيها القائد".

"لن أفعل ذلك يا صاحب الجلالة".

انطلق جنكيز في مقدمة جيشه، المؤلف من خط طويل من الفرسان الذي

يمتد عبر سهل كزي كزيا. عندما وصلوا إلى القنوات، انتفخ الخط عندما تسابق الرجال للغوص فيها وهم يضحكون وينادون على كل من يقع في الماء الأسود، وكان عليه الجري بسرعة لتدارك ما فاته.

كانت مدينة ينشوان تبدو مثل بقعة في الأفق طيلة ساعات قبل أن يصدر جنكيز الأمر بالتوقف. تعالت الأبواق، وهدأت على امتداد الخط ثم توقف الحشد، وكانت هناك أوامر تتردد لتنبيه الرجال على الأجنحة. كان ذلك بلداً معادياً ولن يكونوا عرضة للمفاجأة.

لاحت المدينة من بعيد. حتى على بعد أميال، بدت بناءً ضخماً، مهولاً بحجمه الكبير. حدّق جنكيز في سديم شمس بعد الظهيرة. كانت الصخور التي استعملها البناة رمادية داكنة، واستطاع رؤية أعمدة يمكن أن تكون أبراجاً داخل الأسوار. لم يستطع تخمين مهمتها وبذل جهده حتى لا يُظهر رهبته أمام الرجال.

نظر حوله، ورأى أنه لا يمكن مهاجمة شعبه في مثل تلك الأرض المنبسطة. ربما كانت المحاصيل تخفي جنوداً يجثمون بينها، لكن مستطلعيه سيكتشفونهم قبل وقت طويل من اقترابهم. كانت الأرض آمنة مثل أي مكان آخر لإقامة معسكر واتخذ القرار، وترجل عن جواده بينما كان يصدر الأوامر.

خلفه، انطلقت القبائل لتأدية المهام التي تعرفها تماماً. كانت الخيام مربوطة معاً وتنصبها عائلات اعتادت على ذلك العمل منذ وقت طويل. أُقيمت قرية، بلدة، مدينة خاصة بهم مليئة بالعربات وقطعان الحيوانات. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتم تجهيز عربة جنكيز الخاصة، وملأت رائحة الضأن المشوي الهواء.

سار أرسلان على طول الخط مع ابنه جيلم. تحت عيونهما، وقف محاربو كل القبائل باستعداد، ولم يتكلموا سوى بالحد الأدنى. استحسن جنكيز ذلك وكان مستعداً مع ابتسامة عندما وصلا إليه.

قال أرسلان: "لم أرَ أبداً مثل تلك الأرض المنبسطة. ليس هناك مكان للدفاع عنه، أو للانسحاب إليه إذا أردنا التراجع. نحن مكشوفون تماماً هنا".

رفع ابنه جيلم عينيه لدى سماعه تلك الكلمات، لكنه لم يتكلم. كان أرسلان بضعف عمر كل القادة الآخرين ويعمل بحرص وذكاء. لم يكن أبداً مثيراً للقلاقل بين القبائل، وكانت مهارته موضع احترام والجميع يخشى عصبيته.

ردّ جنكيز وهو يربت على كتفه: "لن يلتفّوا علينا يا أرسلان. ليس هنا. سنجعلهم يخرجون من تلك المدينة، أو في حال لم يفعلوا، ربما سأبني منحدراً من التراب إلى قمة أسوارهم وأدخل إليهم. سيكون ذلك شيئاً يستحق المشاهدة، أليس كذلك؟".

كانت ابتسامة أرسلان متكلفة. كان واحداً من أولئك الذين اقتربوا من ينشوان بما يكفي ليطلقوا عليه سهامهم.

"إنها مثل جبل يا مولاي. سترى ذلك عندما تقود جوادك بالقرب من الأسوار. هناك برج عند كل زاوية والأسوار مجهزة بكوّات يمكن لرماة السهام أن يطلوا بوجوههم منها لرؤيتك تمر. سيكون صعباً إصابتهم، بينما سنكون صيداً سهلاً بالنسبة إليهم".

فقد جنكيز بعضاً من حس دعابته.

"سأراها أولاً قبل أن أقرر. إذا لم تسقط المدينة بين أيدينا، فسأجعلهم يتضورون جوعاً".

أومأ جيلم برأسه موافقاً على الفكرة. كان قد سار بالقرب من والده بما يكفي ليشعر بظل المدينة على عاتقه. بالنسبة لرجل معتاد على السهول المكشوفة، وجد نفسه يستشيط غضباً من فكرة وجود مثل تلك الأشياء. كانت الفكرة بحد ذاتها تزعجه.

قال جيلم: "القنوات تصل إلى المدينة يا مولاي، عبر أنفاق مغطاة بالحديد. قيل لي إنها تجرف براز الناس وروث الحيوانات. ربما يكون هناك نقطة ضعف

فيها".

أشرق وجه جنكيز. كان قد امتطى جواده طوال النهار ويشعر بالتعب. سيكون هناك وقت لتخطيط الهجوم في الغد بعد أن يكون قد تناول الطعام وارتاح.

وعدهم: "سنجد طريقة".

الفصل السابع

من دون إشارة على أي مقاومة، أمضى المحاربون الشباب بقيادة جنكيز أيامهم في امتطاء جيادهم والاقتراب قدر ما يجرؤون من المدينة، يختبرون شجاعتهم. كان أشجعهم يقود جواده للجري بأقصى سرعته تحت ظل الأسوار بينما السهام تطن فوق رأسه. كانت صرخات هتافهم تتردد عبر الحقول بتحدٍّ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع سوى رامي سهام واحد من كزي كزيا تسديد ضربة موفقة خلال ثلاثة أيام. حتى عندها، استطاع رجل القبائل الجلوس على سرجه والابتعاد، ثم أخرج السهم من درعه ورماه باستخفاف على الأرض.

قاد جنكيز جواده بالقرب من المدينة أيضاً، مع قادة وضباط جيشه. لم يجلب ما رآه أي إلهام. حتى القنوات التي تدخل المدينة كانت محمية بعوارض حديدية بسماكة ذراع رجل، ومغروسة عميقاً في الصخر. فكّر بأنهم ربما يستطيعون شق طريقهم إلى الداخل، على الرغم من أن فكرة الزحف داخل قنوات شديدة الرطوبة كانت بغيضة لرجل من السهول.

عندما حل الليل، اجتمع جنكيز مع شقيقيه وقادته في الخيمة الكبيرة لتناول الطعام ومناقشة المشكلة. كان مزاجه قد ازداد سوءاً مرة أخرى، لكن أرسلان كان يعرفه منذ بداية ارتقائه ولم يكن يخاف من التكلم بصراحة قاسية.

قال أرسلان وهو يفكر ملياً: "مع نوع المتراس الخشبي الذي استعملناه ضد الحصن، يمكننا حماية رجال مدة كافية لنشق طريقنا باستعمال المطارق عبر فتحات القنوات. على الرغم من أنني لا أحب مظهر تلك الأشياء على الجدران، إلا أنني لا أعتقد أن قوساً قد يكون بذلك الحجم. إذا كانت حقيقية، ينبغي أن تطلق سهاماً بطول رجل. من يعرف حجم الأضرار التي يمكن أن تتسبب بها؟".

تمتم كشيون: "لا يمكننا البقاء هنا إلى الأبد، فيما يبعثون برسائل إلى حلفائهم؛ ولا يمكننا الالتفاف حولهم وترك جيشهم حراً ليضرب مؤخرتنا. ينبغي أن ندخل

المدينة، أو نعود إلى الصحراء ونتخلى عن كل ما حققناه".

نظر جنكيز إلى شقيقه الأصغر، ووجهه متجهم. قال بثقة أكبر مما يشعر: "لن يحدث ذلك. لدينا محاصيلهم. إلى متى يمكن لمدينة أن تقاوم قبل أن يأكل شعبها بعضه؟ الوقت إلى جانبنا".

رد كشيون: "أعتقد أننا لم نؤذِهم بعد. لديهم قنوات تحمل لهم الماء، وكل ما نعرفه أن المدينة مليئة بالحبوب واللحم المقدد". شاهد جنكيز يتجهم من الموقف، لكنه تابع: "يمكننا البقاء هنا سنوات، ننتظر، ومن يعرف عدد الجيوش التي تزحف لمؤازرتهم؟ في الوقت الذي يصلون فيه إلى مرحلة التضور جوعاً، يمكن أن نواجه جيش تشن نفسه ونجد أنفسنا عالقين بينهما".

ردّ جنكيز بحدّة: "إذاً، أجبني عن سؤالي! قال لي تلاميذ اليوغر إن كل مدينة في أرض تشن تشبه هذه المدينة، أو حتى أكبر منها، إذا استطعت تخيلها. إذا كان رجال قد بنوها، يمكن لرجال أن يدمروها، وأنا واثق من ذلك. قل لي كيف؟".

قال خاسار وهو يمد سكينه إلى قطعة أخرى من اللحم: "يمكننا تسميم المياه في القنوات". تناول اللحم بينما أطبق صمت مفاجئ عليهم، ونظر حوله إلى الآخرين.

"ماذا؟ هذه ليست أرضنا".

وبّخ كشيون شقيقه بينما كان يتكلم مع الآخرين: "هذا فعل شرير. ماذا سنشرب نحن عندها؟".

هزّ خاسار كتفيه استخفافاً: "سنشرب مياهاً نظيفة من مكان أبعد".

استمع جنكيز وهو يفكر بالأمر. قال: "ينبغي أن نجعلهم يخرجون إلينا. لن أسمح بتسميم ماء نظيف، لكن يمكننا تحطيم القنوات وجعل المدينة تعطش. سنجعلهم يشاهدون تدمير عمل استغرق أجيالاً، وربما سيخرجون للقائنا في السهل".

قال جيلم: "سأحرص على القيام بذلك".

أومأ له جنكيز. "وأنت يا خاسار. سترسل مئة رجل ليتسللوا عبر القضبان حيث تدخل القنوات إلى المدينة".

قال خاسار: "حمايتهم تعني تفكيك المزيد من العربات. لن تحب العائلات ذلك على الإطلاق".

تأفف جنكيز. "سأبني المزيد منها عندما ندخل تلك المدينة اللعينة. سيشكروننا عندها".

سمع كل الرجال في الخيمة وقع حوافر جواد يقترب بسرعة. توقف جنكيز مع قطعة من لحم الضأن المشبعة بالدهن في أصابعه. نظر إلى الأعلى عندما صدر صوت على الدرجات في الخارج وفُتح باب الخيمة. "إنهم يخرجون يا مولاي".

قال جنكيز متشككاً: "في الظلام؟".

"ليس هناك قمر، لكنني كنت قريباً بما يكفي لأسمعهم يا مولاي. إنهم يثرثرون مثل الطيور وتصدر عنهم ضوضاء أكثر من أطفال".

قذف جنكيز قطعة اللحم إلى الطبق أمامه في وسط الخيمة.

"عودوا إلى رجالكم يا إخواني، وليكونوا مستعدين". جال ببصره عبر الخيمة حتى وصل إلى أرسلان وجيلم، وكان الأب وابنه يجلسان معاً.

"أرسلان، ستقود خمسة آلاف لحماية العائلات. سيذهب الباقي معي". كشّر من ذلك الاحتمال، وبادلوه الابتسامات.

"ليس سنوات يا كشيون. ليس يوماً واحداً بعد. اجعل أسرع المستطلعين ينطلقون. أريد أن أعرف ما يقومون به حالما يبزغ الفجر. سأصدر الأوامر لكم عندها".

بعيداً في الجنوب، كان الخريف لا يزال حاراً، والمحاصيل التي لم يتم حصادها بعد مثقلة بما تحمله بينما بدأت تفسد في الحقول. أطلق مستطلعو المغول

صرخات تحدٍّ باتجاه الجيش الأحمر الذي كان قد زحف من ينشوان، فيما عاد آخرون إلى جنكيز مع التفاصيل. كانوا يدخلون الخيمة الكبيرة بمجموعات من ثلاثة رجال، وينقلون ما يعرفونه.

كان جنكيز يسير بخطوات واسعة جيئة وذهاباً، يصغي إلى كل رجل فيما يصف المشهد.

قال لكشيون: "لا أحب هذا العمل مع السلال. ما الذي يزرعونه في هذه الأرض؟". كان قد سمع عن مئات من الرجال الذين يمشون معاً بتشكيلات معينة أمام الجيش من ينشوان. كان كل منهم يحمل سلة على كتفيه بينما يمد رجل خلفه يده داخلها، مراراً وتكراراً، ويرمي ما في ذراعيه بعيداً.

تم استدعاء خان اليوغر ليكشف السر. كان بارشوك قد استفسر من المستطلعين، وسأل عن كل معلومة يمكنهم تذكرها.

قال أخيراً: "ربما يكون شيئاً لإعاقة جيادنا يا مولاي. حجارة حادة، ربما، أو حديد. لقد نشروا الكثير من تلك الأشياء خارج طريق الجيش، ولم تظهر عليهم أي إشارة على وطئها. إذا كانوا ينوون استدراجنا إلى هناك، ربما يتوقعون صد الهجوم".

ربّت جنكيز على كتفه. قال: "مهما يكن الأمر، لن أترك لهم اختيار الأرض. ستحصل على الرقاع يا بارشوك". نظر حوله إلى الوجوه المتألقة للرجال موضع ثقته. لم تكن مذبحة الحصن لدخول أراضي كزي كزيا على علاقة كبيرة بالتشكيلات المقاتلة لمدينة الملك. كان يشعر بقلبه ينبض بسرعة من فكرة الوقوف أخيراً ضد أعداء شعبه. بالتأكيد لن يفشلوا، بعد ذلك الاستعداد الطويل؟ قال كوكشو إن النجوم نفسها تعلن قدراً جديداً لشعبه. مع وجود كاهنه العراف بجانبه، كان جنكيز قد ضحّى بمعزاة بيضاء لأب السماء، مستعملاً اسم أقدم لغة للعرافين. لن يرفضهم تانغري. لقد كانوا ضعفاء لوقت طويل، وكان ذلك بسبب أبناء تشن في مدنهم الذهبية. هم أقوياء الآن وسيرون

المدن تسقط.

وقف القادة ساكنين دونما حراك عندما مد كوكشو يده إلى قدور صغيرة ورسم خطوطاً على وجوههم. عندما نظر بعضهم الى بعض، لم يروا الرجال الذين يعرفونهم. كان كل ما شاهدوه أقنعة الحرب وعيون قاسية تبث الرعب في القلوب.

ترك الكاهن العراف جنكيز ليكون الأخير، رسم خطاً أحمر في أعلى جبين الخان، فوق العينين نزولاً إلى جانبي فمه.

"لن يمسّك الحديد يا مولاي. لن يحطمك الصخر. أنت الذئب وأب السماء يراقب".

حدّق جنكيز من دون أن يرف له جفن، وكانت الدماء حارة نوعاً ما على جلده. أخيراً، أومأ برأسه وغادر الخيمة، امتطى جواده وكانت صفوف المحاربين تمتد على كلا الجانبين. استطاع رؤية المدينة من بعيد، وقبلها، حشد ضبابي من رجال يرتدون ملابس حمراء ينتظرون قهر طموحاته. نظر يساراً ويميناً وإلى الأمام على طول الخط ورفع ذراعه.

قُرعت الطبول، التي يحملها مئة فتى غير مسلح. كان كل منهم قد قاتل رفاقه لاكتساب حق الخروج مع المقاتلين، وكان العديد منهم يحملون علامات شجارهم. شعر جنكيز بقوته عندما مسّ قبضة سيف والده طلباً للحظ. أنزل ذراعه، وكرجل واحد، تحركوا إلى الأمام فوق سهل كزي كزيا، نحو مدينة ينشوان.

قال وزير راي تشيانغ الأول بإثارة: "إنهم قادمون يا مولاي". كان يمكن رؤية السهل من مركز المراقبة في برج الملك بشكل أفضل من أي مكان آخر، ولم يكن راي تشيانغ قد اعترض على حضور مستشاريه في قاعاته الخاصة.

بدروعهم المصقولة، كان الجنود يشبهون بقعة لامعة من الدماء على الأرض أمام المدينة. اعتقد راي تشيانغ أنه يستطيع رؤية شكل القائد جيام الأبيض

اللحية من بعيد وهو يسير جيئة وذهاباً أمام الصف. كانت الحراب تلمع في شمس الصباح عندما أخذت الفرق مواقعها، وشاهد أن حرسه الملكي قد تولى أمر الجناحين. كانوا أفضل فرسان كزي كزيا، ولم يندم على جعلهم يقومون بتلك المهمة.

كان قد آلمه كثيراً الاختباء في المدينة فيما يتم تدمير أراضيه. كان مجرد رؤية جيش يواجه الغازي قد رفع من معنوياته. كان جيام مفكراً صلباً، ورجلاً يمكن الاعتماد عليه. كان صحيحاً أنه لم يخض معركة خلال ارتقائه سلم السلطة في الجيش، لكن راي تشيانغ كان قد راجع خططه ولم يجد عيباً فيها. كان الملك يشرب شراباً أبيض في أثناء انتظاره، مستسيغاً فكرة رؤية القضاء على أعدائه أمام ناظريه. كانت أنباء النصر ستصل إلى الإمبراطور وي وسيشعر بالمرارة. لو أن أبناء تشن كانوا قدموا له التعزيزات، كان راي تشيانع سيبقى مديناً لهم إلى الأبد. كان الإمبراطور وي ذكياً بما يكفي ليعرف أنه قد تخلى عن تفوقه في التجارة والسلطة، وقد أسعدت الفكرة راي تشيانغ. كان سيعمل على إبلاغ تشن بكل تفاصيل المعركة.

شاهد القائد جيام سحابة من الغبار عندما تقدم العدو. أدرك أن الأرض كانت قد جفّت تماماً لأن المزارعين لم يعودوا يجرؤون على ري محاصيلهم. كان أولئك الذين حاولوا القيام بذلك قد لقوا حتفهم على يد مستطلعي الغازي، وكان من الواضح أن الأمر تم بهدف التسلية أو إراقة دماء شباب. فكّر جيام بأن الأمر سيتوقف في ذلك اليوم.

تم نقل أوامره للصفوف على رايات عالية، ترفرف في النسيم حتى يراها الجميع. عندما نظر على طول الصفوف، كانت الشارات السوداء تختلط بالرايات الحمراء كرمز يعني أنهم سيحافظون على الأرض. خلف الجيش، كانت الحقول مليئة بمئة ألف وتد كبير من الحديد، المتوارية في الأعشاب. انتظر جيام بنفاد صبر حتى يهاجمهم رجال القبائل. ستكون مذبحة ثم سيرفع الرايات لشن

هجوم والالتحام مع العدو، فيما لا يزال المغول مذهولين.

تولى الفرسان الملكيون أمر الجناحين، وأومأ جيام لنفسه من رؤية جيادهم الرائعة، تصهل وتضرب الأرض بحوافرها بهياج. وقف حراس الملك الذين يحملون رماحاً متأهبين في وسط جيشه، وكان منظرهم بديعاً بملابسهم الحمراء التي تشبه حراشف أسماك غريبة. ساعدت وجوههم الكئيبة في تثبيت الآخرين عندما أصبحت سحابة الغبار أكبر وشعروا جميعاً بالأرض تهتز تحت أقدامهم. شاهد جيام إحدى سواري الرايات تسقط وأرسل رجلاً لمعاقبة حاملها. كان جيش كزي كزيا متوتراً، وكان يستطيع رؤية ذلك في وجوههم. عندما يشاهدون صف العدو ينهار، سيمنحهم ذلك الشجاعة. شعر جيام بأن مثانته تؤلمه، وأطلق لعنة بصوت خافت، وكان يعرف أنه لا يستطيع أن يترجل عن جواده فيما العدو يندفع نحوهم. في الصفوف، شاهد الكثير من الرجال يتبولون على الأرضية الرملية، ويجهزون أنفسهم.

كان عليه أن يصرخ بأوامره فوق وقع حوافر الجياد التي تعدو بأقصى سرعتها. كان ضباط الحرس منتشرين على طول الصف، وكرّروا الأمر بالوقوف والانتظار.

تمتم: "قليل من الوقت فقط". كان يستطيع رؤية أفراد بين الجيش وتقلصت معدته من كثرة عددهم. شعر بنظرات المواطنين خلفه وكان يعرف أن الملك يشاهد مع كل رجل وامرأة أخرى استطاعت إيجاد مكان لها على الأسوار. كانت ينشوان تعتمد عليهم في بقائها، ولن يخذلوها.

وقف نائبه مستعداً لنقل أوامر جيام. قال: "سيكون نصراً مؤزراً أيها القائد". استطاع جيام سماع التوتر في صوت الرجل، وأرغم نفسه على الاستدارة بعيداً عن العدو.

"مع وجود الملك يراقبنا، ينبغي ألا يفقد الرجال شجاعتهم. هل يعرفون من يراقب ما يجري؟".

"لقد تأكدت من ذلك أيها القائد. إنهم...". اتسعت عينا الرجل، وأعاد جيام بصره إلى الصف المهاجم الذي يندفع عبر السهل.

من وسط الصف، تقدم مئة جواد إلى الأمام، وشكّل الفرسان رتلاً مثل رأس سهم. راقب جيام من دون أن يفهم فيما كانوا يقتربون من خط المسامير المخبأ في الأعشاب. تردد، غير واثق كيف سيؤثر التشكيل الجديد في خططه. شعر بخط من العرق يسيل من شعره وشهر سيفه لإبقاء يديه ثابتتين.

همس: "وصلوا تقريباً...". كان الفرسان جاثمين على صهوات جيادهم، ووجوههم مجهدة من الرياح. راقب جيام بينما كانوا يعبرون الخط الذي أنشأه، وخلال لحظة مرعبة، فكّر أنهم سيندفعون بطريقة ما مباشرة عبر الأوتاد. ثم صرخ أول جواد، وتعثر فوق نفسه وسقط على الأرض. سقط العشرات غيره عندما انغرست الأجراء اللينة من الحوافر في الأوتاد ولقي الرجال على ظهورها حتفهم. ترنّح الرتل الضئيل واختبر جيام لحظة فرح غامر. شاهد صف الجياد التي تجري بأقصى سرعة يتمايل عندما شدّ المحاربون في الخلف لجام جيادهم بعنف. أصيب تقريباً كل أولئك الذين كانوا يقودون جيادهم بأقصى سرعة في حقل الأوتاد بإصابات بالغة أو لقوا حتفهم على الأعشاب، وارتفع الهتاف من الصفوف الحمراء.

شاهد جيام أن رايات الرماح كانت ترفرف عالياً وشدّ قبضته اليسرى بسعادة. ليأتوا سيراً على الأقدام ويروا ما سيقدمه لهم!

خلف الرجال والجياد التي تطلق الصرخات، تبعثرت كتلة الجيش من دون تشكيل منتظم، وقد فقد أفرادها كل دافع بموت إخوانهم. بينما كان جيام يراقب ما يجري، دبّ الذعر في قلوب رجال القبائل غير المدربين. لم تكن لديهم تكتيكات سوى الهجوم الشرس وقد خسروا ذلك. من دون سابق إنذار، استدار المئات إلى الخلف ليتسابقوا عائدين عبر خطوطهم. انتشر حشد الرعاع بسرعة استثنائية وشاهد جيام ضباطاً مغولاً يصرخون بأوامر متناقضة على رجالهم

الهاربين، يضربونهم بجانب سيوفهم كلما مرّوا بهم. خلفه، قهقه شعب ينشوان من ذلك المنظر.

اهتز جيام على السرج. كان صفه الأول بكامله قد تقدم نصف خطوة إلى الأمام، مجهدين مثل كلاب مربوطة بلجام. استطاع أن يشاهد تصاعد الرغبة للدماء فيهم وكان يعرف أن عليه السيطرة على ذلك.

صرخ: "توقفوا! أيها الضباط، سيطروا على رجالكم. آمركم بالتوقف!". لم يكن ممكناً إيقافهم. حطمت خطوة أخرى القيد الأخير واندفعت الصفوف الحمراء التي تصرخ إلى الأمام، ودروعهم الجديدة تلمع. امتلأ الهواء بالغبار. وحدهم حراس الملك حافظوا على مواقعهم، وحتى عند ذلك، تم إرغام الفرسان في الجناحين على التقدم إلى الأمام مع الآخرين أو تركهم من دون حماية. صرخ جيام مراراً وتكراراً بيأس وجأر ضباطه الذين جالوا على طول الخطوط، محاولين جعل الجيش يتراجع. كان ذلك مستحيلاً. كانوا قد شاهدوا العدو يجول في ظل المدينة طيلة شهرين تقريباً. كانت هناك أخيراً فرصة لإثخانهم بالجراح. صرخ أفراد المليشيا متمردين عندما وصلوا إلى حاجز الأوتاد الحديدية. لم تكن تلك الأوتاد لتشكل خطراً على الرجال وعبروا تلك المنطقة بسرعة، وقتلوا أولئك المحاربين الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة وطعنوا الموتى مراراً وتكراراً حتى ظهرت بقع من الدم على الأعشاب.

استعمل جيام جواده لإيقاف خطوط من الرجال بأفضل ما يستطيع. بغضب شديد، جعل الأبواق تصدح مطالبة بالانسحاب، لكن الرجال لم يعودوا يسمعوا أو يروا أي شيء سوى العدو والملك الذي يراقبهم. لم يكن ممكناً إعادتهم إلى الخلف.

على صهوة جواده، شاهد جيام تغيراً مفاجئاً في القبائل قبل أيٍّ من رجاله الذين يركضون نحوهم. أمام ناظريه، اختفى الحشد المضطرب، وتشكلت خطوط مغول جديدة بانضباط مرعب. كان جيش كزي كزيا القرمزي قد قطع

مسافة نصف ميل وراء الشراك والحفر التي قاموا بتجهيزها في الليلة السابقة، ويتسابق أفراده إلى الأمام لتلويث سيوفهم بالدماء وإبعاد هؤلاء الأعداء عن مدينتهم. من دون سابق إنذار، واجهوا جيشاً واثقاً من الفرسان على أرض مكشوفة. أصدر جنكيز أمراً واحداً ودفع أفراد القوة كلهم جيادهم للجري هرولة. سحب محاربو المغول أقواساً من حقائب جلدية على السروج، وتناولوا أول السهام الطويلة من كنانات على أردافهم أو ظهورهم. قادوا الجياد بركبهم وحدها، وكانت السهام تتجه إلى الأسفل. عند صدور أمر آخر من جنكيز، دفع الفرسان جيادهم للجري خبباً ثم بأقصى سرعة، وارتفعت السهام إلى مستوى وجوههم استعداداً لإطلاق الضربة الأولى.

عالقين في مكان مكشوف، اكتسح الخوف صفوف الجيش الأحمر. تدافعت خطوط كزي كزيا وكان البعض في الخلف لا يزال يهتف من دون أن يعرف أن جيش المغول قام بهجوم مضاد. جأر جيام بأوامر يائسة لزيادة المسافة بين الصفوف، لكن لم يستجب له سوى حرس الملك. عندما واجهوا هجوماً واسعاً للمرة الثانية، اقترب أفراد المليشيا بعضهم من بعض، خائفين ومشوشين.

ضرب عشرون ألف سهم الصفوف الحمراء وجعلوا أفرادها يجثون على ركبهم. لم يكونوا يستطيعون الرد على الضربات بوجه مثل ذلك الدمار. لم يستطع رماة القوس والنشاب إطلاق سوى سهام طائشة نحو العدو، وأعاقهم تعثر رفاقهم. سحب المغول سهاماً من كناناتهم وأطلقوها عشر مرات كل ستين ضربة قلب وكانت دقتهم قاتلة. أنقذت الدروع الحمراء بعض الجنود، لكن عندما نهضوا يصرخون، تلقوا ضربات مراراً وتكراراً حتى تم دفعهم إلى الأرض. عندما اندفع المغول للاشتباك في قتال قريب، دفع جيام قدميه في جانبي جواده وأسرع عبر الخطوط النازفة إلى رمّاحي الملك، محاولاً جعلهم يصمدون. بطريقة ما، مرّ من دون أن يصاب بأذى.

لم يكن حرّاس الملك يبدون مختلفين عن المليشيا بدروعهم الحمراء. عندما

تولى جيام القيادة، شاهد أن بعض أفراد المليشيا يندفعون عائدين من صفوفهم، يلاحقهم فرسان المغول وهم يصرخون. لم يركض الحراس، وأصدر جيام أمراً حاسماً لرفع الرماح، والذي تم تناقله على طول الصف. شاهد رجال القبائل متأخرين كثيراً فهؤلاء لم يصابوا بالذعر مثل الآخرين. تم توجيه نصال الرماح بزاوية يمكنها شطر الرجل نصفين عندما يندفع مهاجماً، وسقط العشرات من المغيرين المغول عندما حاولوا اختراق الصف. شعر جيام بالأمل يزداد بأنهم يستطيعون النجاة ذلك اليوم.

كان فرسان الحرس قد خرجوا للدفاع عن الأجنحة ضد العدو المتحرك. عندما تم سحق المليشيا، لم يبقَ مع جيام سوى بضع آلاف من رجال الملك المدربين وبضع مئات الأفراد المتفرقين. بدا المغول مسرورين بضرب فرسان كزي كزيا. كلما حاول فرسان الحرس شن هجوم، كان رجال القبائل يندفعون بسرعة كبيرة ويصطادون الرجال بالسهام. كان أشرسهم يشتبك مع الحراس بالسيوف، ويتقدمون ويتأخرون مثل حشرات تلسع. على الرغم من أن الفرسان حافظوا على انضباطهم، إلا أنهم كانوا مدربين على ملاحقة مشاة في حقل مكشوف ولم يكونوا يستطيعون التعامل مع هجمات من كل الاتجاهات. كانوا عالقين بعيداً عن المدينة، وتعرضوا لمذبحة.

نجا الرمّاحون من الهجمات الأولى ضدهم، وبقروا بطون جياد المغول. عندما تم سحق وبعثرة فرسان الملك، أصبح أولئك الذين يقاتلون على أقدامهم مكشوفين. لم يستطع الرمّاحون الاستدارة لمواجهة الجيش بسهولة وفي كل مرة حاولوا فيها، كانوا بطيئين للغاية. صرخ جيام بالأوامر يائساً، لكن المغول طوقوهم وشتّتوهم إلى أجزاء بعاصفة من السهام التي فشلت على الرغم من ذلك في إلحاقه بهم. سقط كل رجل لقي حتفه مع اثني عشر سهماً فيه، أو وقع عن سرجه بضربة من سيف فارس يمتطي جواداً يعدو بأقصى سرعة. كسرت الرماح وسحقها الحشد. حاول أولئك الذين بقوا على قيد الحياة الهرب إلى ظل

الأسوار حيث يمكن لرماة السهام حمايتهم، لكن تم القضاء على معظمهم تقريباً.

أُغلقت البوابات. عندما نظر جيام إلى الخلف على المدينة، وجد نفسه مكللاً بالعار. لا بد أن الملك كان يراقب ما يجري برعب. لقد تبعثر الجيش وتم تدميره. لم يصل سوى بعض الرجال المرهقين إلى الأسوار. بطريقة ما، بقي جيام على سرجه، أكثر إدراكاً من ذي قبل لنظرة ملكه. ببؤس، رفع سيفه ووجهه بهدوء نحو صفوف المغول حتى لاحظوه.

اخترق سهم إثر آخر درعه الأحمر بينما كان يقترب منهم. قبل أن يصل إلى الصف، خرج محارب شاب على جواد يعدو بأقصى سرعته للقائه، وقد شهر سيفه. صرخ جيام مرة، لكن المحارب استطاع تفادي ضربته، وأحدث جرحاً بليغاً تحت ذراع القائد اليمنى. ترنح جيام على السرج، وتباطأت سرعة جواده إلى المشي. استطاع سماع المحارب يستدير عائداً إليه، لكن ذراعه كانت معلقة بالأوتار ولم يستطع رفع سيفه. سالت الدماء على فخذيه ونظر إلى الأعلى للحظة، ولم يشعر أبداً بالضربة التي بترت رأسه وأنهت عاره.

قاد جنكيز جواده مبتهجاً بالنصر عبر تلال الموتى الذين يرتدون الدروع القرمزية التي تشبه جثث الخنافس اللامعة. بيده اليمنى، كان يحمل رمحاً طويلاً ورأس قائد جيش كزي كزيا في الأعلى، ولحيته البيضاء ترتعش في النسيم. سالت الدماء على طول المقبض حتى وصلت يده، وجفّت هناك وجعلت أصابعه دبقة معاً. كان بعض أفراد الجيش قد هربوا جرياً عائدين عبر حقل الأوتاد حيث لا يمكن لفرسانه اللحاق بهم. حتى عند ذلك، كان قد أرسل محاربين يقودون جيادهم سيراً على الأقدام. كان عملاً بطيئاً وربما استطاع ألف فقط من جنود العدو الاقتراب بما يكفي من المدينة ليكونوا بحماية رماة السهام. ضحك جنكيز من منظر الرجال المتسخين الواقفين في ظل ينشوان. بقيت البوابات مغلقة ولم يكن بوسعهم فعل شيء سوى التحديق بيأس مطلق

على محاربيه بينما كانوا يسيرون بين الموتى، يضحكون وينادون بعضهم.

ترجل جنكيز عندما وصل إلى العشب، وأسند الرمح الملطخ بالدماء على ردف جواده. انحنى إلى الأسفل والتقط أحد الأوتاد، وتفحّصه بفضول. كان شيئاً بسيطاً مصنوعاً من أربعة قطع معدنية متصلة معاً وتبقى للأعلى كيفما سقطت. لو تم إرغامه على اتخاذ موقف دفاعي، فكّر بأنه كان سيضع مجموعات منها في دوائر تصبح أوسع فأوسع حول الجيش، لكن مع ذلك لم يكن المدافعون محاربين كما كان يعرفهم. كان رجاله يتمتعون بانضباط أفضل، تدربوا على أرض أقسى من وادي كزي كزيا الآمن.

عندما مشى جنكيز، استطاع رؤية قطع من دروع ممزقة ومكسورة على الأرض. فحص قطعة منها باهتمام، وشاهد كيف أن الطلاء الأحمر قد تساقط عند الأطراف. كان بعض جنود كزي كزيا قد قاتلوا جيداً، لكن سهام المغول أصابتهم على الرغم من ذلك. كان فأل خير للمستقبل والمواجهة الأخيرة التي كان قد أحضر محاربيه لأجلها إلى المكان المناسب. كان الرجال يعرفون ذلك فيما كانوا ينظرون إلى خانهم بإعجاب. كان قد سار بهم عبر الصحراء ليواجهوا أعداءً لا يقاتلون بشكل جيد. كان يوماً رائعاً.

وقع بصره على عشرة رجال يرتدون ملابس مطرزة باللون الأزرق الخاص باليوغر بينما كانوا يمشون بين الموتى. كان أحدهم يحمل كيساً وشاهد الآخرين يمدون أيديهم التي تحمل سكيناً إلى الجثث بحركة سريعة مرتعشة.

ناداهم قائلاً: "ماذا تفعلون؟". وقفوا بفخر عندما شاهدوا الذي يتكلم معهم.

رد أحدهم: "قال بارشوك اليوغر إنك ستوّد معرفة عدد الموتى. نحن نقطع الآذان ليتم عدّها لاحقاً".

طرفت عينا جنكيز. نظر حوله وشاهد أن العديد من الجثث القريبة تحمل علامات جروح بليغة ملطخة بالدماء حيث كانت آذانها في صبيحة ذلك اليوم. كان الكيس ممتلئاً آنذاك.

شرع بالقول: "يمكنكم أن تشكروا بارشوك نيابة عني"، لكنه صمت بعد ذلك. بينما كان الرجال يتبادلون نظرات قلقة، مشى جنكيز ثلاث خطوات بين الجثث، مما جعل الذباب يطن في الهواء حوله.

قال جنكيز: "هناك رجل من دون أي أذن هنا". أسرع محاربو اليوغر إليه، وحالما شاهدوا الجندي من دون أذنين، بدأ الرجل الذي يحمل الكيس يشتم رفاقه.

"أيها الحمقى البائسون! كيف نستطيع إجراء تعداد صحيح إذا قطعنا كلتا الأذنين؟".

ألقى جنكيز نظرة واحدة على وجوههم وانفجر ضاحكاً بينما كان يعود إلى جواده.

كان لا يزال يضحك بصوت خافت عندما أمسك بالرمح وقذف بمجموعة من الأوتاد السوداء على العشب. قاد جواده ليسير بهدوء نحو الجدران مع غنيمته المروّعة، مقدّراً المسافة التي يمكن لرماة كزي كزيا إيصال سهامهم إليها.

على مشارف أسوار المدينة، غرز الرمح في الأرض بكل ثقله، وتراجع إلى الخلف عنه بينما كان يحدق إلى الأعلى. كما كان قد توقع، طارت سهام رفيعة نحوه، لكن المدى كان بعيداً جداً ولم يفزع منها. بدلاً من ذلك، شهر سيف والده ورفعه نحوهم، بينما كان جيشه ينشد ويصرخ خلفه.

أصبح تعبير وجه جنكيز متجهماً مرة أخرى. كان قد أنجز عملية صهر الأمة الجديدة. كان قد أظهر أنهم يستطيعون الصمود حتى ضد جنود تشن. على الرغم من ذلك، لم تكن أمامه طريقة لدخول مدينة تسخر منه بقوتها. قاد جواده ببطء إلى حيث كان شقيقاه قد اجتمعا. أومأ جنكيز لهما، وقال: "حطّما القنوات".

الفصل الثامن

على الرغم من عمل كل رجل قوي البنية بالحجارة ومطارق الحديد، إلا أن الأمر استغرق ستة أيام لتحويل القنوات حول ينشوان إلى أنقاض. في البداية، نظر جنكيز إلى الدمار بسعادة غامرة، وكان يأمل بأن تغمر أنهار الجبال المدينة.

أزعجه ارتفاع المياه السريع في السهول، حتى أضحى محاربوه يغوصون فيها حتى الكاحل قبل أن ينتهوا من تدمير آخر القنوات. لقد نجم عن الحرارة الشديدة تلك الأيام ذوبان كميات كبيرة من الثلوج فوق قمم الجبال، ولم يكن قد فكّر فعلاً أين سيذهب كل ذلك الماء طالما أنه لن يجري عبر القنوات نحو المدينة والحقول.

حتى الأرض المائلة قليلاً أصبحت مغطاة بالطين بحلول ظهيرة اليوم الثالث، وعلى الرغم من أن الحقول فاضت إلا أن مستوى المياه استمر بالارتفاع. استطاع جنكيز رؤية الارتباك بادياً على وجوه قادة جيشه عندما أدركوا الخطأ. في البداية، كان الصيد ممتازاً عندما أصبح بالإمكان رؤية حيوانات صغيرة تهرب من مياه الفيضان من بعيد. تم اصطياد مئات الأرانب البرية وإحضارها إلى المعسكر في حزمٍ جميلة من الفرو الرطب، لكن بعد ذلك، أصبحت الخيام عرضة للخطر. كان جنكيز مرغماً على نقل المعسكر أميالاً إلى الشمال قبل أن تُغرق المياه السهل بأكمله.

بحلول المساء، كانت المياه قد وصلت إلى مستوى فوق نظام القنوات المحطم حيث كانت التربة لا تزال متماسكة. كانت مدينة ينشوان علامة داكنة تلوح من بعيد، وفي الوسط، كانت بحيرة جديدة قد انبثقت من العدم. لم يكن عمقها أكثر من قدم، لكنها عكست أشعة الشمس الغاربة ولمعت بلون ذهبي على بعد أميال.

كان جنكيز يجلس على الدرجات التي تؤدي إلى خيمته عندما جاء شقيقه خاسار، ووجهه خالٍ من أي تعبير. لم يكن أي أحد آخر يجرؤ على قول أي شيء للرجل الذي يقودهم، لكن كانت هناك الكثير من الوجوه المتعبة في المعسكر تلك الأمسية. أحبت القبائل المرح وكان إغراق السهل بالمياه يناسب حس الدعابة لديها.

تابع خاسار نظرة شقيقه الغاضبة على امتداد المياه. تمتم خاسار: "حسناً، لقد علّمنا ذلك درساً قيّماً. هل ينبغي أن أجعل الحراس يترقبون سبّاحي العدو، الذين يتسللون إلينا؟".

نظر جنكيز بغضب إلى شقيقه. كان كلاهما يستطيعان رؤية أطفال من القبائل يمرحون عند حافة المياه، بشرتهم سوداء من الطين اللزج، ويدفعون بعضهم إليها. كان جوشي وتشاغاتي في الوسط كالمعتاد، مسرورين بالميزة الجديدة لسهل كزي كزيا.

رد جنكيز مقطب الحاجبين: "ستغور المياه في الأرض".

هزّ خاسار كتفيه استخفافاً.

"إذا حولنا مسار المياه، نعم. أعتقد أن المسار سيكون مريحاً جداً للفرسان بعد ذلك. يخطر لي أن تحطيم القنوات ربما لم يكن أفضل خطة استطعنا التفكير بها".

استدار جنكيز ليشاهد شقيقه ينظر إليه بتعبير ساخر على وجهه، وأطلق ضحكة بينما كان ينهض على قدميه.

"لقد تعلمنا يا شقيقي. معظم ما يجري جديد بالنسبة إلينا. في المرة القادمة، لن نحطم القنوات. هل أنت راضٍ الآن؟".

رد خاسار مبتهجاً: "أنا راضٍ. كنت قد بدأت أعتقد أن شقيقي لا يرتكب خطأً. لقد كان اليوم ممتعاً بالنسبة لي".

قال جنكيز: "أنا سعيد من أجلك". راقبا الفتيان اللّذان شرعا في الشجار

مجدداً على حافة المياه. رمى تشاغاتي بنفسه على شقيقه، وتعاركا معاً في المياه الطينية الضحلة، أحدهما فوق ثم الآخر.

قال جنكيز: "لا يمكن مهاجمتنا من الصحراء ولا يستطيع جيش الوصول إلينا هنا والبحيرة الجديدة في الطريق. لنُقم مأدبة الليلة ونحتفل بانتصارنا".

أومأ خاسار وهو يبتسم. "هذه فكرة رائعة يا شقيقي".

قبض راي تشيانغ على ذراعي كرسيه المطلي بالذهب، يحدّق إلى السهل الغارق بالمياه. كان في المدينة مخازن من اللحم المقدد والحبوب، لكن مع فساد المحاصيل الزراعية، لن يكون هناك المزيد. قلّب المشكلة مراراً وتكراراً في ذهنه من دون أن يعثر على بارقة أمل. على الرغم من أن أحداً لم يكن يعرف بذلك، إلا أن العديد في المدينة كانوا سيتضورون جوعاً حتى الموت. كان الجوع سيتغلب على حراسه الباقين عندما يحل الشتاء، وقد تنهار ينشوان من الداخل.

إلى أبعد مدى يمكن لبصره الوصول إليه، كانت المياه تمتد حتى الجبال. خلف المدينة إلى الجنوب، كانت لا تزال هناك حقول وبلدات لم يصلها الغزاة أو الفيضان، لكنها لم تكن كافية لإطعام شعب كزي كزيا. فكّر في المليشيات في تلك الأماكن. إذا سحب كل رجل من تلك البلدات، سوف يستطيع تجميع جيش آخر، لكنه سيفقد الأقاليم لصالح قطاع الطرقات حالما تبدأ المجاعة. كان الأمر مثيراً للحنق، لكن لم يكن هناك حل آخر لمشاكله.

تنهد لنفسه، مما جعل وزيره الأول ينظر إليه.

قال راي تشيانغ بصوتٍ عالٍ: "لطالما قال لي والدي أن أعمل على إطعام الفلاحين. لم أفهم أهمية الأمر في ذلك الوقت. ماذا يهم إن تضور بعضهم جوعاً كل شتاء؟ ألا يدل ذلك على سخط الآلهة؟".

أومأ الوزير الأول بوقار. "من دون مثال المعاناة يا صاحب الجلالة، لن يعمل شعبنا. طالما أنهم يستطيعون رؤية نتائج الكسل، سيكدحون تحت الشمس لإطعام أنفسهم وعائلاتهم. إنها الطريقة التي رتّبت بها الآلهة العالم، ولا يمكننا

الوقوف ضد رغبتها".

قال راي تشيانغ بحدّة، متعباً من نبرة صوت الرجل: "لكنهم جميعاً سيختبرون الجوع الآن. بدلاً من أن يكون ذلك مجرد مثال، أو درساً أخلاقياً، سيصرخ نصف شعبنا مطالباً بالطعام ويقاتلون بعضهم في الشوارع".

رد الوزير دونما اهتمام: "ربما يا صاحب الجلالة. سيموت الكثيرون، لكن المملكة ستبقى. ستنمو المحاصيل مجدداً السنة القادمة، وستكون هناك وفرة لأفواه الفلاحين. سيصبح أولئك الذين ينجون من الشتاء بدينين ويقدّسون اسمك".

لم يستطع راي تشيانغ العثور على كلمات مناسبة للجدال. نظر من برج قصره إلى الازدحام في الشوارع. كان أدنى المتسولين قد سمع أنباء ترك المحاصيل تفسد في المياه من الجبال. لم يكونوا يشعرون بالجوع بعد، لكن لا بد أنهم كانوا يفكرون بشهور البرد، وكانت أحداث شغب قد وقعت آنذاك. كان حراسه قساة بتنفيذ أوامره، يقتلون المئات عند أدنى إشارة على حدوث قلاقل. كان الشعب قد اعتاد أن يخاف من الملك، وعلى الرغم من ذلك كان الملك في أفكاره الخاصة يخاف منهم أكثر.

سأل أخيراً: "هل يمكن إنقاذ أي شيء؟". ربما كان ذلك من بنات خياله، لكنه اعتقد بأنه يشم رائحة قوية لنباتات متعفنة في النسيم.

أمعن الوزير الأول التفكير، ينظر في سلسلة من الأحداث في المدينة كما لو أنه سيجد الإلهام هناك.

"إذا غادر الغزاة اليوم يا صاحب الجلالة، يمكننا من دون شك إنقاذ بعض كميات الحبوب القاسية. يمكننا زراعة الأرز في الحقول المغمورة بالمياه وحصاد محصول واحد. ينبغي إعادة بناء القنوات، أو يمكننا إعادة توجيه مجرى الماء حول السهل. ربما يمكن إنقاذ عُشر المحصول".

تابع راي تشيانغ قائلاً: "لكن الغزاة لن يغادروا". ضرب بقبضته على ذراع

الكرسي.

"لقد هزمونا. وصل رجال القبائل الكريهون المليئون بالقمل إلى قلب كزي كزيا، وأنا قابع هنا أتابع ما يجري وأشم رائحة القمح المتعفن الكريهة".

أحنى الوزير الأول رأسه من التقريع، خائفاً أن يتكلم. كان قد تم إعدام اثنين من زملائه في صبيحة ذلك اليوم عندما أصبح مزاج الملك حاداً. لم يكن يرغب بالانضمام إليهما.

نهض الملك، وشبك يديه خلف ظهره. "لم يتبقَ لي خيارات. إذا جرّدت بلدات الجنوب من المليشيا، فلن يعادلوا بعددهم عدد الذين سقطوا في المعركة السابقة. كم سيطول الأمر قبل أن تصبح تلك البلدات معاقل قوية لقطّاع الطرقات من دون وجود جنود الملك للحفاظ على السلم فيها؟ سأخسر الجنوب إضافة إلى الشمال، ثم ستسقط المدينة". أطلق لعنة بصوت خافت، فشحب وجه الوزير.

"لن أجلس وانتظر أن يثور الفلاحون، أو أن تملأ رائحة العفن الكريهة هذه كل غرفة في المدينة. أرسل مبعوثين إلى قائد ذلك الشعب. قل له إنني أريد الاجتماع به حتى نناقش مطالبه من شعبي".

قال الوزير بصوت متقطع: "يا صاحب الجلالة، إنهم ليسوا أفضل من كلاب همجية. لا يمكننا التفاوض معهم".

أدار راي تشيانغ عينيه الغاضبتين نحو وزيره.

"ابعث بهؤلاء المبعوثين. لم أستطع تدمير جيش الكلاب الهمجية هذا. كل ما لدي هو حقيقة أنه لم يستطع الاستيلاء على مدينتي مني. ربما يمكنني رشوته حتى يغادر".

احمّر وجه الوزير خوفاً من عار المهمة، لكنه انحنى حتى الأرض، ووضع رأسه على الخشب البارد.

عندما حل المساء، كانت القبائل ثملة وتغني. كان الرواة مشغولين بحكايات

المعركة وكيف استطاع جنكيز سحب العدو إلى خارج منطقة الأوتاد الحديدية. جعلت قصائد هزلية الأطفال يقهقهون، وقبل أن يختفي الضوء، كانت هناك العديد من مسابقات المصارعة ورمي السهام، وكان الأبطال يضعون أكاليل من العشب على رؤوسهم حتى يفقدوا وعيهم أيضاً من فرط تناول الشراب.

أشرف جنكيز وقادة جيشه على الاحتفال. بارك جنكيز اثني عشر زواجاً جديداً، ومنح أسلحة وجياداً من قطيعه الخاص لمحاربين كانوا قد تميزوا. كانت الخيام مليئة بالنساء اللواتي تم أسرهن من البلدات، على الرغم من أن بعض الزوجات لم يرحبن بالوافدات الجديدات. كان أكثر من شجار بين النساء قد انتهى بإراقة الدماء، وكانت الغلبة كل مرة للنساء المغوليات القويات ضد سبايا أزواجهن. قبل أن يحل الظلام، تم استدعاء كشيون إلى ثلاثة مواقع شهدت حالات قتل بعد أن ثار الغضب نتيجة الشراب الأسود في عروق المحاربين. كان قد أمر بتقييد رجلين وامرأة إلى عمود وضربهم حتى تسيل الدماء منهم. لم يكن يهتم بشأن أولئك الذين لقوا حتفهم، لكنه لم يكن يرغب برؤية القبائل تنغمس في عربدة شهوة وعنف. ربما بسبب يده الحديدية، بقي مزاج القبائل معتدلاً بينما كانت النجوم تبزغ؛ وعلى الرغم من أن بعضهم افتقد لسهول الوطن، إلا أنهم كانوا ينظرون إلى قادتهم بفخر.

كان إلى جانب الخيمة التي يلتقي فيها جنكيز قادة جيشه بيت عائلته، ولم يكن أكبر أو أكثر زخرفة من أي خيمة أخرى تنصبها عائلات الأمة الجديدة. بينما كان يهتف لحلبات المصارعة، تمت إضاءة المشاعل حول المعسكر الكبير، وجلست زوجته بورت مع أبنائه الأربعة، تغني لهم بصوت رقيق بينما يتناولون الطعام. مع حلول الغسق، أضحى العثور على جوشي وتشاغاتي صعباً، وكانا يفضلان الضوضاء والمرح على الطعام والنوم. كانت بورت مرغمة على إرسال ثلاثة محاربين ليطوفوا بالخيام بحثاً عنهما، وتم إعادتهما وهما لا يزالان يتعاركان. جلس كلا الصبيين يحدّقان ببعضهما في الخيمة الصغيرة بينما كانت

بورت تغني لأوجيدي وتولي الصغير لينا‌ما. كان النهار مرهقاً بالنسبة لهما ولم يمضِ وقت طويل حتى استغرق الابنان الصغيران بأحلامهما في بطانيتهما.

استدارت بورت إلى جوشي، وتقطب حاجباها من الغضب في وجهه. قالت له: "لم تأكل أيها الشاب". تأفف من دون أن يرد، وانحنت بورت للاقتراب منه. سألته: "لا يمكن أن يكون الشراب الأسود هو ما أشم في أنفاسك؟". تغير مزاج جوشي بلحظة واحدة، ورفع ركبتيه مثل حاجز.

قال تشاغاتي، سعيداً لرؤية شقيقه يرتبك: "لا بد أنه كذلك. أعطاه بعض الرجال شراباً وتقيأ على الأعشاب".

صرخ جوشي، وهو يقفز من مكانه: "أغلق فمك!". أمسكت به بورت من ذراعه، وكانت قوتها تضاهي بسهولة قوة الفتى الصغير. ابتسم تشاغاتي راضياً عما يراه.

قال جوشي بحدّة وهو يكافح للتخلص من قبضة أمه: "إنه منزعج لأنه كسر قوسه المفضل هذا الصباح. دعيني!".

صفعت بورت جوشي على وجهه رداً على ذلك، وألقت به على البطانيات. لم تكن صفعة قاسية، لكنه رفع يده إلى خده مصدوماً.

قالت بغضب: "لقد سمعت عن مشاجراتك طيلة النهار. متى ستدرك أنه لا يمكنك القتال مثل الجراء فيما القبائل تراقبك؟ ليس أنت. هل تعتقد أن ذلك يسعد والدك؟ إذا قلت له، سوف...".

قال جوشي بسرعة، والخوف بادٍ على وجهه: "لا تقولي له".

رقّت بورت مباشرة. "لن أفعل، إذا أحسنت التصرف. لن ترثا منه شيئاً لأنكما ببساطة ابناه. هل أرسلان من لحمه ودمه؟ إذا كنتما تصلحان للقيادة، سيختاركما، لكن لا تتوقعا منه تفضيلكما على رجال أفضل منكما".

كان كلا الصبيين يصغيان باهتمام، وأدركت أنها لم تكن قد تكلمت معهما بتلك الطريقة من قبل. فاجأها كيف أنهما تشبثا بكل كلمة وأمعنت التفكير في

ما يمكن أن تقوله أيضاً قبل أن يشرد ذهناهما.

قالت: "تناولا طعامكما فيما تستمعان". لسعادتها، تناول كلا الصبيين طبقي اللحم وباشرا التهامه، على الرغم من أنهما كانا باردين منذ وقت طويل. لم تفارق عيونهما ناظري أمهما بينما كانا ينتظرانها لتتابع ما تقول.

تمتمت: "كنت أعتقد أن والدكما ربما يكون قد شرح هذا لكما. لو أنه خان قبيلة صغيرة، ربما كان متوقعاً أن يرث البكر سيفه، جواده، وأتباعه. توقع هو في ما مضى الشيء نفسه من جدّكما ياسوجي، على الرغم من أن شقيقه بكتر كان أكبر منه".

سأل جوشي: "ماذا حدث لبكتر؟".

قال تشاغاتي بمتعة: "قتله والدي وكشيون".

فزعت بورت فيما اتسعت عينا جوشي دهشة.

"حقاً؟".

تنهدت والدته.

"تلك قصة مختلفة. لا أعرف أين سمعها تشاغاتي، لكن ينبغي أن يعرف ما هو أفضل من الاستماع إلى الإشاعات التي تقال حول نيران المخيم".

أومأ تشاغاتي بسرعة إلى جوشي خلف ظهرها، وابتسم من انزعاج شقيقه. ألقت عليه بورت نظرة غاضبة، وأمسكت به قبل أن يتمالك نفسه.

قالت: "والدك ليس خاناً صغيراً من التلال. لديه قبائل أكثر مما يمكن عدّه على اليدين. هل تتوقع منه تسليمها إلى شخص ضعيف؟". استدارت إلى تشاغاتي: "أو إلى أحمق؟". هزّت رأسها. "لن يفعل ذلك. لديه أشقاء أصغر منه وسينجبون جميعاً أولاداً. ربما يكون الخان القادم منهم، إن لم يكن والدكما راضياً عنكما عندما تصبحان رجلين".

أخفض جوشي رأسه بينما كان يمعن التفكير في الأمر.

تمتم: "أنا أفضل باستعمال القوس من أي شخص آخر. وفرسي بطيء فقط

لأنه صغير جداً. عندما أحصل على مطية لرجل، سأكون أسرع".

تأفف تشاغاتي.

قالت بورت غاضبة: "لا أتكلم عن المهارات الحربية. ستكونان محاربين رائعين، فقد رأيت ذلك فيكما". قبل أن يستطيعا الزهو بالمديح النادر، تابعت قائلة: "سينظر والدكما ليرى إن كنتما تستطيعان قيادة الرجال والتفكير بسرعة. هل رأيتما الطريقة التي جعل بها تسوبودي يقود مئة رجل؟ الفتى غير معروف، وليست لديه صلة دم مهمة، لكن والدكم يحترم ذكاءه ومهارته. سيتم اختباره، لكن ربما يصبح قائداً عندما تكتمل رجولته. يمكنه قيادة ألف، وحتى عشرة آلاف محارب في الحرب. هل ستفعلان الشيء نفسه؟".

قال تشاغاتي مباشرة: "لم لا؟".

استدارت بورت إليه.

"عندما تلعبان مع أصدقائكما، هل أنتما من يتطلع إليهما الآخرون؟ هل تتبعان أفكارهم أم يتبعون أفكاركما؟ فكّرا جيداً الآن، لأن الكثيرين سيتوددون إليكما بسبب والدكما. فكّرا في أولئك الذين يحترمونكما. هل يصغون إليكما؟".

عض تشاغاتي شفته بينما كان يفكر. هزّ كتفيه استخفافاً. "بعضهم. إنهم أولاد".

قالت وهي تضغط عليه: "لماذا سيتبعونك بينما تقضي أيامك في الشجار مع شقيقك؟".

بدا الفتى الصغير ممتعضاً بينما كان يكافح مع أفكار كبيرة للغاية بالنسبة إليه. رفع ذقنه بتحدٍّ. "لن يتبعوا جوشي. يعتقد أنه ينبغي بهم ذلك، لكنهم لن يتبعوه أبداً".

شعرت بورت ببرودة تسري في صدرها لدى سماعها تلك الكلمات.

قالت بلطف: "حقاً يا بني؟ لماذا لن يتبعوا شقيقك الأكبر؟".

أدار تشاغاتي رأسه بعيداً، ومدّت بورت يدها، وأمسكت به بشكل مؤلم من

ذراعه. لم يصرخ، على الرغم من أن الدموع ظهرت في زاويتي عينيه.

سألت بورت بصوت متهدج: "هل هناك أسرار بيننا يا تشاغاتي؟ لماذا لن يتبعوا جوشي أبداً؟".

صرخ تشاغاتي: "لأنه وغد تتاري". هذه المرة، لم تكن الصفعة التي وجهتها بورت لابنها لطيفة، فقد أدارت رأسه إلى الجانب الآخر، واستلقى على السرير، مصاباً بدوار. سال الدم من أنفه، وبدأ ينتحب مصدوماً.

تكلم جوشي بهدوء خلفها وقال: "إنه يقول لهم ذلك طيلة الوقت". كان صوته كئيباً ويمتلئ غضباً ويأساً، ووجدت بورت دموعاً في عينيها من الألم الذي كان يعانيه. كان بكاء تشاغاتي قد أيقظ ولديها الصغيرين وبدأا النحيب أيضاً، متأثرين بالمشهد في الخيمة من دون أن يفهماه.

مدّت بورت يدها إلى جوشي واحتضنته بذراعيها. تمتمت في شعره: "لا يمكنك أن تتمنى عودة الكلمات إلى فم شقيقك الأحمق". تراجعت إلى الخلف بعد ذلك لتنظر في عيني جوشي، تريد منه أن يفهم. "يمكن لبعض الكلمات أن تشكل عبئاً ثقيلاً على الرجل، إلا إن تعلم تجاهلها. سيكون عليك أن تكون أفضل من الجميع لتفوز باستحسان والدك. تعرف ذلك الآن".

همس، وهو يشيح ببصره بعيداً: "هل هذا صحيح إذاً؟". شعر بأن ظهرها قد تيبّس فيما كانت تفكر بالإجابة، وبدأ ينشج بهدوء لنفسه.

"لقد بُذِرتَ في أحشائي في سهل في الشتاء، بعيداً مئات الأميال عن التتار. صحيح أنني ضعت عنه لبعض الوقت وأنه... قتل الرجال الذين أخذوني، لكنك ابنه وابني. ولده البكر".

قال: "عيناي مختلفتان".

تأففت بورت.

"كذلك كانت عينا بكتر عندما كان يافعاً. كان ابن ياسوجي، لكن عيناه كانتا داكنتين كعينيك. لم يجرؤ أحد أبداً على التشكيك بنسبه. لا تفكر بذلك يا

جوشي. أنت حفيد ياسوجي وابن جنكيز. ستكون خاناً يوماً ما".

بينما كان تشاغاتي يتنفس بصوتٍ مسموع ويمسح الدم بيده، كشّر جوشي وانحنى إلى الخلف لينظر إلى أمه. بشكل ظاهر، استجمع شجاعته، وسحب نفساً عميقاً قبل أن يتكلم. تهدّج صوته، وجعله يشعر بالخزي أمام أشقائه.

قال: "قتل شقيقه، وقد رأيت الطريقة التي ينظر بها إلي. هل يحبني على الإطلاق؟".

ضمت بورت الفتى الصغير إلى صدرها، وفؤادها محطم عليه.

"بالطبع يحبك. ستجعله يراك كوريثٍ له، يا بني. سيكون فخوراً بك".

الفصل التاسع

استغرق تحويل مسار القنوات بالتراب والحجارة من خمسة آلاف محارب وقتاً أطول حتى من تحطيمها. كان جنكيز قد أصدر الأمر عندما شاهد أن مستويات الغمر تهدد حتى أرض المعسكر الجديد المرتفعة. عندما تم إنجاز العمل، شكلت المياه بحيرات جديدة إلى الشرق والغرب، لكن الطريق إلى ينشوان كان يجف تحت الشمس أخيراً. كانت الأرض مليئة بنباتات سوداء لزجة وأسراب من الذباب الذي كان يزعج القبائل. غاصت جيادهم إلى ركبها في الطين اللزج، مما صعّب من مهمة المستطلعين وزاد من شعور العزلة في الخيام. كانت هناك نقاشات وشجارات عديدة بين القبائل كل مساء، وكان كشيون يتدخل بقسوة للحفاظ على السلم.

كانت الأنباء التي ينقلها ثمانية فرسان عبر السهل المشبع بالمياه موضع ترحيب كل أولئك الذين تعبوا من عدم قيامهم بأي نشاط. لم يكونوا قد عبروا الصحراء للبقاء في مكان واحد. حتى الأطفال كانوا قد فقدوا الاهتمام بمياه الفيضان، وأصيب العديد منهم بأمراض من شرب المياه الآسنة. شاهد جنكيز فرسان كزي كزيا يكافحون عبر الطين. كان قد حشد خمسة آلاف من محاربيه لمقابلتهم على أرض جافة، ووضعهم على حافة الطين مباشرة حتى لا يكون لجنود العدو مكان يرتاحون فيه. كانت جياد كزي كزيا تلهث آنذاك من جهد سحب كل قائمة من التربة الطينية وكان الفرسان يعانون الأمرّين للحفاظ على وقارهم لأنهم كانوا معرضين لخطر السقوط.

لسعادة جنكيز البالغة، وقع أحدهم فعلاً عن السرج عندما ترنحّت مطيته نتيجة تعثرها بحفرة. صرخت القبائل ساخرة بينما كان الرجل يشد بقوة على لجامه ويمتطي جواده، مغطّى بالطين. نظر جنكيز إلى بارشوك إلى جانبه، ولاحظ تعبير الرضا على وجه الرجل. كان هناك كمترجم، لكن كوكشو وتيموج

وقفا معهما أيضاً لسماع ما سيقوله مبعوث الملك. كان كلا الرجلين قد اهتما بدراسة لغة تشن وهو ما اعتبره جنكيز متعة غير لائقة. كان واضحاً أن الكاهن العرّاف وشقيق جنكيز الصغير يشعران بالإثارة من فرصة اختبار معرفتهما المحدثة.

توقف الفرسان عندما رفع جنكيز راحة يده مبسوطة. كانوا قد اقتربوا بما يكفي بالنسبة له لسماع كلماتهم، بيد أنهم بدوا غير مسلحين، إلا أنه لم يكن رجلاً يثق بالآخرين. لو أنه مكان ملك كزي كزيا، لكان سيفكر بتنفيذ محاولة لاغتياله بالتأكيد في ذلك الوقت. خلفه، كانت القبائل تراقب بصمت، وأقواس أفرادها جاهزة في أيديهم.

صرخ بهم جنكيز: "هل أنتم ضائعون؟". راقب فيما كانوا ينظرون إلى أحدهم، وكان جندياً يرتدي درعاً رائعاً يمتد ليتصل بخوذة من قطع الحديد. أومأ جنكيز لنفسه، وكان يعرف أن الرجل سيتكلم نيابة عنهم جميعاً. لم يكن قد خاب أمله.

رد الجندي: "أحمل رسالة من ملك كزي كزيا". لخيبة أمل تيموج وكوكشو، كانت الكلمات واضحة تماماً بلغة القبائل.

نظر جنكيز متسائلاً إلى بارشوك وتكلم خان اليوغر متمتماً، بالكاد يحرك شفتيه. "لقد رأيته من قبل، في أيام التجارة. إنه ضابط من منزلة متوسطة، ومغرور جداً".

رد جنكيز قبل أن يرفع صوته لمخاطبة الجنود: "يبدو كذلك بهذا الدرع الرائع".

صرخ جنكيز: "ترجلوا إذا أردتم التكلم معي". تبادل الفرسان النظرات، وأخفى جنكيز سعادته فيما كانوا يترجلون إلى الطين السميك. أصبحوا تقريباً غير قادرين على الحركة من لزوجة الطين، وزادت تعبيرات وجههم من حيويته.

تابع جنكيز قائلاً وهو يحدّق إلى الضابط: "ماذا لدى ملككم ليقوله؟". كان

الرجل قد احمرّ وجهه غضباً لأن الطين أفسد حذاءه الرائع واستغرق منه الأمر لحظة ليسيطر على مشاعره قبل أن يجيب.

"يطلب منك لقاءه في ظل أسوار ينشوان، في هدنة. سيضمن لك بشرفه ألا تتعرض لهجوم في أثناء وجودك هناك".

قال جنكيز مجدداً، كما لو أنه لم يسمع الرد: "ماذا لديه ليقوله لي؟".

ازداد غضب الرجل. وقال بحدّة: "لو كنت أعرف ما في ذهنه، لما كانت هناك فائدة كبيرة من مثل ذلك اللقاء". نظر أولئك الذين كانوا معه بقلق على حشد المحاربين المغول الذين ينتظرون مع أقواسهم. كانوا قد رأوا الدقة الاستثنائية لتلك الأسلحة، والتمست عيونهم من متحدثهم عدم توجيه أي إهانة ربما تقود إلى تعرضهم لهجوم.

ابتسم جنكيز. "ما اسمك أيها الرجل الغاضب؟".

"هو سا. أنا هسياو-وي من ينشوان. يمكن أن تناديني بالخان، أو ربما بالضابط".

رد جنكيز: "لن أدعوك خاناً. لكن أهلاً بك في معسكري يا هو سا. أعد هؤلاء الماعز إلى البيت، وسأرحب بك في خيمتي، وأقدم لك الشاي والملح".

استدار هو سا إلى رفاقه، وأمال رأسه إلى الخلف نحو المدينة البعيدة. أطلق أحدهم مجموعة من المقاطع الصوتية الغريبة التي جعلت كوكشو وتيموج ينحنيان إلى الأمام لسماعها. هزّ هو سا كتفيه استخفافاً لمرافقه، وراقب جنكيز بينما كان السبعة الآخرون يمتطون جيادهم ويستديرون عائدين إلى المدينة.

قال بارشوك من خلف كتفه: "تلك جياد جميلة". نظر جنكيز إلى خان اليوغر. أومأ برأسه، وشاهد أرسلان حيث كان يقف أمام صف من المحاربين. أشار جنكيز بإصبعين على المجموعة المنسحبة، مثل أفعى تهاجم فريسة.

بعد لحظة، طار مئة سهم في الهواء أوقع الفرسان السبعة عن سروجهم. قُتل أحد الجياد، وسمع جنكيز أرسلان يصرخ على محارب غير محظوظ لعدم

كفاءته. بينما كان جنكيز يراقب، أخذ أرسلان قوس الرجل وقطع الوتر بضربة من خنجره قبل أن يعيده إليه. أخذ المحارب القوس، وقد طأطأ رأسه إذلالاً.

استلقت الجثث من دون حراك في السهل، وجوهها إلى الأسفل في الطين. على مثل تلك الأرض، لم تكن الجياد تستطيع الانطلاق بسهولة. من دون فرسانها لحثّها على متابعة الطريق، وقفت الجياد ساكنة تنظر إلى الخلف إلى القبائل. حكّ اثنان منها أنفيهما بجثتي الرجلين اللذين كانا يعرفانهما، وفزعا من رائحة الدم.

حدّق هو سا بغضب مكبوت بينما استدار جنكيز لمواجهته.

قال جنكيز: "إنها جياد جيدة". لم يتغير تعبير وجه الجندي، وهزّ الخان كتفيه من دون اكتراث. "الكلمات ليست ثقيلة. لا يتطلب الأمر أكثر من واحد منكم لنقل ردّي".

ترك هو سا ليتم اصطحابه إلى الخيمة الكبيرة وتقديم الشاي اللاذع الطعم له. بقي جنكيز في المكان لرؤية الجياد بعد أن تم الإمساك بها وإعادتها.

قال لبارشوك: "سيكون لي الخيار الأول". أومأ خان اليوغر برأسه، ورفع عينيه للحظة. الخيار الأول سيمنح جنكيز أفضلها، لكنها كانت جياداً جيدة وتستحق اقتناءها.

á á á

على الرغم من أن الفصل كان في آخره، إلا أن الشمس كانت حارة في وادي كزي كزيا والتربة قد تحولت إلى قشرة رقيقة في الوقت الذي تحرك فيه جنكيز نحو المدينة. كان الملك قد طلب ألا يحضر معه سوى ثلاثة مرافقين، لكن خمسة آلاف آخرين ساروا معه الأميال القليلة الأولى. في الوقت الذي اقترب فيه بما يكفي لتمييز تفاصيل السُرادق المقام أمام المدينة، كان فضول جنكيز قد أصبح كبيراً. ما الذي قد يطلبه الملك منه؟

ترك مرافقيه في الخلف متردداً قليلاً، على الرغم من أنه كان يعرف أن خاسار

سيهب لنجدته إذا أشار بيده. كان قد أمعن التفكير في خيارات شن هجوم مفاجئ على الملك في أثناء حديثهما، لكن راي تشيانغ لم يكن أحمق. كان قد تم إقامة المظلة الوردية قريباً جداً من أسوار المدينة. كانت هناك أقواس ضخمة مزودة بسهام لها نصال حديدية بطول رجل ويمكنها تدمير المظلة في لحظات وضمان عدم نجاة جنكيز. كان الملك أقل حصانة خارج الأسوار، لكن التوازن كان معقداً.

جلس جنكيز مستقيماً على السرج بينما كان يقود جواده إلى الأمام مع أرسلان، كشيون وبارشوك اليوغر. كانوا مسلحين جيداً ويحملون خناجر إضافية مخفية في دروعهم تحسباً من إصرار الملك على تجريدهم من سيوفهم.

حاول جنكيز التخفيف من تجهمه بينما كان يدقق في كل تفاصيل المظلة الوردية. أحب اللون، وتساءل أين يمكن أن يجد حريراً بذلك العرض والنوعية. صك أسنانه معاً عندما فكّر في المدينة المنيعة التي يراها. لو أنه وجد طريقة للدخول إليها، لما كان قد جاء للقاء ملك كزي كزيا. أزعجته فكرة أن كل مدينة في أراضي تشن، كما يقال، كانت محصّنة جيداً ولم يكن قد اكتشف بعد طريقة لاختراق دفاعاتها.

لم يتكلم الفرسان الأربعة عندما عبروا إلى الظل الوردي البارد وترجلوا. أخفتهم المظلة عن عيون رماة السهام على الجدران، ووجد جنكيز نفسه يسترخي، ويقف بصمت متجهماً أمام حرّاس الملك.

فكر وهو يحدّق إليهم أنه تم اختيارهم من دون شك ليثيروا الإعجاب. كان أحدهم قد فكّر بصعوبات اللقاء. كان المدخل إلى السُرادق عريضاً واستطاع أن يلاحظ عدم وجود قتلة ينتظرون للقبض عليه حالما يدخل. كان الحرّاس أقوياء البنية، ولم ينظروا إلى الرجل الذي يقف أمامهم. بدلاً من ذلك، حدّقوا مثل تماثيل بصف المحاربين الذين يمتطون جيادهم وكان جنكيز قد أبقاهم على مسافة بعيدة.

على الرغم من وجود الكراسي في الداخل، إلا أن السُرادق لم يكن يضم بين جنباته سوى رجل واحد وأومأ له جنكيز.

"أين ملكك يا هو سا؟ هل الوقت مبكر جداً في الصباح بالنسبة له؟".

"سيأتي يا مولاي الخان. الملك لا يأتي أولاً".

رفع جنكيز حاجبه بينما كان يفكر بالإهانة التي تلقاها.

"ربما ينبغي أن أغادر. لم أطلب منه المجيء إلي، بالمحصلة".

احمرّ وجه هو سا وابتسم جنكيز. كان الرجل سريع الغضب، لكن جنكيز كان قد اكتشف أنه يحبه، لاعتزازه الشديد بنفسه. قبل أن يرد، صدحت الأبواق على أسوار المدينة، ومدّ المغول الأربعة أيديهم إلى سيوفهم. رفع هو سا يده.

"الملك يضمن السلامة يا مولاي الخان. الأبواق لتعرفوا أنه يغادر المدينة".

قال جنكيز لأرسلان: "اخرج وراقبه يأتي. أخبرني عن عدد الرجال معه". بذل جهداً ليجعل عضلاته التي تشنجت تسترخي. كان قد قابل زعماء قبائل من قبل وقتل بعضهم في خيامهم. لم يكن هناك جديد في ذلك، كما قال لنفسه، لكن على الرغم من ذلك كان هناك شيء من الرهبة داخله، مشابهاً لما كانت عليه حال هو سا. ابتسم جنكيز من سخفه، مدركاً أنه جزء من كونه بعيداً عن البيت. كان كل شيء جديداً ومختلفاً عن السهول التي يتذكرها، لكنه لم يكن قد اختار مكاناً آخر يقف عليه ذلك الصباح.

عاد أرسلان مسرعاً.

"إنه قادم بمحفّة يحملها عبيد. تبدو مثل تلك التي كان وين تشاو يستعملها".

رد جنكيز متجهماً: "كم عدد العبيد؟". سيفوقونهم عدداً وظهر غضبه على وجهه.

رد هو سا قبل أرسلان. "إنهم مخصيون يا مولاي. ثمانية رجال أقوياء، لكنهم ليسوا محاربين. إنهم ليسوا أكثر من حمّالين وممنوع عليهم حمل السلاح".

فكّر جنكيز في الأمر. إذا غادر قبل أن يصل الملك، سيعتقد أولئك الموجودون في المدينة أنه قد فقد أعصابه. ربما سيعتقد محاربوه الشيء نفسه، لهذا تمالك نفسه. كان هو سا يضع سيفاً طويلاً في حزامه وكان الحارسان مسلحين جيداً. وازن المخاطر ثم صرف ذهنه عنها. أحياناً، قد يقلق الرجل كثيراً بشأن ما سيحدث. ضحك بصوت خافت، وطرفت عينا هو سا من المفاجأة، ثم جلس ينتظر الملك.

حمل العبيد حمولتهم الثمينة عند مستوى الخصر بينما كانوا يقتربون من سُرادق الحرير. من الداخل، راقب جنكيز ومرافقوه الثلاثة باهتمام بينما كان العبيد يضعون المحفّة على الأرض. وقف ستة منهم صامتين، فيما وضع اثنان قطعة من الحرير الأسود على الطين. لدهشة جنكيز، سحب العبيد مزامير خشبية من أحزمة على خصورهم، وبدأوا يعزفون لحناً خافتاً بينما كان يتم فتح الستائر. كان سماع الموسيقى في النسيم يبعث على الطمأنينة بشكل غريب، ووجد جنكيز نفسه مفتوناً عندما خرج راي تشيانغ.

كان الملك رجلاً قوي البنية، ويرتدي درعاً يناسب جسده تماماً. كانت قطع الحديد مصقولة تماماً ولمعت في الشمس. على ردفه، كان يضع سيفاً بقبضة مزينة بالمجوهرات وتساءل جنكيز إن كان قد شهره بنوبة غضب من قبل. ارتفعت الموسيقى عند ظهوره، واكتشف جنكيز أنه يستمتع بالعرض.

أومأ ملك كزي كزيا إلى حارسين، وابتعدا عن السُرادق، ليأخذا موقعين إلى جانبيه. عندها فقط مشى الخطوات القليلة إلى السُرادق. نهض جنكيز ومرافقوه لتحيته.

قال راي تشيانغ مع إمالة رأسه: "مولاي الخان". كانت لهجته غريبة، وقال الكلمات كما لو أنه يحفظها من دون فهم.

رد جنكيز: "صاحب الجلالة". استعمل كلمة كزي كزيا التي كان بارشوك قد علّمه إياها. لسعادته، رأى وميض اهتمام يظهر في عيني الملك. للحظة قصيرة،

تمنّى جنكيز لو أن والده كان حياً ليراه يلتقي ملكاً في أرض غريبة.

اتخذ الحارسان موقعين في مواجهة كشيون وأرسلان، وكان واضحاً أنهما يحددان الرجلين اللذين سيشتبكان معهما في حال وقوع مشكلة. من جانبهما، حدّق إليهما القائدان دونما اكتراث. كانا مجرد شاهدين على اللقاء، لكن لم يكن أي من الرجلين ليؤخذ على حين غرة. إن كان الملك قد خطط لموتهم، فلن ينجو من ذلك.

تقطب حاجبا أرسلان من الفكرة المفاجئة. لم يكن أحدهم قد شاهد الملك من قبل. إن كان هذا الشخص محتالاً، يمكن لجيش ينشوان أن يسحق السُرادق من الجدران ولا يخسر سوى بعض الرجال الأوفياء. حدّق إلى هو سا ليرى إن كان متوتراً بشكل غير اعتيادي، لكن لم تظهر على الرجل أي علامة على توقع موت وشيك.

بدأ راي تشيانغ الكلام بلغة شعبه. كان صوته حازماً، كما يتوقع من شخص اعتاد على السلطة. قابل نظرة جنكيز بواحدة مماثلة ولم يبدُ أن أي من الرجلين ستطرف عينه. عندما أنهى الملك الكلام، تنحنح هو سا، وكان وجهه خالياً من أي تعبير بينما كان يترجم كلمات الملك.

"لماذا أتلف اليوغر أرض كزي كزيا؟ ألم نتعامل معكم بإنصاف؟".

أصدر بارشوك صوتاً من حنجرته، لكن نظرة الملك لم تترك جنكيز أبداً.

رد جنكيز: "أنا خان كل القبائل يا صاحب الجلالة. قبيلة اليوغر بيننا. نقاتل لأننا نتمتع بالقوة لنحكم. ماذا غير ذلك؟".

تقطب حاجبا الملك بينما كان يستمع إلى ترجمة هو سا. كان رده متزناً ولم يحمل أي إشارة على غضبه.

"هل ستمكث خارج مدينتي حتى نهاية العالم؟ هذا غير مقبول يا مولاي الخان. ألا يفاوض شعبك في الحرب؟".

انحنى جنكيز إلى الأمام وقد ازداد اهتمامه. "لن أفاوض إمبراطورية تشن يا

صاحب الجلالة. شعبك عدو لنا منذ نشأت الأرض، وسأشهد تحويل مدنكم إلى غبار. أرضكم لي، وسأسير فيها طولاً وعرضاً كيفما أشاء".

انتظر جنكيز بصبر بينما كان هو سا يترجم الكلمات لملكه. كان كل الرجال في الخيمة يرون الانطباع المفاجئ الذي ارتسم على محيا راي تشيانغ عندما سمعها. جلس منتصباً وأصبح كلامه موجزاً. وقد ظهر التوتر على وجه جنكيز، وتأهب بانتظار أن يتكلم هو سا. بدلاً من ذلك، كان بارشوك من تولى الترجمة.

قال بارشوك: "يقول إن شعبه ليس من عرق تشن. إذا كانوا أعداءك، لماذا تتأخر هنا في وادي كزي كزيا؟ تقع مدن تشن العظيمة إلى الشمال والشرق". أومأ بارشوك لنفسه عندما تكلم الملك مجدداً.

"أعتقد أنهم لم يعودوا أصدقاء كما كانوا من قبل، يا مولاي الخان. لن يشعر الملك بالانزعاج إذا قمت بشن حرب على مدن تشن".

زمّ جنكيز شفتيه مستغرقاً في أفكاره.

قال: "لماذا سأترك عدواً خلف ظهري؟".

تكلم راي تشيانغ مجدداً حالما فهم ما سمع. كان هو سا قد أصيب بالشحوب بينما كان يستمع، لكنه تكلم قبل أن يستطيع بارشوك ذلك.

"اترك حليفاً يا مولاي الخان. إذا كان عدوك الحقيقي هو تشن، سنرسل جزية لقبائلك طالما كنا مرتبطين معاً كأصدقاء". ابتلع هو سا ريقه بعصبية. "يعرض ملكي حريراً، وصقوراً، وحجارة ثمينة، وإمدادات، ودروعاً". سحب نفساً عميقاً. "جمالاً، وجياداً، وملابسَ، وشاياً، وألف قطعة نقدية من البرونز والفضة يتم دفعها كل سنة. إنه يقدم العرض إلى حليف لن يعتبره عدواً".

تكلم راي تشيانغ مجدداً، بنفاد صبر، وأصغى هو سا السمع. تسمّر في مكانه تماماً بينما كان ملكه يتكلم وجرؤ على طرح سؤال. أشار راي تشيانغ بيده، وأحنى هو سا رأسه، منزعجاً بشكل واضح.

"إضافة إلى ذلك، يعرض ملكي عليك تزويجك بابنته تشاكاهي".

طرفت عينا جنكيز، يفكر في الأمر. تساءل إن كانت الفتاة قبيحة للغاية حتى لم يتزوجها أحد من شعب كزي كزيا. كانت الهبة ستسعد القبائل وتبعد زعماء القبائل الصغيرة عن حياكة المكائد. لم تكن فكرة الجزية جديدة على القبائل، على الرغم من أنهم لم يكونوا من قبل في موقع للمطالبة بها من عدو ثري حقاً. كان يفضل رؤية حجارة المدينة تُدك، لكن لم يستطع أحد من رجاله اقتراح خطة ربما تكون ناجعة. هز جنكيز كتفيه دونما اهتمام. إذا اكتشف يوماً طريقة للقيام بذلك، يمكن أن يعود. حتى ذلك الوقت، سيتركهم يعتقدون أنهم قد اشتروا السلام. يمكن حلب المعزاة عدّة مرات، لكن لا يمكن قتلها سوى مرة واحدة فقط. كان كل ما تبقى هو التوصل إلى أفضل صفقة يستطيع إبرامها.

قال ساخراً: "قل لسيدك إن كرمه مقبول لدينا. إذا استطاع إضافة ألفين من أفضل جنوده، مسلحين جيداً مع جيادهم، سأترك الوادي قبل حلول الظهيرة. سيقوم رجالي بتفكيك الحصن القائم على ممر الصحراء. لا يحتاج الحلفاء إلى أسوار بينهم".

بدأ هو سا يترجم، وتذكر جنكيز اهتمام بارشوك بمكتبات كزي كزيا. توقف هو سا ليسمع عندما تكلم جنكيز مجدداً، مقاطعاً تدفق كلماته.

قال جنكيز: "بعض رجالي علماء. سيستمتعون بالحصول على فرصة قراءة رقاع كتابات كزي كزيا". بينما كان هو سا يفتح فمه، تابع جنكيز قائلاً: "لكن ليس الفلسفة. أشياء عملية، وموضوعات تهم المحارب، إذا كانت لديكم".

لم يكن ممكناً تفسير تعبير وجه راي تشيانغ بينما كان هو سا يكافح لتكرار كل ما سمعه. بدا أن اللقاء على وشك الانتهاء، ولم يقدم راي تشيانغ عرضاً آخر. في ذلك، رأى جنكيز يأسه. كان على وشك أن ينهض عندما قرر تجريب حظه.

"إذا أردت دخول مدن تشن، سأحتاج إلى أسلحة تهدم الأسوار. اسأل ملكك إن كان يستطيع تقديم تلك الأسلحة مع كل الباقي".

تكلم هو سا بعصبية، وشعر بغضب راي تشيانغ عندما فهم ما كان يقال.

بتردد، هزّ رأسه.

قال هو سا، من دون أن ينظر إلى عيني جنكيز: "يقول ملكي إن عليه أن يكون أحمق".

رد جنكيز مبتسماً: "نعم، لا بد أن يكون كذلك. لقد جفت الأرض ويمكنكم تحميل الهدايا على عربات جديدة، لها محاور تم تشحيمها بشكل جيد لقطع رحلة طويلة. يمكنك أن تقول لملكك إنني سعيد بعرضه. سأظهر تلك السعادة لتشن".

ترجم هو سا ولم تظهر على وجه راي تشيانغ أي علامة على رضاه. نهض كل الرجال معاً، وغادر جنكيز ومرافقوه أولاً، تاركين راي تشيانغ وهو سا وحدهما مع الحراس. شاهدوا قادة المغول يمتطون جيادهم ويقودونها مبتعدين.

فكّر هو سا في البقاء صامتاً، لكن كان لديه سؤال واحد بعد ينبغي عليه أن يطرحه. "يا صاحب الجلالة، ألم ننقل الحرب إلى تشن؟".

ألقى راي تشيانغ نظرة باردة على ضابطه. "ينكينغ على بعد ألف ميل وتحدّها الجبال وتحرسها الحصون التي تجعل ينشوان تبدو مثل بلدة صغيرة. لن يستولي على مدنهم". ارتعش فم الملك قليلاً، على الرغم من أن تعبير وجهه كان جامداً. "علاوة على ذلك، إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر بالنسبة لنا في ذلك؟".

لم يكن هو سا حاضراً في اجتماع الوزراء، ولم يفهم الكلمات.

á á á

كان المزاج بين القبائل احتفالياً تقريباً. كان صحيحاً أنهم لم يستولوا على المدينة الحجرية التي تلوح من بعيد، لكن إن تذمر المحاربون من ذلك، ستكون عائلاتهم مسرورة من الحرير والغنائم التي كسبها جنكيز لهم. كان قد مر شهر منذ لقاء الملك، وكانت العربات قد جاءت من المدينة. لعبت الجمال مع الفتية وبصقت بين قطعان الأغنام والماعز. كان بارشوك قد اختفى في خيمته مع

كوكشو وتيموج لتفكيك رموز كتابات شعب كزي كزيا الغريبة. كان راي تشيانغ قد قدّم رقاعاً بنصوص تشن بناءً على رغبتهم، لكن ذلك كان عملاً مجهداً.

كان الشتاء قد حل أخيراً، على الرغم من أنه كان معتدلاً في ذلك الوادي. كان خاسار وكشيون قد بدأا تدريب المحاربين الذين قدّمهم راي تشيانغ لهم. كان جنود كزي كزيا قد احتجوا على تجريدهم من جيادهم الرائعة، لكن تلك الحيوانات كانت أفضل من أن يتم تخصيصها لرجال لا يجيدون امتطاءها أكثر من الأولاد المغول. بدلاً من ذلك، تم منحهم جياداً احتياطية من القطعان. عندما مرّت الأسابيع وأصبح الجو أكثر برودة، تعلموا كيف يتعاملون مع الحيوانات القاسية السيئة المزاج في الصف الحربي. جهّز الجيش نفسه للتحرك، لكن جنكيز أصيب بالقلق في خيمته بينما كان ينتظر أن يرسل له راي تشيانغ آخر الجزية وابنته. لم يكن يستطيع أن يتوقع كيف ستستقبل بورت الأنباء. كان يأمل بأن تكون أميرة كزي كزيا جذّابة، على الأقل.

في اليوم الأول من الشهر الجديد، جاءت محمولة في محفّة شبيهة جداً بتلك التي استعملها والدها للحضور إلى اللقاء. راقب جنكيز بينما كان حرس الشرف المؤلف من مئة رجل يحافظون على تشكيل قريب حولها. أسعده أن الجياد لم تكن جيدة جداً كما كان يتوقع. لم يكن راي تشيانغ ينوي خسارة تلك الجياد أيضاً، حتى لمرافقة ابنته.

تم وضع المحفّة على الأرض على بعد خطوات فقط من جنكيز بينما كان ينتظر بدرعه الكامل. كان سيف والده على ردفه ومسّه طلباً للحظ، مسيطراً على نفاد صبره. لاحظ أن جنود المدينة كانوا غاضبين لأنهم اضطروا لمنحها له، وابتسم بسعادة غامرة ساخراً منهم، وتركهم يتجرعون الإحباط. كما طلب، كان هو سا قد خرج من المدينة معهم. كان تعبير وجهه، على الأقل، جامداً ونال ذلك استحسان جنكيز، لأنه لا يظهر شيئاً من مشاعره الداخلية.

عندما خطت ابنة الملك بقدمها على الأرض، كانت هناك تمتمة إعجاب من

المحاربين الذين كانوا قد تجمعوا لمشاهدة تلك العلامة الأخيرة على انتصارهم. كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأبيض المطرز بالذهب، لهذا لمعت في الشمس. كان شعرها مربوطاً إلى أعلى رأسها بدبابيس من فضة، وسحب جنكيز نفساً من الجمال الآخّاذ لجلدها الأبيض. مقارنة بنساء شعبه، كانت حمامة بين غربان، على الرغم من أنه لم يقل ذلك بصوتٍ عالٍ. كانت عيناها بركتين داكنتين من اليأس بينما كانت تمشي نحوه. لم تنظر إليه، لكنها بدلاً من ذلك جثت بأناقة على الأرض، وشبكت معصميها أمامها.

شعر جنكيز بالغضب يتصاعد من جنود والدها، لكنه تجاهلهم. إذا تحركوا، سيقتلهم رماة سهامه قبل أن يستطيعوا شهر سيف واحد.

قال جنكيز بلطف: "أهلاً بك في خيمتي يا تشاكاهي". تمتم هو سا الترجمة، بصوت يكاد يكون همساً. مدّ جنكيز يده ليمس كتفها فنهضت، ووجهها خالٍ من أي تعبير. لم تكن تتمتع بالقوة التي كان يتوقعها من نسائه وشعر بنفسه يرتفع في الهواء عندما وصل شذا عطرها إلى منخاريه.

قال مانحاً إياها شرفاً أمام محاربيه، على الرغم من أنها لم تستطع فهم كلماته: "أعتقد أنك أكثر قيمة من كل هدايا والدك الأخرى". بدأ هو سا يتكلم، لكن جنكيز أشار إليه بحركة حادة كي يصمت.

مدّ يداً جعلتها الشمس داكنة، وتعجب من التفاوت بينما كان يرفع ذقنها حتى تنظر إليه. استطاع رؤية خوفها وشيئاً من الاشمئزاز أيضاً عندما شعرت بجلده القاسي يمس جلدها.

قال: "لقد أبرمت صفقة جيدة أيتها الفتاة. ستلدين لي أطفالاً رائعين". كان صحيحاً أنهم لن يكونوا ورثة له، لكنه وجد نفسه منجذباً إليها. لم يكن يستطيع إبقاءها في الخيمة نفسها مع بورت وأولاده، كما أدرك. لن تنجو مثل تلك الفتاة الرقيقة جداً. سيأمر ببناء خيمة أخرى لها وحدها وللأطفال الذين ستنجبهم.

انتبه إلى أنه كان يقف صامتاً لوقت طويل وأن القبائل تراقب رد فعله

باهتمام متزايد. دفع المحاربون بالمرافق وهمسوا إلى أصدقائهم وهم يبتسمون بعضهم إلى بعض. رفع جنكيز بصره إلى الضابط الذي يقف مع هو سا. كان كلا الرجلين شاحبين وغاضبين، لكن عندما أشار لهما جنكيز بالعودة إلى المدينة، استدار هو سا بحدّة مثل الآخرين. أصدر له الضابط أمراً، وفغر هو سا فمه دهشة.

قال له جنكيز، مسروراً بدهشته: "أنت من أريد يا هو سا. لقد منحني إياك ملكك لسنة".

تحول فم هو سا إلى خيط رفيع عندما فهم ما يجري. بعينين مريرتين، شاهد باقي المرافقين يعودون إلى المدينة، ويتركونه هناك مع الفتاة المرتعشة التي كان قد جاء بها لمنحها إلى الذئاب.

استدار جنكيز ليواجه الريح من الشرق، استنشق رائحتها وتخيل مدن تشن وراء الأفق. كانت لديهم أسوار لا يمكن تحطيمها ولن يخاطر بشعبه مجدداً بجهل.

قال هو سا فجأة، وكانت الكلمات تخرج منه في الصمت الذي بدا أن جنكيز لا يشعر به: "لماذا طلبتني؟".

"ربما سنجعل منك محارباً". بدا أن جنكيز وجد الفكرة مسلية وضرب ساقه. نظر هو سا من دون أي انفعال إليه حتى هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً.

"سترى".

á á á

كان المعسكر صاخباً بصوت تفكيك الخيام بينما كانت القبائل تستعد للتحرك. عندما حل منتصف الليل، لم تبقَ سوى خيمة الخان واقفة من دون أن يمسها أحد على عربتها الكبيرة، مضاءة من الداخل، وكانت تتوهج في الظلام ويمكن رؤيتها من قِبَل كل أولئك المستلقين على دثارهم وفرائهم للنوم تحت النجوم.

انحنى جنكيز فوق طاولة منخفضة، ينظر إلى خريطة في الأسفل. كانت مرسومة على ورق سميك، ورأى هو سا أخيراً أنها منسوخة على عجل من مجموعة راي تشيانغ. كان ملك كزي كزيا رجلاً شديد الحذر حتى يترك خريطة تحمل ختمه تقع في أيدي إمبراطور تشن المدعو وي. كانت حتى الأحرف بلغة تشن، ومنسوخة بعناية.

أمال جنكيز رأسه إلى جانب ثم إلى الآخر بينما كان يحاول تخيل خطوط ورسوم المدن أماكن حقيقية. كانت أول خريطة حقيقية يراها على الإطلاق، على الرغم من أنه بحضور هو سا لم يكن ليكشف قلة خبرته.

مرّر جنكيز إصبعه الداكن على طول خط أزرق نحو الشمال. قال: "هذا هو النهر العظيم الذي وصفه المستطلعون". رفع عينيه الشاحبتين إلى هو سا مستفسراً.

أجاب هو سا: "هوانغ هي. النهر الأصفر". أوقف نفسه عند ذلك، وامتنع عن المتابعة بحضور قادة جيش المغول. كانوا يملأون الخيمة: أرسلان، خاسار، كشيون، وآخرون لا يعرفهم. كان هو سا قد تراجع عن كوكشو عندما عرّفه جنكيز به. كان الكاهن العرّاف النحيل يذكّره بمتسولي ينشوان المخبولين، وانتشرت رائحته في الخيمة حتى وجد هو سا نفسه مضطراً لأن يحبس أنفاسه.

راقب كل أولئك الحاضرون بينما كان جنكيز يسحب إصبعه شمالاً وشرقاً على طول النهر حتى توقفت عند رمز صغير ونقرت عليه.

تمتم جنكيز: "هذه المدينة هنا على طرف أراضي تشن". نظر مرة أخرى إلى هو سا لتأكيد ما يقوله، وأومأ الضابط متردداً.

قال كوكشو وهو يقرأ الاسم تحت الرسم الصغير: "باوتو". لم ينظر هو سا إلى الكاهن العرّاف، واستقر بصره عند جنكيز الذي ابتسم.

سأل جنكيز: "هذه العلامات إلى الشمال، ما هي؟".

رد هو سا: "إنها قسم من السور الخارجي".

تقطب حاجبا جنكيز مندهشاً. "لقد سمعت بذلك الشيء. إن أبناء تشن يختبئون منا خلفه، أليس كذلك؟".

كظم هو سا غيظه. "إنهم لا يختبئون. لم يتم بناء السور من أجلك، وإنما لإبقاء مملكتي تشن منفصلتين. لقد عبرت أضعف الاثنتين. لن تعبر السور الداخلي حول ينكينغ. لم يسبق لأحد أن نجح في ذلك". كشّر جنكيز لدى سماعه ذلك، قبل أن يستدير إلى الخلف لدراسة الخريطة. حدّق به هو سا، غاضباً من ثقة الخان المفرطة.

عندما كان فتى، كان هو سا قد سافر مع والده إلى النهر الأصفر. كان الرجل العجوز قد جعله يرى سور تشن إلى الشمال، وحتى في ذلك الوقت، كانت هناك فجوات فيه وأقسام تحولت إلى أنقاض. لم تكن هناك صيانة له منذ عقود. بينما كان جنكيز يشير بإصبعه إلى المخطوط، تساءل هو سا كيف أصبح أبناء تشن غير مبالين بأمنهم. لم تكن لسورهم الخارجي أي قيمة – ابتلع ريقه بعصبية – خاصة أن القبائل كانت خلفه آنذاك. كانت كزي كزيا نقطة الضعف وقد تدفقت القبائل جنوباً. اعتمل العار في نفسه بينما كان يتفحص جنكيز، متسائلاً عما يخطط له.

تفوه هو سا من دون سابق إنذار: "هل ستهاجم باوتو؟".

هزّ جنكيز رأسه. "وأصرخ خارج الأسوار كما فعلت هنا؟ لا. سأذهب إلى موطني في جبال خينتي. سأسير إلى تلال طفولتي، أطلق نسري وأتزوج ابنة ملكك". انفرجت أساريره من تلك الفكرة. "ينبغي أن يعرف أبنائي الأرض التي أنجبتني وسيصبحون أقوياء هناك".

رفع هو سا بصره عن الخريطة محتاراً.

"إذاً، ما هذا الكلام عن باوتو؟ لماذا أنا هنا؟".

"قلت إنني ذاهب إلى وطني يا هو سا. لن تذهب أنت. تلك المدينة بعيدة جداً عن هنا لتخاف جيشي. ستكون أبوابهم مفتوحة وسيدخل التجار

ويخرجون كما يشاؤون". رأى هو سا أن أرسلان وخاسار يبتسمان وأرغم نفسه على التركيز.

ربت جنكيز على كتفه. "سيكون في مدينة محاطة بأسوار مثل باوتو بناة ماهرون في مهنتهم، أليس كذلك؟ رجال يفهمون كل أشكال الدفاعات".

لم يرد هو سا، وضحك جنكيز بصوت خافت.

"لن يمنحهم لي ملكك، لكنك ستجدهم هناك يا هو سا. ستسافر إلى باوتو تلك مع خاسار وشقيقي تيموج. يمكن لثلاثة رجال الدخول إلى حيث لا يستطيع جيش. ستطرح أسئلة حتى تعثر على هؤلاء الرجال الذين يبنون الأسوار وتعرف العديد من الأشياء المفيدة. وستجلبهم لي".

لاحظ هو سا أنهم جميعاً يبتسمون عندها، سعيدين بتعبير وجهه الخائف.

قال جنكيز بهدوء: "أو سأقتلك الآن وأطلب شخصاً آخر من ملكك. ينبغي أن يكون للرجل دائماً الخيار الأخير في الحياة والموت. يمكن أخذ كل شيء آخر منه، لكن ليس ذلك الشيء أبداً".

تذكر هو سا كيف لقي مرافقوه حتفهم من أجل الجياد التي كانوا يمتطونها، ولم يشك بأن حياته معلقة على كلمة واحدة.

قال أخيراً: "أنا ملزم بطاعتك وفقاً لأمر ملكي".

تأفف جنكيز واستدار عائداً إلى الخريطة.

"إذاً، أخبرني عن باوتو وأسوارها. قل لي كل ما كنت قد سمعته أو رأيته".

كان المعسكر ساكناً عند الفجر، لكن الضوء كان لا يزال يخفق ذهبياً في خيمة الخان واستطاع أولئك الذين استلقوا بالقرب منها على العشب البارد سماع تمتمة الأصوات مثل طبول حرب بعيدة.

الفصل العاشر

اقترب الفرسان الثلاثة من حافة نهر داكن، ترجلوا بينما بدأت جيادهم تشرب. بدا القمر كبيراً ومعلقاً على ارتفاع منخفض فوق التلال، يعكس ضوءاً رمادياً ينير الصحراء الواسعة. كان السطوع كافياً لتشكيل ظلال سوداء خلف الرجال بينما كانوا يحدّقون إلى أشكال قوارب صغيرة في ميناء صغير، تهتز وتتمايل في الليل.

سحب خاسار قطعة قماش كتانية من حيث كان قد وضعها تحت سرجه. كانت رحلة النهار قد جعلت اللحم داخلها طرياً، ومدّ يده إليها، وسحب قطعة منها وضعها في فمه. كانت رائحتها كريهة، لكنه كان جائعاً فمضغها ببطء بينما كان ينظر إلى مرافقيه. كان تيموج متعباً بما فيه الكفاية ليترنح قليلاً عندما وقف إلى جانب شقيقه، وعيناه مثقلتان بتوق إلى النوم.

تمتم هو سا: "يبقى البحارة بعيدين تماماً عن الشاطئ في الليل. إنهم يخافون قطّاع الطرقات في الظلام، ولا بد أن يكونوا قد سمعوا بجيشكم إلى الغرب. ينبغي أن نجد مكاناً ننام فيه ونتابع الطريق في الصباح".

قال خاسار: "ما زلت لا أفهم لماذا تريد استعمال النهر للوصول إلى باوتو". ابتلع هو سا غضبه. كان قد أوضح ذلك ست مرات منذ مغادرتهم القبائل، لكن كان من الصعب التغلب على ارتباط المحارب المغولي بجواده.

رد محافظاً على هدوء صوته: "قيل لنا ألا نلفت الانتباه لأنفسنا، وأن ندخل باوتو بصفة تجار أو زوّار. لا يمتطي التجار جياداً مثل نبلاء تشن، ولا يأتي الزوّار ومعهم جواد واحد".

قال خاسار بعناد: "سيكون الأمر أسرع. إذا كانت الخريطة التي رأيتها دقيقة، يمكننا قطع النهر والوصول إلى هناك في غضون بضعة أيام".

قال هو سا بحدّة: "ويشاهدنا كل قروي في الحقول وكل مسافر على

الطرقات". شعر بأن خاسار انزعج من نبرة صوته، لكنه كان قد تحمّل تذمره بما يكفي. "لا أعتقد أن شقيقك يرحب بفكرة قطع مسافة ألف لي عبر أرض مكشوفة".

تأفف خاسار، لكن كان تيموج من رد.

"معه حق في ذلك يا شقيقي. سيأخذنا هذا النهر العظيم شمالاً إلى باوتو وسنضيع في حشد من المسافرين. لا أريد أن نشق طريقنا عبر جنود تشن المشككين".

لم يكن خاسار يثق بأنه يستطيع الرد. في البداية، كان يشعر بالإثارة من فكرة التسلل بين شعوب تشن، لكن تيموج كان يمتطي جواده مثل امرأة عجوز متيبسة المفاصل ولم يكن مرافقاً مناسباً لمحارب. كان هو سا أفضل قليلاً، لكن بعيداً عن جنكيز، كان الغضب من المهمة التي تم تكليفه بها قد جعله مرافقاً فظاً. كان الأمر أسوأ عندما أخذ تيموج وهو سا يثرثران بلغة تشبه زقزقة العصافير ولم يستطع خاسار مجاراتهما في ذلك. كان قد طلب من هو سا تعليمه شتائم وإهانات، لكن الرجل حدّق إليه فقط. بعيداً عن كونها مغامرة، كانت الرحلة تتحول إلى منافسة في الشجار، وأرادها أن تنتهي بأسرع ما يمكن. كانت فكرة الصعود ببطء إلى أحد تلك القوارب الغارقة في الظلال قد جعلت مزاجه أكثر سوءاً.

شرع بالقول: "يمكننا جعل الجياد تقطع النهر سباحة الليلة، ثم...".

زفر هو سا بقوة، ثم قال بحدّة: "سيجرفك التيار! إنه النهر الأصفر، وهناك لي كاملة من ضفة إلى أخرى وتلك ليست مسافة قصيرة. إنه ليس أحد جداول المغول. لا يوجد مراكب نقل هنا وفي الوقت الذي نكون قد وصلنا فيه إلى شيزويشان لحجز مكان على أحدها، سيكون قد تم الإبلاغ عن رحلتنا. أبناء تشن ليسوا حمقى يا خاسار. سيكون لديهم جواسيس يراقبون الحدود. لن يكون ممكناً تجاهل ثلاثة رجال يمتطون جيادهم".

تأفف خاسار بينما كان يضع قطعة أخرى من لحم الضأن في فمه ويمضغها. قال: "النهر ليس عريضاً جداً. يمكنني إرسال سهم فوقه".

رد هو سا مباشرة: "لا يمكنك ذلك". شدّ قبضتيه عندما مدّ خاسار يده إلى قوسه، وقال: "ولن نراه يصل إلى الأرض في الظلام".

ردّ خاسار بسرعة: "سأُريك إذاً في الصباح".

سأل هو سا: "وكيف سيساعدك ذلك؟ هل تعتقد أن البحّارة سيتجاهلون رامياً مغولياً يطلق السهام فوق نهرهم؟ لماذا أرسلك شقيقك للقيام بهذا العمل؟".

ترك خاسار يده تبتعد عن حيث كان يقبض على قوسه. استدار إلى هو سا في ضوء القمر. في الحقيقة، كان قد تساءل عن الشيء نفسه، لكنه لن يعترف أبداً بذلك لهو سا أو لشقيقه المهتم بالدراسة.

قال: "لحماية تيموج، كما أتخيل. إنه هنا لتعلم لغة تشن وحتى أتأكد أنك لن تخوننا عندما نصل إلى المدينة. أنت هنا حتى تتكلم فقط وقد أثبتّ ذلك مرات كافية اليوم. إذا هاجمنا جنود تشن، سيكون قوسي أكثر أهمية من فمك".

تنهد هو سا. لم يكن يريد أن يفتح الموضوع، لكن مزاجه كان سيئاً ويشعر بالقلق أيضاً.

"سيكون عليك ترك قوسك هنا. يمكنك دفنه في طين النهر قبل الفجر".

أطبق الصمت على خاسار لدى سماعه ذلك. قبل أن يستطيع التعبير عن غضبه، وضع تيموج يده على كتفه لتهدئته، وشعر به يهتز.

"إنه يعرف هؤلاء الناس يا شقيقي، وقد حافظ على ولائه لنا حتى الآن. ينبغي أن ننتقل عبر النهر، وسيثير قوسك الشبهات منذ البداية. لدينا برونز وفضة لشراء بضائع على طول الطريق لهذا سيكون لدينا شيء نقايض به في باوتو. التجار لن يحملوا أقواساً مغولية".

رد خاسار: "يمكن أن نتظاهر بأننا نريد بيعه". في الظلام، وضع يده على

السلاح الذي كان مربوطاً بسرجه كما لو أن تلك اللمسة تجعله يرتاح. "سأتخلى عن جوادي، نعم، لكنني لن أتخلى عن قوسي، ليس من أجل اثنتي عشرة رحلة نهرية سرية. لا تختبراني في ذلك، لأن جوابي سيكون نفسه بغض النظر عما تقولانه".

بدأ هو سا الجدال مجدداً، لكن تيموج هزّ رأسه، متعباً من كليهما. قال: "اترك الأمر يا هو سا. سنلف القوس في الملابس وربما لن يلاحظه أحد". أبعد يده عن كتف خاسار وابتعد عنه لتحرير فرسه من عبء السرج واللجام. كان دفن تلك الأشياء يتطلب وقتاً، ولم يكن يستطيع المخاطرة بالخلود إلى النوم قبل إنجاز ذلك العمل. تساءل مجدداً لماذا اختاره جنكيز لمهمة مرافقة المحاربين. كان هناك آخرون في المعسكر يعرفون لغة تشن، وكان بينهم بارشوك اليوغر. ربما كان ذلك الشخص طاعناً في السن، كما فكر تيموج. تنهد بينما كان يفك الحبال عن فرسه. نتيجة معرفته بشقيقه، كان تيموج يشك بأن جنكيز لا يزال يأمل بأن يصنع منه محارباً. كان كوكشو قد أطلعه على درب مختلف وتمنّى لو أن معلّمه هناك لمساعدته في التأمل قبل النوم.

بينما كان يقود الجواد نحو ظلمة أشجار النهر، سمع تيموج مرافقيه يستأنفان جدالهما بهمسات حادّة. تساءل إن كانت لديهم فرصة للنجاة من الرحلة إلى مدينة باوتو. بعد أن دفن السرج، واستلقى على ظهره، حاول جاهداً إبعاد الأصوات المتعبة عنه، مكرراً العبارات التي كان كوكشو قد قال له إنها تجلب السكينة. لكنها لم تُجد نفعاً، والنوم جاء بينما كان لا يزال ينتظر.

في الصباح، رفع هو سا ذراعه إلى قارب آخر يسير بعكس اتجاه الرياح نحو أعلى النهر. كان قد تم تجاهل الإشارة تسع مرات من قبل، على الرغم من أنه كان يحمل كيساً جلدياً من النقود ويخشخش المحتويات. تنفس الثلاثة الصعداء عندما غير القارب الأخير اتجاهه فوق الماء نحوهم. على متنه، كانت ستة وجوه لفحتها الشمس تحدق بشبهة نحوهم.

تمتم هو سا لتيموج بينما كانوا يقفون في الطين وينتظرون اقتراب القارب منهم: "لا تقل شيئاً لهم". كان والشقيقان يرتدون أثواباً بسيطة مربوطة إلى الخصر ولا تبدو غريبة جداً لأطقم قوارب النهر. كان خاسار يحمل لفة من قماش السرج على أحد كتفيه تحتوي على قوسه بغطائه الجلدي وكنانة كاملة. حدّق إلى القارب ببعض الاهتمام، ولم يكن قد شاهد أبداً مثل ذلك الشيء في ضوء النهار من قبل. كان ارتفاع الشراع مساوياً لطول القارب، وربما يبلغ 40 قدماً من الطرف إلى الآخر. لم يعرف كيف استطاع الاقتراب منهم بما يكفي ليصعدوا على متنه.

قال: "يبدو الشراع مثل جناح طائر. يمكنني رؤية عظامه".

استدار هو سا بحدّة نحوه. "إذا سألوا، سأقول إنك أبكم يا خاسار. ينبغي ألا تتكلم مع أي منهم. هل تفهم؟".

عبس خاسار بوجه جندي كزي كزيا. "أفهم أنك تريد مني قضاء أيام من دون أن أفتح فمي. أقول لك، عندما ينتهي هذا، سنذهب أنا وأنت إلى مكان ما بهدوء...".

قال تيموج: "صه! لقد اقتربوا بما يكفي لسماعنا". صمت خاسار على الرغم من أنه نظر إلى هو سا وقتاً كافياً حتى جعله يحني رأسه له.

نفّذ القارب مناورة بالقرب من الضفة، ولم ينتظر هو سا مرافقيه، خاض في الماء الضحل وتقدم نحوه. تجاهل اللعنة التي تمتمها خاسار خلفه بينما كانت يدان قويتان تسحبانه إلى القارب.

كان قبطان القارب رجلاً قصيراً وهزيلاً، مع قطعة قماش حمراء ملفوفة حول رأسه لإبعاد العرق عن عينيه. بالإضافة إلى ذلك، كان عارياً إلاّ من مئزر بني، مع سكينتين يضعهما على ردفه. تساءل هو سا للحظة إن كانوا قد قابلوا أحد مراكب القراصنة التي يقال إنها تُغير على القرى على طول النهر، لكن الوقت كان قد فات على تدارك الهواجس.

سأل القبطان وهو يمد يده ليضرب هو سا على صدره بمؤخر يده: "هل يمكنك أن تدفع؟". بينما كان يتم سحب خاسار وتيموج إلى القارب، دفع هو سا ثلاث قطع نقدية برونزية دافئة في راحة الكف الممدودة. نظر الرجل القصير عبر الثقب الموجود في وسط كل منها، قبل أن يربطها بخيط تحت حزامه.

قال وهو يحدّق بينما كان خاسار يعدّل وقفته: "أنا شن يي". كان المغولي أطول من أي بحار، وتقطب حاجباه كما لو أنه تعرض لإهانة. تنحنح هو سا ونظر شن يي إليه، وقد أمال رأسه إلى أحد الجانبين.

قال شن يي: "سنصل إلى شيزويشان". هزّ هو سا رأسه، ومدّ يده بالمزيد من النقود. راقب شن يي عن كثب عندما سمع صوت المعدن.

قال هو سا، وهو يمد يده بالنقود: "ثلاثة أخرى لأخذنا إلى باوتو".

أخذ القبطان النقود بسرعة، وأضافها إلى الخيط المربوط بخصره بمهارة فائقة.

قال: "ثلاثة أخرى للوصول إلى أعلى النهر".

كافح هو سا للسيطرة على أعصابه. كان قد دفع آنذاك أكثر مما هو كافٍ للانتقال إلى المدينة. كان يشك بأن الرجل سيعيد المال إذا قرر انتظار قارب آخر.

قال بحزم: "لقد حصلت على ما يكفي".

نزلت عينا شن يي إلى حيث يحتفظ هو سا بماله تحت حزامه وهزّ كتفيه استخفافاً.

قال: "ثلاثة أخرى أو سأعيدكم من حيث جئتم".

وقف هو سا ساكناً، من دون حراك وشعر بارتباك خاسار النزق بينما كان الحديث دائراً. كان هو ساو واثقاً أنه سيطرح سؤالاً في أي لحظة.

تمتم هو سا: "أين ستجد نفسك في ما بعد في هذه الحياة؟ أتساءل". لدهشته، بدا شن يي غير مهتم وهزّ كتفيه غير مبالٍ. هزّ هو سا رأسه مندهشاً. ربما كان معتاداً تماماً على الجيش، حيث لم يكن أحد يتحدى سلطته. كان هناك هالة من الثقة تحيط بشي يي الذي جلس منعزلاً بأسماله وقاربه الصغير

المتسخ. حدّق هو سا بينما كان يسلّم النقود.

قال شن يي مبتهجاً: "المتسولون لا يذهبون إلى باوتو. ابتعدوا عن طريق رجالي فيما نبحر عبر النهر". أشار إلى كومة من أكياس الحبوب في مؤخر القارب الصغير بجانب الدفة وشاهد هو سا خاسار يجلس عليها قبل أن يومئ إليه.

مكتبة الرمحي أحمد

ألقى شن يي نظرة متشككة على تيموج وخاسار، لكن كانت لديه نقود جديدة في حزامه تخشخش كلما تحرك. أصدر أوامر لتغيير الشراع نحو الرياح، وقطع القارب المسافة الأولى عبر النهر الذي سيأخذهم شمالاً إلى مقصدهم. كان القارب مزدحماً بالكثير من الأشخاص لكن لم تكن هناك حجرات. خمّن هو سا أن الطاقم ينام على سطح القارب في الليل، وبدأ يسترخي فيما تقدم خاسار إلى الحاجز المعدني وتبوّل في النهر بارتياح كبير. رفع هو سا عينيه إلى السماء بينما كان صوت القارب الذي يمخر الماء يصل إلى مسامعه.

أشار اثنان من الطاقم إلى خاسار، وألقيا دعابة بذيئة، وربتا على ظهري بعضهما وهما يضحكان. استشاط خاسار غضباً وتحرك هو سا بسرعة ليقف بين المحارب والشخصين، محّذراً إياه بنظرة. راقب البحاران تبادل النظرات بابتسامات عريضة قبل أن يصرخ شن يي بأمر، وانطلقا إلى مقدمة السفينة ليرفعا الشراع.

قال خاسار في إثرهما: "كلبان أصفران". كان شي يي في غمرة توجيه الشراع فوق رأسه عندما سمع الكلمات. انقبض قلب هو سا عندما جاء قبطان القارب يمشي نحوهم.

سأل شن يي: "ما الذي قاله؟".

تكلم هو سا بهدوء: "إنه متدين. لا يتكلم لغة متمدنة. من يستطيع فهم مثل هؤلاء الناس؟".

رد شن يي: "لا يبدو مثل متدين. أين لحيته؟". شعر هو سا بأن عيون أفراد

الطاقم تراقبهم وقد وضع كل رجل يده هذه المرة قرب سكينه.

قال هو سا، يمعن النظر في عيني شن يي: "كل التجار لديهم أسرار. هل أهتم بلحية الرجل عندما تكون لدي ثروته للتجارة؟ تتكلم الفضة لغتها الخاصة، أليس كذلك؟".

ابتسم شن يي ابتسامة عريضة. مدّ يداً، ووضع هو سا عملة نقدية فضية فيها، من دون أن يظهر على وجهه أي تعبير.

قال شن يي متسائلاً عن عدد القطع النقدية التي يحملها المحارب في أكياسه: "للفضة لغتها الخاصة". مهما كان الذي يدّعيه الرجال الثلاثة، إلا أنهم ليسوا تجاراً. أشار شن يي إلى خاسار بإبهامه المتسخ.

"هل هو أحمق إذاً حتى يثق بك؟ هل ستلقي به من القارب في إحدى الليالي مع سكين في حنجرته؟". لإزعاج هو سا، حرّك الرجل الهزيل إصبعه فوق حنجرته بإيماءة كان خاسار يراقبها باهتمام متزايد. تقطب حاجبا تيموج أيضاً وتساءل هو سا عمّا فهمه من المحادثة السريعة.

قال هو سا للقبطان بسرعة، وكذلك لتيموج والآخرين: "لا أخون أي رجل متى منحته وعدي. وعلى الرغم من أنه أحمق بالتأكيد، إلا أنه محارب يتمتع بمهارة عظيمة. احرص على ألا تهينه، وإلا لن أستطيع صدّه عنك".

حرّك شن يي رأسه مجدداً بإيماءة معتادة. لم يكن يثق بالرجال الذين صعدوا إلى القارب، وكان أحدهم أحمق ويبدو أنه يستشيط غيظاً. هزّ كتفيه من دون مبالاة أخيراً. ينام كل الرجال، وإذا سببوا له أي مشكلة، لن يكونوا المسافرين الأوائل الذين يلقى بهم في الماء خلف قاربه الصغير. أدار ظهره لهم بعد أن أشار إلى كومة من الأكياس. مرتاحاً أكثر مما يمكن للكلمات أن تصفه، انضم هو سا إلى الاثنين الآخرين في مؤخر السفينة. حاول جاهداً ألا يبدو عليه التعب.

لم ينتظر خاسار منه تقديم أي اعتذار. سأل: "ماذا قلت له؟".

سحب هو سا نفساً عميقاً. "قلت له إنك مسافر من على بعد آلاف الأميال. اعتقدت أنه ربما لم يسمع أبداً بالمتدينين، لكنه كان قد التقى أحدهم على الأقل في الماضي. يعتقد أنني أكذب، لكنه لن يطرح الكثير من الأسئلة. على الرغم من ذلك، يفسر ذلك لماذا لا تستطيع تكلم لغة تشن".

أخرج خاسار زفيراً، راضياً بما سمعه. قال مسروراً: "إذاً، لست رجلاً أبكم. لا أعتقد أنني أستطيع التقيد بذلك". أسند ظهره على الأكياس، ودفع تيموج بمرفقه بعيداً عنه ليجد مكاناً مريحاً. بينما كان القارب يصعد إلى أعلى النهر، أغلق خاسار عينيه وفكّر هو سا أنه قد خلد إلى النوم.

قال خاسار من دون أن يفتح عينيه: "لماذا مرّر إصبعه على حنجرته؟".

قال هو سا بحدّة: "كان يرغب بأن يعرف إن كنت أنوي قتلك ورميك من فوق القارب. لقد خطرت لي الفكرة".

ضحك خاسار بصوت خافت. قال وهو يغالب النعاس: "بدأت أحب ذلك الرجل القصير. أنا سعيد أننا صعدنا على متن قارب".

مشى جنكيز عبر المعسكر الشاسع في ظل الجبال التي عرفها صبياً. كان الثلج قد تساقط في الليل، وسحب نفساً عميقاً من الهواء البارد، مستمتعاً بالطريقة التي ملأ بها رئتيه. كان يسمع صهيل الجياد تدعو قريناتها، ومن بعيد، كان أحدهم يغني لطفل كي ينام. بوجود العائلات حوله، كان يشعر بالطمأنينة وكان مزاجه لطيفاً. كان سهلاً أن يتذكر الأيام التي كان والده لا يزال حياً فيها، ولا يعرف وأشقاؤه شيئاً عن العالم حولهم. هزّ رأسه في الدجنة بينما كان يفكر بالأراضي التي تم عرضها عليه. كان بحر الأعشاب أطول مما فكّر على الإطلاق وتاق جزء منه لرؤية أشياء جديدة، حتى مدن تشن. كان شاباً وقوياً ويحكم جيشاً كبيراً من الرجال الذين يتمتعون بمهارات تمكّنهم من الحصول على ما يريدونه. ابتسم لنفسه عندما وصل إلى الخيمة التي كان قد بناها لزوجته الثانية، تشاكاهي. كان صحيحاً أن والده بقي مقتنعاً بوالدته، لكن ياسوجي كان

خان قبيلة صغيرة ولم يحصل على نساء جميلات كجزء من جزية.

خفض جنكيز رأسه عندما دخل. كانت تشاكاهي تنتظره وعيناها واسعتان وداكنتان في دجنة مصباح واحد. لم يقل جنكيز شيئاً عندما وقفت لتحيته. لم يكن يعرف كيف جاءت بشابتين من شعبها لخدمتها. يبدو أن محاربين كانوا قد سبوهما واشترتهما أو قايضتهما بشيء من عندها. بينما كانتا تخرجان من الخيمة. استطاع جنكيز شمّ رائحة الطيب الذي تتعطران به وارتعش قليلاً عندما مسّ ثوب إحداهما الحريري ذراعيه العارية. كانت أصوات همسهما تخفت كلما ابتعدتا وبقي وحيداً.

وقفت تشاكاهي بفخر أمامه، ورأسها مرفوع. كانت الأسابيع الأولى مع القبائل قاسية عليها، لكنه كان قد شعر بحيوية بالغة في عينيها اللامعتين قبل وقت طويل من تعلمها لبضع كلمات من لغة شعبه. كانت تمشي كما يتوقع من ابنة ملك أن تمشي، وكانت رؤيتها تثيره دائماً. كان ذلك شيئاً غريباً، لكن جسدها الممشوق كان أفضل جزء من جمالها.

ابتسمت عندما جال ببصره عليها، وكانت تعرف أنها تحظى باهتمامه الكامل. اختارت اللحظة المناسبة، جثت أمامه، أحنت رأسها، ثم ألقت نظرة خاطفة إلى الأعلى لترى إن كان لا يزال يراقب عرض التواضع. ضحك من ذلك وأمسك بها من معصمها ليجعلها تقف مرة أخرى، رفعها في الهواء ليضعها على السرير.

أمسك برأسها بكلتا يديه بينما كان يقبلها، وأنامله ضائعة في شعرها الأسود. تأوهت في فمه وشعر بيديها تمس بلطف فخذيه وخصره، مما أثاره. كان المعسكر يشعر بالنعاس من حوله عندما دخل بأميرة كزي كزيا، وترددت صرخاتها بعيداً في الظلام.

الفصل الحادي عشر

استغرق الأمر أسبوعاً من قارب شن يي للوصول إلى شيزويشان على الضفة الغربية للنهر. كانت الأيام رمادية وباردة، وأضحى لون المياه المحملة بالطمي قاتماً حتى استحقت اسمها، بينما كانت تتحول إلى اللون الأصفر الباهت تحت مقدمة السفينة. مرة، كانت عائلة من الدلافين قد بقيت معهم قبل أن يضرب خاسار أحدها بمجذاف مستمتعاً بالأمر، واختفت بالسرعة التي ظهرت بها. كان هو سا قد شكّل آراءه الخاصة عن قبطان القارب الصغير، وانتابه الشك بأن العنبر مليء ببضائع مهرّبة، وربما كماليات ستجلب أسعاراً عالية للمالك. لم تكن لديه فرصة للتحقق من شكوكه، لأن الطاقم لم يكن يتعب من مراقبة المسافرين. كانوا على الأرجح عمالاً لدى تاجر ثري، وينبغي بهم عدم المخاطرة بالحمولة بنقل مسافرين معهم. قدّر هو سا أن شن يي رجل خبير ويبدو أنه يعرف النهر أفضل من جباة ضرائب الإمبراطور. كانوا قد سلكوا أكثر من مرة أحد الروافد بعيداً عن المسار الرئيسي، وقاموا بتنفيذ التفاف كبير قبل أن يعودوا إلى النهر. في آخر تلك المرات، كان هو سا قد شاهد ظلاً عاتماً لمركب رسمي في منتصف النهر خلفهم. كان ذلك التكتيك يناسب احتياجاته ولم يعلّق على ضياع الوقت، على الرغم من أنه كان ينام وسكينه في ردنه ويستيقظ لأقل صوت.

كان خاسار يشخر بصوت عالٍ. كان يبدو أن الطاقم يحبه وقد علّمه أفراده عبارات لن تكون ذات فائدة كبيرة خارج بيوت البغاء. ابتلع غضبه عندما تغلب خاسار بلوي الذراع على ثلاثة من البحارة الأقوياء، وفاز بقربة من شراب الأرز القوي التي رفض أن يشارك بها أحداً.

من بين ثلاثتهم، كان تيموج من لا يستمتع إطلاقاً بالرحلة الهادئة. على الرغم من أن أمواج النهر بقيت ساكنة، إلا أنه تقيأ عن جانب القارب في صبيحة اليوم

الثاني، وكان موضع صرخات سخرية من الطاقم. كان البعوض يعثر عليه في الليل لهذا كانت تظهر آثار جديدة من العضات الحمراء على كاحليه كل صباح. راقب تيموج رفقة خاسار المرحة وكان تعبير وجهه يدل على أنه غير راضٍ عنها، لكنه لم يحاول الانضمام إليها، على الرغم من معرفته أكثر باللغة. لم يكن باستطاعة هو سا فعل شيء سوى التمنّي بأن تنتهي الرحلة، لكن شيزويشان كانت مجرد محطة توقف للتزوّد بالإمدادات.

قبل وقت طويل من ظهور المدينة للعيان، أصبح النهر مكتظاً بالقوارب الصغيرة التي تعبر من ضفة إلى أخرى وتحمل معها الإشاعات والأنباء عن بعد ألف ميل. لم يقترب شن يي من أحد، لكن حالما ربط القارب إلى عمود خشبي قرب الرصيف، اقترب قارب إثر آخر لتبادل أطراف الحديث مع ربابنتها. أدرك هو سا أن الرجل القصير كان معروفاً في النهر. تم طرح بضعة أسئلة بشأن المسافرين وتحمّل هو سا نظراتهم. لا شك بأن أوصافهم ستنتشر بسرعة على طول النهر قبل حتى أن يشاهدوا باوتو. بدأ يفكر بأن المغامرة كلها تتعرض للخطر ولم يكن أمراً مفيداً رؤية خاسار يقف على مقدمة السفينة، ويطلق إهانات حمقاء على قباطنة آخرين. بظروف مختلفة، ربما كان ذلك سبباً لضربه أو حتى تلقيه سكيناً في حنجرته، لكن شن يي انفجر ضاحكاً، وبدا أن شيئاً في تعبير وجه خاسار لم يعتبر الأمر إهانة. بدلاً من ذلك، ردّوا بإهانات أسوأ، وقايض خاسار قطعتين نقديتين بفاكهة طازجة وأسماك قبل أن تغرب الشمس. راقب هو سا ما يجري بصمت، ولكم كيس حبوب ليجعل رأسه يرتاح، ويحاول أن يخلد إلى النوم.

استيقظ تيموج على شيء ارتطم بجانب القارب. كان هواء الليل مثقلاً بالحشرات، وكان تيموج مثقلاً بالنعاس. تمطّى بحركة ثقيلة، وطرح سؤالاً على هو سا. لم يكن هناك رد، وعندما رفع تيموج رأسه، رأى أن هو سا وشقيقه مستيقظين ويحدّقان إلى الظلام.

همس تيموج: "ماذا يحدث؟". كان يسمع صريراً وأصوات حركة مكتومة، لكن القمر لم يكن قد ظهر بعد، وأدرك أنه لم ينم سوى لوقت قصير.

لمع ضوء فجأة عندما فتح أحد أفراد الطاقم مصراعي باب عنبر القارب ليظهر مصباح زيت صغير. رأى تيموج ذراع الرجل مضاءة بلون ذهبي، ثم اضطرب سكون الليل بصرخات وصيحات. اختفى خاسار وهو سا في الظلام ونهض تيموج على قدميه، متسمراً من خوفه. اندفعت أجساد مبهمة إلى القارب من الجانبين. أمسك بسكينه، واختبأ خلف الأكياس حتى لا يروه.

صدرت صرخة ألم من مكان ما قربه، وأطلق تيموج لعنة بصوتٍ عالٍ، مقتنعاً أن جنود الإمبراطور قد كشفوا أمرهم. سمع شن يي يصرخ بأوامر وكل ما حوله كان تأوهات ولهاث رجال يتعاركون بعضهم مع بعض في ظلمة تامة تقريباً. ربض تيموج في مكانه، منتظراً الهجوم عليه. عندما ركّز بصره، شاهد المصباح الذهبي الصغير يرتفع في الهواء، ويترك أثراً بقي في مخيلته. بدلاً من أن يهسهس في النهر، سمعه يرتطم بالخشب. اندلق الزيت يشع ضوءاً، وشهق تيموج خوفاً.

كان المصباح الذي تم رميه قد استقر على سطح قارب ثانٍ، وتدحرج بينما كان الرجال يثبون من فوقه. مثل شن يي وطاقمه، لم يكن المهاجمون يرتدون أكثر من قطعة قماش على خصورهم. كانوا يحملون سكاكين بطول سواعد الرجال ويقاتلون وهم يطلقون صرخات ولعنات بصوت عالٍ. وخلفهم، اشتعلت النيران بالخشب الجاف واستطاع تيموج رؤية الأجساد التي تتصبب عرقاً ملتحمة معاً، وقد تعرض بعضها لجروح بالغة تسيل منها الدماء.

بينما كان يراقب برعب، سمع تيموج صوتاً يعرفه يعلو على كل الأصوات الأخرى، كان طقطقة قوس مزدوج الوتر. استدار ليرى خاسار واقفاً بثبات على مقدمة السفينة، يطلق سهماً إثر آخر. كان كل سهم يصيب هدفه ما عدا واحد ذهب إلى الماء عندما تفادى خاسار سكيناً رماه بها أحدهم. ارتعش تيموج عندما وقع رجل ميت ووجهه إلى الأسفل بالقرب منه، واندفع ريش السهم من

تأثير ذلك في ظهره حتى خرج من صدره.

حتى عندها، كان يمكن للآخرين أن يتغلبوا عليهم إن لم تكن ألسنة اللهب قد بدأت تنتشر على قارب المهاجمين. رأى تيموج بعضهم يقفز فوق الفجوة إلى مركبهم، ويمسكون بدلاء جلدية. وقعوا أيضاً وسهام خاسار فيهم قبل أن يستطيعوا إخماد النار.

قطع شن يي حبلين غليظين يربطان القاربين بعضهما ببعض، وأسند نفسه على حاجز خشبي ليدفع القارب الآخر بعيداً. انجرف على غير هدى نحو النهر القاتم، واستطاع تيموج رؤية ظلال الرجال تكافح لإخماد ألسنة اللهب. كان الوقت قد فات بالنسبة للقارب، وسمع من بعيد صوت سقوط في النهر عندما التمس الرجال الأمان في الماء.

أصدرت النار صوتاً خاصاً بها، وكانت هناك طقطقة وأزيز تضاءل عندما حمل التيار القارب المشتعل أسفل النهر. انطلقت شرارات ساطعة إلى الأعلى في الظلام، أطول من شراع. أخيراً وقف تيموج، وصدره يلهث. قفز عندما اقترب منه أحدهم، لكنه كان هو سا، الذي أصبحت رائحته كريهة من الدخان والدم.

قال هو سا: "هل تأذيت؟".

هزّ تيموج رأسه، ثم أدرك أن مرافقه لم يعد يرَ شيئاً في الظلام بعد التحديق إلى ألسنة اللهب. تمتم تيموج: "أنا بخير. من هؤلاء الناس؟".

"جرذان النهر، ربما، يسعون خلف ما يحمله شن يي. مجرمون". صمت تماماً عندما ارتفع صوت شن يي في الليل وتم تحويل الشراع نحو الريح مرة أخرى. سمع تيموج خرير المياه عندما بدأوا يبتعدون عن رصيف شيزويشان إلى الجزء الأعمق من القناة. عندما صدر أمر آخر من قبل شن يي، صمت الطاقم وانتقلوا بعيداً عن الأنظار عبر المياه.

بدا أن القمر قد استغرق زمناً طويلاً ليرتفع، لكنه كان لا يزال هلالاً ويضيء النهر بلون فضي، ويلقي بظلالٍ على أفراد الطاقم الناجين. كان اثنان من أفراد

طاقم شن يي قد لقيا حتفهما في المعركة وراقب تيموج بينما كان يتم إلقاؤهما من فوق مؤخر السفينة من دون مراسم دفن.

كان شن يي قد عاد مع خاسار للإشراف على العمل، وأومأ لتيموج، وكان تعبير وجهه غير قابل للتفسير في الضوء الخافت. رآه تيموج يستدير ليعود إلى مكانه بجانب الشراع، لكن الرجل توقف، وكان واضحاً أنه اتخذ قراراً. وقف أمام خاسار الذي لم يكن شكله واضحاً يحدّق إليه.

قال شن يي لهو سا: "هذا التاجر الذي معك ليس متديناً. فالمتدينون يصلون كثيراً ولم أشاهده حتى الآن يفعل ذلك".

توتر هو سا وانتظر أن يتابع القبطان القصير كلامه.

هزّ شن يي كتفيه لا مبالياً. "لكنه يقاتل جيداً، كما قلت. يمكن أن أكون أعمى في الليل أو النهار، هل تفهم؟".

رد هو سا: "أفهم ذلك". مدّ شن يي يده، وربت على كتف خاسار. قلّد صوت القوس بحنجرته، وأصدر صوتاً خافتاً برضا واضح.

سأل هو سا بلطف: "من كان هؤلاء؟".

صمت شن يي لحظة، يفكر في الجواب. "حمقى، وحمقى أموات الآن. هذا ليس من شأنك".

رد هو سا: "يعتمد ذلك على ما إذا كنا سنتعرض لهجوم مجدداً، قبل باوتو".

"لا يعرف الرجل قدره، أيها الجندي-التاجر، لكنني لا أعتقد ذلك. كانت لديهم فرصة ليسرقوا منا وقد أضاعوها. لن يمسكوا بنا مرتين". قلّد مرة أخرى صوت قوس خاسار وابتسم ابتسامة عريضة.

قال تيموج فجأة: "ماذا يوجد في العنبر ويريدونه؟". كان قد أعدّ الكلمات بحرص، لكن شن يي بدا على الرغم من ذلك متفاجئاً من الأصوات الغريبة. كان تيموج على وشك أن يحاول مجدداً عندما رد القبطان القصير.

"كانوا فضوليين، وهم ميتون الآن. هل تشعر بالفضول؟".

فهم تيموج واحمر وجهه غضباً من دون أن يراه أحد في الظلام. هزّ رأسه، ردّ وهو يشيح بنظره بعيداً: "لا، لست كذلك".

قال شن يي: "أنت محظوظ لأن لديك أصدقاء يقاتلون عنك. لم أرَك تتحرك عندما كنا نتعرض للهجوم". ضحك بصوت خافت عندما تقطب حاجبا تيموج. كان يستطيع إدراك النبرة التهكمية إن لم يكن كل الكلمات، لكن شن يي استدار نحو خاسار قبل أن ينطق بجواب، وأمسك بذراع شقيقه.

قال: "أنت، أيها الفاسق. هل تريد شراباً؟". استطاع تيموج رؤية بياض أسنان شقيقه عندما عرف الكلمة التي تعني الشراب اللاذع الطعم. قاده شن يي بعيداً إلى مقدمة السفينة للاحتفال بالنصر. بقي التوتر سيد الموقف بينما كان هو سا وتيموج يقفان معاً.

قال تيموج أخيراً: "لسنا هنا لقتال لصوص النهر. مع سكين فقط، ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟".

رد هو سا بفظاظة: "نل قسطاً من النوم إذا استطعت. لا أعتقد أننا سنتوقف مجدداً لبضعة أيام".

كان يوماً شتوياً جميلاً في الجبال. كان جنكيز قد خرج مع زوجته وأبنائه إلى نهر يعرفه منذ كان صغيراً، بعيداً عن معسكر القبائل الكبير. كان جوشي وتشاغاتي يقودان فرسيهما، فيما تقود بورت مطيتها خلفهم وأوجيدي وتولي يجثمان على السرج.

عندما كانوا يغادرون القبائل، شعر جنكيز أن مزاجه يتحسن. كان يعرف الأرض تحت حوافر جواده وقد تفاجأ من موجة المشاعر التي انتابته لدى عودته الأولى من الصحراء. كان يعرف أن للجبال تأثيراً فيه، لكن لدهشته، كان الشعور بتراب طفولته تحت قدميه قد جعل عينيه تذرفان دمعاً سرعان ما أبعده برمشيه.

عندما كان يافعاً، كانت مثل تلك الرحلة تنطوي دائماً على عنصر خطر. كان

يمكن أن يكون هناك متجولون أو لصوص في التلال حول الجدول. ربما لا يزال هناك البعض منهم الذين لم ينضموا إليه في رحلته جنوباً، لكن كانت لديه أمة تتبعه في المعسكر وكانت التلال خالية من القطعان والرعاة.

ابتسم عندما ترجل، وراقب باستحسان بينما كان جوشي وتشاغاتي يجذبان شجيرتين معاً ويربطان لجامي فرسيهما. كان النهر سريعاً وضحلاً عند قاعدة تل قريب شديد الانحدار. كانت قطع حادة من الجليد تمر في النهر آتية من القمم. نظر جنكيز إلى الأعلى نحو المنحدرات، تذكر والده وكيف أنه تسلق مرة بحثاً عن نسرين على التل الأحمر. كان ياسوجي قد اصطحبه إلى المكان نفسه ولم يرَ جنكيز بهجة في الرجل، على الرغم من أنه ربما كان يخفيها. قرّر ألا يسمح لأبنائه برؤية سعادته في العودة إلى الأشجار والوديان التي يعرفها جيداً.

لم تبتسم بورت عندما كانت تضع ابنيها الصغيرين على الأرض قبل أن تنزل عن مطيتها بنفسها. كانت هناك بضع كلمات لطيفة بينهما منذ تزوج ابنة ملك كزي كزيا وكان يعرف أنها ستسمع عن زياراته الليلية إلى خيمة الفتاة. لم تكن قد ذكرت ذلك، لكن فمها بقي مشدوداً، وبدا أن ذلك يزداد مع مرور الأيام. لم يكن بمقدوره سوى مقارنتها بتشاكاهي عندما وقفت وتمطّت بين الأشجار التي تنحني فوق النهر، وتلقي بفيئها على الماء. كانت بورت طويلة؛ نحيلة وقوية فيما كانت ابنة كزي كزيا رفيعة وناعمة. تنهّد لنفسه. كانت أياً منهما تستطيع إثارته باللمسة الصحيحة، لكن بدا أن واحدة فقط ترغب بذلك. كان قد أمضى ليالٍ عديدة مع زوجته الجديدة بينما بقيت بورت وحيدة. ربما بسبب ذلك، كان قد أعدّ هذه الرحلة بعيداً عن المحاربين والعائلات، حيث العيون تراقب دائماً والأقاويل تنهمر مثل مطر الربيع.

وقع بصره على جوشي وتشاغاتي بينما كانا يقتربان من حافة الجدول ويحدّقان بالماء المتدفق. بغض النظر عن العلاقة مع والدتهما، لم يكن ليترك الفتيين يكبران لوحدهما حتى يصبحا رجلين، أو يسمح لوالدتهما بالإشراف

عليهما في أثناء ذلك. كان سهلاً أن يتذكر تأثير هولن على شقيقه تيموج وكيف جعله ذلك ضعيفاً.

مشى بخطوات واسعة خلف الابنين الأكبر سناً، وكبت ارتعاشاً انتابه من فكرة دخول المياه المتجمدة. تذكر الوقت الذي كان يختبئ فيه من الأعداء في مثل هذا المكان، وكيف أن جسده أصبح خدراً لا فائدة منه عندما كادت الحياة تفارقه. على الرغم من ذلك، كان قد نجا وأصبح أكثر قوة.

نادى بورت قائلاً: "اجعلي الآخرين يقتربان. أريدهما أن يصغيا السمع حتى إذا كانا صغيرين على الغوص في النهر". رأى جوشي وتشاغاتي يتبادلان نظرة قلق عند هذا التأكيد على ما سيقومان به. لم يكن أي منهما يستسيغ فكرة الغوص في النهر الجليدي. نظر جوشي إلى جنكيز بالنظرة المتسائلة نفسها التي تبدو عليه دائماً. بطريقة ما، تغير مزاج والده ونظر بعيداً بينما كانت بورت تحضر تولي وأوجيدي ليقفا على الضفة.

شعر جنكيز بعيني بورت تلاحقانه وانتظر حتى تراجعت إلى الخلف وجلست بقرب الجياد. كانت لا تزال تراقب ما يجري، لكنه لم يرغب بأن يلجأ إليها الفتيان طلباً للمساعدة. كان عليهما أن يختبرا أنفسهما، وأن يشاهد نقاط قوتهما وضعفهما. كانا يشعران بالتوتر من حوله، كما لاحظ، وألقى باللوم على نفسه على الوقت الذي قضاه بعيداً عنهما. كم مضى من الوقت منذ واجه نظرات والدتهما التي ترفض أن يلعب مع أحدهما؟ كان يتذكر والده بحب، لكن كيف سيتذكّرانه؟ أبعد مثل تلك الأفكار عن ذهنه، متذكراً كلمات ياسوجي في المكان نفسه، قبل وقت طويل.

قال للفتية: "لا بد أنكم سمعتم بالوجه القاسي: وجه المحارب الذي لا يفصح عن شيء لأعدائكم. إنه يأتي من قوة لا علاقة لها على الإطلاق بالعضلات، أو مهارة استعمال قوس. إنه صميم الوقار الذي يعني أن تواجهوا الموت باحتقار. أسراره أنه أكثر من قناع بسيط. يمنحكم ذلك شعوراً بالطمأنينة، وهكذا تكونون

قد قهرتهم الخوف وأجسادكم".

ببضع حركات سريعة، حلّ حزامه من ردائه وخلع طماقاته وحذاءه، ووقف عارياً على حافة النهر. كان جسده يحمل علامات جروح قديمة وكان لون صدره أكثر بياضاً من ذراعيه وساقيه البنية الداكنة. وقف من دون إحراج أمامهم، ثم دخل التيار المتجمد، وشعر بالصفن يشتد عندما مسّه الماء.

عندما غمر الماء جسده، تقلّصت رئتاه حتى أصبح يجاهد لسحب كل نفس. لم يظهر شيء على وجهه ونظر إلى أبنائه من دون تعبير بينما كان يضع رأسه تحت الماء، ثم سبح على ظهره، نصف عائم ويداه تمسّان حجارة قاع النهر.

شاهد الأبناء الأربعة ما يجري بذهول. بدا والدهم مرتاحاً تماماً في الماء المتجمد، ووجهه هادئ كما كان من قبل. كانت عيناه فقط شرستين ولم يستطيعوا النظر إليهما طويلاً.

تبادل جوشي وتشاغاتي نظرة، يتحديان بعضهما. هزّ جوشي كتفيه غير مبالٍ وتجرّد من ملابسه من دون خجل، وغاص تحت السطح. رآه جنكيز يرتعش من البرد، لكن الفتى القوي البنية حدّق إلى جنكيز كما لو أنه في تحدٍّ وينتظر. لم يبدُ عليه أنه خائف من والده، أو الدرس الذي ينوي تعليمه إياه.

تأفف تشاغاتي بازدراء، وحلّ ملابسه. بعمر السادسة، كان أوجيدي لا يزال أصغر من الآخرين بكثير. بدأ أيضاً يتجرد من ملابسه، ورأى جنكيز والدته تنهض على قدميها لإبعاده.

قال: "دعيه يغوص في الماء يا بورت". كان سيراقب ما يجري حتى لا يغرق ابنه الثالث. فزعت بورت خوفاً عندما نزل أوجيدي في الماء على بعد خطوة فقط خلف تشاغاتي. لم يترك ذلك سوى تولي يقف بائساً على الضفة. بتردد كبير، بدأ أيضاً نزع ردائه. ضحك جنكيز بصوت خافت، سعيداً بإقدامه. تكلم قبل أن تتدخل بورت.

"ليس أنت يا تولي. ربما السنة القادمة، لكن ليس هذه المرة. ابقَ هناك

واستمع".

بدا الارتياح واضحاً على وجه الفتى الصغير بينما كان يربط قطعة القماش حول خصره بعقدة أنيقة. ردّ على ابتسامة والده بابتسامة مماثلة، وغمزه جنكيز، فاتسعت ابتسامته.

كان جوشي قد اختار بركة على حافة النهر، حيث كان الماء ساكناً. راقب والده الذي كان كل جسده ما عدا رأسه مغموراً بالماء، وفي الحديث القصير، كان قد اكتشف كيفية السيطرة على تنفسه. كان قد أطبق فمه على أسنان تصطك وقد اتسعت عيناه. كما حدث ألف مرة من قبل، تساءل جنكيز إن كان هو والد الفتى. من دون ذلك اليقين، بقي هناك حاجز في مشاعر جنكيز نحوه. أحياناً، كان الحاجز متعباً لأن جوشي كان يصبح طويلاً وقوياً، لكن على الرغم من ذلك بقي جنكيز يتساءل إن كان يرى معالم مغتصب تتاري كان قد أكل قلبه انتقاماً. كان صعباً أن يحب مثل ذلك الوجه بعينين داكنتين، بينما كانت عيناه صفراوين مثل عيني الذئب.

كان تشاغاتي بكل وضوح ابنه. كانت عيناه شاحبتين من البرد بينما كان يغمر نفسه بالماء وكان على جنكيز أن يسيطر على مشاعره قبل أن يفسد اللحظة. فأرغم نفسه على سحب نفس عميق وبطيء.

"في مياه بهذه البرودة، يمكن لطفل أن يغط في النوم خلال ست أو سبع دقّات للقلب. يمكن حتى لرجل ناضج أن يفقد الوعي في وقت أطول بقليل. تبدأ أجسادكم تفقد الإحساس باليدين والقدمين أولاً. ستشعرون بأنها خدرة ولا فائدة منها. تصبح أفكاركم بليدة، وإذا بقيتم وقتاً طويلاً، لن تكون لديكم القوة أو الإرادة للخروج من هنا". توقف عن الكلام لحظة وهو ينظر إليهم. كان لون شفتي جوشي قد أصبح أزرق ولم يصدر عنه على الرغم من ذلك أي صوت. بدا أن تشاغاتي يكافح ضد البرد، وأطرافه تتحرك في الماء. راقب جنكيز أوجيدي عن كثب أكثر من غيره وكان الفتى يحاول تقليد شقيقيه الأكبر منه. كان الجهد

الذي يبذله كبيراً عليه وسمع جنكيز أسنانه تصطك معاً. لم يكن يستطيع إبقاءهم هناك مدة أطول وفكّر في إعادة أوجيدي إلى الضفة. لا، لم يفعل والده ذلك، على الرغم من أن تيموج الصغير فقد وعيه في النهاية وكاد يغرق.

قال لهم: "لا تُظهروا لي شيئاً مما تشعرون به. أظهروا لي الوجه القاسي الذي سيراه أعداؤكم عندما يسخرون منكم. تذكروا أنهم خائفون أيضاً. إذا كان أحدكم قد تساءل من قبل إن كان الجبان الوحيد في عالم من المحاربين، اعرفوا أن الشعور نفسه ينتابهم، حتى آخر رجل. عندما تعرفون ذلك، يمكنكم إخفاء خوفكم والتحديق إلى الأسفل بهم". كافح كل الفتيان الثلاثة لإبعاد الخوف والألم عن وجوههم، وعلى الضفة، كان تولي الصغير يقلّدهم بتركيز وجدّية.

"تنفسوا بهدوء من الأنف لخفض سرعة دقات القلب. الجسد شيء ضعيف، لكن ليس عليكم الإصغاء إليه يصرخ طلباً للمساعدة. كنت قد رأيت رجلاً يدفع سكيناً عبر جسده من دون أن يسيل منه الدم. اتركوا تلك القوة تأتي إليكم وتنفسوا. لا تُظهروا شيئاً".

فهم جوشي مباشرة وأصبح تنفسه بطيئاً مثل تنفس والده. تجاهله جنكيز، وراقب تشاغاتي بينما كان يكافح للسيطرة على نفسه. حدث ذلك أخيراً، قريباً من الوقت الذي كان جنكيز يعرف أن عليه إنهاء الأمر فيه قبل أن يخرجوا من الماء.

قال لهم: "أجسادكم مثل أي حيوان آخر تعتنون به. سيصرخ مطالباً بالطعام، والماء، والدفء، والتخلص من الألم. اكتشفوا الوجه القاسي ويمكنكم إسكات صوته الصاخب".

كان الفتيان الثلاثة قد فقدوا الإحساس بأجسادهم وقدّر جنكيز أن الوقت قد حان لإخراجهم من الماء. توقع أن عليه رفع الفتية المتعبين إلى الضفة، ونهض ليمسك بالأول. بدلاً من ذلك، وقف جوشي معه، ولون جسده وردي من الدماء تحت جلده. لم تترك عينا الفتى الصغير والده أبداً فيما مسّ جنكيز ذراع

تشاغاتي بيده، غير راغب بأن يرفعه بعد أن نهض جوشي لوحده.

تحرّك تشاغاتي خدراً، وعيناه تلمعان كالزجاج. ركّز على جوشي، وعندما رآه يقف، أغلق فمه وكافح حتى يقف، لكنه انزلق على الطين الناعم في قاع النهر. استطاع جنكيز أن يشعر بالخصومة بين الفتيين ولم يسعه سوى أن يتذكر بكتر، الشقيق الذي كان قد قتله قبل سنوات طويلة.

لم يستطع أوجيدي الوقوف لوحده ووضعته ذراعا والده القويتان على الضفة ليجف في الشمس. خرج جنكيز بخطوات واسعة والماء يتناثر من جسده، وشعر بأن الحياة تعود إلى أطرافه وطاقة تسري فيها. جاء جوشي وتشاغاتي للوقوف إلى جانبه، يلهثان فيما كانت الحياة تعود إلى أيديهما وأقدامهما. شعرا بأن والدهما كان لا يزال يراقبهما وفهم كل فتى المغزى وحاول السيطرة على جسده مرة أخرى. كانت أيديهما ترتعش رغماً عنهما، لكنهما وقفا منتصبين في ضوء الشمس ونظرا إليه، من دون أن يثقا أن باستطاعتهما التكلم وفكّاهما يرتعشان.

سألهم جنكيز: "هل قتلكم ذلك؟". كان ياسوجي قد سألهم الشيء نفسه وقال خاسار: "تقريباً"، مما جعل الرجل الكبير يضحك. لم يقل أبناؤه شيئاً، ورأى أنه لم يعمّق أواصر الصداقة معهم كما فعل ياسوجي معهم. كان سيقضي المزيد من الوقت معهم، وقطع على نفسه وعداً بذلك. كانت أميرة كزي كزيا مثل النار في دمه، لكنه سيحاول تجاهل النداء بين الحين والآخر فيما الأولاد يكبرون.

قال كما لو أنه يتكلم مع نفسه وليس معهم: "الجسد لا يحكم المرء. إنه وحش غبي لا يعرف شيئاً عن أعمال الإنسان. إنه مجرد عربة تحملكم. سيطروا عليها بالإرادة والتنفس من خلال أنوفكم، عندما تطلب منكم اللهاث مثل كلب. عندما تتلقون سهماً في معركة ويكون الألم فظيعاً، ستنتزعونه منكم، وقبل أن تسقطوا، ستعيدون الموت إلى أعدائكم". ألقى نظرة على سفوح التلال، وتواردت ذكريات أيام بريئة وبعيدة جداً لم يكن يتحمل أن يتذكرها بسهولة.

"املأوا الآن أفواهكم بالماء واركضوا إلى قمة هذا التل وعودوا. عندما

تعودون، ستبصقون الماء لتبرهنوا أنكم كنتم تتنفسون بشكل مناسب. من يصل أولاً سيتناول الطعام، فيما سيعود الآخران جائعين".

لم تكن تلك منافسة عادلة. كان جوشي أكبر سناً، وفي مثل ذلك العمر، حتى سنة تشكل فرقاً. لم تظهر على جنكيز أي إشارة على القلق عندما رأى الفتية يتبادلون النظرات، وأخذ يفكّر ملياً في فرص كل منهم. كان بكتر أيضاً أكبر سناً، لكن جنكيز كان قد ترك شقيقه يلهث على التل. كان يأمل بأن يفعل تشاغاتي الشيء نفسه.

انطلق تشاغاتي إلى الماء من دون سابق إنذار، خاض فيه مثيراً رذاذاً كبيراً وغمس وجهه تحت السطح ليملأ فمه. كان أوجيدي خلفه قليلاً فقط. تذكر جنكيز كيف أصبح الماء دافئاً وسميكاً في فمه. كان يستطيع تذوقه مع الذكريات.

لم يكن جوشي قد تحرك، واستدار جنكيز إلى الفتى مستفسراً. سأل: "لماذا لم تتبعهما؟".

هزّ جوشي كتفيه لا مبالياً. قال: "يمكنني التغلب عليهم. أعرف ذلك سلفاً".

حدّق إليه جنكيز، ورأى تمرداً لم يستطع فهمه. لم يكن أحد من أبناء ياسوجي قد رفض القيام بذلك الشيء. كان الفتى الذي أصبح لاحقاً جنكيز قد استغل الفرصة لإذلال بكتر. لم يستطع فهم جوشي وشعر بنفسه يشتعل غضباً. كان ابناه الآخران يكافحان آنذاك للصعود إلى أعلى التل، ويصبحان أصغر كلما قطعا مسافة أطول.

تمتم جنكيز، على الرغم من أنه كان يخمّن: "أنت خائف".

رد جوشي من دون إثارة وهو يمد يده إلى ملابسه: "لست كذلك. هل ستحبني أكثر إذا هزمتهم؟". للمرة الأولى، ارتعش صوته بمشاعر قوية. "لا أعتقد أنك ستفعل ذلك".

نظر جنكيز إلى الفتى الصغير مندهشاً. لم يكن أحد من أبناء ياسوجي يجرؤ

على التكلم معه بمثل تلك الطريقة. كيف كان والده سيرد على ذلك؟ فزع من ذكريات يدي ياسوجي تلطمانه. لم يكن والده ليسمح بذلك. للحظة، فكّر بضرب الفتى حتى يفقد الوعي، لكنه رأى عندها أن جوشي يتوقع ذلك، وقد شدّ نفسه لتلقي الضربات. مات الحافز قبل أن يولد.

قال جنكيز له: "ستجعلني فخوراً بك".

اهتز جوشي، لكن لم يكن ذلك من البرد.

قال: "إذاً، سأركض اليوم". راقبه والده من دون أن يفهم ما يجري، ملأ جوشي فمه من مياه النهر وانطلق، يجري مسرعاً وواثقاً فوق الأرض غير المستوية خلف شقيقيه.

عندما ساد الهدوء مجدداً، قاد جنكيز تولي الصغير عائدين إلى حيث كانت بورت تجلس إلى جانب الجياد. كان وجهها جامداً مثل الحجر ولم تنظر في عينيه.

قال لها، وهو لا يزال يحاول استيعاب ما كان قد حدث مع جوشي: "سأقضي المزيد من الوقت معهم".

نظرت إليه، وللحظة، انفرجت أساريرها عندما رأت ارتباكه. قالت: "لا يريد شيئاً في العالم أكثر من أن تقبله كابنك".

تأفف جنكيز. "أنا أقبله فعلاً. متى لم أفعل ذلك؟".

نهضت بورت على قدميها لتواجهه. "متى احتضنته بين ذراعيك؟ متى قلت له إنك فخور بأنه ابنك؟ هل تعتقد أنه لم يسمع همسات الفتية الآخرين؟ متى كممت أفواه الحمقى بإظهار بعض الحنان له؟".

قال مضطرباً: "لم أكن أريده أن يصبح ليناً". لم يكن يعرف أن الأمر واضح جداً، وللحظة، أدرك قسوة الحياة التي فرضها على جوشي. هزّ رأسه لتنقية أفكاره. كانت حياته أقسى ولا يستطيع إرغام نفسه على أن يحب الفتى. كلما كان يوم ينقضي، كان يرى نفسه أقل فأقل في تلك العينين الداكنتين.

قاطعت ضحكة بورت أفكاره. لم يكن صوتاً ساراً.

"الشيء الأكثر مرارة هو أنه بكل وضوح ابنك، أكثر من أي من الآخرين، على الرغم من أنك لا ترى ذلك. يمتلك الإرادة للوقوف في وجه والده وأنت أعمى". بصقت على العشب. "لو أن تشاغاتي فعل الشيء نفسه، كنت ستضحك وتقول لي إن الفتى يتمتع بشجاعة جدّه".

قال بهدوء متعباً من صوتها وانتقادها: "كفى". كان اليوم قد فسد بالنسبة إليه، وتذكر مشاعر البهجة والسرور عندما جاء إلى ذلك المكان مع والده وأشقائه.

نظرت بورت إلى تعبير وجهه الغاضب. "إذا تغلب على تشاغاتي في العودة إلى أسفل التل، كيف سيكون ردّ فعلك؟".

أطلق لعنة، وكان مزاجه معكراً مثل حليب فاسد. لم يكن قد فكّر بأن جوشي ربما يفوز وكان يعرف أنه إذا حدث ذلك، لن يعانق الفتى بحضور بورت. جالت الأفكار في ذهنه من دون أن تستقر ولم يكن يعرف كيف سيتصرف على الإطلاق.

استمع تيموج إلى خاسار يتفوّه بتعبيرات غاضبة. كان شقيقه قد كسب مقداراً كبيراً من الودّ بين أفراد الطاقم بردّ فعله على الهجوم. في الأيام التي أعقبت تلك اللحظات المرعبة في الظلام، ضم شن يي بشكل معتاد المحارب المغولي إلى رفاقه على متن القارب. كان خاسار قد تعلم العديد من العبارات بلغتهم وشاركهم في نشاطهم وحصصهم من الأرز والقريدس في المساء. بدا أن هو سا قد أصبح موضع ترحيب من قبل قبطان القارب، لكن تيموج تعمّد البقاء منفصلاً عنهم. لم تفاجئه رؤية خاسار يتصرف مثل حيوان مع الآخرين. لم يكن يفهم ذلك، وتمنّى تيموج أن يدرك خاسار أنه ليس أكثر من رامي سهام تم إرساله لحماية شقيقه الأصغر. كان جنكيز يعرف، على الأقل، الأهمية التي قد يمثّلها تيموج بالنسبة له.

في الليلة التي سبقت مغادرتهم إلى النهر، كان جنكيز قد استدعى تيموج، وطلب منه أن يتذكر كل تفصيل عن أسوار باوتو، وكل جزء من الدفاعات. إذا فشلوا في العودة مع البناة الذين شيّدوا المدينة، ربما تكون تلك المعرفة كل ما لديهم لشن حملة صيفية. كان جنكيز يثق بقوة ذاكرة وذكاء تيموج الحاد اللذين كان واضحاً أن خاسار يفتقر إليهما. كان تيموج قد تذكر الحاجة للاستعجال بإحباط عندما مرّوا بقارب يقل امرأتين، ولوّح خاسار بقطع فضية لهما، يدعوهما إليه.

لم يكن هناك مكان منعزل في القارب، ولم يسع تيموج سوى أن يحدّق إلى الماء بدلاً من مراقبة المرأتين وهما تسبحان عبر المسافة بين القاربين مثل ثعلبي بحر، تلمعان وترتعشان عندما صعدتا إلى القارب. كان شن يي قد ألقى بمرساة في المياه العميقة حتى تستطيع المرأتان العودة سباحة من القارب.

أغلق تيموج عينيه لدى سماعه صوت المرأة الثانية. كانت رشيقة، جذّابة في شبابها، على الرغم من أنها لم تكن قد نظرت باتجاهه عندما كانت تقبل نقود خاسار. لم تتوقف المرأة عن إصدار الأصوات التي كانت تصدرها إلا بعد أن تمكن خاسار من انتزاع النقود التي منحها إياها عنوة وألقى بها بعيداً، مما أثار ضحك أفراد الطاقم الذين كانوا يراقبون ما يجري عندما دفعت المرأة خاسار بعيداً، وزحفت بحثاً عنها على يديها وركبتيها. راقب تيموج من طرف عينه عندما استفاد خاسار من الفرصة وجعلته قهقهة المرأة يشتم بصوت خافت. ما الذي سيعتقده جنكيز من هذا التأخير في مخططهم؟ كان جنكيز قد كلّفهم بمهمة لا مثيل لأهميتها بالنسبة للقبائل، وأوضح ذلك بجلاء. من دون معرفة كيفية الدخول إلى مدن تشن المحاطة بأسوار، لن يهزموا جنود الإمبراطور أبداً. جعل ذلك تيموج يستشيط غضباً بينما كان ينتظر أن ينتهي خاسار للمرة الثانية. كانوا قد أضاعوا اليوم وكان تيموج يعرف أنه إذا قال أي شيء، سيوبخه شقيقه أمام أفراد الطاقم. شعر تيموج بالإذلال. لم يكن قد نسي سبب تواجدهم

هناك، حتى ولو نسي خاسار.

كان الظلام يشتد حلكة عندما رأت بورت جوشي يقود شقيقيه المنهكين عائدين عبر النهر. كانت قدمه العارية لا تزال تنزف من الجري ووقف أمامها، وهو يلهث. انفطر قلب بورت على الفتى الصغير عندما بحث بناظريه عبثاً على والده. خرج شيء منه عندما رأى أن جنكيز لم يكن هناك. بصق الماء من فمه ولهث بصوتٍ عالٍ في صمت المساء.

كذبت بورت: "لقد تم استدعاء والدك إلى المعسكر". لم يصدقها جوشي. كانت تستطيع رؤية الألم في وجهه وأخفت إحباطها من زوجها ونفسها لأنها تجادلت معه.

قال جوشي فجأة: "سيكون قد ذهب إلى زوجته الجديدة، الغريبة". عضت بورت شفتها بدلاً من أن ترد. في ذلك أيضاً، كانت قد خسرت الرجل الذي تزوجته. مع ابنها البكر يقف مرتبكاً ومستاءً أمامها، كان سهلاً أن تكره جنكيز لأنانيته. قرّرت دخول خيمة امرأة كزي كزيا إذا لم تستطع العثور عليه. ربما لم يكن يهتم لزوجته آنذاك، لكنه يهتم فعلاً بأبنائه وسوف تستفيد من ذلك لتعيده إليها.

جاء تشاغاتي وأوجيدي يتعثران في الظلام، وبصق كل فتى الماء كما قيل له. نتيجة غياب والدهم لرؤية ذلك، كان النصر خالياً من المعنى وبدوا مثل الخاسرين.

قالت بورت، وعيناها تلمعان بالدموع: "سأخبره كيف جريتم".

لم يكن ذلك كافياً لهم، وكانوا صامتين ومشاعرهم مجروحة عندما امتطوا أفراسهم للعودة إلى البيت.

الفصل الثاني عشر

قال هو سا للشقيقين إنه ينبغي ركوب عربة للانتقال إلى باوتو البعيدة بضعة أميال عن الميناء النهري المزدحم الذي يمدّها بأسباب الحياة. كانت المدينة آخر مركز تجاري بين تشن الشمالية ومملكة كزي كزيا والنهر يعج بالقوارب في الوقت الذي شدّوا فيه الرحال إلى المنطقة. كانت الرحلة قد استغرقت ثلاثة أسابيع منذ تخلوا عن جيادهم، وكان تيموج على الأقل منزعجاً من التأخير، ومن ضباب النهر الرطب، ومن تناول الأرز والأسماك. كان شن يي وأفراد طاقمه يشربون من النهر من دون أن يتأثروا، وبدا أن خاسار يمتلك معدة من حديد، لكن أمعاء تيموج أصيبت بالوهن ثلاثة أيام، وتركته في حالة يرثى لها وملابسه ملوثة. لم يكن قد تناول أو حتى رأى أسماكاً أبداً من قبل، ولم يكن يثق بالأشياء الفضية الحراشف التي تخرج من النهر. بدا أن أفراد الطاقم يبتهجون بها عندما يجذبونها إلى القارب بأسلاك رفيعة، وهي تهتز وتتقلب بجنون فيما الرجال يضربونها على رؤوسها. كان تيموج قد غسل ملابسه بعد أن اتسخت، لكن معدته بقيت تقرقع وتُخرج هواءً سيئاً من كلا الطرفين.

عندما أخذ النهر الأصفر يتلوى بين التلال، أصبح بالإمكان رؤية المزيد من الطيور، التي تعيش على فتات من القوارب والتجار. كان تيموج وخاسار مذهولين من العدد الكبير للرجال والقوارب التي تحمل الشحنات إلى أعلى وأسفل النهر، وكان ذلك المكان مزدحماً أكثر من أي مكان آخر شاهدوه من قبل. على الرغم من أن شن يي بدا قادراً على سلوك ممر عبر ذلك الازدحام بتعديل الشراع فقط، إلا أن العديد من البحّارة كانوا يحملون عصياً طويلة لإبعاد القوارب الأخرى. كانت الضوضاء والفوضى تعمّان المكان، مع وجود مئات التجار الذين يصرخون متنافسين لبيع أي شيء من الأسماك الطازجة إلى الملابس التي أفسدها الماء لكن يمكن على الرغم من ذلك الاستفادة منها في الحصول

على قطع قماشية صغيرة. عبقت رائحة توابل غريبة في الهواء عندما كان شن يي يناور بين منافسيه، يبحث عن مساحة يرسو فيها القارب في الليل.

كان شن يي معروفاً تماماً في تلك المياه، وراقب تيموج بعينين دقيقتين بينما كان أصدقاؤه يحيّونه مراراً وتكراراً. على الرغم من حقيقة أن أفراد الطاقم اعتادوا على قبول خاسار كفرد منهم، إلا أن تيموج لم يكن يثق بقبطان القارب الصغير. كان يتفق مع هو سا على أن الحمولة ربما كانت مليئة ببضائع مهربة، لكن ربما يستطيع الرجل كسب المزيد من النقود بالإبلاغ عن وجودهم لجنود الإمبراطور. كان البقاء على القارب من دون التأكد من أنهم بأمان يمثّل عامل توتر ضاغطاً على الرجال الثلاثة.

كان واضحاً أنها لم تكن صدفة أن يتزامن وصولهم إلى الميناء النهري مع حلول المساء. كان شن يي قد أخّر عبورهم حول منعطف في النهر، ولم يتنازل بالردّ عندما ضغط عليه تيموج للاستفادة من الوقت. مهما كانت حمولته، سيتم تفريغها في الظلام، عندما يكون جباة الضرائب وجنودهم أقل استعداداً.

همهم تيموج غاضباً بصوت خافت. لم يكن يهتم إطلاقاً لمشكلات شن يي. كانت مهمته الوصول إلى الرصيف بأسرع ما يمكن قبل أن يشق طريقه إلى المدينة. كان هو سا قد قال إن الأمر لا يستغرق سوى بضع ساعات من السير على الأقدام على طريق جيدة، لكن الأشكال والأصوات الغريبة حولهم في كل مكان جعلت تيموج متوتراً وأراد أن يتحرك. كان أفراد الطاقم يشعرون بالتوتر أيضاً بعد أن وجدوا مكاناً يرسو قاربهم فيه وينتظرون دورهم على الرصيف المتداعي.

لم يكن منظر الميناء النهري مثيراً للإعجاب حتى ينظر المرء إليه، ويتألف من بضع عشرات من الأبنية الخشبية فقط التي تبدو أنها تميل لتدعم بعضها. كان مكاناً صغيراً مهملاً، مبنياً للتجارة وليس للراحة. لم يكن تيموج يمانع ذلك، لكنه استطاع رؤية جنديين مسلحين جيداً يراقبان كل ما يتم تفريغه ولم يكن يريد

أن يلفت انتباههما.

سمع تيموج شن يي يتكلم بصوت خافت إلى أفراد طاقمه، وكان واضحاً أنه يصدر أوامر لأنهم كانوا يحنون رؤوسهم بإيماءات حادة. حاول جاهداً إخفاء غضبه من تأخير آخر. كان ورفيقاه سيغادرون النهر بسرعة ويبتعدون عن ذلك العالم الصغير الغريب الذي لم يفهمه. لوقت قصير، كان قد تساءل ما إذا كان باستطاعته شراء مخطوطات في سوق القوارب، لكن لم تكن هناك إشارة على مثل تلك التجارة ولم يكن لديه ميل لقوالب سكب الفضة أو التماثيل الصغيرة المزخرفة. كان فتيان يجذفون زوارق صغيرة مصنوعة من القصب ويقتربون من أي قارب جديد وهم يحملون تلك الأشياء بقبضاتهم المتسخة. نظر تيموج بثبات إلى الأولاد الأشقياء حتى مرّوا من جانبه. كان مزاجه سيئاً للغاية في الوقت الذي جاء فيه شن يي إلى مؤخر السفينة للتكلم مع ركابه.

قال: "ينبغي أن ننتظر حتى يفرغ مكان على الرصيف. ستكونون على طريقكم قبل منتصف الليل، أو بعد بضع ساعات". لإزعاج تيموج، أومأ الرجل القصير إلى خاسار.

قال: "إذا لم تكن تأكل كثيراً، أريدك أن تنضم إلي كأحد أفراد طاقمي". لم يفهمه خاسار، لكنه ربت على كتف شن يي رداً على ذلك. كان قد نفد صبره أيضاً ويرغب بمتابعة الطريق، وشعر القبطان القصير بمزاج ركابه.

قال: "إذا أردتم، يمكنني إيجاد مكان على العربات لتأخذكم إلى المدينة. سيكون السعر عادلاً".

لاحظ تيموج أن الرجل يراقبهم عن كثب. لم تكن لديه أدنى فكرة ما إذا كانت الرحلة إلى باوتو سهلة أم لا، لكنه كان يشك بأن أي تاجر سيرفض عرضاً لركوب عربة. كانت فكرة السفر مسافة أطول ونظرات شن يي المتشككة تلاحقهم وتزعجهم، لكنه أرغم نفسه على الابتسام وردّ بلغة شن يي.

قال: "سنقول لك نعم، إلا إن كان تفريغ حمولتك سيطول".

هزّ شن يي كتفيه غير مبالٍ. "لدي أصدقاء هنا للمساعدة. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. لستم صبورين مثل التجار، على ما أعتقد". ابتسم بينما كان يتكلم، لكن عينيه بقيتا ثابتتين عليهم، تدقق في كل التفاصيل. كان تيموج ممتناً لأن خاسار لم يكن يفهم ما يدور. كانت معرفة ما يدور في خلد شقيقه أسهل من قراءة خريطة.

قال تيموج، وهو يستدير مبتعداً ليتأكد أن شن يي فهم أنهم صرفوه: "سنقرر لاحقاً". ربما كان الرجل سيتركهم وشأنهم، لكن خاسار أشار إلى الجنود على الرصيف.

قال لهو سا: "اسأله عن هؤلاء الرجال. نريد أن نتجاوزهم وأعتقد أنه يريد ذلك أيضاً. اسأله كيف سيفرّغ حمولته من دون أن يلفت انتباههم".

تردّد هو سا، ولم يكن يريد أن يعرف شن يي أنهم خمّنوا أن بضاعته غير قانونية أو لم يدفع الضرائب المترتبة عليها. لم يكن يعرف كيف سيكون رد فعل الرجل. قبل أن يتكلم، تأفف خاسار.

قال وهو يشير إلى الجنود مجدداً: "شي يي".

رفع القبطان يده وضغط على ذراع خاسار ليخفضها قبل أن يرى أحد الإشارة.

قال: "لدي أصدقاء على الرصيف. لن تكون هناك مشكلة. باوتو مدينتي التي ولدت فيها، هل تفهم؟".

ترجم هو سا، وأومأ خاسار برأسه.

قال لتيموج: "ينبغي أن نراقب هذا الشخص يا شقيقي. لا يمكنه أن يغدر بنا فيما يقوم بتفريغ حمولته، وإلا سيلفت الكثير من الانتباه إلى ما كنا نجلس عليه طيلة الأسابيع القليلة الماضية".

رد تيموج بصوت حاد: "شكراً لاهتمامك. كنت قد فكّرت بما ينبغي بنا فعله. سنقبل عرضه بالذهاب إلى المدينة وتجاوز الأسوار معه. بعد ذلك، سنعثر على رجالنا ونعود".

كان يتكلم وهو يعرف أن شن يي لا يفهم ما يقوله، لكن على الرغم من ذلك كان هناك هاجس بحدوث أمر سيئ. كان العثور على البناة في باوتو جزءاً واحداً من خطة لم يستطيعوا وضعها عندما هاجموا مملكة كزي كزيا. لم يكن أحد يعرف سهولة التعرف إليهم، أو المخاطر التي سيتعرضون إليها في المدينة. حتى إذا حالفهم النجاح، لم يكن تيموج على الرغم من ذلك واثقاً أنهم يستطيعون إخراج أسرى رغماً عنهم فيما صرخة مساعدة قد تجعل الجنود يهرعون لتلبيتها. فكّر في ثروة الفضة التي كان جنكيز قد زوّده بها لتسهيل مرورهم.

قال: "هل ستعود إلى النهر يا شن يي؟ ربما لا نمكث طويلاً في المدينة".

لخيبة أمله، هزّ الرجل رأسه. "أنا في وطني الآن وهناك أشياء كثيرة ينبغي بي القيام بها. لن أغادر مجدداً قبل عدة شهور".

تذكر تيموج كم دفعوا من مال لتلك الرحلة، كما لو أن شن يي كان متردداً في المضي قدماً.

سأل غاضباً: "إذاً، أنتم تأتون إلى هنا دائماً؟".

ابتسم له شن يي. رد وهو يضحك بصوت خافت: "الفقراء لا يأتون إلى باوتو". حدّق تيموج إليه حتى مشى عائداً إلى أفراد طاقمه.

تمتم هو سا: "لا أثق به. إنه ليس قلقاً من الجنود على الرصيف. إنه يحمل شيئاً ثميناً بما فيه الكفاية ليخاطر بالتعرض لهجوم مسلح، وهو معروف جيداً لكل القباطنة الآخرين في باوتو. لا أحب هذا على الإطلاق".

قال تيموج، على الرغم من أن الكلمات أفزعته: "سنكون مستعدين". كان كل الرجال على الرصيف وفي النهر أعداء، وكان يأمل بأن يمروا بينهم من دون أن يثيروا ريبة أحد. كان جنكيز قد علّق آماله عليهم، في بعض الأحيان كانت مهمتهم تبدو مستحيلة.

ارتفع القمر مثل قطعة فضية عليها جليد أبيض، وألقى شعاعاً خافتاً من

الضوء على المياه. تساءل تيموج إن كان شن يي قد خطط لوصولهم بدقة أكبر حتى مما أدركه. كانت الليلة المظلمة ستاراً في البداية، وحلّ شن يي الحبال التي تربطهم إلى دعامة على ضفة النهر وأرسل اثنين من أفراد الطاقم للعمل على مجذاف التوجيه في مؤخر القارب. بينما كان القارب يتأرجح يميناً ويساراً، استعمل شن يي بنفسه عموداً طويلاً ليكون ممراً إلى الرصيف. أطلق رجال يشعرون بالنعاس عليه الشتائم عندما ارتطم العمود بخشب الرصيف، وصدر عنه صوت مكتوم في الظلام. اعتقد تيموج أن القمر قد تحرك في الوقت الذي كانوا فيه على وشك الوصول إلى الرصيف نفسه، على الرغم من أن شن يي بالكاد تعرق من العمل الذي قام به.

كان الميناء عاتماً، على الرغم من أن أضواءً كانت لا تزال تظهر في نوافذ بعض الأبنية الخشبية ويمكن سماع ضحكات في مكان ما داخلها. كان اللمعان الأصفر من تلك الأماكن هو كل ما يحتاجه شن يي لتلمّس طريقه على الرصيف وكان أول من وثب على الألواح الخشبية، ممسكاً حبلاً في يده ليربط القارب. لم يكن قد أصدر أمراً بالتزام الصمت، لكن لم يتكلم أحد من أفراد الطاقم فيما كانوا يفكّون الشراع. حتى أصواتهم وهم يفتحون مصراعي باب عنبر الحمولة كانت مكتومة.

تنفس تيموج الصعداء مطولاً عندما وصل الأرض، لكن في الوقت نفسه، شعر بنبضه يتسارع. كان يمكن رؤية بعض الأشكال المبهمة، مستلقية أو نائمة. جال تيموج ببصره عليها، متسائلاً إن كانوا متسولين، غانيات أو حتى مخبرين. كان الجنود الذين رآهم مستعدين بالتأكيد لمراقبة رسو زورق في الليل. كان تيموج يخشى صرخة مفاجئة أو اندفاعاً من رجال مسلحين يمكن أن يقضي على كل ما أنجزوه حتى ذلك الوقت. كانوا قد وصلوا إلى المدينة التي أرادها جنكيز، أو على الأقل إلى أقرب نقطة على النهر المؤدي إليها. ربما لأنهم كانوا قريبين جداً من هدفهم، أصبح مقتنعاً أن الأمر لن يتمخض عن شيء وتسلل خلف الآخرين

ليعبر متن القارب إلى الألواح الخشبية، وتعثّر في أثناء قيامه بذلك. كان هو سا من أمسك بذراعه حتى لا يقع، فيما اختفى خاسار في الظلام.

لم يكن تيموج يرغب بشيء أكثر من ترك القارب وطاقمه خلفه، لكنه كان لا يزال قلقاً من أن يغدر بهم شن يي. إن كان القبطان قد فهم أهمية قيام خاسار بحمل قوس مغولي معه، ربما تنقذه المعلومات من ورطة. في أرض غريبة، حتى مع مساعدة هو سا، سيكون هناك ضغط شديد لتفادي التدقيق في وضعهم، خاصة من قبل شخص يعرف أنهم متجهون إلى باوتو.

صدر صوت صرير في الظلام، ومدّ تيموج يده إلى سكينه. أرغم نفسه على الاسترخاء عندما شاهد عربتين تقتربان، تجرهما بغال تظهر آثار تنفسها في الهواء البارد. ترجل السائقان، وتكلما بصوت منخفض مع شن يي، وضحك أحدهما بصوت خافت عندما بدأوا تفريغ حمولة القارب الصغير. لم يسع تيموج سوى أن يركّز عينيه لرؤية ما يخرج من القارب، لكنه لم يتبين التفاصيل. كان الشيء الذي يحمله الرجال ثقيلاً، وأمكن معرفة ذلك من الأصوات التي يطلقونها عندما يرفعونه. وجد تيموج وهو سا نفسيهما يقتربان منهم، يدفعهما الفضول. كان خاسار من تكلم في الظلام وهو يمر حاملاً شيئاً داكناً على كتفه.

همس لتيموج: "حرير. لقد تحسست طرف القماش". سمعاه يتأفف بينما كان يضع ما يحمله في أقرب عربة قبل أن يعود إليهما.

همس: "إذا كانت كل البضاعة هكذا، هذا يعني أننا نقوم بتهريب الحرير إلى المدينة".

عض هو سا على شفته من دون أن يلاحظه أحد.

"بمثل هذه الكمية؟ لا بد أنها جاءت من كيفنغ أو ينكينغ نفسها. تستحق مثل تلك الحمولة وجود أكثر من بعض البحارة للدفاع عنها".

سأل خاسار بصوت عالٍ جعل تيموج يفزع: "كم ثمنها؟".

رد هو سا: "آلاف القطع الذهبية. ما يكفي لشراء مئة قارب مثل هذا ومنزل

إقطاعي لوضع الحرير فيه. شن يي هذا ليس تاجراً صغيراً أو لصاً. إذا كان قد رتّب لنقل هذه البضاعة عبر النهر، لا بد أن ذلك كان فقط لصرف انتباه أولئك الذين ربما يسرقونها. حتى عندها، ربما كان خسر كل شيء لو أننا لم نكن على متن القارب". فكر لحظة قبل أن يتابع كلامه.

"إذا كان العنبر مليئاً، لا يمكن أن تكون البضاعة سوى من المستودعات الإمبراطورية. لا يتعلق الأمر بدفع الضرائب عليها. إنها محمية تماماً قبل البيع. ربما تكون هذه المرحلة الأولى من مسار تقطع فيه آلاف الأميال إلى مقصدها النهائي".

سأله خاسار: "ماذا يهمنا في ذلك؟ ما زلنا بحاجة للدخول إلى المدينة وهو الشخص الوحيد الذي يعرض علينا اصطحابنا معه".

سحب هو سا نفساً عميقاً لإخفاء نوبة غضب. "إذا كان أحد يبحث عن الحرير، سنكون هدفاً أكثر مما إذا كنا لوحدنا. هل تفهم؟ قد يكون أسوأ شيء نفعله هو السفر إلى باوتو مع هذه البضاعة. إذا فتّش حراس المدينة العربتين، سيتم احتجازنا وتعذيبنا لقول كل ما نعرفه".

شعر تيموج بمعدته تتقلص من الفكرة. كان على وشك إصدار أمر لمرافقيه بمغادرة القارب عندما ظهر شن يي عند كتفه. كان يحمل مصباحاً زيتياً، لكن يمكن رؤية وجهه في الضوء الخافت. كان تعبيره متوتراً مثلما كانوا يرونه دائماً، ويلمع من العرق.

قال: "اصعدوا، جميعكم". فتح تيموج فمه لتقديم عذر ما، لكن أفراد الطاقم كانوا قد تركوا قاربهم. كانوا يحملون سكاكين ووقفوا مستعدين، ولم يستطع تيموج العثور على كلمات لتهدئة خوفه المتزايد. كان واضحاً تماماً أنه لن يكون مسموحاً للركاب بمغادرة المكان ببساطة تحت جنح الليل، ليس بعد ما رأوه.

بدا أن شن يي يشعر بانزعاجه وأومأ له. قائلاً: "لا تتمنى أن تشق طريقك بنفسك إلى المدينة في الظلام. لن أسمح بذلك".

فزع تيموج، ومدّ يديه ليدفع بنفسه إلى إحدى العربتين. لاحظ كيف أشار أفراد الطاقم إلى هو سا ليصعد إلى العربة الثانية فيما سمحوا لخاسار بالصعود إلى الأولى بجانب شقيقه. بشعور غامر، أدرك أن شن يي كان قد فرّقهم عمداً. تساءل إن كان سيرى باوتو أم سيتم إلقاؤه جانب الطريق وحنجرته ممزقة. كانوا على الأقل لا يزالون يحملون أسلحتهم. كان خاسار يحمل قوسه ملفوفاً بقماش وتيموج يحمل سكينه الصغيرة، على الرغم من أنه كان يعرف أنه لا يستطيع شق طريقه بالقوة.

بقيت العربتان ساكنتين حتى خرجت صافرة خافتة من ظلال أبنية الميناء. قفز شن يي بهدوء عن العربة، وأطلق صافرة جوابية. راقب تيموج بقلق بينما كان شكل داكن يفصل نفسه عن الظلال ويمشي نحو مجموعتهم الصغيرة. كان أحد الجنود، أو شخصاً يشبههم إلى حدٍّ كبير. تكلم الرجل بنبرة منخفضة، وكافح تيموج لسماع الكلمات. شاهد شن يي يسلم الرجل حقيبة جلدية ثقيلة، وسمع صوت الرجل السعيد من الوزن.

قال شن يي: "أعرف عائلتك يا يان. أعرف قريتك، هل تفهم؟". تسمّر الرجل في مكانه وقد فهم التهديد. ولكنه لم يردّ.

قال شن يي: "أنت أكبر من أن تكون حارس ميناء. بين يديك ما يكفيك لشراء تقاعدك، ربما شراء أرض زراعية صغيرة، مع زوجة ودجاج. ربما حان الوقت لتترك الميناء خلفك".

أومأ الرجل في الظلام، وضم الحقيبة إلى صدره.

"إذا تم إلقاء القبض علي يا يان، لدي أصدقاء سيجدونك بغض النظر عن المكان الذي ستهرب إليه".

أومأ الرجل برأسه مجدداً، متشنجاً. كان خوفه واضحاً وتساءل تيموج مجدداً عن هوية شن يي، وما إذا كان ذلك اسمه الحقيقي. بالتأكيد لن يثق أحد بوضع شحنة من الحرير الإمبراطوري المسروق بأيدي قبطان قارب بسيط.

اختفى الجندي بين الأبنية، وتحرك بسرعة مع تلك الثروة الكبيرة بين يديه. صعد شن يي مرة أخرى إلى العربة، وطقطق السائقان بلسانيهما للبغال لحثّها على الانطلاق. ترك تيموج أصابعه تتلمس تحته بحثاً عن ملمس الحرير، لكنها وجدت بدلاً من ذلك قماشاً خشناً بخطوط تطريز كثيفة. كان الحرير مخفياً، لكنه تمنّى أن يكون لدى شن يي المزيد من الرجال المرتشين الذين ينتظرون في باوتو. كان لا يشعر بما يجري حوله، مأخوذاً بالأحداث التي لا يمكنه السيطرة عليها. تفتيش واحد جيد عند أسوار المدينة ولن يرى جبال خينتي مجدداً. كما كان كوكشو قد علّمه، تضرّع إلى الأرواح لتقوده بأمان عبر المياه الداكنة للأيام القادمة.

بقي أحد أفراد الطاقم خلفهم لإعادة القارب إلى النهر. وحيداً، لم يكن يستطيع السيطرة عليه بسهولة وظن تيموج أنه سيغرق في مكان ما بعيداً عن أنظار المسؤولين الذين يستفسرون عن كل كبيرة وصغيرة. لم يكن شن يي من صنف الرجال الذين يقترفون الأخطاء، وتمنّى تيموج أن يعرف ما إذا كان الرجل عدواً أم صديقاً.

كان تقدير هو سا للمسافة إلى باوتو صحيحاً، كما خمّن تيموج. كانت المدينة مبنية على بعد حوالى ثمانية أميال من النهر؛ على بعد خمسة وعشرين لي، وفقاً لتقدير تشن للمسافات. كان الطريق جيداً، ممهداً بحجارة مسطحة غير مكسورة بحيث يستطيع التجار قطع المسافة من النهر بوقت معقول. كان الفجر قد بدأ للتو يبزغ عندما مدّ تيموج عنقه وشاهد الظل الداكن لسور المدينة يقترب منهم. مهما كان الذي سيجري، سواء أكان تفتيشاً للعربتين ينتهي بموته أم دخولاً هادئاً إلى باوتو، فإنه سيحدث بسرعة. شعر بعرق القلق ينخز جلده وحك إبطيه. إلى جانب الخطر القائم آنذاك، لم يكن قد دخل أبداً مدينة مبنية من الحجارة من قبل. لم يكن يستطيع إبعاد صورة تل من النمل يبتلعه بطريقة ما إلى حشد متدافع من الغرباء. كانت فكرة قيامهم بالضغط عليه قد

جعلته يتنفس بصعوبة، ويشعر بالخوف. كان يشعر بعائلات شعبه بعيدة جداً عنه. مدّ تيموج عنقه نحو الظل الداكن الذي كان شقيقه، وكاد يمس أذنه بشفتيه حتى لا يسمعه أحد.

"إذا اكتشفوا أمرنا عند البوابة، أو تم العثور على الحرير، ينبغي أن نهرب ونجد مكاناً نختبئ فيه في المدينة".

حدّق خاسار إلى حيث كان شن يي يجلس في مقدمة العربة.

"لنأمل ألا يصل الأمر إلى ذلك الحدّ. لن نجد بعضنا مجدداً أبداً، وأعتقد أن صديقنا ليس مجرد مهرّب بسيط".

استقام تيموج في جلوسه على الكيس القاسي عندما استدار شن يي لينظر إليهما. في الضوء الذي أخذ يشتد، كان الذكاء في نظرة الرجل القصير مربكاً، ونظر تيموج خلفه إلى سور المدينة، وشعر بقلقه يتزايد.

لم يكونوا وحدهم على الطريق آنذاك. أظهر ضوء الفجر صفاً من العربات يتجمع أمام البوابات. وكانت قد أمضت الليل على الطريق، تنتظر أن يُسمح لها بالدخول. تجاوز شن يي تلك العربات وسط صخب ركابها، متجاهلاً الرجال المتثائبين الذين فقدوا مكانهم في الصف. انتشرت حقول الطين الأحمر إلى مسافات بعيدة، وكان كل حصاد الأرز يذهب لإطعام المدينة. لاحت باوتو فوقهم جميعاً، وابتلع تيموج ريقه عندما نظر إلى الأعلى مراراً وتكراراً على الحجارة الضخمة.

كانت بوابة المدينة بناءً ضخماً من الخشب والحديد، ربما لإثارة إعجاب المسافرين. على كلا جانبيها، كان هناك برجان يزيد ارتفاعهما عن البوابة بمرة ونصف، مع جسر بينهما. كان يمكن رؤية الجنود هناك، وعرف تيموج أنهم يشاهدون بوضوح كل ما يمر تحتهم. رأى أنهم يحملون أقواساً، وشعر بمعدته تتقلص.

انفتحت البوابة، وحدّق تيموج عندما دفعها المزيد من الجنود إلى الخلف،

ومنعوا الدخول بعمود خشبي له ثقل موازٍ. لم تتحرك أقرب العربات بينما كان الجنود يأخذون مواقعهم، مستعدين لعمل اليوم. شدّ سائقا شن يي اللجامين بهدوء، وأوقفا البغال. لم يظهر عليهما الخوف الذي كان تيموج يشعر به، وكافح ليتذكر الوجه القاسي الذي عرفه فتى صغيراً. لم يكن مفيداً أن يراه الجنود يتعرق في صبيحة يوم بارد، وفرك ردنيه على جبينه.

خلفهم، شد تاجر آخر لجام مطيته وتوقف، ونادى بتحية مرحة شخصاً إلى جانب الطريق. تحرك صف العربات ببطء إلى داخل المدينة، ورأى تيموج أن الجنود يوقفون واحدة من بين كل ثلاثة، ويتبادلون أحاديث مقتضبة مع السائقين. كان قد تم رفع العمود الخشبي للمرة الأولى ولم يتم إنزاله مجدداً. بدأ تيموج تكرار عبارات الاسترخاء التي كان كوكشو قد علّمه إياها، مستمداً الراحة من معرفته بها. أغنية الريح. الأرض تحت القدمين. أرواح التلال. تحطيم السلاسل.

كانت الشمس قد ارتفعت عن الأفق في الوقت الذي وصلت فيه أولى عربتي شن يي إلى البوابة. كان تيموج يراقب أسلوب المفتشين، وفكّر أنهم قد يمرون من دون تمحيص عندما تم تفتيش التاجر أمامهم والسماح له بالدخول. بخوف متزايد، رأى الجنود ينظرون إلى سائق شن يي الذي لم تكن تبدو على وجهه أي تعبيرات. بدا أحدهم أكثر تأهباً من مرافقيه النعسانين وكان هو من تقدم إلى الأمام.

سأل الجندي: "ماذا ستفعل في باوتو؟". كان يوجه كلامه للسائق الذي شرع في الإجابة من دون ترابط. شعر تيموج بقلبه ينقبض عندما نظر شن يي من فوق رأس الجندي إلى المدينة. كانت خلف البوابة ساحة مكشوفة وسوق دبّ النشاط فيه للتو مع خيوط الفجر الأولى. رأى تيموج شن يي يشير بحدّة وكان هناك فجأة صوت حطام بين الأكشاك جعل الجندي يستدير إلى الخلف.

بدا أن الأطفال المتدافعين يأتون من كل أنحاء الساحة، يصرخون وينحرفون

في مسارهم لتفادي أي صاحب محل. لدهشة تيموج، شاهد أشرطة من الدخان تخرج من أكثر من مكان وسمع الجندي يطلق الشتائم ويصدر أوامر لمرافقيه. تداعت الأكشاك وانهار العديد منها عندما تم ركل الأعمدة التي تحملها. ارتفعت صرخات "حرامي!" وازدادت الفوضى مع كل لحظة.

لطم الجندي عند البوابة عربة شن يي بقوة، على الرغم من أنه لم يكن واضحاً إن كان ذلك أمراً بالتوقف أو السير. مع خمسة آخرين، جرى للسيطرة على ما أصبح بسرعة شغباً. خاطر تيموج بإلقاء نظرة خاطفة إلى الأعلى، لكن رماة السهام على الجسر كانوا غائبين عن ناظريه. كان يأمل بأن يكون ذلك قد شتّت انتباههم أيضاً وأرغم نفسه على التحديق إلى الأمام عندما طقطق سائق شن يي بفمه ودخل المدينة.

اشتعلت النار في الساحة الصغيرة، وانتقلت من كشك إلى آخر، وطقطقت ألسنتها مع أصوات الباعة. رأى تيموج جنوداً يركضون، لكن الأولاد كانوا سريعين واختفوا آنذاك في الشوارع والأزقّة، وبعضهم يحمل بضائع مسروقة.

لم ينظر شن يي إلى الفوضى بينما كانت عربتاه تبتعدان عن الساحة إلى طريق أكثر هدوءاً. تضاءلت الأصوات خلفهما، واسترخى تيموج على الأكياس، يمسح العرق عن جبينه.

كان يعرف أن تلك لم تكن مصادفة. كان شن يي قد أعطى إشارة. مرة أخرى، تساءل تيموج بشأن الرجل الذي التقوا به في النهر. مع مثل تلك الحمولة الثمينة بحوزته، ربما لم يكن يهتم بشأن بضع قطع نقدية إضافية على الإطلاق. ربما كان يريد فقط بعض الرجال الإضافيين للدفاع عنها.

ساروا عبر متاهة من الطرق، واستداروا مراراً وتكراراً إلى مسارات أصغر بين البيوت. شعر تيموج وخاسار بأنهما محاصران بين الأبنية، التي كانت قريبة جداً لدرجة أن الشمس لم تكن تستطيع مس الظلال التي تتشكل بينها. ثلاث مرات، تم إرغام عربات أخرى على التراجع إلى أزقّة جانبية لتسمح لهم بالعبور؛

وعندما ارتفعت الشمس، امتلأت الشوارع بعدد من الناس أكبر مما كان يتخيله تيموج أو خاسار. رأى تيموج اثني عشر محلاً يقدم طعاماً ساخناً في أوعية فخارية. لم يكن يستطيع أن يتخيل العثور على طعام كلما كان المرء جائعاً، من دون أن يضطر لذبح أو اصطياد حيوان للحصول على لحمه. كان عمّال النهار يتجمّعون حول التجار، يأكلون بأصابعهم ويمسحون أفواههم بقطع قماشية قبل العودة إلى العمل. كان العديد منهم يحمل قطعاً برونزية مثقوبة مربوطة بسلك أو خيط. على الرغم من أن تيموج كان يعرف قليلاً قيمة الفضة، إلا أنه لم يكن قد رأى من قبل مقايضة القطع النقدية بالبضائع وتعجب من كل ما هو جديد عليه. رأى رجلاً طاعناً في السن يكتب صكوك دفع، دجاجاً يزعق معروضاً للبيع، أكوام سكاكين ورجالاً يشحذونها على حجارة تدور بين أقدامهم. رأى صبغ الملابس باللون الأزرق أو الأخضر، متسولين وباعة تعاويذ ضد الأمراض. كان كل شارع مزدحماً، يعلو فيه الصراخ ويمتلئ حيوية؛ ولدهشته، أحب تيموج ذلك.

قال بصوت خافت: "هذا رائع".

نظر إليه خاسار. وردّ قائلاً: "هناك الكثير من الناس والمدينة كريهة". أشاح تيموج بنظره بعيداً، غاضباً من شقيقه الأحمق الذي لم يستطع رؤية المتعة في مثل ذلك المكان. لبعض الوقت، كاد ينسى الخوف الذي كان يعتمل في داخله. كان لا يزال يتوقع أن تعلو صرخة بطريقة ما، كما لو أن حراس البوابة تبعوهم إلى ذلك المكان في متاهة باوتو. لم يحدث ذلك ورأى شن يي يسترخي عندما شقوا طريقهم أبعد وأبعد عن الأسوار، واختفوا في قلب المدينة الكبيرة.

الفصل الثالث عشر

سارت العربتان على شوارع مرصوفة بالحجارة حتى وصلتا إلى بوابتين حديديتين متينتين، فُتحتا حالما اقتربتا منهما. استغرق الأمر لحظات حتى دخلت العربتان، وتم إغلاق البوابتين خلفهما. نظر تيموج إلى الخلف، وعض شفته عندما شاهد مصراعين خشبيين يوضعان فوق الحواجز الحديدية، ويسدان الرؤية عن المارة.

بعد الضوضاء وتجمهر الناس، كان ذلك سيعد مريحاً إن لم يكن يراوده شعور بأنه محاصر. كانت المدينة قد جعلته مذهولاً ومفتوناً بتعقيدها. على الرغم من أنها كانت تثيره، إلا أنها كانت تضغط بقوة على أحاسيسه، وتجعله يتوق للسهول المكشوفة، فقط ليأخذ نفساً قبل أن ينغمس فيها مرة أخرى. هزّ رأسه لتنقية أفكاره، وكان يعرف أنه بحاجة لذهن صافٍ لمواجهة ما ينتظره.

أصدرت العربتان صوت صرير، وتمايلتا عندما قفز الرجال عنهما، وكان شن يي يطلق أوامر لأولئك الذين من حوله. ترجل تيموج لينضم إلى خاسار، وقد عادت عصبيته بكامل قوتها. بدا أن شن يي يكاد لا ينتبه لركابه عندما خرج حشد من الرجال من المبنى يهرولون إليه، وحمل كل اثنين منهم لفة من الحرير على كتفيهما. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى اختفت الحمولة الثمينة داخل المبنى وتساءل تيموج مجدداً عن الشبكة العنكبوتية من العلاقات التي يبدو أن شن يي يمتلكها في المدينة.

كان المبنى الذي يضم الساحة المرصوفة ملكاً بالتأكيد لرجل ثري، كما فكّر تيموج. لم يكن على طراز البيوت نفسه التي مرّوا بها، على الرغم من أنه ربما كانت هناك بيوت أخرى أيضاً مخفية. طابق واحد مع سطح من الآجر الأحمر الذي يمتد بكل الاتجاهات حوله، على الرغم من أن القسم المواجه للبوابة يرتفع بنقاط استناد إلى مستوى ثانٍ. طرفت عينا تيموج إعجاباً بالعمل الذي

تطلبته مئات وربما آلاف قطع الآجر. لم يسعه سوى مقارنة البناء بخيام اللباد وأغصان الصفصاف التي كان قد عرفها كل حياته وشعر بالحسد. ما هو الترف الذي عرفه شعبه من قبل في السهول؟

من كل الجوانب، كان السطح يمتد متجاوزاً الجدران، تحمله أعمدة من خشب مطلي باللون الأحمر لتشكل ممراً طويلاً. وقف رجال مسلحون عند الزوايا، وبدأ تيموج يدرك أنه ومرافقاه سجناء شن يي. لم يكن هناك طريقة سهلة للهروب من ذلك المكان.

عندما تم تفريغ العربتين، قادهما السائقان بعيداً، وبقي تيموج واقفاً مع هو سا وخاسار، يشعر بأنه غير حصين تحت نظرات الغرباء. لاحظ أن خاسار كان قد مدّ يده داخل قطع القماش التي تلف قوسه.

همس لخاسار، الذي قفز عندما ترددت أصداء أفكاره: "لا يمكننا شق طريق خروجنا بالقوة".

همس خاسار له: "لا أرى أحداً يفتح البوابتين ليسمح لنا بالخروج".

كان شن يي قد اختفى داخل المبنى، وشعر الرجال الثلاثة بالراحة عندما رأوه يعود إليهم. كان قد ارتدى ثوباً أسود طويل الردنين، وانتعل خفاً جلدياً. رأى تيموج أن الرجل القصير يضع سيفاً معقوفاً على ردفه، وبدا مرتاحاً مع ثقله.

قال شن يي لدهشة تيموج الخاصة: "هذا جيا خاصتي: بيتي. أهلاً بكم فيه. هل تأكلون معي؟".

قال هو سا مشيراً نحو البوابة: "لدينا عمل في المدينة".

تقطب حاجبا شن يي. لم يكن هناك أثر لقبطان القارب النهري الدمث في سلوكه. بدا أنه يتقن ما يقوم به تماماً ووقف ويداه مشبوكتان خلف ظهره، ووجهه صارم.

"أنا أصر. لدينا الكثير من الأمور نناقشها". من دون أن ينتظر ردهم، مشى

عائداً إلى البيت ولحقوا به. ألقى تيموج نظرة متريثة من فوق كتفه على البوابة بينما كان يدخل ظل الممر. كبت ارتعاشاً من فكرة الوزن الكبير للآجر فوق رأسه. لم يبدُ أن هو سا يشعر بالقلق هناك على الأقل، لكن تيموج تخيل أن العوارض الضخمة تتداعى، وتسحقهم جميعاً. كرّر إحدى أناشيد كوكشو بصوت خافت، ملتمساً السكينة التي لم تأتِ.

كان الدخول إلى المبنى الرئيسي عبر باب خشبي مغطّى بطبقة من البرونز اللامع، المثقوب عدة مرات بأشكال تزيينية. رأى تيموج أشكال خفافيش محفورة في المعدن وتساءل عن معناها. قبل أن يعلق عليها، دخل غرفة مزخرفة بشكل لم يسبق له أن رآه من قبل. ألقى خاسار الوجه الجامد على تعبيراته بدلاً من أن يبدو مندهشاً، لكن تيموج فغر فمه من الغنى الظاهر في بيت شن يي. بالنسبة لرجلين ولدا في خيام، كان ذلك مدهشاً. كان الجو يعبق برائحة بخور غريبة، ولم يكن ذلك يناسب رجلين كانا قد ترعرعا في الرياح والجبال. لم يسع تيموج سوى أن يلقي نظرة إلى الأعلى بين الفينة والأخرى، قلقاً للغاية من الثقل الكبير فوق رأسه. بدا خاسار أيضاً غير مرتاح وطقطق مفاصل أصابعه في الصمت.

جثمت أرائك وكراسٍ أمام غرابيل خشبية وستائر من الحرير المصبوغ التي تسمح بمرور الضوء من غرف أخرى في الخلف. منذ النظرة الأولى، بدا كل شيء مصنوعاً من خشب ثمين بألوان متناسقة، تسر الناظرين. كانت هناك أعمدة من الخشب الشديد اللمعان على طول الغرفة، والتي تصل إلى عوارض السقف. كانت الأرضية مصنوعة أيضاً من آلاف القطع الخشبية المصقولة حتى تكاد تلمع. بعد قذارة شوارع المدينة، كانت الغرفة نظيفة ومريحة، والخشب الذهبي يجعلها تبدو دافئة. رأى تيموج أن شن يي كان قد استبدل خفّيه بآخرين نظيفين عند الباب. متورداً من الخجل، عاد تيموج ليفعل الشيء نفسه. بينما كان يخلع حذاءه، اقترب منه خادم، انحنى أمامه لمساعدته وهو يحمل

حذاءً نظيفاً في قطعة لباد أبيض.

رأى تيموج خطوطاً من دخان أبيض متصل ترتفع من أطباق نحاسية على طاولة مزخرفة عند الجدار البعيد. لم يفهم ما يستحق مثل رمز الورع ذاك، لكن شن يي أحنى رأسه أمام المذبح الصغير، وتمتم دعاء شكر لعودته سالماً.

قال تيموج بحرص، مكافحاً للعثور على الكلمات المناسبة: "تعيش في بيت فائق الجمال".

أمال شن يي رأسه بإيماءة يعرفونها، وكانت تلك إحدى العادات التي لازمته.

قال: "هذا لطف منك. أعتقد أحياناً أنني كنت أكثر سعادة عندما كنت شاباً، أنقل البضائع عبر النهر الأصفر. لم يكن لدي شيء حينها، لكن الحياة كانت أبسط".

سأل هو سا: "من أنت الآن حتى يكون لديك مثل هذه الثروة؟".

أومأ شن يي بدلاً من أن يرد.

قال: "سترغبون بالاستحمام قبل تناول الطعام. رائحة النهر عالقة بنا جميعاً". أشار إليهم أن يلحقوا به، وتبادلوا النظرات بينما كان يقودهم عبر ساحة أخرى خلف الأولى. عدّل كل من تيموج وخاسار قامتهما عندما خرجا إلى ضوء الشمس، وتركا الأعمدة الخشبية الثقيلة خلفهما. كان يمكن سماع خرير الماء هناك، ومشى خاسار إلى بركة حيث كانت أسماك كسولة تتحرك ببطء في ظله. لم يلاحظ شن يي أن خاسار قد توقف، لكنه عندما نظر إلى الخلف، ورأى أن خاسار بدأ بخلع ملابسه، ضحك مسروراً.

قال: "ستقتل أسماكي! تابع السير إلى الحمام".

هزّ خاسار كتفيه من دون مبالاة، وشدّ رداءه فوق كتفيه. جدّ في السير خلف تيموج وهو سا، متجاهلاً متعة جندي كزي كزيا.

عند الطرف البعيد للساحة الثانية، رأى أبواباً مفتوحة وخيوطاً من البخار تخرج إلى الهواء الدافئ. أشار إليهم شن يي بأن يدخلوا.

قال: "افعلوا كما أفعل. سوف تستمتعون".

تجرّد من ملابسه بسرعة، كاشفاً عن الجسد القصير الهزيل الممتلئ ندوباً الذي يعرفونه جيداً من القارب. رأى تيموج بركتي مياه محفورتين في الأرض، والبخار يتصاعد ببطء من إحداهما. كان سيقفز إليها، لكن شن يي هزّ رأسه، وبدلاً من ذلك رأى تيموج عبدين يقتربان وشي يي يرفع ذراعيه. لدهشة تيموج، أفرغ العبدان دلاء ماء فوق سيدهما، ثم استعملا قطعاً قماشية مربوطة حول يديهما لفركه بمادة رغوية حتى أصبح جسده أملساً وأبيض منها. تبع ذلك المزيد من الدلاء وعندها فقط نزل إلى البركة سعيداً بذلك.

ابتلع تيموج ريقه بعصبية بينما كان يلقي بردائه على الأرض. كان قذراً مثله، ولم يكن يستسيغ فكرة أن يفركه غرباء. أغلق عينيه بينما كان يتم إفراغ الدلاء فوق رأسه، ثم أبقاهما مغلقتين بقوة بينما كانت الأيدي القاسية تفرك جسده، وتجعله يتمايل من جانب إلى آخر. كانت الدلاء الأخيرة من الماء شديدة البرودة ما جعله يشهق.

دخل تيموج بحذر شديد إلى الماء الحار. شعر بعضلات ظهره وفخذيه تسترخي عندما وجد الكرسي الحجري تحت سطح الماء وتنفس الصعداء. كان الشعور رائعاً. كانت تلك هي الطريقة التي ينبغي أن يعيش المرء بها! خلفه، أبعد خاسار يدي العبدين عندما حاولا فرك جسده بالقطع القماشية. وقفا متجمدين من فعلته، قبل أن يحاول أحدهما مجدداً. من دون إنذار، وجّه خاسار لكمة إلى جانب رأس الرجل، وأوقعه أرضاً وهو يدور على الآجر القاسي.

أطلق شن يي ضحكة مدوية، وأصدر أمراً للعبدين بالابتعاد. نهض الذي كان قد وقع على الأرض بحذر، وقد أحنى رأسه، بينما أخذ خاسار قطعة القماش، ومسح جسده حتى أصبحت القطعة سوداء. لم ينظر تيموج عندما رفع خاسار قدمه على رف حجري على طول الجدار لتنظيف أعضائه الحسّاسة. أنهى العملية بإفراغ دلو فوق رأسه، وكان يحدق كل الوقت إلى الرجل الذي ضربه.

أعاد خاسار الدلو، وتمتم شيئاً جعل العبد يتوتر ويزّم فمه. تحمّل هو سا العملية بانزعاج أقل، ودخلا الماء معاً، أطلق خاسار شتائم بلغتين بينما كان يغمس نفسه فيه.

جلس الرجال الأربعة صامتين لبعض الوقت، قبل أن ينهض شن يي، ويغطس في البركة الأخرى. قلّدوه بإحباط صامتين، متعبين من النمط المتكرر والتأخير. في البركة الثانية، أخرج خاسار زفيراً من البرد، وغطس برأسه تحت الماء، وخرج يشعر بأن طاقة جديدة تملأه. لم يكن أي من المغوليين قد عرف الماء الحار من قبل، لكن الغطس في الماء البارد لم يكن أسوأ من الأنهار في الوطن. نظر تيموج مطولاً إلى الحمام البخاري الذي كان قد تركه، لكنه لم يعد إليه.

في الوقت الذي استقروا فيه، كان شن يي قد خرج، وقام العبدان بتنشيفه بالمناشف. لم يتريث خاسار وتيموج وتركا البركة خلفه، وخاسار ينفخ مثل سمكة ملقاة على شاطئ. لم يجرؤ العبدان على الاقتراب من خاسار مرة أخرى، وأعطياه بدلاً من ذلك قطعة كبيرة خشنة من القماش ليجفف نفسه. فعل ذلك بقوة حتى أضحى جلده يتورد نضارة. كان قد حلّ الرباط الذي يربط شعره، وانسدلت خصله السوداء الطويلة.

نظر تيموج على الكومة البالية من الملابس المتسخة التي كانت رداءه وكان يمد يديه إليها عندما لطمه عليهما شن يي، وأحضر العبدان ملابس جديدة. كانت هناك سعادة في التخلص من رائحة القوارب الكريهة، كما فكر تيموج وهو يمرر يديه فوق القماش الناعم. لم يسعه سوى أن يخمّن ما يدور في ذهن شن يي بشأنهم عندما توجهوا لتناول الطعام.

كان الطعام وافراً، على الرغم من أن خاسار وتيموج بحثا من دون جدوى عن لحم الضأن بين الأطباق.

سأل خاسار وهو يختار قطعة من لحم أبيض بأصابعه: "ما هذا؟".

رد شن يي: "أفعى بالزنجبيل". أشار إلى وعاء آخر. "ستعرفون الكلب، أنا

واثق من ذلك".

أومأ خاسار موافقاً.

رد وهو يغمس أصابعه في حساء بحثاً عن قطعة أخرى: "عندما تكون الأوقات صعبة". من دون أن تظهر عليه علامة على الاشمئزاز، تناول شن يي زوجاً من العصي الخشبية وأظهر للمغوليين كيفية الإمساك بقطعة من الطعام بينهما. كان هو سا وحده مرتاحاً، وتوتر شن يي قليلاً عندما أسقط كل من خاسار وتيموج قطعاً من اللحم والأرز على القماش. مرة أخرى، علّمهما، ووضع هذه المرة القطع في أطباق أمام المغوليين حتى يستطيعا التقاطها بأصابعهما.

حافظ خاسار على هدوء أعصابه. كان قد فرك جسده، غطس في الماء، وحصل على ملابس تجعله يحك. كان محاطاً بأشياء غريبة لا يفهمها، واعتمل الغضب تحت السطح. عندما تخلى عن استعمال العصي الغريبة ودفعها في وعاء الأرز، طقطق شن يي في الواقع بصوت خافت، ورفعهما بإيماءة حادة.

قال شن يي: "تركهما هكذا إهانة، على الرغم من أنك لا تعرف ذلك". وجد خاسار أن التعامل مع طبق من الصراصير أسهل، وقضم أجزاء الحشرات المقلية بسعادة ظاهرة.

قال وفمه مشغول بالطّعام: "هذا أفضل".

كان تيموج مستعداً لتقليد كل ما يفعله شن يي، وغمس قطعاً من عجين مقلي في ماء مالح قبل أن يمضغها. عندما نفدت الصراصير كلها، مدّ خاسار يده إلى كومة من البرتقال، وتناول اثنتين. بعد أن قضم قطعة من القشرة، قشّر الأولى بإبهاميه واسترخى تماماً عندما فصل الفصوص عن بعضها وتناولها. انتظر وشقيقه حتى يتكلم شن يي، وكان واضحاً تماماً أن صبرهما قد نفد.

عندما انتهوا جميعاً، راقب شن يي جهود خاسار مع البرتقال، ثم وضع عصي الأكل على الطاولة ولم يقل شيئاً بينما كان العبيد يزيلون أي أثر لوجبة الطعام. عندما أصبحوا وحدهم مجدداً، استراح على أريكته. فقدت عيناه النظرة المقنعة

واكتسبتا مرة أخرى صرامة قبطان القارب الذي عرفوه.

قال لتيموج: "لماذا جئتم إلى باوتو؟".

رد تيموج مباشرة: "للتجارة. نحن تجار".

هزّ شن يي رأسه. "التجار لا يحملون قوساً مغولياً، أو يستعملونه كما يفعل شقيقك. أنتم من ذلك الشعب. لماذا أنتم هنا في أراضي الإمبراطور؟".

ابتلع تيموج ريقه بصعوبة بينما كان يحاول التفكير. كان شن يي يعرفهم منذ وقت طويل ولم يسلّمهم للسلطات، لكنه لا يستطيع وضع ثقته بالرجل، خاصة بعد كل تلك الغرابة والحيرة.

قال: "نحن من قبائل الخان العظيم، نعم. لكننا جئنا لإقامة علاقات تجارية بين شعبينا".

رد شن يي: "أنا تاجر. قدّموا عروضكم لي". لم يكن وجهه يفصح عن شيء، لكن تيموج شعر بفضول الرجل القصير الشديد.

قال تيموج ببطء وهو يختار الكلمات: "سأل هو سا من أنت لتمتلك مثل هذه الثروة. لديك هذا البيت والعبيد، لكنك تأخذ دور المهرب في النهر، ترشو الحرّاس وترتب لصرف الأنظار عنك عند بوابة المدينة. من أنت حتى نثق بك؟".

كانت نظرة شن يي باردة بينما كان يتفحّصهم. "أنا رجل لست مرتاحاً من فكرة تجوالكم في مدينته. كم سيطول الأمر قبل أن يقبض عليكم جنود الإمبراطور؟ كم سيمر من وقت بعد ذلك قبل أن تخبروهم بكل ما رأيتموه؟".

انتظر بينما كان تيموج يترجم لشقيقه.

قال خاسار وهو يقسم برتقالة شطرين ويمص نصفها: "قل له إننا إذا لقينا حتفنا أو تم أسرنا، ستحترق باوتو عن آخرها. سيأتي جنكيز من أجلنا السنة القادمة. إنه يعرف أين نحن وسيرى هذا الرجل القصير بيته الثمين يشتعل بألسنة اللهب. قل له ذلك".

"ستفعل خيراً بأن تلتزم الصمت يا شقيقي إذا أردنا الخروج من هنا أحياء".

قال شن يي: "دعه يتكلم. كيف ستحترق مدينتي إذا لقيتم حتفكم؟".

لرعب تيموج، تكلم شن يي بلغة القبائل. كانت لهجته قاسية، لكنها كانت واضحة بما يكفي لكليهما. تجمّد بينما كان يفكر بكل الأحاديث التي كان شن يي قد سمعها في الأسابيع التي سبقت الوصول إلى باوتو.

سأله متناسياً خوفه للحظة: "كيف تعرف لغتنا؟".

ضحك شن يي بصوتٍ حاد ولم يقل شيئاً يريح الرجال الجالسين إلى الطاولة.

"هل تعتقدون أنكم أول من يسافر إلى أراضي تشن؟ كان اليوغر قد سلكوا طريق الحرير من قبل، وبقي بعضهم هنا". صفق بيديه، ودخل رجل آخر إلى الغرفة. كان نظيفاً مثلهم ويرتدي ثوب تشن بسيطاً، لكن وجهه كان مغولياً، وأظهر عرض كتفيه أنه ترعرع مع قوس. نهض خاسار لتحيته، ضم يده وضربه على مؤخرته بقبضته. ابتسم الغريب من الترحيب.

قال خاسار: "من الجيد رؤية وجه حقيقي في المدينة".

بدا الرجل مأخوذاً تقريباً لسماع تلك الكلمات. قال وهو ينظر إلى شن يي: "الشيء نفسه بالنسبة لي. كيف هي السهول؟ لم أعد إلى الوطن منذ سنين عديدة".

رد خاسار: "إنها على حالها". خطرت له فكرة ونزلت يده إلى حيث يوجد سيفه عادة على ردفه. "هل هذا الرجل عبد؟".

رفع شن يي بصره إلى الأعلى من دون إحراج. "بالطبع. كان كيشان تاجراً ذات مرة، لكنه اختار أن يراهن معي".

هزّ الرجل كتفيه من دون مبالاة. "هذا صحيح. لن أبقى عبداً للأبد. بضع سنوات أخرى وسأكون قد وفيت ديني. ثم أعتقد أنني سأعود إلى السهول، وأعثر على زوجة".

وعده خاسار: "اعثر علي أولاً عندما تفعل ذلك. سأمنحك بداية جديدة". راقب شن يي بينما كان كيشان يحني رأسه. قبل خاسار الإيماءة كما لو أنها لم

تكن جديدة عليه، وتسمرت نظرة شن يي عليه.

قال: "أخبروني مجدداً كيف ستحترق مدينتي".

فتح تيموج فمه، لكن شن يي رفع يداً. "لا، لا أثق بك. تكلم شقيقك الحقيقة عندما كان يعتقد أنني لا أفهم ما يقول. دعه يخبرني بذلك".

ألقى خاسار نظرة على تيموج، وكان واضحاً أنه يستمتع بإحباط شقيقه. استغرق منه الأمر لحظة لينطق بكلماته. ربما سيرغب حتى شن يي بقتلهم عندما يسمعها. نقل يده إلى حيث كان يخفي سكيناً صغيرة في طيات ردائه.

قال خاسار أخيراً: "كنا في ما مضى ذئاباً، لكن شقيقي وحّد القبائل. مملكة كزي كزيا هي أول من خضع لنا، وسيكون هناك المزيد". تحرك هو سا منزعجاً من الكلمات، لكن لم ينظر إليه أي من الرجلين. جلس خاسار مثل الصخرة بينما كان يحدّق إلى عيني شن يي.

"ربما سأموت هنا، الليلة، لكن إذا حدث ذلك، سيأتي قومي إلى تشن ويحطّمون مدنكم الثمينة، واحدة تلو الأخرى، حجراً إثر آخر".

توتر وجه شن يي بينما كان يصغي. كانت معرفته باللغة تقتصر فقط على ما يحتاجه للتجارة ولا بد أنه كان سيقترح أن يكون الكلام بلغته إن لم يبدُ ذلك ضعفاً.

قال من دون أن يرد على كلمات خاسار الحادة: "تنتقل الأنباء بسرعة عبر النهر. لقد سمعت بالحرب في كزي كزيا، على الرغم من أنها لم تقل إن شعبك حقق النصر. هل كان الملك ميتاً حينها؟".

رد خاسار: "ليس عندما غادرت. دفع جزية وقدّم ابنته. فتاة جميلة، كما أعتقد".

ذكّره شن يي: "لم تجب عن سؤالي سوى بالتهديدات. لماذا ستأتون إلى هنا، إلى مدينتي؟".

لاحظ خاسار التشديد الذي كان شن يي قد نطق به مدينتي. لم يكن يتمتع

بحدة ذهن للتلاعب بالكلمات، أو سرد سلسلة من الأكاذيب التي سيصدقها شن يي.

قال خاسار: "نحتاج إلى بنّائين". سمع تيموج يطلق زفيراً حاداً من خلف كتفه، وتجاهله. "نريد أن نعرف أسرار مدنكم. لقد أرسلنا الخان العظيم بنفسه. باوتو مجرد مكان على خريطة لا أهمية كبيرة له".

تمتم شن يي وهو يفكر: "إنها بلدتي".

قال خاسار مستشعراً أن اللحظة مناسبة: "يمكنك الاحتفاظ بها. لن يتم المساس بباوتو إذا حصلنا على وعدٍ منك بمساعدتنا".

انتظر أن ينتهي شن يي من أفكاره، والعرق يتصبب على وجهه. كان واثقاً أن صرخة واحدة ستجعل الغرفة تمتلئ برجال مسلحين. كان صحيحاً أن جنكيز سيدمر المدينة انتقاماً لهم، لكن شن يي لن يكون واثقاً من ذلك. بالنسبة له، كانوا يتفاخرون أو يكذبون.

كان كيشان من كسر حاجز الصمت. كان قد شحب لونه مما سمعه وخرج صوته خافتاً يمتلئ رعباً.

قال: "القبائل موحدة؟ هل اليوغر بينها؟".

أومأ خاسار برأسه من دون أن يفارق بصره شن يي.

"الذيل الأزرق جزء من راية الخان العظيم. لقد سيطر علينا تشن لوقت طويل، لكن ذلك انتهى. لقد انطلقنا للحرب يا أخي".

راقب شن يي وجه كيشان بحرص، يراقب كيف أدّت الأنباء إلى ظهور تعبير أمل ممزوج بالدهشة على وجهه.

قال فجأة: "سأعقد صفقة معكم. ستحصلون على كل ما تحتاجونه، من يدي. ستعودون إلى خانكم وتقولون له إن هناك رجلاً يمكنه الوثوق به هنا".

رد خاسار: "ما فائدة مهرّب لنا؟". كاد تيموج يئن عندما تابع خاسار كلامه: "كيف يمكنك المساومة على مصير مدينة؟".

قال شن يي: "إذا فشلتم، أو كنتم تكذبون، لن أخسر شيئاً. إذا كنتم تقولون الحقيقة، ستحتاجون إلى حلفاء، أليس كذلك؟ لدي نفوذ هنا".

قال خاسار: "هل ستخون البلاط الإمبراطوري؟ إمبراطورك؟". طرح السؤال ليختبر شن يي، ولدهشته، بصق الرجل القصير على الأرض اللامعة.

"هذه مدينتي. كل ما يدور هنا يصل إلى مسامعي. لا أحب النبلاء الذين يعتقدون أنهم يستطيعون وضع كل الرجال تحت عرباتهم مثل الحيوانات. لقد فقدت عائلتي وأصدقائي لجنودهم، رأيت أحباء لي يتم شنقهم عندما رفضوا التخلي عني. لماذا أهتم لهم؟".

كان قد نهض بينما كان يتكلم، ووقف خاسار ليواجهه.

قال خاسار: "كلمتي حديد. إذا قلت إنك ستحصل على هذه المدينة، ستكون لك لتحكمها عندما نأتي".

قال شن يي: "هل يمكنك أن تتكلم نيابة عن الخان؟".

رد خاسار: "إنه شقيقي. يمكنني التكلم نيابة عنه". لم يكن بوسع تيموج وهو سا سوى أن ينظرا إلى الرجلين اللذين يحدّقان على بعضهما إلى بعض.

قال شن يي: "كنت أعرف أنك محارب على القارب. لقد كنت جاسوساً سيئاً".

رد خاسار: "كنت أعرف أنك لص، لكنك لص جيد". ضحك شن يي بصوت خافت وأمسك الرجلان بيدي بعضهما بقوة.

قال شن يي: "لدي العديد من الرجال الذين يطيعونني. سأمنحك ما تريده وسأحرص على عودتك سالماً إلى شعبك". جلس، وأمر بإحضار شراب بينما شرع تيموج بالحديث. لم يفهم كيف استطاع الرجل القصير الوثوق بخاسار، لكن ذلك لم يكن مهماً. كان لديهم حليف في باوتو.

عندما حل المساء، قَبِل خاسار، هو سا وتيموج عرضاً بالنوم بضع ساعات قبل قضاء ليلة طويلة، وأووا إلى أسرّة في غرف قبالة الساحة الثانية. لم يكن شن يي يحتاج أبداً إلى أكثر من بضع ساعات راحة منذ الأيام التي كان يهرب فيها من

الجنود في أزقّة باوتو؛ كان ذلك منذ وقت طويل جداً. جلس مع كيشان واثنين من حرّاسه، وتكلما بصوت منخفض بينما كانا ينقلان قطعاً من العاج على رقعة مخططة. التزم كيشان الصمت لوقت طويل بينما كان يطقطق القطع العاجية معاً بيده. كان يعرف شن يي منذ عشر سنوات تقريباً، ورأى رغبة جموحة بالسلطة تظهر في عينيه آنذاك. كان الرجل القصير قد قضى على ثلاثة قادة آخرين لعصابات إجرامية في باوتو، ولم يكن قد بالغ عندما قال لخاسار ألا شيء يجري في المدينة من دون أن يصل إلى مسامعه.

رمى كيشان بقطعة عاجية وراقب ما يجري بينما كانت يد شن يي تمتد لتلقطها. كان الرجل الذي يدعوه صديقاً شارد الذهن تماماً عن اللعبة، وأفكاره في مكان آخر. تساءل كيشان إن كان ينبغي به رفع مقدار الرهان والتخفيف قليلاً من دينه. قرّر عدم القيام بذلك بعد أن تذكر ألعاباً أخرى كان شن يي قد تعامل معه بالطريقة نفسها تماماً، ثم فاز باستمرار.

رأى شن يي يتناول قطعة مختلفة ودار اللعب حول الطاولة، وصرخ أحد الحارسين "بانغ" بينما كان كيشان يطلق الشتائم بصوت خافت.

عندما أظهر الحارس ثلاث قطع متماثلة، أنزل شن يي يده إلى الأسفل. "لا مزيد الليلة. تصبح أفضل يا هان، لكنك لن تستطيع التغلب علينا".

نهض كلا الحارسين، وأحنيا رأسيهما. كان قد تم إنقاذهما من أسوأ الأحياء الفقيرة، وكانا قويين ومخلصين للرجل الذي يحكم الجمعية السرية. بقي كيشان لأنه شعر بأن شن يي يرغب بالكلام.

قال كيشان بينما كان يجمع القطع العاجية فوق الطاولة: "أنت تفكر في الغرباء". أومأ شن يي برأسه، يحدّق إلى الظلام عبر الأبواب. كانت الأمسية باردة آنذاك، وتساءل عما ستحمله الساعات القادمة.

"إنهم قوم غرباء يا كيشان. لقد قلت لك ذلك من قبل. سمحت لهم بالصعود على متن القارب لحماية حريري، عندما أصيب ثلاثة من رجالي بالمرض.

ربما كان أسلافي يقودونني في ذلك". تنهد وفرك عينيه من الإرهاق. "هل رأيت الطريقة التي لاحظ بها خاسار مواقع الحرّاس؟ كانت عيناه تتحركان دائماً. اعتقدت على القارب أنني لم أشاهده يرتاح أبداً، لكنك مثله تماماً. ربما يكون كل قومك كذلك".

هزّ كيشان كتفيه من دون مبالاة. "الحياة كفاح يا سيدي. أليس ذلك ما يعتقد به البوذيون أيضاً؟ في سهول وطني، يموت الضعيف باكراً. لطالما كانت الأمور على تلك الحال".

"لم يسبق لي أن رأيت شخصاً يستعمل قوساً بمهارة ذلك الرجل. في ظلام دامس، على قارب يهتز، قتل ستة رجال من دون تردد. هل كل قومك ماهرون هكذا؟".

أشغل كيشان يديه بقطع اللعبة الصينية، وأعادها إلى حقيبتها الجلدية. "لست ماهراً مثله، لكن اليوغر يثمّنون العلم والتجارة أكثر من أي قبيلة أخرى. الذئاب معروفون بشراستهم". توقف قليلاً، وقد تسمرت يداه. "لا أكاد أصدق أن القبائل قد اتحدت بقيادة رجل واحد، خان واحد. ينبغي أن يكون استثنائياً".

أغلق كيشان الحقيبة الجلدية بسرعة، ثم استرخى إلى الخلف. كان يريد شراباً لتهدئة معدته، لكن شن يي لم يكن يسمح بتناول الشراب عندما تكون الليلة بحاجة لأذهان صافية.

سأل كيشان بلطف: "هل سترحب بقومي عندما يزحفون إلى الأسوار؟". شعر بنظرة شن يي عليه، لكنه لم يرفع بصره إلى الأعلى من يديه المتشابكتين.

سأل شن يي: "هل تعتقد أنني سأخون مدينتي؟".

رفع كيشان بصره، وشاهد غضباً عارماً في الرجل الذي أصبح يثق به بمرور السنين.

"كل هذا جديد. ربما ستدمر جيوش الإمبراطور هذا الخان الجديد، وسيلقى

أولئك الذين يدعون أنفسهم حلفاء المصير نفسه. هل فكّرت في ذلك؟".

تأفف شن يي. "بالطبع، لكنني عشت وقتاً طويلاً مع قدم على عنقي يا كيشان. هذا البيت، عبيدي، كل أولئك الذين تبعوني هم فقط كل ما تركه وزراء الإمبراطور نتيجة كسلهم وفسادهم. نحن بعيدون عن أنظارهم، مثل جرذان في مستودعاتهم. أحياناً، يرسلون رجلاً لمعاقبة الناس ويشنق بضع مئات. يمسكون أحياناً حتى بأشخاص عزيزين علي، أو أحباء لي". كان وجه شن يي مثل الحجر عندما تكلم، وعرف كيشان أنه كان يفكر بابنه، الذي لم يكن أكثر من مجرد فتى عندما تم تعليقه بصنارة صيد داخل الميناء قبل سنتين. كان شن يي قد أنزل بنفسه جسد ابنه الذي كان يتأرجح في نسيم النهر.

قال كيشان: "لكن النار لا تعرف من تحرق. أنت تدعو ألسنة اللهب إلى وطنك، مدينتك. من يعرف كيف سينتهي الأمر؟".

كان شن يي صامتاً. كان يعرف مثل كيشان أنه يمكن تدبير اختفاء الغرباء الثلاثة. لطالما تم إلقاء جثث في النهر الأصفر، عارية ومنتفخة تطفو على السطح. لن يعود الموتى إليه أبداً. على الرغم من ذلك، كان هناك شيء رآه في خاسار أشعل تعطشاً للثأر كان شن يي قد أخفاه منذ صبيحة اليوم الذي حمل فيه جسد ابنه الرخو.

"ليأتِ قومك هؤلاء الذين يستعملون الأقواس والجياد. أقدّرهم من خلالك أكثر من رجال لا أعرفهم. منذ متى تعمل معي؟".

قال كيشان: "تسع سنوات يا سيدي".

"وقد حافظت على وعدك لي لتسوية دينك. كم مرة كنت تستطيع الهرب والعودة إلى قومك؟".

اعترف كيشان: "ثلاث مرات. ثلاثاً اعتقدت فيها أنني أستطيع الهروب قبل أن تسمع بالأمر".

رد شن يي: "أعرف عنها. أعرف قبطان القارب الذي قام بالمحاولة الأولى. كان

أحد رجالي. لم تكن لتذهب بعيداً قبل أن يتم دق عنقك".

تقطب حاجبا كيشان لدى سماعه تلك المعلومة. "اختبرتني، إذاً".

"بالطبع. لست أحمق يا كيشان. لم أكن كذلك أبداً. لندع النيران تأتي إلى باوتو. سأقف حياً على الرماد بعد أن ينتهوا من الأمر. ليتخل ضباط الإمبراطور عن تفاخرهم وسأكون قانعاً بذلك. سأعرف السعادة على الأقل".

نهض شن يي وتمطّى، وطقطق ظهره بصوت مسموع في الغرف التي يسودها الصمت.

"أنت مقامر يا كيشان، ولهذا السبب عملت لدي وقتاً طويلاً. لم أكن أبداً الأول. لقد جعلت هذه المدينة لي، لكن على الرغم من ذلك يجدر بي أن أحني رأسي كلما رأيت أحد المفضلين لدى الإمبراطور ممتطياً جواده في الشوارع. شوارعي يا كيشان، وعلى الرغم من ذلك أنحني وأبتعد إلى أوساخ قنوات الصرف بدلاً من الوقوف في طريقهم".

نظر شن يي إلى الظلام، وعيناه جامدتان في وجهه.

"سأقف الآن يا كيشان، وسيسقط الآجر كما يحلو له".

الفصل الرابع عشر

عند منتصف الليل، بدأ مطر غزير ينهمر على مدينة باوتو. همّس المطر على الشوارع وقعقع على الآجر حتى بدا صوته مثل رعد بعيد. بدا شن يي سعيداً بالمقابل بالطقس بينما كان يسلم رجاله سيوفاً. حتى المتسولون سينكفئون داخل أزقّتهم فيما المطر ينهمر. كان ذلك فأل خير.

عندما خرجوا إلى الشارع المظلم، حدّق خاسار وهو سا على طول الطريق ليريا إن كان أحد يراقبهم. كان القمر متوارياً ولم يكن هناك سوى ضوء خافت عندما تنزاح السحب لتكشف عن فجوات بينها. كان تيموج قد افترض أن الماء سيخفف قليلاً من رائحة المدينة الكريهة. بدلاً من ذلك، بدا أنها تنتشر في الهواء، والرطوبة تحمل روائح قذارة البشر التي تغلغلت في رئتيه وجعلته يشعر بالغثيان. كانت قنوات الصرف ممتلئة آنذاك، ورأى تيموج أشياء داكنة رطبة لم يستطع تحديدها تظهر هناك، يحملها التيار. ارتعش، مدركاً فجأة الحشد البشري الكبير من حوله. من دون شن يي، لم يكن ليعرف أين يبدأ بحثه في متاهة البيوت والمحلات، المكدسة بعضها فوق بعض في كل الاتجاهات.

كان اثنان من رجال شن يي قد انضما إليهم عند البوابة. على الرغم من عدم وجود حظر تجول رسمي، سيكون عشرة رجال موضع شبهة الجنود الذين لا يزالون في الشوارع. كلف شن يي أحد الرجال بمهمة استطلاع كل تقاطع طريق، ووجّه اثنين آخرين للتريث في الخلف والتأكد أنهم ليسوا ملاحقين. لم يستطع تيموج التخلص من الشعور بأنه يتجه نحو معركة. بينما كانت الأمطار تنهمر، أمسك القبضة الرطبة للسيف الذي منحه إياه شن يي، وكان يأمل بألا يضطر لشهره. كان يرتعش عندما انطلقوا، يتحركون هرولة. تم إغلاق البوابتين خلفهم برنين مسموع، لكن لم ينظر أحد إلى الخلف.

في بعض الشوارع، كانت حواف السطح البارزة للمنازل تشكل سقفاً فوق

جزء جافٍّ من الطريق. تباطأ شن يي إلى المشي بينما كان يقود المجموعة تحت ذلك السقف، ولم يكن يرغب بأن تجذب أصوات الأقدام التي تسير هرولة اهتمام القاطنين. لم تكن المدينة تغرق في ظلام دامس، أو نائمة. رأى تيموج أضواء من محالّ الحدّادين والمستودعات التي لا تزال تعمل في الليل. على الرغم من حيطة شن يي، إلا أن تيموج كان واثقاً أنه يشعر بعيون تراقبهم في أثناء انتقالهم سيراً على الأقدام.

في الدجنة، فقد تيموج الإحساس بالزمن حتى بدا أنه كان يجري طيلة نصف تلك الليلة. لم يكن هناك شكل محدد للشوارع التي يقطعونها أو يلتفون حولها، ولم تكن أحياناً أكثر من دروب متسخة يغطيها طين متجمد لطّخهم حتى كواحلهم. شعر تيموج بالإرهاق بعد وقت قصير فقط، وأمسك أحدهم أكثر من مرة بذراعه في الظلام ودفعه إلى الأمام، مرغماً إياه على اللحاق بالباقين. أطلق شتائم بصوت خافت عندما جعلته مثل تلك الحركة يطأ قناة للصرف، وعلق شيء طري وبارد بين أصابع قدميه. كان يأمل بأن تكون فاكهة متعفنة لا شيء أسوأ، لكنه لم يتوقف.

مرة واحدة فقط عاد الرجل الذي يسير أمامهم ليقود شن يي في طريق مختلف. تمنّى تيموج أن يكون الجنود يقضون الليل في ثكنات دافئة بدلاً من أن يتجمدوا ويتبللوا مثله.

أوقف شن يي رجاله اللاهثين أخيراً في ظل سور المدينة نفسه. استطاع تيموج رؤيته وكان مثل سدٍّ شديد الظلمة. إلى الجانب الآخر، كان يقع العالم الذي يعرفه واختبر شعور الحماية التي يوفرها للمدينة. كان مثل ذلك السور مفيداً لملك كزي كزيا في ينشوان. لم يستطع كل المحاربين الذين جمعهم جنكيز إحداث ثغرة في مثل ذلك الشيء. كان يمتد إلى مسافة بعيدة، يلوح فوق شارع عريض تحدّه بيوت تبدو مثل بيت شن يي. لم تكن تلك البيوت مخفية في أحياء فقيرة، وإنما تشغل مساحات جيدة، ويملأ شذا حدائق الزهور النسيم من

حولها. حتى شكل الشوارع كان قد تغير في هذا الجزء من باوتو. أسرعوا الخطى عبر شبكة من الأحياء، المفصولة عن المدينة ببواباتها وأسوارها. كافح تيموج ليلتقط أنفاسه. كاد يختنق عندما ربت خاسار على كتفيه، وكان شقيقه يقف مرتاحاً كما لو أنه خرج في نزهة ليلية.

جاء الرجلان اللذان يسيران خلفهم بسرعة، يهزّان رأسيهما. لم يكن أحد يتبعهم. لم يتوقف شن يي للراحة، وهمس بأوامر لهم للابتعاد عن الأنظار بينما كان يقترب من البوابة المغلقة. وقع بصر الرجل على تيموج واقفاً هناك ويداه على ركبتيه واقترب منه ليتكلم في أذنه.

"سيكون هناك حرّاس. سيوقظون قائدهم وسأتكلم إليه. لا تطلق أي تهديدات في مدينتي أيها المغولي. سيشعر المالك بقلق شديد لوجود غرباء في وقت متأخر في بيته، ولا أريد أن يتم سحب أسلحة".

استدار شن يي مبتعداً، يرتب رداءه الأسود بيديه بينما كان يقترب من البوابة. رافقه اثنان من رجاله، واختفت باقي المجموعة في إحدى الزوايا حيث لم يكن ممكناً رؤيتها. أمسك خاسار تيموج من ردنه، وسحبه معه قبل أن يستطيع الاحتجاج.

نقر شن يي بنفسه بإبهامه على البوابة، ورأى تيموج ضوءاً أصفر يسطع على وجهه عندما تم فتح نافذة في الخشب.

قال شن يي بصوت حازم: "أخبر سيدك أن لديه زائراً بشأن عمل إمبراطوري. أيقظه إن كان نائماً".

لم يسمع تيموج الرد، لكن بعد وقت بدا طويلاً، فُتحت النافذة مجدداً، ونظر شن يي إلى وجه آخر.

قال الرجل بوضوح: "لا أعرفك".

وقف شن يي ساكناً من دون حراك.

"الجمعية الزرقاء تعرفك يا ليان. الليلة، ستفي ديونك".

فُتحت البوابة بسرعة، لكن شن يي لم يطأ العتبة.

"إذا كانت لديك أقواس تنتظر يا ليان، ستكون هذه ليلتك الأخيرة. لدي رجال معي، لكن الشوارع خطيرة. لا تفزع وسيكون كل شيء على ما يرام".

تمتم الرجل المتواري عن الأنظار رداً، وكان صوته يرتعش. عندها فقط أدار شن يي بصره نحو الآخرين، وأشار إليهم أن يلحقوا به.

رأى تيموج خوفاً في الرجل الذي تم استدعاؤه من فراشه. كان ليان عريض المنكبين مثل خاسار، لكنه ارتعش بشكل واضح للعيان، وأبقى عينيه منخفضتين بينما كان شن يي يدخل بيته.

لم يكن هناك سوى حارس واحد فقط عند البوابة، وأبقى عينيه بعيدتين عن أولئك الذين دخلوا. شعر تيموج بثقته تتزايد، ونظر حوله باهتمام حالما تم إغلاق البوابة المؤدية إلى الشارع. كان الجري تحت المطر وفي الظلام خلفهم متعباً، واستمتع بالطريقة الخانعة التي تصرف بها سيد البيت في باوتو.

وقف ليان كما لو أنه مذهول أمام شن يي، وشعره غير مرتب من النوم.

تمتم: "سأجعلهم يعدّون طعاماً وشراباً"، لكن شن يي هزّ رأسه.

"لن يكون ذلك ضرورياً. دلني على مكان يمكننا التكلم فيه على انفراد". نظر شن يي حوله على ساحة البيت. كانت أعمال البناء قد ازدهرت أيام الحكم الإمبراطوري. إضافة إلى إصلاح السور، كان مسؤولاً عن بناء ثلاث ثكنات ومضمار سباق في قلب المقاطعة الإمبراطورية. على الرغم من ذلك، كان بيته بسيطاً وأنيقاً. ثبتت نظرة شن يي على الحارس الوحيد، ورأى أنه يقف قريباً جداً من جرس يتدلى من عارضة خشبية.

"لن ترغب بأن يستدعي رجلك الجنود إلى هنا يا ليان. قل له أن يبتعد عن الجرس، أو سأعتقد أنك تشك بكلمتي".

أومأ البنّاء للحارس، الذي فزع بشكل ظاهر للعيان، واتخذ موقعاً جديداً قرب البيت الرئيسي. ازدادت غزارة الأمطار، وارتفع صوت هطولها على الساحة

الرئيسية. شعر البنّاء بالبرد، وبدا أنه ينكمش على نفسه. قادهم إلى البيت، وأخفى خوفه في ضوء المصابيح. رأى تيموج يده تهتز بينما كان يحمل فتيلاً مشمّعاً أطول مما يحتاجونه، كما لو أن الضوء يستطيع إبعاد خوفه.

جلس شن يي على أريكة قاسية بينما كان ينتظر أن ينتهي البنّاء من التجول في أرجاء الغرفة. وقف خاسار، وهو سا، وتيموج معاً، يراقبون المشهد بافتنان صامت. اتخذ حارسا شن يي موقعين خلف سيدهما، ورأى تيموج عيني البنّاء تطرفان نحوهما، مقدراً الخطر.

أخيراً، لم يستطع التأخر أكثر من ذلك. جلس قبالة شن يي وهو يشبك يديه معاً لإخفاء الطريقة التي تهتزان بها.

قال ليان: "لقد دفعت الضريبة المستحقة للجمعية. هل كانت غير كافية؟".

رد شن يي: "ليس الأمر كذلك". استغرق منه الأمر لحظة ليمسح ماء المطر عن وجهه، مرّر يده فوق شعره، ونثر القطرات على الأرضية الخشبية. جال ليان ببصره عليها. "ليس ذلك ما جاء بك إلي".

قبل أن يستطيع شن يي متابعة كلامه، تكلم ليان مجدداً، غير قادر على إيقاف نفسه. "العمال، إذاً؟ عمل معي كل الرجال الذين استطعت تشغيلهم، لكن اثنين من أولئك الذين أرسلتهم لي لم يرغبا بالعمل. بينما اشتكى الآخرون أنهم لا يحصلون على مستحقاتهم. كنت على وشك طردهم هذا الصباح، لكن إذا كنت ترغب ببقائهم...".

كان شن يي يشبه شيئاً مصنوعاً من رخام بينما كان يتفحص شيخ البنّائين.

"إنهم أبناء أصدقاء. سيبقون، لكنني لست هنا لهذا السبب".

أحنى البنّاء رأسه قليلاً. قال: "إذاً، لا أفهم ما يجري".

"هل لديك شخص يمكنه تولي أمر إصلاح السور؟".

"ابني يا مولاي".

جلس شن يي ساكناً تماماً حتى نظر البنّاء إليه.

"لست مولاك يا ليان. أنا صديق أريد منك معروفاً".

رد ليان مستشعراً الأسوأ: "أي شيء".

أومأ شن يي برأسه سعيداً.

"ستستدعي ابنك، وتخبره أن عليه تولي العمل سنة كاملة، وربما اثنتين. لقد سمعت أشياء جيدة عنه".

وافق ليان مباشرة: "إنه ابن رائع. سيصغي إلى والده".

"أنت حكيم يا ليان. قل له إنك ستغيب ذلك الوقت، ربما لتجد مصدراً جديداً للرخام في مقلع في مكان ما. اخترع الكذبة التي تراها مناسبة، لكن لا تجعله يشك بالأمر. ذكّره أن ديون والده هي ديونه في أثناء غيابك واشرح له الضريبة التي ينبغي به دفعها للجمعية إذا كان يريد أن يعمل. لا أريد أن أضطر لتذكيره بنفسي".

قال ليان: "اعتبر الأمر منتهياً". كان يتعرق، كما لاحظ تيموج، وظهر خط لامع من القطيرات على شعره. رأى أن البنّاء الضخم يستجمع شجاعته ليطرح سؤالاً.

"سأقول لزوجتي وأولادي الشيء نفسه، لكن هل لي بمعرفة الحقيقة؟".

هزّ شن يي كتفيه غير مبالٍ، وأمال رأسه إلى الجانب.

"هل ستغير من الأمر شيئاً يا ليان؟".

"لا يا مولاي. أنا آسف...".

"هذا غير مهم. سترافق أصدقائي هؤلاء إلى خارج المدينة. يحتاجون إلى خبرتك يا ليان. أحضر أدواتك، وعندما ينتهي عملك، سأسعى بأن تحصل على مكافأة".

أومأ البنّاء برأسه تعيساً، ووقف شن يي فجأة.

"تكلم إلى أولئك الذين تحبهم يا ليان، ثم تعال إلي".

ترك البنّاء المجموعة وحدها، واختفى داخل ظلمة البيت. استرخى أولئك الذين بقوا قليلاً، مشى خاسار إلى ستارة حريرية، واستعمل القماش لتجفيف المطر عن وجهه وشعره. سمع تيموج نحيباً بعيداً لطفل بينما كان الرجل ينقل

إلى عائلته ما تم إبلاغه به.

قال هو سا لشي يي: "لا أعرف ماذا كنا سنفعل لو أنك لم تكن هنا لمساعدتنا".

ابتسم سيد الجمعية السرية قليلاً.

"كنتم ستتجولون في مدينتي حتى يقبض عليكم الجنود. ربما كنت سأحضر لمشاهدة وضع الجواسيس الغرباء على خوازيق أو شنقهم".

سأل تيموج: "هل فكرت بإخراجنا من المدينة؟". قبل أن يرد شن يي، عاد ليان. كانت عيناه حمراوين، لكنه وقف منتصباً وقد فقد بعضاً من خوفه. كان يرتدي معطفاً من قماش مشمّع ثقيل ضد المطر، وكانت فوق أحد كتفيه حقيبة جلدية يقبض عليها كما لو أنها تجعله يشعر بالراحة.

قال لشي يي: "لدي أدواتي. أنا مستعد".

تركوا البيت خلفهم، ومرة أخرى، أرسل شن يي رجلاً أمامهم ليتفقد إن كان هناك جنود يقومون بدورياتهم. كان هطول المطر قد خفّ، ورأى تيموج نجم القطب لوقت قصير عبر الغيوم. لم يكن شن يي قد شرح شيئاً، لكنهم اتجهوا غرباً على طول طريق موازٍ للسور ولم يسع تيموج سوى الهرولة خلفهم.

في الظلام أمامهم، سمعوا صوتاً يصرخ عالياً، وتوقفت المجموعة كلها.

همّس شن يي: "أخفوا سكاكينكم عن الأنظار". ابتلع تيموج ريقه بعصبية، وسمع وقع أقدام على الطريق الممهد. انتظروا الرجل في الأمام أن يعود، لكن بدلاً من ذلك، سمعوا وقع نعل أحذية وجال شن يي ببصره في الأنحاء يبحث عن طرقات محتملة للهرب.

صرخ صوت في الظلام: "لا تتحركوا". كان تيموج قريباً بما يكفي ليرى شن يي يكشّر.

كان هناك ستّة جنود يرتدون دروعاً حديدية، يقودهم رجل يعتمر خوذة لها ريش. تأوه تيموج لنفسه لرؤية الأقواس التي يحملونها. لم يكن أمام رجال

شن يي فرصة كبيرة لشق طريقهم بالقوة. شعر بالرعب يزداد مثل مادة حمضيّة في حلقه، وبدأ يتراجع من دون تفكير. كانت قبضة خاسار الحديدية من أوقفته في مكانه.

سأل شن يي: "أين قائدكم؟ يستطيع لوجان أن يكون ضمانتي". رأى أنهم قد أمسكوا رجله من مؤخر عنقه. كافح الرجل في القبضة، لكن شن يي لم ينظر إليه.

تقطب حاجبا الضابط الذي كان يعتمر الخوذة ذات الريش من نبرة الكلام، وتقدم إلى الأمام عن رجاله.

"لوجان ليس في الخدمة الليلة. ما هو عملك حتى تجري في الشوارع في الظلام؟".

قال شن يي: "سيشرح ذلك لوجان". لعق شفته بعصبية. "قال لي إن اسمه سيسمح لنا بالمرور".

نظر الضابط إلى الخلف على الرجل البائس الذي كان مقبوضاً عليه من عنقه.

"ليس لي علم بذلك. ستعودون معي إلى الثكنات وسنسأله".

تنهد شن يي.

قال: "لا. لا، لن نفعل ذلك". دفع شن يي يده إلى الأمام بسكين في قبضته، وشق بها حنجرة الضابط مما جعله يتراجع إلى الخلف وهو يطلق صرخة مختنقة. أطلق الجنود في الخلف سهامهم مباشرة، مستهدفين المجموعة. صرخ أحدهم ثم وصل إليهم رجال شن يي وأعملوا سكاكينهم في الجنود.

شهر خاسار السيف الذي كان قد حصل عليه، وجأر بأعلى صوته. جعلت قوة الصوت أقرب الجنود إليه يتراجع خطوة إلى الخلف، ولكمه خاسار ثم تقدم خطوة إلى الأمام ليضرب بساعده وجه الرجل. جعل التأثير قدمي الرجل تنهاران من تحته وتجاوزه خاسار مندفعاً إلى الأمام، وضاع في زحمة العراك وهو

يستعمل مرفقيه، قدميه ورأسه: أي شيء لإيقاع أعدائه أرضاً. لم يستطع أولئك الذين كانوا قد أطلقوا سهامهم سوى رفع أقواسهم للدفاع عن أنفسهم. حطم سيف خاسار إحدى تلك الأسلحة إلى قطع قبل أن يغرس النصل في عنق الجندي. في الظلام، تحرك بينهم مثل نسمة، وركل بركبة مكشوفة وشعر بها تنكسر. كانت حركة الجنود ثقيلة بدروعهم وكان خاسار أسرع منهم، يغير اتجاهه في كل مرة يستشعر فيها الخطر قبل أن يقترب منه. شعر بأن شخصاً يتعلق به من الخلف، ويمسك بذراعه التي تحمل السيف. وجّه رأسه إلى الخلف بعنف، وضرب الرجل الذي تعلق به بمرفقيه، وكوفئ بصرخة ألم بينما كان المهاجم يبتعد عنه.

صرخ تيموج عندما اصطدم أحد الجنود به. سقط أرضاً مع سيفه وقد سرق الرعب شجاعته. في مكان ما، بدأ جرس يرن. عندما تعرف على الصوت، شعر بأن أحداً يرفعه وصرخ، لكنه صمت عندما لطمه هو سا على وجهه.

قال هو سا بحدّة، محرجاً منه: "انهض. انتهى الأمر". أمسك تيموج بذراعه بينما كان ينهض، يحدّق إلى منظر خاسار محاطاً بأجساد ممزقة.

قال خاسار: "هل تدعو هؤلاء جنوداً يا شن يي؟ إنهم يتحركون مثل أغنام مريضة".

وقف شن يي مذهولاً عندما دفع خاسار سيفه في صدر رجل كان لا يزال يتحرك، وعثر على مكان تحت قطع الدرع الحديدية قبل أن يُرخي بكل ثقله عليه. لم يكن يصدق السرعة التي كان المحارب المغولي يتحرك بها. كان حرّاسه رجالاً انتقاهم لمهارتهم، لكن خاسار كان قد جعلهم يبدون مثل مزارعين. وجد نفسه يرغب بالدفاع عن جنود مدينته، بقدر ما يكرههم.

ردّ: "هناك ست ثكنات في المدينة، في كل منها خمسمئة أو أكثر من تلك الأغنام المريضة. ذلك كافٍ".

ركل خاسار إحدى الجثث بقدمه.

قال: "سيأكلهم شعبي أحياء". فزع حينها ومس الترقوة. تلطخت يده بالدماء التي سرعان ما أضحت أقل كثافة في المطر حتى سالت بين أصابعه.

قال تيموج: "أنت مصاب".

"أنا معتاد على القتال بالدرع يا شقيقي. لقد سمحت للضربة بأن تصل إلي". بغضب، ركل خاسار خوذة الضابط التي كانت قرب قدميه، مما جعلها تنزلق فوق حجارة الطريق.

كان هناك اثنان من رجال شن يي يستلقيان صريعين بين زملائهما، والدماء تسيل إلى برك مياه الأمطار الضحلة. فحصهما شن يي، ومسّت أصابعه السهام التي برزت من صدريهما. فكّر بسرعة بعد أن فسدت خططه.

قال: "لا يمكن لرجل أن يتفادى قدره. دعوهما هنا ليتم العثور عليهما. سيكون ضباط الإمبراطور بحاجة لجثث لعرضها على الحشود غداً".

ترك الجميع الرجلين الميتين ممددين على الحجارة. رأى تيموج أن آخرين بينهم أصيبوا بجراح وأنهم يلهثون مثل كلاب تحت الشمس. استدار شن يي إليه عندها، وهو يستشيط غضباً.

"أنت بأمان الآن أيها الجبان، لكنهم سيمزقون المدينة إرباً بحثاً عنا. إذا لم أعمل على إخراجكم الليلة، ستبقون هنا حتى الربيع".

احمرت وجنتا تيموج إذلالاً. كانت كل المجموعة تحدق إليه، فيما أشاح خاسار بنظره بعيداً. أغمد شن يي سيفه، وتابع السير هرولة للوصول إلى الأسوار. كان الساعي قد نجا من القتال الدموي وتقدم أمامهم مرة أخرى.

كانت البوابة الغربية أصغر من تلك التي دخلوا منها في رحلتهم من النهر. شعر تيموج باليأس عندما رأى الضوء يزداد أمامهم، وسمع صراخاً. أياً كان المواطن الذي قرع جرس الإنذار، فإن ذلك أدّى إلى إيقاظ الجنود في ثكناتهم، ووجد شن يي صعوبة كبيرة في تفادي المراقبة. توجه إلى بناء مظلم قرب البوابة، طرق على الباب للسماح له بالدخول. استطاع تيموج سماع جلبة رجال

مدرعين يقتربون عندما انفتح الباب وانسلوا إلى الداخل، وأغلقوه بسرعة خلفهم.

قال شن يي للرجل الذي أجاب على طرقه: "اجعل رجالاً يصعدون إلى أعلى النوافذ. اطلب منهم أن يخبرونا بما يروه". أطلق لعنة بصوت خافت حينها ولم يجرؤ تيموج على التكلم معه. دفعت رؤية الجرح البليغ القبيح على طول ترقوة خاسار تيموج للسيطرة على خوفه، وطلب من أحد رجال شن يي إبرة وخيطاً مصنوعاً من أمعاء القطط. راقب شقيقه بتأففه المعتاد فقط بينما كان تيموج يخيط الجلد بخط متعرج. كان الدم والمطر قد نظّفا الجرح، واعتقد أنه لن يتقيح. ساعد ذلك العمل في تهدئة دقّات قلبه ومنعه من التفكير بحقيقة أنه كان ممكناً إلقاء القبض عليهم في تلك اللحظة.

نادى أحد الرجال فوقهم، بهمس أجش بينما كان ينحني إلى الأسفل.

"تم إغلاق البوابة وتحصينها. أرى ربما مئة جندي، على الرغم من أن عدداً أكبر في الطريق إليها. يقف ثلاثون منهم عند البوابة".

سأل شن يي وهو ينظر إلى الأعلى إلى الرجل: "أقواس؟".

"عشرون، وربما أكثر".

"إذاً، نحن محاصرون. سيفتشون المدينة بحثاً عنا". استدار إلى تيموج. "لم يعد بوسعي مساعدتكم. إذا عثروا عليّ، فسيقتلونني وسيكون للجمعية السرية الزرقاء قائد جديد. ينبغي أن أترككم هنا".

لم يكن البنّاء، ليان، قد قاتل مع الآخرين. ولم يكن مسلحاً، كان قد تنحّى جانباً إلى قنوات الصرف حالما بدأ القتال. كان هو من رد على شن يي بصوت يدمدم في الصمت.

قال: "أعرف طريقاً للخروج من هنا، إذا لم تكونوا تمانعون بتوسيخ أيديكم قليلاً".

همس الرجل في الأعلى نحوهم: "جنود في الشارع! إنهم يطرقون على الأبواب

ويفتشون البيوت".

قال شن لي: "أخبرنا بسرعة يا ليان. إذا تم إلقاء القبض علينا، لن يصفحوا عنك".

أومأ البنّاء برأسه، ووجهه متجهم. "ينبغي أن نذهب الآن. إنه ليس بعيداً من هنا".

كانت مصابيح شحم الضأن تشتعل وتئز، تلقي بضوء أصفر خافت عندما واجه جنكيز صفاً من ستّة رجال يجثون على ركبهم. كانت يدا كل واحد منهم مقيّدتين خلف ظهره. كانت وجوههم جميعاً قاسية، كما لو أن الرعب من الخان لا يعتمل داخلهم. مشى جنكيز ذهاباً وجيئة أمام الصف. كان قد تم استدعاؤه من سرير تشاكاهي ونهض غاضباً، حتى عندما رأى أن كشيون هو الذي ناداه في الظلام.

كان الرجال الستة أشقّاء، تتراوح أعمارهم من أصغرهم الذي كان بالكاد فتى إلى محاربين أشدّاء لديهم زوجات وأولاد.

قال جنكيز بحدّة: "قطع كل منكم عهداً لي". كان يتقد غضباً في أثناء الكلام، وللحظة، كان يرغب بقص رؤوس الستة جميعاً.

"قتل أحدكم فتى من يوريانخي. ليتكلم ولن يموت سوى واحد منكم. إذا لم يفعل ذلك، سأقتلكم جميعاً". شهر سيف والده ببطء، وتركهم يسمعون الصوت. خارج دائرة ضوء المصابيح، شعر بوجود حشد يزداد عدده، وكان قد استيقظ من النوم لرؤية العدالة تأخذ مجراها. لم يكن ليخيب أملهم. وقف جنكيز أمام أصغر الأشقاء ورفع السيف كما لو أنه لا يزن شيئاً.

قال كوكشو بهدوء من طرف الظلام: "يمكنني معرفته يا مولاي". نظر الأشقّاء إلى الأعلى ليروا الكاهن العرّاف يدخل نطاق الضوء الخافت، وعيناه مرهقتان. "ينبغي بي فقط أن أضع يدي على كل رأس لأعرف الذي تسعى إليه".

أخذ الأشقّاء يرتعشون بشكل ظاهر للعيان عندما أومأ جنكيز برأسه وهو

يغمد سيفه.

"ألقِ تعاويذك أيها الكاهن العرّاف. لقد تم تمزيق الفتى إرباً. اعرف من فعل ذلك".

أحنى كوكشو رأسه، ووقف أمام الأشقّاء. لم يجرؤوا على النظر إليه، على الرغم من أن تعبيرات وجوههم القاسية كانت مجهدة وترتعش.

راقب جنكيز بذهول بينما كان كوكشو يضغط بيده قليلاً على رأس أول رجل ويغلق عينيه. اندفعت كلمات الكاهن العرّاف منه بصوت رخيم. اهتز أحد الأشقّاء وكاد يقع قبل أن يكافح ليجلس مجدداً.

عندما رفع كوكشو يده، تمايل الشقيق الأول، مذهولاً وشاحباً. كان الحشد خارج الضوء قد ازداد وتمتم المئات في الظلام. انتقل كوكشو إلى الرجل الثاني، وسحب نفساً عميقاً وهو يغلق عينيه.

قال: "الفتى... الفتى رأى...". وقف ساكناً وحبس أفراد المعسكر أنفاسهم لمراقبته. أخيراً، هزّ كوكشو نفسه، كما لو أنه يتخلص من عبء ثقيل. "أحد هؤلاء الرجال خائن يا مولاي. لقد رأيت ذلك. لقد رأيت وجهه. قتل الفتى ليمنعه من نقل ما رآه".

بخطوة واسعة واحدة، تقدم كوكشو إلى الرجل الرابع في الصف، وكان أكبر الأشقّاء. امتدت يده بحركة سريعة والتفت أصابعه مثل العظام في الشعر الأسود للرجل.

صرخ الشقيق وهو يكافح: "لم أقتل الفتى!".

همس كوكشو في الصمت المطبق: "إذا كذبت، ستسرق الأرواح روحك. اكذب مجدداً الآن، وأظهر للخان العظيم مصير الخونة والقتلة".

كان وجه المحارب شاحباً من الخوف عندما صرخ: "لم أقتل الفتى. أقسم على ذلك!". تحت يد كوكشو الثقيلة، اهتز فجأة وصرخ الحشد خوفاً. شاهدوا برعب كيف جحظت عينا الرجل في رأسه وفغر فمه مفتوحاً. وقع على جانبه،

متخلصاً من القبضة المرعبة بينما كان جسده يهتز ويتقلص، ومثانته تطلق دفعة كبيرة من البول الذي تبخر على العشب المتجمد.

وقف كوكشو يراقب ما يجري حتى توقف الرجل عن الحراك، عيناه بيضاوان في وميض المصابيح. أطبق صمت شديد على المعسكر. وحده جنكيز كان يستطيع تحطيمه، وكان عليه أن يكافح للتغلب على مشاعر الدهشة والرهبة التي انتابته.

قال: "فكّوا قيود الرجال الآخرين. لقد عرفنا من قتل الفتى". عندها أحنى كوكشو رأسه، وصرف جنكيز الحشد إلى بيوتهم لينتظروا برعب شروق الشمس.

الفصل الخامس عشر

رنت أجراس إنذار عبر باوتو بينما كانوا يسرعون الخطى في الليل، يتبعون ليان. حتى الظلام لم يكن حالكاً في بعض الأماكن، بعد أن استيقظ أصحاب البيوت وأضاؤوا مصابيح عند كل بوابة. ركضوا عبر بقع من الضوء حيث كان المطر يظهر مثل نقاط ذهبية، ثم يجتازون مواقع أخرى سوداء.

لم يكن الجنود قد رأوهم يغادرون، على الرغم من أن ذلك كان قاب قوسين أو أدنى. كان واضحاً أن ليان يعرف المنطقة جيداً، واندفع عبر الأزقّة الضيقة خلف بيوت الأثرياء من دون تردد. كان معظم جنود الإمبراطور قد ظهروا في منطقة البوابات، لكنهم كانوا يشقون طريقهم إلى مركز المدينة، يضيقون الخناق في أثناء بحثهم عن المجرمين الذين كانوا قد قتلوا رجالهم.

كان تيموج يلهث وهو يكافح للاستمرار في الجري. كانوا يجرون على طول السور، على الرغم من أن ليان استدار أحياناً بعيداً عنه لتفادي ساحات مكشوفة وتقاطعات طرقات. كان خاسار يقفز إلى جواره، وعيناه تبحثان عن الجنود. بعد القتال، كان يبتسم كلما نظر إليه تيموج، على الرغم من أن الأخير كان يشك بأن تكون ابتسامة أحمق لا يمكنه تخيل عواقب أن يتم إلقاء القبض عليه. كانت مخيلته قاسية بما فيه الكفاية لكليهما وشعر بالخوف وهو يجري، وتخيل قطعاً حديدية ساخنة في جسده.

توقف ليان قرب قسم هادئ من السور. كانوا قد تركوا الجنود المنتشرين مثل النمل والذين ينطلقون مسرعين خلفهم، لكن أجراس الإنذار كانت قد جعلت الناس يخرجون إلى بوابات بيوتهم، ينظرون بخوف إلى الرجال الذين يركضون.

استدار نحوهم ليان، يتنفس بصعوبة. "يتم إصلاح السور هنا. يمكننا التسلق باستعمال حبال سلال الأنقاض. لن تجدوا طريقة أخرى للخروج من باوتو

الليلة".

قال شن يي: "أرني". جال ليان ببصره على الوجوه الشاحبة ونظر إلى كل نافذة يمكنه رؤيتها. ابتلع ريقه بعصبية، وأومأ برأسه، وقادهم إلى حيث يستطيعون وضع أيديهم على الحجارة القديمة لسور المدينة.

كانت الحبال مكدسة في الظلام، واستطاعوا رؤية الأشكال المخروطية للسلال الطرية التي يتم استعمالها لحمل الحجارة إلى الأعلى حيث يتم تفريغها في قلب السور. كانت ثلاثة حبال مشدودة وأمسك شن يي بواحدة منها بتعجب وسرور.

"لقد أبليت حسناً يا ليان. أليس هناك سلالم؟".

رد ليان: "يتم إغلاقها في الليل. يمكنني تحطيم الأقفال بسهولة كبيرة، لكن ذلك سيعيقنا".

"إذاً، سيفي هذا بالغرض. أمسك هذا الحبل وأرني كيف يتم الأمر".

ألقى الرجل بحقيبة أدواته على الأرض، وبدأ التسلق، يهمهم مع الجهد الذي يبذله. كان من الصعب معرفة ارتفاع السور في الظلام، لكنه بدا ضخماً لتيموج عندما حدّق إلى الأعلى. شدّ قبضتيه في الظلام، وكان بأمس الحاجة ألا يشعر بالإذلال مجدداً أمام خاسار. كان سيتسلقه. كانت فكرة أن يتم رفعه مثل كيس من المطارق كريهة للغاية.

انطلق هو سا وخاسار معاً، على الرغم من أن خاسار نظر إلى الخلف إلى تيموج قبل أن يبدأ التسلق. كان يفكر من دون شك أن شقيقه الضعيف سينزلق ويسقط على شن يي مثل عقاب إلهي. حدّق تيموج بغضب إليه حتى ابتسم خاسار وتسلق مثل جرذ، وجعل الأمر يبدو سهلاً على الرغم من إصابته.

تمتم شن يي لرجاله: "سينتظر الباقون هنا. سأصعد إلى الأعلى مع هؤلاء، ثم أعود إليكم حالما ينزلون بأمان. ينبغي على أحد أن يسحب الحبال من الطرف الآخر".

أعطى حبلاً سميكاً لتيموج وراقب بينما بدأ الشقيق الأصغر الارتقاء، يشد نفسه إلى أعلى السور بذراعين مرتعشتين. هزّ شن يي رأسه بسخط.

قال: "لا تقع أيها الجبان". استطاع شن يي، الرجل ضئيل الحجم، الارتقاء بسرعة وترك تيموج يتسلق وحده في الظلام. كانت ذراعاه تؤلمانه والعرق يتصبب على عينيه، لكنه أرغم نفسه على الارتقاء باستعمال الحبل الخشن، متعلقاً فوق الرجال في الأسفل. لم يكن هناك ضوء قرب القمة وكاد يقع مصدوماً عندما أمسكت به يدان قويتان، وسحبتاه إلى أعلى السور.

جلس تيموج يلهث، وتجاهله الآخرون مما كان مبعث راحة كبيرة له. كان قلبه يخفق بينما كانوا يقفون وينظرون إلى الخلف على المدينة. في الأسفل، تم تحرير سلال الحجارة وسحبوا الحبال بسرعة، وألقوا بها من الطرف الآخر.

كان السور بعرض عشرة أقدام في الأعلى وتم مدّ الحبل على امتداده. أطلق ليان لعنة بصوت خافت عندما رأى أن الحبال لن تصل إلى الأرض خارج المدينة.

قال: "سيكون علينا أن نقفز الجزء الأخير، ونأمل ألا يكسر أحدنا قدمه".

كان ينبغي سحب الحبل الأخير الذي ارتطم بالسور في طريقه إلى الأعلى مع حقيبة أدوات ليان، قوس خاسار وثلاثة سيوف مربوطة كلها معاً. أنزل ليان الحبل خارج السور وتوقف، منتظراً أن يُصدر شن يي الأمر.

قال شن يي: "اذهبوا الآن. سيكون عليكم أن تسيروا إلا إن وجدتم مكاناً تشترون منه بغالاً".

قال خاسار مباشرة: "لن أمتطي بغلاً. أليس هناك جياد تستحق السرقة في هذه الأرض؟".

"الأمر خطير جداً. شعبك موجود في الشمال، إلا إن كنت تنوي العودة على طريق كزي كزيا. لا تزيد المسافة عن بضع مئات لي من هنا، لكن سيكون هناك دوريات من جنود الإمبراطور على كل طريق وتقاطع. سيكون من الأفضل أن تتجهوا غرباً خلف الجبال، وألا تسافروا سوى ليلاً".

قال خاسار: "سنرى. إلى اللقاء أيها اللص الصغير. لن أنسى كيف ساعدتنا". ربض على الحافة البعيدة، ثم انزلق ليستند على مرفقيه قبل أن يمسك بالحبل المتدلي. تبعه هو سا بعد إيماءة فقط إلى شن يي، وكان تيموج سيفعل الشيء نفسه من دون كلمة لو أن الرجل القصير لم يضع راحة كفه على كتفه.

"حصل خانكم على ما كان يريده. أريده أن يلتزم بالوعود التي تم قطعها باسمه".

أومأ تيموج بحدّة. لم يكن يهتم ما إذا قام جنكيز بحرق باوتو عن آخرها.

قال: "بالطبع. نحن شعب نحترم كلمتنا". نظر إليه شن يي بينما كان ينزل إلى الأسفل، وقد بدا له أخرق وواهناً كما هي عادته. عندما أصبح قائد الجمعية السرية الزرقاء وحيداً على السور، تنهّد. لم يكن يثق بتيموج، بعينيه الحائرتين وخوفه الظاهر. كان قد شعر بأن في خاسار روحاً تتقد؛ إنّه رجل قاسٍ، لكنه كان يأمل بأن يتذكر حسّ دعابته وما أسداه لهم. هزّ كتفيه غير مبالٍ عندما استدار عائداً إلى المدينة. لم يكن واثقاً تماماً من ذلك. لم يكن يستمتع بمتعة المقامرة، ولم يفهم أبداً أولئك الذين يستمتعون بها. تمتم: "الآجر يتساقط. من يعرف أين سيقع؟".

كان الغبار يعلو الرجال الأربعة وقد تقرّحت أقدامهم بحلول اليوم العاشر. غير معتاد على السير، كان خاسار يمشي مترنحاً ومزاجه كان سيئاً. حالما أضحى خارج نطاق سيطرة شن يي، لم يطرح ليان أيضاً سوى بعض الأسئلة قبل أن يلتزم الصمت تماماً. مشى مع أدواته فوق كتفه وعلى الرغم من أنه اشترك في تناول الأرانب البرية التي قتلها خاسار بقوسه، إلا أنه لم يحاول الاشتراك في الأحاديث بينما كان الآخرون يخططون مسارهم. جعلتهم رياح قوية يمشون وإحدى أيديهم على أثوابهم، يمسكون القماش بإحكام.

كان خاسار يرغب بسلوك أقصر الطرقات المؤدية إلى الشمال. كان تيموج قد جادل بذلك وتم تجاهله، لكن هو سا كان قد زوّده بوصف لقلاع تشن والسور

الذي يحمي الإمبراطورية من الغزاة. على الرغم من أن السور كان متداعياً في بعض الأجزاء، لكن على الرغم من ذلك كان هناك حرّاس يمكنهم أن يشكلوا خطراً على أربعة رجال لوحدهم. كان الطريق الآمن الوحيد يتمثّل بالاتجاه غرباً على طول ضفتي النهر الأصفر حتى يصلوا الجبال التي تفصل مملكة كزي كزيا عن صحراء غوبي.

عند نهاية اليوم العاشر، كان خاسار قد أصرّ على دخول قرية تشن بحثاً عن جياد. كان وشقيقه لا يزالان يحملان كمية صغيرة من الفضة والذهب؛ كافية لترويع فلاحين لم يكونوا قد رأوا شيئاً مماثلاً لتلك القطع النقدية من قبل. كان حتى العثور على تاجر لتبديل القطع الفضية بأخرى برونزية صعباً. غادروا خالي الوفاض، وانطلقوا مجدداً مع حلول الليل، غير راغبين بالبقاء في مكان واحد لوقت طويل.

عندما ارتفع القمر، كان الرجال المرهقون الأربعة قد دخلوا عميقاً في غابة صنوبر، يسيرون ببطء على دروب حيوانات، ويحاولون رؤية النجوم باستمرار لمعرفة طريقهم. للمرة الأولى في حياته، كان تيموج قد أصيب بالقلق من رائحة عرقه والأوساخ التي علقت به، وتمنّى أن يحظى بفرصة أخرى للاستحمام بأسلوب تشن. أمعن التفكير في تجربته الأولى في المدينة وشعر بالحنين لها، وتذكر نظافة بيت شن يي. لم يكن يهتم للمتسولين، أو حشد البشر الذي يشبه الديدان في قطعة لحم عفنة. كان ابن وشقيق خان، ولن ينزلق أبداً إلى مثل تلك الحالة المزرية. كان اكتشاف طريقة عيش رجال أثرياء كما رأى يمثّل إيحاءً بالنسبة له، وطرح أسئلة على ليان فيما كانوا يسيرون في الظلام. بدا البنّاء مندهشاً لأن تيموج لم يكن يعرف الكثير عن حياة المدينة، ولم يفهم كيف أن كل حقيقة جديدة كانت مثل الماء لروح جافة. أخبر تيموج عن تلامذة الصنعة، حيث يأتي مفكرون بارزون لتبادل الأفكار وإجراء النقاشات من دون إراقة دماء. كبنّاء، تكلم عن قنوات صرف يتم بناؤها حتى في أشدّ أحياء المدينة فقراً،

على الرغم من أن الفساد كان قد أعاق العمل أكثر من اثنتي عشرة سنة. استوعب تيموج كل ذلك، وبينما كان يمشي، حلم بالسير مع رجال متعلمين في ساحات تضيئها الشمس، يناقشون قضايا عظيمة ويداه مشبوكتان خلف ظهره. تعثر بجذر غير ظاهر، وضحك عليه خاسار، وتحطمت تلك الصور في مخيلته.

كان خاسار من أوقف الرتل من دون إنذار، مما أدّى إلى ارتطام هو سا بظهره. كان جندي كزي كزيا خبيراً بما يكفي ليلتزم الصمت. توقف ليان مرتبكاً، ورفع تيموج رأسه المثقل بأفكاره الخاصة، وقد حبس أنفاسه داخله. هل كانوا ملاحقين حقاً؟ كانوا قد رأوا موقع حراسة على طريق قبل يومين، والتفوا حوله. هل يمكن أن تكون الأوامر صدرت بالعثور على الهاربين؟ شعر تيموج بوخزة يأس، وبات متأكداً فجأة أن شن يي وشى بهم مقابل إنقاذ حياته. كان ذلك ما سيفعله تيموج، واستولى عليه الخوف في الظلام، بينما كان يرى الأعداء في كل ظل.

همسّ تيموج من وراء ظهر شقيقه: "ما الأمر؟".

أدار خاسار رأسه ذات اليمين وذات الشمال، يبحث عن صوت.

"سمعت أصواتاً. لقد تغيرت الريح الآن، لكنها كانت موجودة".

همس هو سا: "ينبغي أن نتجه جنوباً بضعة أميال حتى يفقدوا أثرنا. إذا كانوا يبحثون عنا، يمكننا الاستفادة من الغابة للاختباء في النهار".

قال خاسار: "الجنود لا يعسكرون في الغابات. سيكون التسلل بالقرب منا سهلاً للغاية. سنمضي قدماً، لكن ببطء. لتكن أسلحتكم جاهزة".

رفع ليان مطرقة ذات يد طويلة من حقيبة أدواته، هزّها في يده قبل أن يضعها على كتفه الآخر. حدّق تيموج إلى خاسار بغضب متزايد.

سأل: "ماذا يهمنا من وجود آخرين في هذه الغابة؟ هو سا محق، ينبغي أن نلتف حولهم".

رد خاسار: "إن كانوا يمتلكون جياداً، سيستحق الأمر المجازفة. أعتقد أن الثلج

سيتساقط وقد تعبت من المشي". من دون كلمة أخرى، مشى بخطوات واسعة إلى الأمام، وأرغمهم على اللحاق به. لعنه تيموج بصمت. لم يكن رجال مثل خاسار ليمشوا في شوارع المدينة التي بناها في مخيلته. ربما كانوا سيحرسون الأسوار، فيما يحصل رجال أفضل على الشرف والكرامة.

عندما ساروا على طول الدرب الضيق، أصبح ممكناً رؤية وهج نار بين الأشجار، وسمعوا جميعاً الأصوات التي التقطتها أذنا خاسار حادتا السمع. وصلت ضحكة واضحة في نسيم الليل، وابتسم خاسار ابتسامة عريضة عندما سمع صهيل جواد.

تسلل الرجال الأربعة ببطء نحو الضوء، وكانت الهتافات والتحيات تخفي صوت حركتهم. عندما اقتربوا بما فيه الكفاية، استلقى خاسار على بطنه، ونظر إلى الفسحة الصغيرة حيث كانت الجذور القديمة تعلو بعضها على بعض بأشكال مجدولة.

كان هناك بغل، يشد حزاماً جلدياً يقيده إلى جذع شجرة. لسعادة خاسار، كانت ثلاثة جياد كثّة الشعر مقيدة على طرف فسحة الغابة. كانت صغيرة ونحيلة، تقف ورؤوسها إلى الأسفل. ركّز خاسار بصره عندما رأى الخيوط البيضاء للندوب على أردافها، فك قطعة القماش التي تلف قوسه، ووضع سهاماً على أجمة.

كان هناك أربعة رجال حول النار، ثلاثة منهم يسخرون من الرابع. كان جسده صغيراً ويرتدي ثوباً أحمر داكناً. كان رأسه الحليق يلمع من العرق في ضوء النار. لم يكن الآخرون يرتدون دروعاً، لكنهم يحملون سكاكين في أحزمتهم ولأحدهم قوس قصير يسنده على شجرة. كانت وجوههم قاسية وهم يستمرون في تسليتهم، يتحركون إلى الأمام والخلف لضرب الرجل الضئيل الحجم. كانت معالم وجهه مليئةً بالكدمات ومتورمة، لكن أحد الرجال كان ينزف بشدة من أنفه ولم ينضم إلى الضحك مع الآخرين.

بينما كان خاسار يراقب، اصطدم الرجل الذي ينزف من أنفه بعصا، مما جعله يترنح. كان يمكن سماع وقع الضربة عبر السكون، وكشّر خاسار بينما كان يتلمّس وتر قوسه. تسلل عائداً إلى هو سا بعيداً عن الضوء، وصوته مجرد همس.

"نحتاج إلى جيادهم. لا يبدو أنهم جنود، ويمكنني القضاء على اثنين بالقوس إذا هاجمت الأخير. هناك شاب آخر ورأسه يشبه البيضة. ما زال يقاتل، لكن ليست لديه فرصة ضد ثلاثتهم".

قال هو سا: "ربما يكون راهباً. إنهم رجال أشدّاء، ويقضون كل وقتهم في التضرع والصلاة. لا تقلل من شأنه".

رفع خاسار عينيه، مستمتعاً. "أمضيت طفولتي أتعلم استعمال الأسلحة من الفجر حتى الغسق. لم أرَ حتى الآن أحداً من شعبك يمكنه الوقوف ضدي".

تقطب حاجبا هو سا، وهزّ رأسه. "إذا كان راهباً، سيحاول ألا يقتل أولئك الذين يهاجمونه. لقد رأيتهم يعرضون مهاراتهم على ملكي".

تأفف خاسار بلطف. "أنتم شعب غريب. جنود لا يمكنهم القتال ورهبان يستطيعون ذلك. أخبر ليان أن يجهّز مطرقته ليضرب رأساً عندما أطلق سهمي".

تقدم خاسار إلى الأمام بحذر مرة أخرى، وانتقل ببطء إلى موقف جثا فيه على ركبتيه. لدهشته، رأى أن الرجل الذي كان أنفه ينزف يستلقي على الأرض، يتلوّى ألماً. كان الصمت قد أطبق على الاثنين الآخرين. كان الراهب الشاب يقف منتصباً على الرغم من الكدمات التي أصيب بها، وسمعه خاسار يتكلم بهدوء مع أولئك الذين عذّبوه. سخر منه أحدهم، ألقى عصاه جانباً، وسحب خنجراً يبدو حاداً من حزامه.

شدّ خاسار قوسه، وعندما صرّ، نظر الراهب عبر النار إليه، وقفز فجأة على قدميه كما لو أنه مستعد للوثب بعيداً. لم يكن الآخرون قد لاحظوا شيئاً، واندفع أحدهم نحو الراهب وهو يحمل الخنجر يريد غرزه في صدره.

أخرج خاسار زفيراً، وأطلق سهماً أصاب قاطع الطريق في إبطه، وجعله يقع على الأرض. دار الآخر حول نفسه عندما صرخ ليان وهو سا، وهما يقفزان نحوه. عندما تحركا، تقدم الراهب من الرجل الأخير، وأنزل ضربة على رأسه جعلته يسقط على النار. جاء هو سا وليان يجأران عندها، لكن الراهب تجاهلهما، سحب الرجل الذي كان يهاجمه من ألسنة اللهب، وربت بيديه على الشعر الذي كان الدخان قد بدأ يخرج منه. كان الرجل رخواً لكن لم يبدُ أن الوزن يعيق الراهب على الإطلاق.

عندما انتهى من ذلك، وقف الراهب لمواجهة القادمين الجدد، وأومأ إليهم. كان الرجل الذي ينزف أنفه يئن آنذاك خوفاً وألماً. شدّ خاسار سهماً آخر إلى قوسه بينما كان يمشي، وكان تيموج في أعقابه.

رأى الراهب ما ينوي خاسار القيام به واندفع إلى الأمام، حتى لم يعد خاسار قادراً على رؤية الجسد الذي يتلوى ألماً. كان رأس الراهب الأصلع يجعله يبدو أكبر من فتى بقليل.

قال له خاسار: "تنحَّ جانباً".

تلقى الراهب الكلمات من دون أي انفعال، لكنه لم يتحرك ووضع ذراعيه على صدره ليحدّق إلى السهم.

قال خاسار، وهو يصرّ بأسنانه من جهد الإمساك بقوس مشدود: "اطلب منه أن يتنحّى جانباً يا هو سا. قل له إننا بحاجة لجواده، وإنه بخلاف ذلك يستطيع المضي قدماً في طريقه حالما أقتل هذا الرجل".

تكلم هو سا، ورأى خاسار وجه الراهب يشرق لسماع كلمات يعرفها. تبع ذلك تبادلٌ لحديث حادّ، وعندما لم يظهر على الراهب علامة على تراجعه عن موقفه، أطلق خاسار لعنة بلغة تشن وخفف من شد الوتر.

قال هو سا أخيراً: "يقول إنه لم يكن بحاجة لنا وإن حياة الرجل ليست لنا لنقضي عليها. قال أيضاً إنه لن يتخلى عن جواده، لأنه ليس له، وإنما استعاره

فقط".

سأل خاسار، وهو يتقدم باتجاه الراهب: "ألم يرَ القوس الذي أحمله؟".

"لن يهتم حتى إذا كان لديك اثني عشر سهماً مصوبة نحوه. إنه رجل دين ولا يخاف".

ردّ خاسار: "فتى دين، لديه جواد لتيموج. إلا إن أردت ركوب الجواد نفسه مع شقيقي؟".

قال هو سا مباشرة: "لا أمانع". تكلم إلى الراهب، انحنى ثلاث مرات في سياق الحديث. أومأ الفتى بحدّة في النهاية، وهو ينظر إلى خاسار.

قال هو سا: "يقول إنك تستطيع الحصول على الجياد. سيبقى هنا ويعتني بالجرحى".

هزّ خاسار رأسه عاجزاً عن فهم ما يحدث. "هل يشكرني لإنقاذه؟".

بدا وجه هو سا خالياً من أي تعبير. "لم يكن بحاجة لإنقاذ".

تقطب حاجبا خاسار من الراهب الذي كان يحدّق إليه بهدوء.

قال خاسار فجأة: "سيحب خاسار هذا الرجل. اسأله إن كان يرغب بالمجيء معنا".

تكلم هو سا مجدداً وهزّ الفتى رأسه، من دون أن تترك عيناه خاسار.

"يقول إن عمل بوذا ربما يقوده إلى طرقات غريبة، لكن مكانه بين الفقراء".

تأفف خاسار.

"الفقراء في كل مكان. اسأله كيف يعرف أن بوذا هذا لم يكن يرغب بأن نعثر عليه هنا".

أومأ هو سا، وبينما كان يتكلم، بدا الراهب مهتماً تماماً بما يسمع.

قال هو سا: "سأل إن كان بوذا معروفاً بين قومكم".

ابتسم خاسار. "قل له إننا نؤمن بأب السماء فوق والأم الأرض تحت. الباقي كفاح وألم قبل الموت". ضحك بصوت خافت عندما طرفت عينا هو سا لدى

سماعه تلك الفلسفة.

سأل هو سا: "هل ذلك كل ما تؤمنون به؟".

ألقى خاسار نظرة خاطفة على شقيقه. "بعض الحمقى يؤمنون بالأرواح أيضاً، لكن معظمنا يؤمن بجواد جيد وذراع يمنى قوية. لا نعرف بوذا هذا".

عندما نقل هو سا الكلام، أحنى الراهب الشاب رأسه ومشى بخطوات واسعة إلى حيث كان جواده مقيّداً. راقبه خاسار وتيموج بينما كان يقفز على السرج، مما جعل الحيوان يصهل ويركل بقائمتيه.

قال خاسار: "ذلك وحش قبيح. هل الفتى قادم معنا؟".

كان هو سا لا يزال يبدو متفاجئاً عندما أومأ برأسه.

"إنه قادم. يقول إنه لا يمكن لرجل تخمين دربه، لكن ربما تكون محقاً بأنك كنت مدفوعاً إليه".

قال خاسار: "حسناً. لكن قل له إنني لن أترك أعدائي أحياء، وينبغي به عدم التدخل بأموري مجدداً. قل له إنه إذا فعل ذلك، سأشطر رأسه الأصلع الصغير نصفين".

عندما سمع الراهب الكلمات، ضحك عالياً، ولطم على فخذه بينما كان يجلس منفرج الساقين على جواده.

تقطب حاجبا خاسار منه. قال وهو يشير إلى نفسه: "أنا خاسار من الذئاب أيها الراهب. ما اسمك؟".

ردّ، وهو يضرب بقبضته مرتين على صدره مثل تحية: "ياو شو!". بدا أن ذلك ممتع للراهب وضحك بصوت خافت حتى كان عليه أن يمسح عينيه. حدّق إليه خاسار.

قال أخيراً: "امتطِ الجواد يا هو سا. الجواد البني لي. انتهى المشي على الأقل".

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليعتلوا الجياد. امتطى هو سا وتيموج جواداً واحداً معاً حالما تم حلّ السرج وإلقاؤه بعيداً. كان قطّاع الطرقات الناجون قد

التزموا الصمت في أثناء الحديث، قلقين من أن حياتهم على المحك. راقبوا الغرباء يبتعدون، وجلسوا منتصبين ليطلقوا اللعنات فقط عندما تأكدوا أنهم أصبحوا وحدهم.

كان الممر الذي يفصل مملكة كزي كزيا عن الحافة الجنوبية للصحراء خالياً عندما وصلت مجموعة الرجال الخمسة إليه. في جبال خينتي على بعد ألف ميل إلى الشمال، سيكون الشتاء قاسياً، ويهيمن على الأرض شهوراً عديدة قادمة. حتى عند الممر، كانت عاصفة شديدة البرودة تجأر عبره كما لو أنها سعيدة بإطلاقها. لم يكن هناك حصن يجعل الممر مكاناً ساكناً آنذاك. بدلاً من ذلك، كانت الرياح تهب دائماً والهواء مليء بالرمال والغبار.

ترجل خاسار وتيموج عندما وصلا إلى الممر، متذكرين الجهد الدموي الأول للاستيلاء على الحصن الذي كان يقف هناك. كان جنكيز محقاً في ضرورة تفكيكه. كانت هناك بعض الكتل الضخمة في الرمال، لكن كان كل حجر آخر قد تم سحبه بعيداً. وحدها بعض الثقوب المربعة في الصخور كانت تدل على أماكن تثبيت العوارض الخشبية والدعائم، لكن بخلاف ذلك بدا الأمر كما لو أن الحصن لم يكن له وجود أصلاً. لم يكن هناك عائق أمام القبائل التي تتجه شمالاً آنذاك وجعلت تلك الحقيقة وحدها خاسار يشعر بالفخر.

مشى مع تيموج على طول الممر، ينظران إلى الأعلى إلى الصخور الشاهقة على كلا الجانبين. راقبهما الراهب والبنّاء من دون أن يفهما ما يجري، ومن دون أن يعرفا أن المكان كان يضم بين جنباته حصناً من الحجارة السوداء وأن مملكة كزي كزيا كانت محمية بشكل رائع.

نظر هو سا جنوباً، وأدار جواده ليحدّق إلى الحقول المكشوفة لوطنه. دلّت بقع داكنة تلوح من بعيد على الأماكن التي كان يتم فيها حرق المحاصيل المتعفنة والرماد الذي يكسو الأرض. سيكون هناك جوع في القرى، وكان واثقاً من ذلك، وربما حتى في ينشوان. هزّ رأسه من الفكرة.

كان بعيداً طيلة حوالى أربعة شهور وسيكون أمراً جيداً رؤية أبنائه وزوجته مرة أخرى. تساءل كيف هي حال الجيش بعد الهزيمة النكراء التي تعرض لها على يدي الخان العظيم. كانت القبائل قد خرقت اتفاقية سلام قديمة وفزع عندما تذكر الدمار الذي نجم عن ذلك. كان قد خسر أصدقاء وزملاء في تلك الشهور ولم يكن طعم المرارة بعيداً أبداً عن فمه. كان الإذلال الأخير يتمثل في رؤية تسليم ابنة الملك إلى همجيين. ارتعش هو سا من فكرة إرغام مثل تلك المرأة على العيش في خيامهم النتنة بين الأغنام والماعز.

حدّق هو سا إلى الوادي، وأدرك ببعض الدهشة أنه سيفتقد لصحبة خاسار. على الرغم من كل فظاظة الرجل وميله نحو العنف، إلا أن هو سا كان يستطيع التطلع إلى الرحلة ببعض الفخر. لم يكن أحد غيره من كزي كزيا قد دخل خلسة إلى مدينة تشن وعاد حياً مع معلّم بناء. كان صحيحاً أن خاسار كاد يتسبب بمقتله في إحدى القرى عندما شرب الكثير من شراب الأرز. فرك هو سا قشرة جرح على جانبه حيث كان جندي قد ضربه بسكين على طول أضلاعه. لم يكن الرجل متمركزاً هناك وكان يزور عائلته. لم يتذكر خاسار القتال عندما أفاق، وبدا أنه لا يفكر بالأمر مطلقاً. كان بطريقة ما الرجل الأكثر إثارة للغضب الذي سبق لهو سا أن رآه من قبل، لكن تفاؤله المتهور كان قد أثّر في جندي كزي كزيا وتساءل قلقاً إن كان يستطيع الاعتياد مجدداً على الانضباط الصارم لجيش الملك. كان ينبغي حمل الجزية السنوية عبر الصحراء وقرّر هو سا عندها أنه سيتطوع لقيادة الحرّاس في تلك الرحلة، فقط ليرى الأرض التي أنجبت القبائل.

عاد خاسار مشياً إلى مرافقيه. شعر بابتهاج لفكرة رؤية وطنه مجدداً وجلب البنّاء إلى جنكيز. ابتسم للآخرين بالمقابل، مظهراً سعادته. كان الغبار والأوساخ تغطيهم جميعاً من دون استثناء، والتراب يخفي كل معالم وجوههم. كان ياو شو قد بدأ يتعلم لغة القبائل من هو سا. لم يكن لدى ليان أذن لتعلّم اللغة، لكنه أيضاً كان قد حفظ بعض الكلمات المفيدة. أشاروا برؤوسهم إلى

خاسار مترددين، وغير واثقين من سبب مزاجه الجيد.

ثبّت هو سا ناظريه على خاسار بينما كان يقترب منه. كان مندهشاً من الضيق في صدره من فكرة مغادرة تلك الصحبة، وكافح للعثور على الكلمات للتعبير عن ذلك. تكلم خاسار قبل أن يستطيع هو سا التفكير في أي شيء.

"ألقِ نظرة جيدة يا هو سا. لن ترى الوطن مجدداً لوقت طويل".

سأل هو سا وقد اختفى مزاجه المسالم: "ماذا؟".

هز خاسار كتفيه غير مبالٍ.

"انتدبك ملكك لنا سنة كاملة. لم تنقضِ سوى أقل من أربعة شهور وقد يمر شهران آخران قبل أن نصل إلى الجبال. سنحتاج إليك لتترجم للبنّاء وتعليم اللغة للراهب. هل كنت تعتقد أنني سأتركك هنا؟ هل اعتقدت ذلك!". بدا خاسار سعيداً من تعبير المرارة الذي ظهر على وجه هو سا.

"نحن عائدون إلى السهول يا هو سا. سنهاجم بعض التلال مستفيدين مما سيعملنا إياه البنّاء، وعندما نكون مستعدين سنذهب إلى الحرب. ربما بحلول ذلك الوقت، ستكون مفيداً لنا، وسأطلب من ملكك أن ينتدبك لنا سنة أخرى أو اثنتين. أعتقد أنه سيقتطع سعرك من الجزية إذا طلبنا منه ذلك".

قال هو سا بحدّة: "تفعل ذلك لتعذّبني".

ضحك خاسار بصوت خافت. "ربما قليلاً، لكنك رجل محارب يعرف تشن. سنحتاج إليك بالقرب منا عندما نهاجمهم".

حدّق هو سا بغضب إلى خاسار. لطمه المحارب المغولي بسعادة على ساقه بينما كان يستدير مبتعداً، ينادي من فوق كتفه. "ينبغي أن نحصل على الماء من القنوات. بعد ذلك، إنها الصحراء ووطن النساء والدلال. هل يمكن للرجل أن يطلب أكثر من ذلك؟ سأعثر لك على أرملة لتبقيك دافئاً يا هو سا. إنني أُسديك معروفاً إن كان لديك فقط عينان ترى بهما".

امتطى خاسار جواده مرة أخرى، واقترب من تيموج الذي كان ليان قد سحبه

إلى السرج. انحنى مقترباً من شقيقه.

"السهول تنادينا يا شقيقي. هل تشعر بذلك؟".

ردّ تيموج: "أشعر بها". في الواقع، كان يريد أن يعود إلى القبائل مثل خاسار، على الرغم من أن ذلك كان فقط لأنه يعرف تماماً ما سيحصلون عليه لأنفسهم. بينما كان شقيقه يحلم بالحرب والغنائم، رأى تيموج مدناً في مخيلته وكل الجمال والقوة التي تتمتع بها.

القسم الثاني

الفصل السادس عشر

وقف جنكيز بدرعه الكامل يراقب تدمير مدينة لنهي. كانت حقول الأرز قد أضحت أوساخاً بنية رطبة على بعد عشرات الأميال في أي اتجاه عندما طوّق جيشه الأسوار. كانت رايته المؤلفة من تسعة ذيول جياد تتدلى رخوة من دون نسيم بينما كانت أشعة شمس الغروب تشع على الجيش الذي كان قد أحضره إلى ذلك المكان.

على كلا جانبيه، انتظر رماة السهام الأوامر، وجيادهم تضرب الأرض بحوافرها. وقف تابعٌ خلفه يمسك جواداً بلون الكستناء، لكن الخان لم يكن مستعداً آنذاك لامتطائه.

قريباً من الرتل الذي ينتظر، كانت خيمة من القماش الأحمر القاني ترفرف في الريح. على مسافة خمسين ميلاً حوله، كان جيش جنكيز قد سحق المقاومة حتى لم يعد هناك سوى المدينة، تماماً كما كانت ينشوان قد حمت ذات مرة ملك كزي كزيا. كانت الحاميات وحصون الطرقات فارغة بعد انسحاب جنود تشن أمام جيش لم يستطيعوا التصدي له. كانوا يشعرون بالخوف من الغزو أمامهم، وانسحبوا إلى أطراف المناطق التي يسيطر عليها جنود تشن، تاركين المدن مكشوفة. حتى السور العظيم لم يشكل عائقاً أمام منجنيقات وسلالم شعبه. كان جنكيز يشعر بالسعادة لرؤية أقسام شاسعة منه يتم تحطيمها إلى أنقاض لدى تجربة أدواته الحربية الجديدة. كان رجاله قد اكتسحوا المدافعين إلى أبعد نقطة يمكنهم الوصول إليها، حرقوا بيوت المعسكرات الخشبية بشيء من الضغينة. لم يستطع جنود تشن صدّهم. كان كل ما استطاعوا القيام به الهرب أو التعرض للدمار.

كان جنكيز واثقاً أن تقديراً للموقف سيظهر مستقبلاً: عندما يظهر ضابط يستطيع قيادة تشن، أو عندما تصل القبائل إلى ينكينغ مستقبلاً. لن يكون ذلك

اليوم.

كانت كزامبا قد سقطت في سبعة أيام، واحترقت وايان في ثلاثة فقط. رأى جنكيز الحجارة المدفوعة من منجنيقاته تهدّ قطعاً من لنهي وابتسم راضياً بذلك. كان البنّاء الذي أحضره شقيقاه قد أظهر له شكلاً جديداً من العمليات الحربية ولن توقفه مجدداً الأسوار العالية. خلال سنتين، كان شعبه قد بنى منجنيقات وتعلّم أسرار ونقاط ضعف أسوار تشن العالية. كان أبناؤه قد أصبحوا طوال القامة وأقوياء وكان متواجداً ليرى الأكبر يصل إلى مشارف الرجولة. كان ذلك كافياً. كان قد عاد إلى أعداء شعبه وتعلّم جيداً.

على الرغم من أنه كان يقف بعيداً عن صف المنجنيقات، إلا أنه كان يستطيع سماع الضربات المدوّية بوضوح في الجو الساكن. لم يكن جنود تشن في الداخل يجرؤون على الخروج وقتال جيشه، وإذا فعلوا ذلك، كان سيرحب بالنهاية السريعة. لم تكن الخيمة الحمراء التي نصبوها تفيدهم آنذاك. قطعة إثر أخرى، كان يتم تحطيم الأسوار، وكانت الحجارة تنطلق من المنجنيقات في الهواء من قبل فرق من رجاله تتصبب عرقاً. كان ليان قد قدّم له تصميمات لسلاح أكثر ترويعاً. تخيّله جنكيز في ذهنه، وفكّر مجدداً في الثقل الموازي الذي قال ليان إنه سيقذف صخوراً كبيرة مئات الأقدام بقوة ساحقة. كان بنّاء تشن قد وجد حافزاً في تصميم أسلحة لحاكم يقدّر مهارته. كان جنكيز قد اكتشف أنه يستطيع استيعاب رسوم ليان كما لو أنه يتمتع بالمعرفة منذ أمد طويل. كانت الكلمات المكتوبة لا تزال طلاسم بالنسبة إليه، لكن القوة والاحتكاك، الروافع، الكتل الحجرية والحبال كانت كلها واضحة في ذهنه. كان سيدع ليان يبني آلته العظيمة لمهاجمة ينكينغ.

لم تكن مدينة إمبراطور تشن تشبه لنهي ليتم إرغامها على الاستسلام. تأفف جنكيز من الفكرة، وتخيل الخنادق والأسوار الضخمة التي كان ليان قد وصفها، والسميكة عند القاعدة بعرض سبعة رجال من أعلى الرأس حتى أخمص

القدمين. كانت أسوار كزامبا قد انهارت إلى قنوات تم حفرها تحتها، لكن أبراج حصن ينكينغ كانت مبنية على صخور ولا يمكن تقويضها. كان بحاجة إلى أكثر من المنجنيقات لتحطيم مدينة الإمبراطور، لكن كان هناك سلاح آخر في جعبته، وكان محاربوه يصبحون أكثر مهارة مع كل نصر يحققونه.

كان جنكيز قد فكّر في بادئ الأمر أنهم سيعترضون على دورهم الجديد كعمّال آلات. لم يكن شعبه قد برع في سلاح المشاة من قبل، لكن ليان كان قد أقنعهم بفكرة أنهم مهندسون، ووجد جنكيز أن العديد منهم يفهمون علم القوى والأوزان. كان قد أظهر سعادته بالحصول على رجال يحطمون مدناً وكانوا يقفون بفخر أمام ناظريه.

كشف جنكيز عن أسنانه عندما سقط جزء من السور إلى الخارج. كان مع تسوبودي ألف منهم يعملون أمام أسوار لنهي. كان الجيش الرئيسي قد شكّل أرتالاً خارج بوابات المدينة الأربع، ينتظر الاندفاع نحوها عند أول إشارة على فتحها. رأى جنكيز تسوبودي يمشي بخطوات واسعة بين فرق المنجنيقات، يوجّه الضربات. كان كل ذلك جديداً تماماً، وشعر جنكيز بالفخر من الطريقة التي تأقلم بها شعبه مع تلك الآلات. لو أن والده كان حياً ليرى ذلك.

من بعيد، أمر تسوبودي بتقدم المتاريس الخشبية إلى الأمام لحماية محاربيه. لم يكن بمقدور رماة المدينة استعمال أقواسهم من دون المخاطرة بحياتهم، وحتى عندما كان يحالفهم النجاح، كانت سهامهم ترتطم بالخشب من دون أي تأثير.

بينما كان جنكيز يراقب ما يجري، أطلت مجموعة من المدافعين برؤوسها لسكب ما في قدرٍ حديدي من فوق أعلى السور. وقع العديد منهم ضحايا السهام، لكن كان هناك دائماً المزيد ليأخذوا مكانهم. تقطب حاجبا جنكيز عندما نجحوا في تبليل اثني عشر رمّاحاً بسائل أسود. توارى المحاربون خلف متراسهم الخشبي، لكن بعد لحظات فقط، تم إلقاء مشاعل على السائل،

وانتشرت ألسنة اللهب التي كان صوتها أعلى من الصرخات المكتومة للرجال الذين احترقت رئاتهم.

سمع جنكيز رجالاً يطلقون اللعنات من حوله. تعثّر رمّاحو تسوبودي بالمجموعات الأخرى، وأفسدوا الوتيرة السلسة للهجوم. في حالة الارتباك تلك، كان رماة تشن يستهدفون كل من يخطو خارج نطاق متراسه لإبعاده أو وضع حدٍّ لألمه.

أصدر تسوبودي أوامر جديدة، وتحركت المجموعات ببطء إلى الخلف، تاركة الرجال المصابين حتى تم القضاء عليهم. أومأ جنكيز موافقاً بينما بدأت المنجنيقات تعمل مرة أخرى. كان قد سمع عن الزيت الذي يحرق، على الرغم من أنه لم يكن قد رآه يستعمل بمثل تلك الطريقة. كان يشتعل بسرعة أكبر من شحم الضأن في مصابيح المغول، وقرر الحصول على كمية منه. ربما سيكون هناك بعض منه في لنهي عندما تسقط. امتلأ ذهنه بآلاف التفاصيل التي ينبغي عليه تذكرها كل يوم حتى شعر بأن رأسه متورم من الخطط.

استلقت جثث داكنة يخرج منها الدخان تحت السور واستطاع سماع هتاف خافت داخل المدينة. انتظر جنكيز أن يقوم تسوبودي بتحقيق اختراق، وقد بدأ صبره ينفد. لم يكن الضوء ليستمر وقتاً طويلاً، وعند مغيب الشمس، سيكون على تسوبودي أن يأمر رجاله بالانسحاب ليلاً.

عندما صدحت المنجنيقات مجدداً، تساءل جنكيز عن عدد الذين فقدوهم في الهجوم. لم يكن الأمر مهماً. كان تسوبودي يقود الأقل خبرة بين محاربيه وكانوا بحاجة للخبرة في الحرب. في السنتين اللتين كان قد قضاهما في جبال خينتي، كان ثمانية آلاف فتى قد بلغوا مشارف الرجولة وحصلوا على جياد للانضمام إليه. كان معظمهم بقيادة تسوبودي ويدعون أنفسهم "الذئاب الفتية" تكريماً لجنكيز. كان تسوبودي قد توسل تقريباً ليكونوا أول من يهجم على لنهي، لكن جنكيز كان قد خطط آنذاك للسماح لأولئك الفتية بقيادة

الهجوم. إضافة إلى قائدهم الجديد، ينبغي أن تثخنهم الجراح.

سمع جنكيز صرخات المصابين تحملها الرياح ونقر برباط رسغه من دون وعي على الصفائح المصقولة فوق فخذه. تهاوى قسمان آخران من السور. رأى برجاً حجرياً ينهار، ويدفع بمجموعة من الرماة نحو أقدام محاربي تسوبودي الذين تهللوا فرحاً. كانت أسوار لنهي آنذاك تشبه أسناناً مكسورة، وكان جنكيز يعرف أن الأمر لن يطول. تم سحب سلالم على دواليب إلى جانب السور بينما تنحت فرق المنجنيقات جانباً، مرهقة ومبتهجة بالنصر.

شعر جنكيز بالبهجة من حوله، واندفعت ذئاب تسوبودي الفتية نحو المدافعين، وغطّوا الحجارة الرمادية الباهتة بأجسادهم فيما كانوا يتسلقون السور. غطّى أفضل رماته الهجوم من الأسفل، وكانوا رجالاً يستطيعون إصابة بيضة على بعد مئة خطوة. أصيب جنود تشن الذين ظهروا على الأسوار بالسهام وسقطوا إلى الخلف.

أومأ جنكيز بحدّة، وأمسك بلجام جواده ليمتطيه. صهل الحيوان، وقد شعر بمزاجه. نظر جنكيز إلى يمينه ويساره، ورأى وجوه أتباعه الذين ينتظرون بفارغ الصبر والصفوف والأرتال حول المدينة. كان قد شكّل جيوشاً ضمن الجيش، وأضحى كل من قادته يتولى أمر فرقة من عشرة آلاف رجل ويتصرف لوحده. كان أرسلان بعيداً عن مرمى البصر خلف لنهي، لكن جنكيز استطاع رؤية راية ذيل الحصان الخاصة بجيلم ترفرف. ألقت أشعة الشمس عليهم جميعاً ضوءاً ذهبياً وبرتقالياً لامعاً، وكانت الظلال طويلة. نظر جنكيز إلى شقيقيه، وكانا مستعدين للانطلاق نحو البوابتين الشرقية والغربية إذا تم فتحهما أولاً. كان خاسار وكشيون مهتمين بأن يكونا أول من يصل إلى شوارع لنهي.

عند كتفه، لم يكن الجسد الضخم لتولي الذي كان مرة تابعاً لإيلوك الذئاب يستحق أكثر من نظرة واحدة، على الرغم من أن جنكيز رأى الرجل يتسمّر في مكانه بكبرياء. كان الأصدقاء القدماء هناك، يحيونه بإيماءات من رؤوسهم. كان

الصف الأمامي للرتل مؤلفاً من عشرين جواداً فقط، ورجال أعمارهم تقارب الثلاثين سنة، بمثل عمره تقريباً. كان يرفع من معنويات جنكيز رؤية الطريقة التي ينظرون بها إلى الأمام، وهم يراقبون المدينة بتعطش.

صعد دخان في الهواء من اثني عشر مكاناً ضمن لنهي، مثل خيوط بعيدة لعواصف مطرية في السهول. راقب جنكيز وانتظر، ويداه تهتزان قليلاً من التوتر.

جاءه صوت يعرفه، مقاطعاً أفكاره: "هل لي بمباركتك أيها الخان العظيم؟". استدار جنكيز وأومأ برأسه لكاهنه العرّاف، وكان الأول بين الرجال الذين مشوا الدروب الصعبة. كان كوكشو قد رمى بعيداً الملابس الرثّة التي كان يرتديها أيام تبعيته لخان النيمنز. كان يرتدي ثوباً من الحرير الأزرق الداكن، المربوط بحزام مذهب. كان يلف حول معصميه قطعاً جلدية مع نقود تشن مثقوبة، وكانت ترن عندما يرفع ذراعيه. أحنى جنكيز رأسه من دون أي تعبير على وجهه، وشعر باللمسة الباردة لدم الخروف عندما مسّ كوكشو وجنتيه به. شعر بالطمأنينة تستولي عليه، وأبقى رأسه منخفضاً بينما كان كوكشو ينشد ابتهالاً للأم الأرض.

"سترحب بالدماء التي ترسلها لها يا مولاي، كما لو أن الأمطار نفسها هطلت حمراء".

أخرج جنكيز زفيراً بطيئاً، مدركاً تماماً الخوف في الرجال من حوله. كان كل منهم محارباً بالولادة، شدّت أزره النيران والمعارك منذ السنوات الأولى، لكنهم على الرغم من ذلك أغلقوا أفواههم التي كانت تثرثر عندما مشى كوكشو بينهم. كان جنكيز قد رأى الخوف يزداد وكان قد استفاد منه لفرض الانضباط على القبائل، مانحاً كوكشو سلطة برعايته.

سأل كوكشو: "هل أجعلهم يفكّون الخيمة الحمراء يا مولاي؟ الشمس تغرب والقماش الأسود جاهز للهيكل".

أمعن جنكيز التفكير بالأمر. كان كوكشو نفسه من اقترح تلك الوسائل لبث الرعب في مدن تشن. في اليوم الأول، يتم نصب خيمة بيضاء خارج أسوارهم، وكان وجودها بحد ذاته يدل على عدم وجود جنود ينقذونهم. إذا لم يكونوا قد فتحوا بواباتهم بحلول المغيب، سيتم نصب الخيمة الحمراء عند الفجر ويقطع جنكيز لهم وعداً بأن كل رجل في المدينة سيموت. في اليوم الثالث، كانت الخيمة السوداء تعني أن هناك موتاً من دون نهاية، من دون رحمة، لكل من يعيش في الداخل.

سيكون ذلك عبرة لكل المدن إلى الشرق، وتساءل جنكيز إن كانت سوف تستسلم بسهولة أكبر كما قال كوكشو. كان الكاهن العرّاف يفهم كيفية استعمال الرعب. سيكون صعباً ألا يسمح للرجال بسلب كل شيء بوحشية من أولئك الذين قاوموهم، لكن الفكرة أعجبته. كانت السرعة مهمة جداً وإذا سقطت مدن من دون قتال، يمكنه التحرك بسرعة أكبر. أشار برأسه إلى الكاهن العرّاف، مانحاً إياه الشرف.

"لم ينتهِ اليوم بعد يا كوكشو. ستعيش النساء من دون أزواجهن. سينقل الطاعنون في السن أو الضعفاء ما حدث وسوف ينتشر الخوف".

قال كوكشو وعيناه تلمعان: "كما تشاء يا مولاي". شعر جنكيز بأحاسيسه تضطرم بالمقابل. كان بحاجة لرجال أذكياء إذا كان سيسلك الدرب الذي رسمه في مخيلته لنفسه.

نادى أحد الضباط: "مولاي الخان!". استدار جنكيز نحوه، وشاهد أن محاربي تسوبودي الشباب قد فتحوا البوابة الشمالية. كان المدافعون لا يزالون يقاتلون واستطاع رؤية بعض رجال تسوبودي يسقطون فيما كانوا يكافحون للمحافظة على الأفضلية التي حققوها. من طرف عينه، دفع عشرة آلاف محارب بقيادة خاسار جيادهم للجري وكان يعرف أن المدينة فُتحت من مكانين على الأقل. كان كشيون لا يزال متمركزاً عند البوابة الشرقية ولم يستطع سوى أن يراقب

بإحباط بينما كان شقيقاه يندفعان إلى الداخل.

صرخ جنكيز وهو يدفع بعقبيه على ردفي مطيته: "هجوم!". بينما كان الهواء يصفع وجهه، تذكّر السباق عبر سهول الوطن في أيام غابرة. كان يحمل رمحاً من خشب البتولا بيده اليمنى، وكان ذلك ابتكاراً آخر. كان قلّة فقط من أقوى الرجال قد بدأوا التدرب على استعماله، لكن الأمر كان يزداد بين القبائل. كان جنكيز يحمل الرمح والنصل إلى الأعلى، وجأر عبر الأرض، محاطاً بمحاربيه الملكيين.

كان يعرف أن هناك مدناً أخرى، لكن تلك الأولى ستبقى دائماً الأحلى في ذاكرته. جأر مع رجاله، واندفع الرتل بأقصى سرعة عبر البوابتين، بعثر المدافعين وتركهم مثل أوراق ملطخة بالدماء خلفه.

مشى تيموج عبر ظلام حالك إلى خيمة كوكشو. عندما دخل عبر الباب، سمع صوتاً مكتوماً ينتحب في الداخل، لكنه لم يتوقف. كان القمر غائباً عن السماء وكان كوكشو قد أخبره أنه بحلول ذلك الوقت سيكون أقوى وأكثر قدرة على التعلم. كانت النيران لا تزال تشتعل من بعيد في لنهي المدمرة، لكن المعسكر كان هادئاً.

كان بالقرب من خيمة الكاهن العرّاف واحدة أخرى، منخفضة جداً حتى إنه كان على تيموج أن يجثو على ركبتيه ليدخلها. كان هناك مصباح وحيد يشع بضوء خافت، وكان الهواء كثيفاً بالأبخرة التي جعلت تيموج يشعر بالدوار بعد عدّة أنفاس فقط. كان كوكشو يجلس وقد وضع ساقاً على أخرى على أرضية مكسوة بالحرير الأسود المتغضن. كانت كل الأشياء في الداخل قد جاءت من يدي جنكيز وشعر تيموج بالحسد يمتزج بخوفه من الرجل.

كان قد تم استدعاؤه وجاء بناءً على ذلك. لم يكن في وضع يسمح له بطرح أسئلة، جلس ووضع ساقاً فوق أخرى ليواجه الكاهن العرّاف، ورأى أن عيني كوكشو مغلقتان وأن النفس الأخير لم يكن أكثر من اهتزاز طفيف في الصدر.

ارتعش تيموج في الصمت المطبق، وتخيل أرواحاً سوداء في الدخان الذي ملأ رئتيه، والذي كان يأتي من احتراق البخور في طبقين نحاسيين وتساءل عن المدينة التي تم سلبه منها. كانت خيام شعبه مكاناً للعديد من الأشياء الغريبة في تلك الأيام الدموية، وكان قلّة منهم يستطيعون التعرّف عليها.

سعل تيموج عندما أصبح الدخان كثيفاً جداً في رئتيه. رأى صدر كوكشو العاري يرتعش وفتح الرجل عينيه بتثاقل، يبحث عنه لكن من دون أن يراه. عندما عاد إليه تركيزه، ابتسم له الكاهن العرّاف، وعيناه مثقلتان بظلال قاتمة.

قال كوكشو بصوت أجش من الدخان: "لم تأتِ إلي منذ دورة كاملة للقمر".

أشاح تيموج ببصره بعيداً.

"كنت منزعجاً. كانت بعض الأمور التي أخبرتني بها... مقلقة".

ضحك كوكشو بصوت خافت، وهو يسعل بشكل متقطع وجاف: "كما يخاف الأطفال الظلام، كذلك يخاف الرجال السلطة. إنها تغويهم إلا أنها تستهلكهم. ليس مفيداً أبداً أن تلعب برفق". ثبّت ناظريه على تيموج حتى رفع الشاب بصره إلى الأعلى وفزع بشكل ظاهر للعيان. كانت عينا كوكشو الثابتتان تلمعان بشكل غريب، والبؤبؤان أوسع مما كان تيموج قد رآهما من قبل.

تمتم كوكشو: "لماذا جئت الليلة إن لم يكن لتغمس يديك في الظلام مرة أخرى؟".

سحب تيموج نفساً عميقاً. بدا أن الدخان لم يعد يزعج رئتيه آنذاك وشعر بالدوار، واثقاً من نفسه تقريباً.

"سمعت أنك عثرت على قاتل عندما كنت غائباً في باوتو. لقد تكلم شقيقي الخان عن ذلك. قال إن الأمر كان مدهشاً وكيف أنك استطعت معرفة الرجل من صف من المحاربين الذين يجثون على ركبهم".

قال كوكشو وهو يهز كتفيه استخفافاً: "لقد تغير الكثير منذ ذلك الوقت. استطعت شم ذنبه يا بني. إنه شيء يمكنك تعلّمه". استجمع كوكشو إرادته

لتركيز أفكاره. كان معتاداً على الدخان ويستطيع تحمله أكثر من رفيقه الشاب، لكن على الرغم من ذلك كانت هناك أضواء ساطعة تلمع عند أطراف عينيه.

شعر تيموج بأن كل أسباب قلقه تتبدد حالما جلس هناك مع ذلك الرجل الغريب الذي تفوح منه رائحة الدم على الرغم من أثوابه الحريرية الجديدة. تدفقت الكلمات منه ولم يعرف أنه يتلفظ بها.

همس تيموج: "قال جنكيز إنك وضعت يديك على الخائن وقلت كلمات بلغة قديمة. قال إن الرجل صرخ ومات أمامهم جميعاً من دون جرح".

"وتودّ أن تفعل الشيء نفسه يا تيموج؟ ليس هناك أحد آخر هنا، وليس هناك خجل بيننا. قل الكلمات. هل هذا ما تريده؟".

استرخى تيموج قليلاً، وترك يديه تنزلان إلى الأرضية المغطاة بالحرير حتى أصبح يشعر بها تنزلق تحت أصابعه بوضوح استثنائي.

"إنه ما أريده".

اتسعت ابتسامة كوكشو لدى سماعه ذلك، وظهرت لثّته الداكنة عندما تراجعت شفتيه إلى الخلف. لم يكن يعرف هوية القاتل أو حتى إن كان موجوداً. كانت اليد التي وضعها على رأس الرجل تحمل نابين صغيرين وكيس سم مثبتاً بشمع. كان الأمر قد استغرق منه عدّة ليالٍ لاصطياد الأفعى الصغيرة السامة التي يريدها، مخاطراً بالتعرض للسعتها. بدأ يضحك بصوت خافت مجدداً عندما تذكر الدهشة على وجه الخان عندما تلوت الضحية ألماً من مجرد لمسة. كان وجه الرجل المحتضر قد أضحى أسود تقريباً قبل أن يقضي نحبه، وكانت بقعتا الدم قد اختفتا في شعره. كان كوكشو قد اختاره بسبب فتاة تشن التي كان قد اختارها زوجة له. كانت أثارت الرغبة في الكاهن العرّاف عندما مرّت بخيمته لتجلب الماء ثم رفضته، كما لو أنها إحدى أفراد شعبه وليست أَمَة. ضحك بقوة عندما تذكر الإدراك الذي لمع في عيني زوجها قبل أن يسرقه الموت مع كل شيء آخر. منذ تلك اللحظة، كان كوكشو يتمتع بالمهابة والشرف

في المعسكر. لم يكن أحد من عرّافي القبائل الآخرين يجرؤ على تحدّي موقعه، ليس بعد أن أظهر قوته. لم يشعر بالذنب لاحتياله. كان مصيره الوقوف مع خان الأمة، منتصراً فوق أعدائه. إن كان عليه قتل ألف شخص للظفر بذلك، سيعتبر أن الأمر يستحق ذلك الثمن.

رأى أن عيني تيموج تدمعان بينما كان يجلس هناك في الدخان الخانق. أغلق كوكشو فكّه بإحكام، مخفياً سعادته. كان بحاجة لذهنٍ صافٍ لتوثيق العلاقة مع الشاب، وتمكينها بحيث لا يمكن فصمها أبداً.

ببطء، مدّ كوكشو يده نحو قدر صغير فيه مادة سوداء كثيفة إلى جانبه، ورفع إصبعاً حتى أضحى ممكناً رؤية بذور صغيرة في الدجنة. مدّ يده إلى تيموج الذي فتح فمه من دون مقاومة، ودهن المادة على لسانه.

غصّ تيموج من الطعم المر، لكن قبل أن يبصق المادة، شعر بالخدر يسري في جسده بسرعة. سمع همسات خلفه وهزّ رأسه إلى الأمام والخلف عندما أطبقت غشاوة على عينيه، يبحث عن أصل الصوت.

قال كوكشو راضياً: "احلم بأسوأ الكوابيس يا تيموج. سأقودك. لا، أفضل من ذلك. سأجعلك ملكي".

كان الوقت فجراً قبل أن يخرج كوكشو مترنحاً من الخيمة، وعرق كريه الرائحة يلطخ ثوبه. كان تيموج فاقداً الوعيَ على الأرضية المغطاة بالحرير وسينام معظم النهار التالي. لم يكن كوكشو قد مسّ المادة بنفسه، غير واثق من الطريقة التي تجعله يهذي بها وغير متأكد إن كان تيموج سيتذكر ما حدث. لم تكن لديه رغبة بوضع نفسه تحت سلطة شخص آخر، ليس عندما يكون المستقبل مشرقاً جداً. سحب أنفاساً عميقة من الهواء المتجمد وشعر بأن رأسه قد تخلص من آثار الدخان. كان يستطيع شم رائحته تخرج من مساماته وقهقه عندما استدار عائداً إلى خيمته وفتح الباب بقوة.

كانت فتاة تشن تجثو حيث تركها، على الأرض قرب الموقد. كانت فائقة

الجمال، شاحبة ورقيقة. شعر بالرغبة تجتاحه مجدداً وتساءل عن قدرته على الاحتمال. ربما كانت آثار الدخان في رئتيه.

سأل: "كم مرة عصيتني ونهضت؟".

قالت ترتعش بشكل ملحوظ: "لم أفعل ذلك".

مدّ يده ليرفع رأسها، وانزلقت يداه عن وجهها مما أغضبه. تحولت الإيماءة إلى ضربة أوقعتها على الأرض.

وقف يلهث فيما زحفت وجثت مرة أخرى. عندما كان يحل حزام ردائه، رفعت رأسها. كان هناك دم على فمها ورأى أن شفتها السفلى كانت قد تورمت. أثاره ذلك المنظر.

سألت والدموع تلمع في عينيها: "لماذا تؤذيني؟ ماذا تريد غير ذلك؟".

قال وهو يبتسم: "القوة ضدك أيتها الصغيرة. ما الذي قد يريده أي رجل سوى ذلك؟ إنه شيء في دم كل واحد منا. سنكون جميعاً طغاة إذا استطعنا ذلك".

الفصل السابع عشر

أضحت مدينة ينكينغ الإمبراطورية هادئة قبل ساعات من بزوغ الفجر، على الرغم من أن ذلك كان بسبب الإسراف بتناول الطعام والشراب في مأدبة الفوانيس أكثر منه خوفاً من جيش المغول. عندما كانت الشمس تغيب، اعتلى الإمبراطور وي منصة لتراه الحشود المتدافعة، وكان ألف راقص قد أحدثوا جلبة بالصنجة والأبواق إحياءً لذكرى الموتى. كان قد وقف عاري القدمين، مظهراً تواضعه أمام شعبه بينما كان مليون صوت ينشد "عشرة آلاف سنة! عشرة آلاف سنة!" بصوت يهز المدينة. لم يكن هناك ليل في مأدبة الفوانيس. كانت المدينة تلمع مثل جوهرة، وآلاف الشعلات تضيء الساحات. حتى البحيرات الكبيرة الثلاث كانت تتوهج، وسطوحها السوداء مغطاة بقوارب صغيرة يحمل كل منها شعلة. كانت بوابة المياه مفتوحة على القناة الكبيرة التي تمتد ثلاثة آلاف لي وصولاً إلى مدينة هانغزهو الجنوبية، وكانت القوارب تطفو مثل نهر من النار عبر الليل، تنقل الضوء معها. أسعدت هذه الرمزية الإمبراطور الشاب بينما كان يتحمل الضوضاء والدخان من الألعاب النارية التي دوّت أصواتها وتردد صداها من الأسوار العظيمة. كان هناك الكثير منها لدرجة أن المدينة أضحت مغطاة بدخان البارود الأبيض، وأصبح الهواء نفسه مراً على اللسان. كان سيتم البدء بإنجاب أطفال تلك الليلة، بالقوة أو من أجل المتعة. سيكون هناك أكثر من مئة جريمة وستتلقى البحيرات نفسها اثني عشر سكيراً في أعماقها الداكنة في أثناء محاولتهم عبورها سباحة. كان الأمر نفسه يتكرر كل سنة.

كان الإمبراطور قد تحمّل أناشيد الإعجاب به، وتأثر من ضجيج المناداة باسمه من الأسوار وما خلفها. حتى المتسولون، والعبيد، والغانيات هتفوا له في تلك الليلة، وأناروا بيوتهم الآيلة للسقوط بالزيت الثمين. تحمّل ذلك كله، على الرغم من أن نظرته فوق رؤوسهم كانت أحياناً بعيدة وباردة بينما كان يخطط

لسحق الجيش الذي تجرأ على دخول أراضيه.

لم يكن الفلاحون يعرفون شيئاً عن الخطر وحتى معلومات باعة الأنباء كانت شحيحة. كان الإمبراطور وي قد سعى إلى إسكات ناقلي الإشاعات، وإن كان اعتقالهم قد أزعج أولئك الذين يبحثون عن مثل تلك الإشارات، إلا أن الاحتفال مضى قدماً بكل مظاهره المعتادة، مليئاً بالشراب، والضجيج، والضوء. عندما رأى المعربدين، تذكر الإمبراطور الديدان التي تتجمع على جثة. كان سعاته الإمبراطوريون قد عادوا بتقارير كئيبة. خلف الجبال، كانت المدن تشتعل لهيباً.

بينما كان الفجر يضيء الأفق، اختفى الصياح والغناء في الشوارع أخيراً، مما جعله يشعر بالسكينة. كان آخر القوارب الخشبية الصغيرة المُنارة قد اختفى إلى الأرياف ولم يعد أي صوت مسموعاً سوى بعض المفرقعات النارية التي تدوي من بعيد. جلس الإمبراطور وي في جناحه الخاص وحدّق إلى وسط بحيرة سونغي الساكن الداكن، المحاطة بمئات البيوت الكبيرة. كان أقوى نبلائه ينتشرون حول تلك البقعة المركزية الداكنة من المياه، تحت نظر الرجل الذي يستمدون قوتهم منه. كان يعرف اسم كل عضو من العائلات النبيلة التي تقاتلت وتنازعت مثل دبابير لإدارة مملكته الشمالية.

اختفى دخان وفوضى الاحتفال مع ضباب الصباح فوق البحيرات. مع مثل منظر الجمال العتيق ذاك، كان من الصعب استيعاب الخطر القادم من الغرب. على الرغم من ذلك، كانت الحرب قادمة وتمنّى لو أن والده كان لا يزال حياً. كان الرجل العجوز قد أمضى حياته يسحق أدنى إشارة على العصيان ضمن حدود الإمبراطورية وخارجها. كان الإمبراطور وي قد تعلم الكثير منه، لكنه شعر بوطأة موقفه الجديد. كان قد خسر آنذاك مدناً كانت جزءاً من أراضي تشن منذ الانفصال الكبير الذي شطر الإمبراطورية إلى قسمين قبل ثلاثمئة سنة. كان أسلافه قد عرفوا عصراً ذهبياً، ولم يستطع سوى أن يحلم بإعادة الإمبراطورية إلى سابق مجدها.

ابتسم بسخرية من فكرة أن والده لو كان قد سمع عن الحشد المغولي على أراضي العائلة، لثار غاضباً في أروقة القصر، وضرب العبيد لإبعادهم عن طريقه، ودعا الجيش للتأهب. لم يكن والده قد خسر معركة من قبل وكانت ثقته بنفسه ترفع من معنويات الجميع.

تنبّه الإمبراطور وي من أفكاره عندما تنحنح أحدهم بلطف خلفه. نظر إلى الخلف من النافذة العالية ليرى وزيره الأول ينحني إلى الأرض.

"جلالة الإمبراطور، القائد زهي زهونغ هنا كما طلبت".

ردّ الإمبراطور وهو يستدير مبتعداً عن منظر الفجر معدلاً جلسته: "دعه يدخل ليرى أنني لست منزعجاً". جال ببصره في جناحه الخاص، ورأى أن كل شيء في مكانه كالمعتاد. كانت طاولة الكتابة الخاصة به خالية من كومة الخرائط والأوراق ولم يكن هناك دليل على غضبه بينما كان ينتظر الرجل الذي سيخلصه من القبائل. لم يسعه سوى التفكير بملك كزي كزيا والرسالة التي بعثها إليه قبل ثلاث سنوات. خجلاً، تذكر سوء كلماته والسعادة التي كان قد شعر بها عندما أرسلها. من كان يعرف حينها أن الخطر المغولي أكثر من بعض رجال قبائل يطلقون الصرخات؟ لم يكن شعبه قد شعر بالخوف أبداً من أولئك الذين يمكن التخفيف من أعدادهم كلما تسببوا بمشكلات. عض الإمبراطور وي شفته من الداخل بينما كان يفكر بالمستقبل. إذا لم يكن ممكناً التغلب عليهم بسهولة، سيكون عليه تقديم رشوة للتتار لمهاجمة أعدائهم القدامى. يمكن لذهب تشن تحقيق النصر في المعارك مثل الأقواس والرماح. تذكر كلمات والده بولع شديد، وتمنّى مرة أخرى لو أنه كان موجوداً ليقدم نصائحه.

كان القائد زهي زهونغ رجلاً ضخم الجسد، وله بنية مصارع. كان رأسه حليقاً تماماً ويلمع من الزيت عندما انحنى. شعر الإمبراطور وي بأنه يعدّل جلسته تلقائياً لدى دخوله، وكانت تلك تركة ساعات عديدة في أرض التدريب. كان يبعث على الاطمئنان رؤية تلك النظرة الحادة والرأس الضخم مرة أخرى، فقد

كانت تجعله يرتعش عندما كان فتى صغيراً.

عندما نهض زهي زهونغ، رأى الملك أنه يبدو فتّاكاً، وشعر مرة أخرى بأنه فتى صغير. كافح للحفاظ على صوته ثابتاً عندما تكلم. لم يكن ينبغي بالإمبراطور أن يبدو ضعيفاً.

"إنهم قادمون إلى هنا أيها القائد. لقد سمعت التقارير".

تفحص زهي زهونغ الشاب الرقيق الوجه الذي يواجهه، متمنياً أن يكون الأب موجوداً. سيكون الرجل العجوز قد تصرف بحلول ذلك الوقت، لكن عجلة الحياة كانت قد أخذته وكان ذلك هو الفتى الذي ينبغي أن يتعامل معه. شدّ القائد كلتا قبضتيه إلى جانبيه، وهو يقف مشدوداً بشكل آلمه.

"لم يعد لديهم أكثر من خمسة وستين ألف محارب يا جلالة الإمبراطور. فرسانهم رائعون ويتمتع كل واحد منهم بمهارة استثنائية في الرماية. إضافة إلى ذلك، تعلموا فن الحصار ولديهم أسلحة قوية للغاية. لقد حققوا انضباطاً لم أعرفه في تعاملاتي معهم من قبل".

قال الإمبراطور الشاب بحدّة: "لا تخبرني عن نقاط قوتهم! قل لي بدلاً من ذلك عن الطريقة التي سنسحقهم بها".

لم ينفعل زهي زهونغ من نبرة الصوت. كان صمته انتقاداً كافياً، ولوّح له الإمبراطور ليتابع كلامه، وقد صبغت الحمرة وجنتيه الشاحبتين.

"لنهزم العدو، ينبغي أن نعرفه يا مولاي ابن السماء". قال اللقب مشدداً عليه لتذكير الإمبراطور بمكانته وقت الأزمة. انتظر القائد زهي زهونغ حتى شدّ الإمبراطور فمه وسيطر على خوفه.

"كنا في الماضي نبحث عن نقاط ضعف في تحالفهم. لا أعتقد أن هذا التكتيك سيجدي نفعاً هنا".

قال وي من دون تفكير: "لماذا؟". ألن يخبره الرجل عن الطريقة التي سيهزم بها رجال القبائل هؤلاء؟ كفتى، كان قد تحمّل العديد من المحاضرات من القائد

الأشيب، وبدا ألا مفر له منها حتى مع وجود إمبراطورية عند قدميه.

"لم تتجاوز قوة مغولية السور الخارجي من قبل، يا جلالة الإمبراطور. لا يمكنهم سوى الصراخ أمامه". هزّ كتفيه استخفافاً. "لم يعد الفاصل المنيع الذي كان عليه ذات مرة، ولم يعد هؤلاء المغول يخافون من قوتنا المتفوقة كما كانوا من قبل. لقد أصبحوا أكثر شجاعة نتيجة لذلك". توقف قليلاً، لكن إمبراطوره لم يتكلم مجدداً. فقدت نظرة القائد بعضاً من قوتها. ربما كان الفتى قد بدأ يفهم متى يبقي فمه مغلقاً.

"لقد عذّبنا مستطلعيهم، يا جلالة الإمبراطور. أكثر من اثني عشر شخصاً في الأيام القليلة الماضية. خسرنا رجالاً لإحضارهم أحياء، لكن الأمر كان يستحق المحاولة لمعرفة العدو". تقطب حاجبا القائد عندما تذكر ذلك.

"إنهم موحدون. لا أعرف إن كان عقد التحالف سينفرط بمرور الوقت، لكنهم أقوياء هذه السنة على الأقل. لديهم مهندسون، وهو شيء كنت أعتقد أنني لن أراه أبداً. إضافة إلى ذلك، لديهم ثروة كزي كزيا خلفهم". توقف القائد، ووجهه ينقط سماً من حليفهم السابق.

"سأستمتع بقيادة الجيش إلى وادي كزي كزيا يا جلالة الإمبراطور، عندما ينتهي هذا".

قال الإمبراطور وي بسرعة وقد بدأ صبره ينفد: "المستطلعون أيها القائد".

تابع القائد الكلام: "إنهم يتكلمون عن جنكيز هذا كأنه شيء عظيم. لم أجد دليلاً على مجموعة ناقمة بينهم، على الرغم من أنني لن أتوقف عن البحث. لقد فرّقناهم من قبل بقطع وعود لهم بالسلطة والثروة".

قال الإمبراطور وي بحدّة: "قل لي كيف ستهزمهم أيها القائد، أو سأجد شخصاً يستطيع ذلك".

عند ذلك، أصبح فم زهي زهونغ خطاً حاداً في وجهه.

قال: "بعد تدمير السور الخارجي، لا يمكننا الدفاع عن المدن حول النهر

الأصفر يا مولاي. الأرض منبسطة تماماً وتمنحهم أفضلية كبيرة. ينبغي بجلالة الإمبراطور أن يجهّز نفسه لخسارة تلك المدن عندما نسحب الرجال إلى الخلف".

هزّ الإمبراطور وي رأسه محبطاً، لكن القائد ضغط عليه.

"ينبغي ألا نسمح لهم باختيار المعارك. سوف تسقط لنهي كما سقطت كزامبا ووايان. باوتو، وجينينغ، وكزيشنغ كلها على طريقهم. لا يمكننا إنقاذ تلك المدن، وإنما الثأر لها فقط".

نهض الإمبراطور وي على قدميه غاضباً. "سيتم قطع الطرقات التجارية وسيعرف أعداؤنا أننا ضعفاء! طلبتك لتخبرني كيف أنقذ الأراضي التي ورثتها، وليس لتراقبها تحترق معي".

قال زهي زهونغ بحزم: "لا يمكن إيقافهم يا جلالة الإمبراطور. سأحزن أنا أيضاً على الموتى عندما ينتهي الأمر. سوف أسافر إلى كل واحدة من تلك المدن وأنثر الرماد على جلدي وأقدم عروضاً للتعويض على سكانها. لكنها سوف تسقط. كنت قد أصدرت أوامر بسحب جنودنا من تلك الأماكن. سيخدمون جلالة الإمبراطور بشكل أفضل هنا".

كان الإمبراطور الشاب واجماً، ويده اليمنى ترتعش عند حافة ردائه. بإرادة كبيرة، ثبّت نفسه.

"تكلم بحرص معي أيها القائد. أريد نصراً، وإذا أخبرتني مرة أخرى أنه ينبغي بي التخلي عن أراضي والدي، سأقطع رأسك الآن".

نظر القائد في عيني الإمبراطور الغاضبتين. لم يكن هناك إشارة على الضعف الذي كان قد رآه من قبل. للحظة، تذكر والد الفتى وأسعدته الفكرة. ربما ستدفع الحرب الدماء في العروق بشكل لم يكن ممكناً من قبل.

"يمكنني جمع حوالى مئتي ألف جندي لمواجهتهم يا جلالة الإمبراطور. ستكون هناك مجاعة نتيجة تحويل الإمدادات إلى الجيش، لكن الحرس

الإمبراطوري سيحافظ على النظام في ينكينغ. سيكون موقع المعركة من اختياري، حيث لا يستطيع المغول الإغارة علينا. أقسم لابن السماء إنني سأدمرهم عن بكرة أبيهم. كنت قد درّبت العديد من الضباط وأقول لجلالتكم إنهم لن يفشلوا".

رفع الإمبراطور يداً إلى عبد ينتظر وقَبِل كأساً من الماء البارد. لم يقدم مشروباً للقائد، ولم يفكر في الأمر، على الرغم من أن الرجل كان بعمر يفوقه ثلاث مرات وكان الصباح دافئاً. كان الماء من نبع جايد للعائلة الإمبراطورية وحدها.

قال ممتناً، وهو يرتشف الماء: "هذا ما أردت سماعه. أين ستقع المعركة؟".

"عندما تسقط آخر المدن، سيتحركون نحو ينكينغ. سيعرفون أنها المدينة التي يقيم فيها الإمبراطور وسيأتون إلينا. سأوقفهم في سلسلة من الجبال إلى الغرب، عند ممر يوهنغ الذي يدعى "فم الغرير". إنه ضيق بما يكفي ليعيق جيادهم وسنقتلهم جميعاً. لن يصلوا إلى المدينة. أقسم على ذلك".

قال الإمبراطور واثقاً: "لا يمكنهم الاستيلاء على ينكينغ، حتى إذا فشلت". نظر إليه القائد زهي زهونغ، متسائلاً إن كان الشاب قد غادر مرة المدينة التي ولد فيها. تنحنح القائد بلطف.

"هذا غير ممكن. سأدمّرهم هناك، وعندما يمر الشتاء، سأذهب إلى وطنهم وأمحوهم عن وجه الأرض. لن يتمتعوا بالقوة مجدداً".

شعر الإمبراطور بمعنوياته ترتفع لدى سماعه كلمات القائد. لن يكون مضطراً للوقوف مكللاً بالعار أمام والده في أرض مليئة بالموتى. لن يكون مضطراً للتعويض عن الفشل. للحظة، فكّر مجدداً في المدن التي سيستولي عليها المغول، وتراءت له الدماء وألسنة اللهب. لكنه أبعدها عن ذهنه، وشرب رشفة أخرى من الماء. سيعيد بناءها. عندما يتم تمزيق آخر رجال القبائل إرباً، أو تثبيتهم بالمسامير إلى كل شجرة في الإمبراطورية، سيعيد بناء تلك المدن وسيعرف الناس أن إمبراطورهم لا يزال قوياً، ومحبوباً من السماء.

قال الإمبراطور بصوت أضحى لطيفاً نتيجة تغير مزاجه: "قال والدي إنك مطرقة على أعدائه". مدّ يده وأمسك بكتف زهي زهونغ المغطّى بالدرع. "تذكر المدن التي سقطت عندما تسنح لك الفرصة لتجعلهم يعانون الأمرّين. باسمي، ليكن العقاب شديداً".

رد زهي زهونغ وهو يحني رأسه: "سيكون الأمر كما يشاء جلالة الإمبراطور".

مشى هو سا عبر المعسكر الشاسع، مستغرقاً في أفكاره. طيلة حوالى ثلاث سنوات، كان ملكه قد تركه مع الخان المغولي وكانت هناك أوقات كافح فيها ليتذكر ضابط كزي كزيا الذي كان عليه ذات مرة. كان جزء من السبب في ذلك أن المغول قبلوه من دون سؤال. بدا أن خاسار يحبه وكان هو سا قد أمضى أمسيات عديدة يتناول الشراب الأسود في خيمة الرجل، وتقوم على خدمتهما زوجتا خاسار من تشن. ابتسم بغرابة بينما كان يمشي. لقد كانت أمسيات جيدة. كان خاسار رجلاً كريماً ولم يكن يمانع أبداً بتقديم زوجاته لصديق.

توقف هو سا لحظة لتفقّد مجموعة من السهام الجديدة، وكانت واحدة من مئة أخرى يتم صنعها من الجلد والخشب. كانت ممتازة، كما كان يتوقعها. على الرغم من أن المغول كانوا يزدرون الأنظمة التي كان يعرفها، إلا أنهم كانوا يعاملون أقواسهم مثل ولد آخر لهم ووحدها الجيدة منها كانت تفي بالغرض.

كان قد أدرك منذ وقت طويل أنه يحب القبائل، على الرغم من أنه كان لا يزال يشتاق إلى شاي بيته، المختلف جداً عن الشراب اللاذع الطعم الذي يشربونه ليقيهم البرد. البرد! لم يكن هو سا قد عرف أبداً مثل ذلك الموسم القاسي الذي مرّ عليه في الشتاء الأول. كان قد أرهف السمع لكل النصائح التي أسدوها له فقط ليبقى على قيد الحياة، وعلى الرغم من ذلك، كان قد عانى الأمرّين. هزّ رأسه عندما تذكر الأمر وتساءل عما سيفعله إذا استدعاه الملك إلى الوطن كما سيفعل بالتأكيد يوماً ما. هل سيذهب؟ كان جنكيز قد جعله قائد مئة تحت قيادة خاسار وكان هو سا يستمتع بصحبة الضباط. كان واثقاً أن كل

واحد منهم يستطيع تولي القيادة في كزي كزيا. لم يكن جنكيز يسمح بارتقاء الحمقى سلم القيادة، وكان ذلك مدعاة فخر لهو سا. كان قد ضمن أعظم جيش في العالم، كمحارب وقائد. لم يكن ذلك شيئاً يسيراً بالنسبة لرجل، أن يكون موضع ثقة.

كانت خيمة زوجة الخان الثانية مختلفة عن كل الخيم الأخرى في المعسكر الشاسع. كان حرير تشن يزين الجدران، وعندما دخل هو سا، تفاجأ مرة أخرى من رائحة الياسمين. لم تكن لديه فكرة كيف استطاعت تشاكاهي الحصول على كمية منه، لكن في السنوات التي قضتها بعيداً عن وطنها، لم تكن كسولة. كان يعرف أن زوجات أخريات من كزي كزيا وتشن يلتقين في خيمتها بانتظام. عندما منع أحد الرجال زوجته عن ذلك، تجرأت تشاكاهي على إيصال المشكلة إلى جنكيز. لم يفعل الخان شيئاً، لكن الزوجة من تشن أضحت حرة في زيارة أميرة كزي كزيا بعد ذلك. لم يتطلب الأمر سوى كلمة واحدة في سياقها الصحيح.

ابتسم هو سا عندما أحنى رأسه لها، ولم يعترض عندما وضعت فتاتان من تشن يديهما على كتفيه ونزعتا عنه رداءه الخارجي. كان حتى ذلك شيئاً جديداً. كان المغول يرتدون ملابس فقط لتقيهم البرد ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن آداب اللياقة.

قالت تشاكاهي وهي تنحني بالمقابل: "أهلاً بك في بيتي يا ابن بلدي. كان لطفاً منك أن تأتي". كانت تتكلم بلغة تشن، على الرغم من أن اللهجة كانت تلك السائدة في وطنه. تنهد هو سا عندما سمع النبرة، وعرف أنها فعلت ذلك لإسعاده.

ردّ: "أنت ابنة ملكي، زوجة خاني. أنا خادمك".

قالت: "ذلك جيد يا هو سا، لكننا صديقان أيضاً، على ما آمل؟".

خفض هو سا رأسه مجدداً، أكثر من السابق. عندما رفعه، قَبِل كوباً من الشاي الأخضر الداكن وتنشّق الرائحة بإعجاب.

"نحن كذلك بالطبع، لكن ما هذا؟ لم يسبق أن شممت...". سحب نفساً عميقاً آخر، وسمح للرائحة الدافئة بالدخول إلى رئتيه. كان مشتاقاً لوطنه عندها وقد جعلته المشاعر القوية يترنح عندما وقف.

"يرسل والدي القليل منه مع جزيته كل سنة يا هو سا. لقد تركته القبائل يذبل على الرغم من أنه من آخر كمية".

جلس هو سا بحرص، يهزّ الكوب فيما يرتشف الشاي.

"لطف كبير منك أن تتذكريني". لم يضغط عليها كثيراً، لكنه لم يكن يعرف لماذا استدعته في ذلك اليوم. كان يعرف أن أحدهما لا يستطيع قضاء الكثير من الوقت بصحبة الآخر. على الرغم من أنه كان من الطبيعي أن يهتم شخصان من كزي كزيا بعضهما ببعض، إلا أن أي رجل لا يمكنه زيارة زوجة خان من دون سبب. خلال سنتين، لم يكونا قد التقيا سوى ست مرات فقط.

قبل أن تتمكن من الرد، دخل رجل آخر. شبك ياو شو يديه معاً وانحنى لسيدة الخيمة. راقب هو سا بمتعة بينما كان الراهب يحصل أيضاً على كوب من الشاي الحقيقي وأطلق تنهيدة ارتياح عندما شمّ الرائحة. تقطب حاجبا هو سا فقط عندما أنهى ياو شو تحيته. إن كان لقاء زوجة خان في خلوة أمراً خطيراً، كان اتهام المرء بالتآمر أمراً أكثر خطورة. ازداد قلقه عندما انحنت الجاريتان وتركتا الثلاثة وحدهم. بدأ هو سا يقف على قدميه، وقد نسي الشاي.

وضعت تشاكاهي يداً على ذراعه ولم يكن يستطيع التحرك من دون إبعادها عنه. جلس غير مرتاح ونظرت في عينيه. كانت عيناها واسعتين وداكنتين تبرزان من جلدها الشاحب. كانت جميلة ولا يوجد دلائل على دهن الضأن الكريه الرائحة حولها. لم يستطع كبت ارتعاش خفيف يسري في ظهره من لمسة الأصابع الباردة على جلده.

"لقد طلبت منك المجيء إلى هنا يا هو سا. أنت ضيفي. سيكون في الأمر إهانة إذا غادرت الآن، أليس كذلك؟ قل لي، لم أفهم بعد آداب أهل الخيم". كان

ذلك توبيخاً وكذبة أيضاً. كانت تفهم الحالة المغولية تماماً. ذكّر هو سا نفسه أن هذه المرأة قد ترعرعت كواحدة فقط من عدّة بنات لملكه. على الرغم من جمالها، إلا أنها لم تكن غافلة عن علاقات البلاط. استرخى في مكانه وأرغم نفسه على ارتشاف الشاي.

قالت بلطف جعل قلقه يتعمّق: "لا يوجد أحد يسمعنا هنا. تخاف المؤامرة يا هو سا، على الرغم من أنه ليس هناك شيء من هذا القبيل. أنا الزوجة الثانية للخان، أم لابن وابنته الوحيدة. أنت ضابط موثوق به وقد علّم ياو شو أبناء زوجي الآخرين اللغة والمهارات الحربية. لن يجرؤ أحد على الهمس بشأن أي منا. إذا فعلوا ذلك، سأقطع ألسنتهم".

حدّق هو سا إلى الفتاة الرقيقة التي يمكنها إطلاق مثل ذلك التهديد. لم يكن يعرف إن كانت لديها القوة لتحقيق ذلك. كم عدد الأصدقاء الذين كسبتهم في هذا المعسكر بمكانتها؟ كم عدد عبيد تشن وكزي كزيا؟ كان ذلك ممكناً. أرغم نفسه على الابتسام، على الرغم من أنه كان بارداً من الداخل.

"حسناً إذاً، ها نحن ذا. ثلاثة أصدقاء، نشرب شاياً لذيذاً. سأنهي كوبي يا صاحبة الجلالة، ثم أغادر".

تنهدت تشاكاهي، واسترخت معالم وجهها. لدهشة كلا الرجلين، ظهرت الدموع في طرفي عينيها.

همست، وكان من الواضح أنها تكافح مع نفسها: "هل ينبغي أن أبقى وحيدة دائماً. هل أنا موضع شبهة حتى منكما؟". لم يكن هو سا ليمدّ يده أبداً ويلمس عضواً من عائلة كزي كزيا الملكية، لكن ياو شو لم يكن لديه مثل ذلك الوازع. وضع الراهب ذراعاً حول كتفها وتركها تريح رأسها على صدره.

قال هو سا بلطف: "لست وحيدة. تفهمين أن والدك قد منح خدماتي لزوجك. للحظة، فكّرت ربما أنك تتآمرين عليه. لماذا أرسلت في طلبنا وأبعدت فتاتيك إن لم يكن لذلك الأمر؟".

استقامت أميرة كزي كزيا في جلستها، وأعادت جديلة من الشعر إلى مكانها. ابتلع هو سا ريقه بصعوبة من جمالها.

قالت: "أنت الرجل الوحيد من قومي في هذا المعسكر. ياو شو الرجل الوحيد من تشن والذي ليس بجندي". بدا أنها قد نسيت دموعها وأضحى صوتها أقوى عندما تابعت الكلام: "لن أخون زوجي يا هو سا، ليس من أجلك أو من أجل ألف مثلك. لكنْ، لدي ولدان والنساء هن اللواتي يفكّرن بالسنوات التي ستأتي. هل سنجلس نحن الثلاثة ونرى إمبراطورية تشن تشتعل بألسنة اللهب؟ هل سنرى تمزيق حضارة من دون أن نقول شيئاً؟". استدارت إلى ياو شو الذي كان يصغي باهتمام. "أين ستكون بوذيتك عندها يا صديقي؟ هل ستراها تتحطم تحت حوافر هذه القبائل؟".

تكلم ياو شو للمرة الأولى عندما سمع ذلك، وبدا منزعجاً. "إذا كانت معتقداتي قابلة للحرق يا سيدتي، لن أثق بها، أو أعيش من أجلها. ستنجو من هذه الحرب مع تشن، حتى إذا لم ينجُ أبناء تشن أنفسهم. يكافح الرجال ليكونوا أباطرة وملوكاً، لكنهم مجرد أسماء. لا يهم اللقب الذي يحمله الإنسان. ستبقى الحقول بحاجة للعمل فيها. ستبقى البلدات مليئة بالرذيلة والفساد". هزّ كتفيه غير مبالٍ. "لا أحد يعرف إلى أين سيأخذنا المستقبل. لم يعترض زوجك على تدريب أبنائه على يدي. ربما ستجد كلمات بوذا جذوراً في أحدهم، لكن الأحمق هو من يتطلع إلى أبعد مما ينبغي".

قال هو سا بهدوء: "إنه محق يا صاحبة الجلالة. لقد تكلمت نتيجة الخوف والوحدة، وأنا أفهم ذلك الآن. لم أكن قد فكرت بمدى صعوبة هذا الأمر عليك". سحب نفساً عميقاً، وكان يعرف أنه يلعب بالنار، لكن جمالها سحره. "أنا صديقك كما قلت".

ابتسمت تشاكاهي عندها، وعيناها تلمعان بدموع جديدة. مدّت يديها، وأمسك كل منهما بواحدة، وشعرا ببرودة أناملها بين أصابعهما.

قالت: "ربما كنت خائفة. لقد تخيلت مدينة أبي تحترق وانفطر قلبي على إمبراطور تشن وعائلته. هل تعتقدان أنهم سينجون من هذا؟".

رد ياو شو قبل أن يتكلم هو سا: "كل الناس يموتون. حياتنا ليست أكثر من طائر يحلق عبر نافذة من الضوء، ويصل مجدداً إلى الظلام. ما يهم هو ألا نتسبب بأي ألم. لنحيا حياة طيبة ينبغي أن ندافع عن الضعيف، وعندما نفعل ذلك، نكون قد أضأنا مصباحاً في الظلام سيدوم عدة أجيال قادمة".

ألقى هو سا نظرة خاطفة على الراهب الجليل، ولاحظ كيف أن رأسه الحليق يلمع. لم يكن يوافق على كلماته وكاد يهزّ كتفيه استخفافاً من فكرة مثل تلك الحياة الجادّة الخالية من المرح. كان يفضل فلسفة خاسار الأبسط بأن أب السماء لن يمنحه القوة ليضيعها. إذا كان رجل يستطيع شهر سيفه، ينبغي أن يستعمله ولن يكون هناك خصوم أفضل من الضعفاء. إنهم على الأرجح لن يصيبوك بجرح قاتل عندما لا تكون منتبهاً لهم. لم يقل شيئاً من ذلك بصوت عال وكان سعيداً لرؤية تشاكاهي تسترخي وأومأ إلى الراهب.

"أنت رجل طيب يا ياو شو. لقد شعرت بذلك. سيتعلم أبناء زوجي الكثير منك، أنا واثقة من ذلك. ربما يوماً ما، ستكون لديهم قلوب بوذية".

نهضت فجأة عندها، وكادت تجعل هو سا يريق تفل الشاي البارد الذي يحمله. وضع الكوب إلى جانبه وانحنى لها مرة أخرى، ممتناً لأن الاجتماع الغريب كان يقترب من نهايته.

قالت تشاكاهي بلطف: "نحن من حضارة قديمة. أعتقد أننا نستطيع التأثير في حضارة جديدة، في أثناء نهضتها. إذا كنا حريصين، سيكون الأمر مفيداً لنا جميعاً".

طرفت عينا هو سا على أميرة قومه، قبل أن يؤدي آداب المجاملة التي أعادته إلى الهواء الخارجي، ويا شو بجانبه. حدّق كلا الرجلين بعضهما إلى بعض لحظة قبل أن يتخذا سبيلين مختلفين في المعسكر.

الفصل الثامن عشر

كان الهدوء والنظام المعتادان في الثكنات الإمبراطورية في باوتو مفقوداً بينما كان الجنود يضعون معدّاتهم على العربات. كانت الأوامر من ينكينغ قد جاءت في الليل، ولم يُضِع القائد لوجان أي وقت. لم يكن ينبغي ترك أي شيء ذي قيمة للمغول، وكان عليهم تدمير كل ما لا يمكنهم حمله. كان لديه آنذاك رجال يستعملون المطارق، يدمرون مخازن السهام والرماح بكفاءة منهجية.

كان إخلاء المدينة صعباً، ولم يكن لوجان قد نام منذ تلقى الأمر. كان الجنود الذين يحمون باوتو من قطّاع الطرقات والجمعيات السرية الإجرامية موجودين في المدينة منذ حوالى أربع سنوات. كان للعديد منهم عائلات هناك، وكان لوجان قد سعى عبثاً للحصول على إذن بإخراجهم معهم.

كانت رسالة القائد زهي زهونغ قد جاءت مع مراسل إمبراطوري، والأختام صحيحة. كان لوجان يعرف أنه يخاطر بخفض رتبته أو أسوأ من ذلك بالسماح للرجال الذين لديهم زوجات وأولاد تجميع عائلاتهم، لكنه لم يستطع تركهم للعدو. رأى مجموعة أخرى من الفتية تجلس في عربة وتنظر حولها بعيون خائفة. كانت باوتو كل ما يعرفونه، وفي ليلة واحدة، طُلب منهم ترك كل شيء والتحرك بسرعة إلى أقرب حصن.

تنهد لوجان لنفسه. مع وجود الكثير من الناس، كان الحفاظ على السر مستحيلاً. لا شك أن الزوجات كن قد حذّرن صديقاتهن، وقد انتشرت الأنباء مثل النار في الهشيم تلك الليلة. ربما لهذا السبب لم تتضمن الأوامر القيام بإخلاء عائلات رجاله.

خارج بوابات الثكنات، كان يسمع أصوات الحشد المتجمّع. هزّ رأسه من دون وعي منه. لم يكن بمقدوره إنقاذهم جميعاً ولن يعصوا أوامره. شعر بالخجل من ارتياحه لأنه لم يكن مضطراً للبقاء في درب الجيش المغولي وحاول

ألا يسمع الأصوات التي تنادي بارتباك ورعب في الشوارع.

كانت الشمس قد أشرقت، وخشي آنذاك أن يكون قد تأخر كثيراً. لو أنه لم يرسل بطلب عائلات الجنود، لكان استطاع الخروج خلسة من المدينة في الليل. كما هي عليه الحال آنذاك، سوف يمرون عبر حشد معادٍ في وضح النهار. أكّد لنفسه أنه سيكون قاسياً بعد أن تم اتخاذ القرار. ستكون هناك إراقة للدماء إذا ازداد غضب المواطنين، وربما يقع قتال للوصول إلى بوابة النهر، التي تبعد أربعمئة خطوة عن الثكنات. لم تكن تبدو بعيدة جداً في اليوم السابق. تمنّى أن يظهر حل آخر، لكن دربه كان محدداً وسرعان ما سيحين وقت الرحيل.

تخطّاه اثنان من رجاله يحملان رسالتين شفهيتين. لم يوجه أي منهما التحية لقائده وشعر لوجان بغضبهما. لا شك أنهما كانا رجلين يحتفظان بغانيات أو لديهما أصدقاء في المدينة. كانوا جميعاً كذلك. سيكون هناك أعمال شغب عندما يرحلون، وستفلت العصابات من عقالها في الشوارع. كان بعض المجرمين مثل كلاب مسعورة، ونادراً ما يخيفهم التهديد بالقوة. مع رحيل الجنود، سيظفرون بكل ما يستطيعون حتى يصل العدو ليحرقهم جميعاً.

جعلت تلك الفكرة لوجان يشعر ببعض الرضا، على الرغم من أنه كان لا يزال خجلاً من نفسه. حاول تنقيه ذهنه، والتركيز على مشكلة إخراج أرتال الجنود والعربات من المدينة. كان قد وضع رماة سهام على طول الصف، مع أوامر للتسديد على الحشد إذا تعرضوا للهجوم. إذا فشل ذلك، ستحجز الرماح الرعاع وقتاً كافياً حتى يرحلوا عن باوتو، وكان واثقاً تقريباً من ذلك. بأي حال، سيكون الأمر قاسياً ولم يكن يستطيع الزهو بأنه من خطط لذلك.

جاء جندي آخر يجري وعرف لوجان أنه أحد أولئك الذين كانوا يتمركزون عند بوابة الثكنة. هل بدأت أعمال الشغب آنذاك؟

"سيدي، هناك رجل يرغب بالتكلم معك. طلبت منه الذهاب إلى البيت، لكنه أعطاني هذا الرمز وقال إنك ستراه".

نظر لوجان إلى القطعة الصغيرة من المحارة الزرقاء التي تحمل علامة شن يي الشخصية. فزع مما رآه. لم يكن يرغب بعقد اللقاء، لكن العربات كانت مستعدة تقريباً وقد شكّل الرجال أرتالاً أمام البوابة. ربما بسبب شعوره بالذنب، أومأ برأسه موافقاً.

"اجعله يدخل من الباب الصغير وتأكد من عدم دخول أحد معه". انطلق الجندي مبتعداً ووجد لوجان نفسه وحيداً مع أفكاره. سيموت شن يي مع الباقين ولن يعلم أحد أبداً بالترتيبات التي كانت بينهما طيلة سنوات. كان ذلك مفيداً لكليهما، لكن لوجان لن يكون نادماً على التحرر من نفوذ الرجل القصير. حاول إبعاد الإرهاق الذي كان قد حل به عندما عاد الجندي مع قائد الجمعية السرية الزرقاء.

شرع لوجان بالكلام بعد أن جرى الجندي عائداً إلى مكانه في الصف: "لا يمكنني فعل شيء لك يا شن يي. تقضي أوامري بالانسحاب من باوتو والانضمام إلى تجمع الجيش أمام ينكينغ. لا يمكنني مساعدتك".

حدّق شن يي إليه ورأى لوجان أنه كان مسلحاً بسيف على ردفه. كان ينبغي تجريده منه عند عتبة البوابة الرئيسية، لكن لم تكن أي من الأنظمة موضع تطبيق ذلك اليوم.

قال شن يي: "كنت أعتقد أنك ستكذب عليّ، وتقول لي إنك ستشارك في مناورات أو تدريب. لم أكن لأصدّقك بالطبع".

قال لوجان وهو يهزّ كتفيه استخفافاً: "كنت بين أول من سيسمع بذلك الليلة الماضية. ينبغي أن أتقيد بأوامري".

قال شن يي: "هل ستدع باوتو تحترق؟ بعد سنوات طويلة من إخبارنا أنكم حماة، ستهربون عند ظهور أول تهديد حقيقي؟".

شعر لوجان بأنه يشتعل غضباً.

"أنا جندي يا شن يي. عندما يأمرني قادتي بالتحرك، أتحرك. أنا آسف".

كان وجه شن يي أحمر، على الرغم من أن لوجان لم يعرف إن كان ذلك ناجماً عن الغضب أو الإجهاد من الجري إلى الثكنة. شعر بقوة نظرة الرجل واستطاع بالكاد الرد عليها بالمثل.

قال شن يي: "أرى أنك سمحت لرجالك باصطحاب زوجاتهم وأولادهم إلى برّ الأمان. لن تعاني زوجتك وأولادك عندما يصل المغول".

نظر لوجان بعيداً إلى الرتل. كانت هناك وجوه تستدير نحوه آنذاك، تنتظر كلمته لتبدأ المسير.

"لقد تجاوزت سلطتي حتى في ذلك يا صديقي".

أطلق شن يي زمجرة من حنجرته.

"لا تدعُ رجلاً بالصديق بينما تتركه ليلقى حتفه". كان غضبه واضحاً آنذاك ولم يستطع لوجان النظر في عينيه عندما تابع الكلام.

"ستدور العجلة يا لوجان. سيدفع أسيادك ثمن قسوتهم تماماً كما ستدفع ثمن هذا العار".

قال لوجان وهو يحدّق بعيداً: "ينبغي أن أغادر الآن. يمكنك إخلاء المدينة قبل وصول المغول. يمكن إنقاذ الكثيرين إذا أمرت بذلك".

"ربما سأفعل يا لوجان. بالمحصلة، لن تكون هناك سلطة أخرى في باوتو بعد أن ترحل". كان كلا الرجلين يعرفان أنه من المستحيل إخلاء السكان من باوتو. لم يكن جيش المغول بعيداً أكثر من مسيرة يومين. حتى إذا استطاعوا العثور على كل قارب واستعملوا النهر للهرب، لن تكون هناك أماكن كافية للجميع. سيتم ذبح سكان باوتو في أثناء هروبهم. تخيّل لوجان حقول الأرز تجري فيها الدماء، وأطلق زفيراً طويلاً. كان قد تأخر كثيراً آنذاك.

تمتم وهو ينظر في عيني شن يي: "حظاً طيباً". لم يفهم نظرة الانتصار التي رآها تلمع هناك وكاد يتكلم مجدداً قبل أن يقرر أن الامتناع أفضل. مشى بخطوات واسعة إلى مقدمة الرتل، حيث كان أحدهم يمسك بحصانه من أجله.

بينما كان شن يي يراقب ما يجري، تم فتح بوابات الثكنة وتسمّر أولئك في مقدمة الركب فيما أطبق الصمت على الحشد.

كانت الطرقات محاطة بالناس الذين ينظرون إلى ما يحدث. كانوا قد تركوا المسلك خالياً لجنود الإمبراطور وعرباتهم، لكن الوجوه كانت باردة تشي بالكراهية وأصدر لوجان أوامره بصوتٍ عالٍ حتى يكون رماته جاهزين، وسمع الحشد ذلك بينما كان يدفع جواده للخروج هرولة من المدينة. كان الصمت مرعباً وتوقع أن تنطلق الشتائم في أي لحظة. قبض رجاله على سيوفهم ورماحهم بعصبية، محاولين ألا ينتبهوا لوجوه الناس الذين يعرفونهم بينما كانوا يتركون الثكنة خلفهم. كان المشهد نفسه سيتكرر في الثكنات الأخرى وسيلتقون بالرتلين الثاني والثالث خارج المدينة قبل أن يتحركوا شرقاً إلى ينكينغ وممر بادغر. ستصبح باوتو حينها من دون حماية، للمرة الأولى في تاريخها.

راقب شن يي رتل الحرّاس يرحل، متجهاً نحو بوابة النهر. لم يكن لوجان يعرف أن الكثير من رجال شن يي في الحشد، وأنهم هناك للحفاظ على النظام ومنع مواطنين متهورين من إظهار امتعاضهم من الانسحاب. لم يكن يريد من لوجان تأخير رحيله، لكنه لم يستطع مقاومة رؤيته مكللاً بالعار قبل أن يغادر. كان لوجان صوتاً متعاطفاً في الحامية لسنوات طويلة، على الرغم من أنهما لم يكونا صديقين. كان شن يي يعرف أن الأوامر بالرحيل ستكون قاسية على الرجل وكان قد استمتع بكل لحظة من خزيه. كان الأمر يتطلب مقاومة كبيرة حتى لا يُظهر رضاه الداخلي. لن يكون هناك صوت منشق عندما يصل المغول، ولا جنود يتلقون أوامر بالقتال حتى النهاية. كانت خيانة الإمبراطور قد أسقطت باوتو في يدي شن يي في صبيحة يوم واحد.

تقطب حاجباه عبوساً عندما وصل رتل الجنود إلى بوابة النهر ومرّ لوجان تحت ظل منصات رماة السهام المهجورة. كان كل شيء يعتمد على شرف الشقيقين المغوليين اللذين ساعدهما. تمنّى أن يعرف حق المعرفة ما إذا كان

خاسار وتيموج موضع ثقة، أم أنه سيرى مدينته الغالية تتحول إلى أنقاض. راقب الحشد عند الثكنة الجنود المنسحبين بصمت مخيف، وتضرع شن يي بابتهال إلى أرواح أسلافه. تذكر تابعه المغولي كيشان، وتضرع بابتهال أخير إلى أب سماء ذلك الشعب الغريب، طالباً منه العون في الأيام القادمة.

منحنياً على حاجز خشبي لحظيرة ماعز، ابتسم جنكيز عندما رأى ابنه تشاغاتي وسمع هتاف الفتى يتردد في أنحاء المعسكر. كان قد منح الفتى الذي يبلغ من العمر عشر سنوات درعاً ذلك الصباح، مصنوعاً خصيصاً لجسده الصغير. كان تشاغاتي يافعاً جداً لينضم إلى المحاربين في معركة، لكنه كان سعيداً بالدرع، يقود فرسه الجديدة في أنحاء المعسكر ليراه الرجال الأكبر سناً. علت الابتسامات الوجوه عندما رأوه يلوح بقوسه ويتناوب على إطلاق صيحات الحرب والضحكات.

تمطّى جنكيز، مرر يداً على طول القماش السميك للخيمة البيضاء التي كان قد أمر بنصبها أمام أسوار باوتو. كانت مختلفة عن خيام شعبه حتى يتعرف عليها أولئك الموجودون داخل المدن ويتوسلون لقادتهم بأن يستسلموا. كانت أعلى بمرتين حتى من خيمته الكبيرة، ولم تكن مبنية بإحكام وتهتز مع الريح، وكانت جوانبها تعلو وتهبط مثل النفَس. كانت رايات من ذيول الخيل تقف على رماح طويلة على جانبيها وتهتز كما لو أنها حية.

ظهرت باوتو مغلقة أمامهم وتساءل جنكيز إن كان شقيقاه محقين في حكمهما على شن يي. كان المستطلعون قد عادوا بأنباء عن خروج رتل من الجنود من المدينة قبل يوم واحد فقط. كان بعض المحاربين الشباب قد قادوا جيادهم قريباً بما يكفي لتسجيل إصابات قاتلة بأقواسهم قبل أن يتراجعوا إلى الخلف. إن كانوا قد قدّروا الأعداد بشكل صحيح، لم يكن لدى المدينة جنود يدافعون عنها ووجد جنكيز أن مزاجه جيد. بطريقة أو بأخرى، ستسقط المدينة مثل الأخريات.

كان قد تكلم إلى بنّاء باوتو الذي أكّد له أن شن يي لن ينسى اتفاقهم. بقيت عائلة ليان داخل الأسوار التي كان قد ساعد على بنائها وكانت لديه أسباب عديدة لتستسلم المدينة سلمياً. رفع جنكيز بصره إلى الخيمة البيضاء. كان لديهم حتى مغيب الشمس ليستسلموا، وإلا سيرون الخيمة الحمراء في اليوم التالي. ولن تنقذهم أي اتفاقية حينها.

شعر جنكيز بعينين تنظران إليه واستدار ليرى ابنه البكر جوشي إلى الجانب الآخر من حظيرة الماعز. كان الفتى يراقبه بصمت، وعلى الرغم مما كان قد وعد بورت به، إلا أن جنكيز شعر كأنه يستجيب لتحدٍّ. نظر في عيني الفتى ببرود حتى وجد جوشي نفسه مرغماً على النظر بعيداً. عندها فقط تكلم جنكيز إليه.

"ستحل ذكرى مولدك خلال شهر. سأجعلهم يصنعون درعاً آخر لك بحلول ذلك الوقت".

زمّ جوشي شفته ساخراً.

"سأبلغ اثنتي عشرة سنة. لن يطول الأمر قبل أن أنطلق مع المحاربين. ليست هناك فائدة من ألعاب الأطفال حتى ذلك الوقت".

اتقد تفكير جنكيز. كان العرض كريماً. كان سيتكلم مجدداً، لكن انتباه كليهما تشتت بعودة تشاغاتي. جأر الفتى على فرسه وقفز إلى الأرض، وكاد يقع بينما كان يسند نفسه على الحظيرة الخشبية ويربط اللجام حول عمود بعقدة سريعة. أطلقت الماعز في الحظيرة ثغاءً من الخوف، وانطلقت مبتعدة عنه إلى الطرف الآخر. لم يسع جنكيز سوى أن يبتسم من سرور تشاغاتي غير المتكلف، على الرغم من أنه شعر بنظرة جوشي تستقر عليه مجدداً، والتي دائماً ما تراقبه.

أشار تشاغاتي نحو مدينة باوتو الهادئة، التي تقع على بعد أقل من ميل.

قال وهو ينظر نحو جوشي: "لماذا لا نهاجم ذلك المكان يا أبي؟".

ردّ جنكيز بصبر: "لأن عمّيك قطعا وعداً لرجل داخلها. مقابل البنّاء الذي ساعدنا على التغلب على كل المدن الأخرى، سنترك هذه المدينة على حالها".

توقف لحظة. "إذا استسلمت اليوم".

قال جوشي فجأة: "وغداً؟ مدينة أخرى، وأخرى بعد ذلك؟". بينما كان جنكيز يستدير نحوه، عدّل جوشي من وقفته. "هل سنقضي حياتنا نستولي على هذه الأماكن واحدة تلو الأخرى؟".

شعر جنكيز بالدم يندفع في وجهه من نبرة الفتى، ثم تذكر وعده لبورت بأن يعامل جوشي مثل أشقائه. لم يكن يبدو أنها تفهم الطريقة التي يستفزه بها كلما سنحت له فرصة بذلك، لكن جنكيز كان بحاجة للهدوء في خيمته الخاصة. استغرق منه الأمر لحظة ليسيطر على غضبه.

قال: "إنها ليست لعبة نمارسها هنا. لم أختر سحق مدن تشن لأنني أستمتع بالذباب والحرارة في هذه الأرض. أنا هنا، وأنت هنا لأنهم استغلونا ألف جيل. لقد كان ذهب تشن السبب في جعل كل قبيلة تعادي القبائل الأخرى لوقت أطول مما يستطيع أي شخص أن يتذكره. عندما ساد السلم لجيل، أطلقوا التتارَ علينا مثل كلاب برية".

رد جوشي: "لم يعد يمكنهم فعل ذلك الآن. التتار مشتتون وشعبنا أمة واحدة، كما قلت. نحن أقوياء للغاية. إنه الثأر إذاً الذي يقودنا؟". لم يكن الفتى ينظر مباشرة إلى والده، وإنما يخاطر بإلقاء نظرات خاطفة فقط عليه عندما يدير جنكيز بصره بعيداً، على الرغم من وجود اهتمام حقيقي في عينيه.

تأفف والده.

"بالنسبة إليك، التاريخ مجرد قصص. لم تكن قد ولدت بعد عندما تبعثر التتار. لم تعرف ذلك الوقت وربما لا يمكنك فهمه. نعم، هذا ثأر، في جزء منه. ينبغي أن يعرف أعداؤنا أنهم لا يستطيعون مهاجمتنا الآن من دون عاصفة تطيح بهم". شهر سيف والده وعرّضه للشمس، ولمع المعدن المصقول بخط ذهبي على وجه جوشي.

"هذا سيف جيد صنعه حرفي ماهر. لكن إذا دفنته في الأرض، إلى متى سيبقى

نصله حاداً؟".

قال جوشي مفاجئاً إياه: "ستقول إن القبائل مثل السيف".

ردّ جنكيز، غاضباً لمقاطعة محاضرته: "ربما". كان الفتى حاداً جداً لمصلحته الخاصة. "يمكن أن أخسر كل ما حققته حتى الآن، ربما على يدي ابن أحمق واحد لم يكن صبوراً للإصغاء إلى والده". ابتسم جوشي لدى سماع ذلك، وأدرك جنكيز أنه قد اعترف به ابناً على الرغم من أنه حاول إخفاء تعبير الغطرسة عن وجهه.

فتح جنكيز البوابة إلى حظيرة الماعز، وخطى خطوة داخلها، وهو يشهر سيفه. كافحت الماعز للابتعاد عنه، وقفزت على ظهور بعضها وأطلقت ثغاءً صاخباً.

"بذكائك يا جوشي، قل لي ما سيحدث إن هاجمتني الماعز".

قال جوشي بسرعة خلفه، محاولاً الاشتراك في صراع الإرادات: "ستقتلها جميعها". لم ينظر جنكيز إلى الخلف بينما كان جوشي يتكلم.

قال جوشي: "ستطرحك أرضاً. هل نحن ماعز إذاً، موحدون كأمة؟". بدا أن الفتى عثر على فكرة ممتعة وفقد جنكيز أعصابه، ومدّ ذراعه ليدفع جوشي من فوق السياج ليقع على الأرض بين الحيوانات. فركضت خائفة تطلق ثغاءً، حاول بعضها القفز من فوق الحاجز.

"نحن الذئب أيها الفتى، والذئب لا يهتم للماعز التي يقتلها. إنه لا يفكر بأفضل طريقة لقضاء وقته حتى يصبح فمه ومخالبه مخضبة بالدماء ويكون قد هزم كل أعدائه. وإذا سخرت مني مجدداً، سأجعلك تنضم إليهم".

نهض جوشي ليقف على قدميه، والوجه الخالي من التعبيرات يكلل معالمه مثل قناع. في ما يخص تشاغاتي، كان الانضباط سيحظى بالموافقة، لكن جنكيز وجوشي وقفا يواجهان بعضهما بصمت مطبق، ولم يكن أحدهما يرغب بأن يكون أول من يستدير مبتعداً. لاح تشاغاتي في طرف عين جوشي، يستمتع

بإذلاله. في النهاية، كان جوشي لا يزال طفلاً وفاضت عيناه بالدموع من الإحباط بينما كان يشيح ببصره عن والده، ويتسلق الحاجز الخشبي عائداً من حيث أتى.

سحب جنكيز نفساً عميقاً، وكان يبحث آنذاك عن طريقة ما لتهدئة الغضب الذي كان يشعر به.

"ينبغي ألا تفكر بهذه الحرب كشيء نقوم به قبل أن نعود إلى حياتنا الهادئة. نحن محاربون، وقد يكون الحديث عن السيوف والذئاب خيالياً جداً. إذا قضيت شبابي في تحطيم قوة إمبراطور تشن، سيكون كل يوم ممتعاً بالنسبة لي. لقد حكمت عائلته لوقت طويل بما يكفي وقد ظهرت عائلتي الآن. لن نعاني من أياديهم الباردة علينا بعد الآن".

كان جوشي يتنفس بصعوبة، لكنه تمالك نفسه ليطرح سؤالاً واحداً.

"إذاً ليست هناك نهاية لهذا؟ حتى عندما تكبر، وتشيب، ستبقى تبحث عن أعداء لقتالهم؟".

ردّ جنكيز: "إن بقي أحد منهم. لا يمكن إيقاف ما بدأت به. إذا خسرنا الشجاعة يوماً، إذا ترددنا، سيأتون إلينا بأعداد أكبر مما يمكننا تخيّله". حاول العثور على شيء يقوله ليرفع من معنويات الفتى. "لكن بحلول ذلك الوقت، سيكون أبنائي بعمر مناسب ليطوفوا الأراضي الجديدة ويجعلوها تخضع لحكمنا. سيكونون ملوكاً. سيأكلون الطعام الشهي ويتقلدون سيوفاً مرصعة بالجواهر وينسون ما يدينون به لي".

كان خاسار وتيموج قد تجاوزا حافة المعسكر ليحدّقا إلى أسوار باوتو. كانت الشمس منخفضة فوق الأفق، لكن النهار كان حاراً وكلا الرجلين يتصببا عرقاً في الهواء الكثيف. لم يكونا قد تعرقا أبداً في الجبال العالية لوطنهما، وكان التراب يسقط مثل الغبار عن جلدهما الجاف. في أراضي تشن، أصبح جسداهما كريهي الرائحة وكان الذباب يستهدفهما بشكل مستمر. بدا تيموج خاصة شاحباً ومتوعكاً وآلمته معدته عندما تذكر آخر مرة كان قد رأى فيها المدينة. كان قد

أمضى أمسيات عديدة في خيمة خاسار المليئة بالدخان وكانت بعض الأشياء التي رآها قد أزعجته. عندما شعر بالتوتر في حنجرته، سعل. بدا أن ذلك جعل الأمر أسوأ حتى أنه شعر بالدوار والمرض.

شاهده خاسار يعود إلى حالته الطبيعية من دون أن يتعاطف معه.

"رائحة أنفاسك كريهة يا شقيقي الصغير. لو أنك فرس، كنت سأذبحك وأطعمك للقبائل".

رد تيموج بوهن وهو يمسح فمه بظاهر يده: "أنت لا تفقه شيئاً كالمعتاد". كان التورّد في خدّيه يتلاشى تدريجياً وبدا جلده شاحباً في ضوء الشمس.

رد خاسار: "أعرف أنك تقتل نفسك لتقبّل قدمي ذلك الكاهن العرّاف القذر. لقد بدأت رائحتك تصبح مثله، كما لاحظت".

ربما كان تيموج سيتجاهل ملاحظة شقيقه اللاذعة، لكن عندما رفع بصره، كان هناك خوف في عيني شقيقه لم يكن قد رآه من قبل. كان قد شعر به في آخرين قرنوه بكاهن الخان العراف. لم يكن خوفاً بالضبط، إلا إن كان من المجهول. كان قد صرف ذهنه عنه من قبل باعتباره جهل الحمقى، لكن رؤية الشيء نفسه في خاسار كان ممتعاً بشكل غريب.

قال: "لقد تعلمت الكثير منه يا شقيقي. أحياناً، كنت أخاف من الأشياء التي أراها".

قال خاسار بلطف: "تتمتم القبائل أشياء كثيرة عنه، لكن لا شيء منها جيد. سمعت أنه يأخذ الأطفال الذين لا تريدهم أمهاتهم. ولا يراهم أحد مجدداً". لم يكن ينظر إلى تيموج بينما كان يتكلم، مفضلاً تركيز بصره على أسوار باوتو. "يقولون إنه قتل رجلاً بمجرد لمسة".

استراح تيموج ببطء من التشنج الذي أصابه نتيجة سعاله. ثم قال كذباً: "لقد تعلمت استدعاء الموت بمثل تلك الطريقة. الليلة الماضية، عندما كنت نائماً. كان الألم مبرّحاً ولهذا السبب أسعل اليوم، لكن الجسد سيتعافى وستبقى المعرفة".

نظر خاسار من الجانب إلى شقيقه، محاولاً معرفة إن كان سيقول الحقيقة.

قال: "أنا واثق أنها كانت خدعة من نوع ما". ابتسم تيموج له وظهر أن لثته ملطخة بالمعجون الأسود مما جعل التعبير فظيعاً.

قال تيموج بلطف: "لا داعي للخوف مما أعرفه يا شقيقي. المعرفة ليست خطيرة. وحده الإنسان خطير".

تأفف خاسار. وقال:

"ذلك هو نوع الكلام الصبياني الذي يعلمك إياه، أليس كذلك؟ تبدو مثل ذلك الراهب البوذي ياو شو. هناك أحد لا يخاف من كوكشو على الأقل. إنهما مثل كبشي ربيع على أراضي الآخر كلما التقيا".

قال تيموج بحدّة: "الراهب أحمق. لا ينبغي به تعليم أولاد جنكيز. ربما يكون أحدهم خاناً يوماً ما وستجعلهم تلك البوذية ضعفاء".

رد خاسار مبتسماً: "ليس والراهب يعلمهم إياها. يمكنه كسر ألواح بيديه، وهذا ما لا يستطيع كوكشو القيام به. أحبه، على الرغم من أنه لا يلفظ كلمة بشكل صحيح".

قال تيموج مقلداً صوت شقيقه: "يستطيع كسر ألواح. بالطبع ستتأثر بمثل ذلك الشيء. هل يمنع الأرواح المظلمة من دخول المعسكر في الليالي التي لا يوجد فيها قمر؟ لا، إنه يصنع الحطب".

رغماً عنه، وجد خاسار أن غضبه يزداد. كان هناك شيء بهذه الثقة الجديدة في تيموج لا يحبه، على الرغم من أنه لم يستطع التعبير عن ذلك بالكلام.

"لم يسبق أن رأيت إحدى أراوح تشن تلك التي يدّعي كوكشو أنه يبعدها. أعرف تماماً أن بمقدوري استعمال الحطب". ضحك بصوت خافت ساخراً بينما احمر وجه تيموج غضباً، وأصبح مزاجه أكثر حدّة. "إذا كنت مضطراً للاختيار بينهما، سأفضل رجلاً يقاتل على طريقته وسأغامر بفرصي مع أرواح فلاحي تشن الموتى".

رفع تيموج ذراعه إلى شقيقه غاضباً، ولدهشته، فزع خاسار. تراجع الرجل الذي سيندفع نحو مجموعة من الجنود من دون تفكير خطوة إلى الوراء عن شقيقه الصغير وهبطت يده إلى سيفه. للحظة، كاد تيموج يضحك. كان يريد أن يرى خاسار الدعابة، ويتذكر أنهما كانا مرة صديقين، لكنه شعر بعد ذلك ببرودة تسري في جسده وفرح من الخوف الذي كان قد رآه.

"لا تسخر من الأرواح يا خاسار، ولا من الرجال الذين يسيطرون عليها. لم تقطع أشواطاً بعيدة عندما اختفى القمر وترى ما كنت قد رأيته. كنت سأموت في عدّة مناسبات لو أن كوكشو لم يكن هناك ليقودني في طريق العودة إلى الأرض".

كان خاسار يعرف أن شقيقه قد رأى ردّ فعله على شيء ليس أكثر من راحة كف مفتوحة وتسارع خفقان قلبه في صدره. لم يكن جزء منه يصدق أن تيموج الصغير يعرف أي شيء لا يعرفه هو، لكن كانت هناك أسرار وكان قد شاهد كوكشو في الولائم يدفع سكاكين في جسده من دون أن تسيل منه قطرة دم واحدة.

حدّق خاسار إلى شقيقه بإحباط، قبل أن يستدير ويمشي عائداً إلى خيام قومه، إلى العالم الذي يعرفه. وحيداً، شعر تيموج بلذة الانتصار.

عندما واجه باوتو، فُتحت بوابات المدينة، وصدحت أبواق تحذير في المعسكر خلفه. كان المحاربون سيتسابقون إلى جيادهم. ليركضوا، كما اعتقد، مستمعتاً بالنصر على شقيقه. كانت عوارض المرض قد زالت ومشى واثقاً نحو البوابة المفتوحة. تساءل إن كان شن يي سيضع رماة سهام على الأسوار، مستعدين للغدر به. لم يكن ذلك مهماً بالنسبة إليه. شعر بأنه منيع وكانت قدماه خفيفتين على أرض صخرية.

الفصل التاسع عشر

كانت مدينة باوتو هادئة عندما رحّب شن يي بجنكيز في بيته. رافق هو سا الخان وانحنى شن يي كثيراً له، معبّراً عن امتنانه للمحافظة على الوعود التي تم قطعها.

قال شن يي بلغة القبائل، منحنياً مجدداً عندما تقابل وجهاً لوجه مع جنكيز للمرة الأولى: "أهلاً بك في بيتي". كان جنكيز أطول منه، وأطول حتى من خاسار. كان الخان يرتدي درعاً كاملاً ولديه سيف يربطه بحزام إلى ردفه. شعر شن يي بشدة البأس في داخله، وكان قوياً أكثر من أي شخص سبق له أن التقى به. لم يرد جنكيز على التحية الرسمية، وبالكاد أومأ برأسه بينما كان يمشي بخطوات واسعة إلى الساحة المكشوفة. كان على شن يي أن يتحرك بسرعة ليقوده إلى البيت الرئيسي، وفي عجلته، لم يلاحظ أن جنكيز ينظر إلى السقف الضخم وشدّ من قامته ليدخل. كان هو سا وتيموج قد وصفا البيت له، لكنه كان لا يزال يشعر بالفضول لرؤية كيف يعيش رجل ثري في قلب مدينة.

في الخارج، كانت الشوارع خالية حتى من المتسولين. كان كل بيت قد أقام متراساً ضد رجال القبائل الذين تجولوا في الشوارع، ينظرون عبر البوابات ويبحثون عن أشياء تستحق الاستيلاء عليها. كان جنكيز قد أصدر أوامر بترك المدينة سليمة، لكن لم يكن أحد يعتقد أن الأمر يتضمن مخازن شراب الأرز. كانت صور الآلهة التي يتم وضعها في البيوت مطلوبة بشكل خاص. كان رجال القبائل مقتنعين بأنهم لا يستطيعون تأمين حماية كافية لخيامهم وجمعوا أي تماثيل صغيرة يبدو أنها مناسبة.

انتظر حرس شرف من المحاربين خارج البوابة، لكن في الحقيقة كان جنكيز يستطيع التجول وحيداً في أي مكان في المدينة. كان الخطر الوحيد المحتمل يأتي من رجال يمكنه السيطرة عليهم بكلمة.

كان على شن يي أن يكافح لإخفاء عصبيته بينما كان جنكيز يمشي في أنحاء البيت، يتفحص الأشياء. بدا الخان متوتراً ولم يكن شن يي واثقاً كيف يبدأ الحديث معه. كان قد تم إرسال حرّاسه وخدمه بعيداً لعقد ذلك اللقاء وبدا البيت خالياً بشكل غريب.

قال شن يي ليكسر حاجز الصمت: "أنا سعيد أن البنّاء كان مفيداً لك يا مولاي". كان جنكيز يفحص قدراً أسودَ مصقولاً ولم يرفع بصره بينما كان يعيده إلى مكانه. كان يبدو ضخماً جداً في الغرفة، كما لو أنه يستطيع في أي لحظة هدم العوارض الخشبية وجعل المكان بأسره ينهار. قال شن يي لنفسه إن سمعته فقط هي التي تجعله يبدو قوياً، لكن جنكيز نظر إليه عندها بعينين صفراوين شاحبتين جعلت أفكاره تتجمد.

مرّر جنكيز إصبعاً على نقوش القدر المؤلفة من أشكال في حديقة، ثم استدار إلى مضيفه.

"لا تخف مني يا شن يي. قال هو سا إنك رجل حققت الكثير، رجل لم يكن لديه شيء لكنه على الرغم من ذلك نجا وأصبح ثرياً في هذا المكان". ألقى شن يي نظرة على هو سا لدى سماعه تلك الكلمات، لكن لم يظهر على جندي كزي كزيا أي شيء. لمرة واحدة في حياته، شعر شن يي بالارتباك. كان موعوداً بالحصول على باوتو، لكنه لم يكن يعرف إن كان الخان سيحافظ على كلمته. لم يكن يعرف أنه عندما تدمّر رياح قوية بيت شخص، لا يمكنه سوى أن يهزّ كتفيه لا مبالياً ويعرف أنه القدر الذي لا يمكن مقاومته. كان اللقاء مع جنكيز يشبه ذلك بالنسبة إليه. كانت القوانين التي عرفها طيلة حياته قد أصبحت شيئاً عفا عليه الزمن. بأمر واحد من خان المغول، يمكن تدمير باوتو عن بكرة أبيها.

وافقه شن يي: "أنا رجل ثري". قبل أن يستطيع متابعة كلامه، شعر بعيني جنكيز تحدّقان إليه، والذي بدا مهتماً فجأة. رفع الخان القدر المصقولة مرة أخرى وأشار بها. في يديه، بدت هشّة بشكل لا يصدّق.

"ما هي الثروة يا شن يي؟ أنت رجل مدن، شوارع وبيوت. ماذا تساوي؟ هذه؟".

تكلم بسرعة ووفّر هو سا لشي يي وقتاً للرد بترجمة ما قاله الخان. ألقى شن يي نظرة امتنان على الجندي.

"استغرقت القدر ألف ساعة عمل لصنعها يا مولاي. عندما أنظر إليها تجعلني أشعر بالسعادة".

قلّب جنكيز القدر بين يديه. بدا محبطاً ونظر شن يي إلى هو سا مجدداً. رفع الجندي حاجبيه، مطالباً بالمزيد.

تابع شن يي: "لكنّها ليست ثروة يا مولاي. لقد تضورت جوعاً، لهذا أعرف قيمة الطعام. لقد شعرت بالبرد، لهذا أعرف قيمة الدفء".

هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً. "تعرف النعجة ذلك. هل لديك أبناء؟". كان يعرف الجواب، لكنه أراد على الرغم من ذلك أن يفهم الرجل الذي جاء من عالم مختلف جداً عن عالمه.

"لدي ثلاث بنات يا مولاي. لقد أخذوا ابني مني".

"إذاً، ما هي الثروة يا شن يي؟".

نتيجة تلك الأسئلة، أصبح شن يي هادئاً جداً. لم يكن يعرف ما يريده الخان، لهذا أجاب بصدق.

"الثأر ثروة يا مولاي، بالنسبة لي. القدرة على الوصول إلى أعدائي وقتلهم. تلك هي الثروة. أن أحظى برجال يقتلون ويموتون من أجلي هي الثروة. بناتي وزوجتي هن ثروتي". بلطف كبير، تناول القدر من يدي جنكيز، ثم رمى بها على الأرض الخشبية. تحطّمت إلى قطع صغيرة تناثرت على الخشب المصقول.

"كل ما عدا ذلك لا قيمة له يا مولاي".

ابتسم جنكيز قليلاً. كان خاسار قد نقل الحقيقة عندما قال إن شن يي لن يخاف.

"أعتقد لو أنني ولدت في مدينة، ربما كنت عشت حياتك يا شن يي؛ على الرغم من أنني لم أكن لأثق بأشقائي، وأعرفهم كما هي عليه الحال الآن".

لم يرد شن يي بأنه لم يثق سوى بخاسار، لكن بدا أن جنكيز يخمّن ما يدور في خلده.

"تكلم خاسار بالخير عنك. لن أنقض وعده الذي قطعه باسمي. باوتو لك. إنها مجرد خطوة على الطريق إلى ينكينغ بالنسبة لي".

رد شن يي، وقد سرت فيه قشعريرة ارتياح: "أنا سعيد يا مولاي. هل تشاركني كوباً من الشراب؟". أومأ جنكيز موافقاً وانزاح ضغط كبير عن الغرفة. استرخى هو سا بشكل ظاهر للعيان بينما كان شن يي ينظر حوله تلقائياً بحثاً عن خادم ولم يجد أحداً. بثبات، جمع الأكواب بنفسه، وخفاه يطئان على قطع الخزف الثمينة التي كانت مرة تزيّن بيت إمبراطور. اهتزت يداه قليلاً بينما كان يسكب الشراب في ثلاثة أكواب وعندها فقط جلس جنكيز. جلس هو سا على كرسي آخر، ونجم عن درعه صوت صرير بينما كان يستقر في مكانه. أحنى رأسه قليلاً لشي يي عندما تلاقت نظراتهما مجدداً، كما لو أنه قد اجتاز اختباراً من نوع ما.

كان شن يي يعرف أن الخان لن يضيع وقتاً بالجلوس إلا إن كان يريد شيئاً. نظر إلى الظلمة، وكان وجهه خالياً من أي تعبير عندما تناول جنكيز الكوب من يده. أدرك شن يي أن الخان أيضاً لم يكن مرتاحاً ويبحث عن الكلمات المناسبة.

قال شن يي بينما كان جنكيز يرتشف شراب الأرز، ويختبر طعماً لم يكن يعرفه من قبل: "لا بد أن باوتو تبدو صغيرة لك يا مولاي".

رد جنكيز: "لم يسبق أن دخلت مدينة من قبل، إلا لحرقها. إن رؤية مدينة بهذا الهدوء شيء غريب بالنسبة لي".

تجرّع جنكيز ما في الكوب وملأه بنفسه، ومرّر القارورة لشي يي ثم إلى هو سا.

قال شن يي: "مرة أخرى، لكن الشراب قوي وأريد أن يبقى ذهني صافياً".

رد جنكيز متأففاً: "إنه بول حصان، على الرغم من أنني أحب الطريقة التي يلهبني بها".

قال شن يي بسرعة: "سأرسل مئة قارورة إلى معسكرك يا مولاي".

نظر إليه قائد المغول من فوق حافة كوبه وأومأ برأسه. "أنت كريم".

قال شن يي: "ليس هذا بكثير مقابل المدينة التي ولدت فيها".

بدا أن جنكيز ارتاح عند ذلك، واسترخى على الأريكة.

"أنت رجل ذكي يا شن يي. قال لي خاسار إنك كنت تحكم المدينة حتى عندما كان الجنود هنا".

"ربما يكون قد بالغ قليلاً يا مولاي. سلطتي أقوى بين الطبقات الدنيا؛ من حمّالي الميناء والتجار. يعيش النبلاء حياة مختلفة، ونادراً ما كنت أجد طريقة للاستفادة من سلطتهم".

تأفف جنكيز. ولم يكن يستطيع التعبير عن الانزعاج الذي يشعر به وهو جالس في مثل ذلك البيت، المحاط بألف آخر. كان يشعر تقريباً بضغط البشر من حوله. لقد كان خاسار محقاً: بالنسبة لشخص ترعرع في رياح السهول النظيفة، تبدو رائحة المدينة فظيعة.

سأل جنكيز: "تكرههم إذاً، هؤلاء النبلاء؟". لم يكن سؤالاً اعتيادياً وفكّر شن يي في الجواب بحرص. كانت لغة القبائل تفتقر للكلمات التي يحتاجها، لهذا تكلم بلغته وترك هو سا يترجم.

"يعيش معظمهم حياة منغلقة تماماً حتى إنني لا أفكر بهم يا مولاي. يقوم قضاتهم بتطبيق قوانين الإمبراطور، لكنهم لا يقتربون من النبلاء. إذا سرقت أنا، يمكن أن يقطعوا يديّ أو يسلخوا جلدي حتى الموت. إذا سرق نبيل مني، لن تكون هناك عدالة. حتى إذا أخذ ابنة أو ابناً مني، لا يمكنني فعل شيء". انتظر بصبر حتى ينتهي هو سا من الكلام، وكان يعرف أن مشاعره قد أصبحت

واضحة عندما حدّق جنكيز إليه. قال: "نعم، أكرههم".

قال جنكيز: "كانت هناك جثث معلقة على بوابات الثكنات، عندما دخلت المدينة. دزينتان أو ثلاث. هل قمت بذلك؟".

"صفّيت ديوناً قديمة يا مولاي، قبل أن تصل".

أومأ جنكيز برأسه، وأعاد ملء كلا الكوبين.

"ينبغي بالرجل أن يصفّي ديونه دائماً. هل يشعر كثيرون بما تشعر به؟".

ابتسم شن يي بمرارة. "أكثر مما يمكنني إحصاؤه يا مولاي. نبلاء تشن نخبة تحكم أضعاف عددها من الناس. من دون جيشهم، لن يكون لديهم شيء".

سأل جنكيز بفضول كبير: "إن كانت أعدادكم أكبر، لماذا لم تثوروا ضدهم؟".

تنهد شن يي، استعمل مرة أخرى لغة تشن، وكانت الكلمات تخرج من فمه بسرعة كبيرة.

"لا يستطيع الخبّازون، البنّاؤون، والبحارة تشكيل جيش يا مولاي. العائلات النبيلة لا ترحم عند أول إشارة على ظهور تمرد. كانت هناك محاولات في الماضي، لكن لديهم جواسيس بين الشعب وحتى جمع أسلحة كان يجعل جنودهم يتدفقون علينا. إذا وقعت ثورة ضدهم، يمكنهم الاتصال بالإمبراطور الذي سيرسل جيشه. يمكن إخضاع بلدات بأكملها بقوة السيف أو حرقها. لقد سمعت بذلك، في حياتي". تردّد، مدركاً أن هو سا يتكلم خلفه وأن الخان ربما لم يكن مهتماً بمثل تلك الأعمال. رفع شن يي يداً لإيقاف جندي كزي كزيا الذي التزم الصمت. لقد تم إنقاذ باوتو، بالمحصلة.

قيّم جنكيز الرجل الذي يواجهه، مفتوناً به. كان قد جعل القبائل تعتنق فكرة الأمة بالقوة، لكن رجالاً مثل شن يي لم يكونوا يؤمنون بها، ليس بعد. ربما كانت كل مدينة تخضع لحكم الإمبراطور، لكن سكانها لم يكونوا ينظرون إليه كقائد لهم، أو يشعرون بأنهم جزء من عائلته. كان من الواضح أن النبلاء استمدوا سلطتهم من الإمبراطور. كان من الواضح أيضاً أن شن يي يكرههم

لغطرستهم، وثروتهم، وسلطتهم. يمكن أن تكون المعرفة مفيدة.

قال: "لقد اختبرت نظرتهم لقومي يا شن يي. لقد أصبحنا أمة لمقاومتهم، لا، لسحقهم".

سأل شن يي، بعد أن سمع المرارة في نبرة صوته قبل أن يكبح نفسه: "وهل ستحكم عندها كما فعلوا؟". شعر بحرية خطيرة في الحديث إلى خان، كما أدرك. كان الانتباه والاحتراس المعتادان في نبرة صوته واضحين تحت تلك النظرة الصفراء. لارتياحه، ضحك جنكيز بصوت خافت.

"لم أفكّر في ما سيحدث بعد المعارك. ربما سأحكم. أليس ذلك حقًّا للمنتصر؟".

سحب شن يي نفساً عميقاً قبل أن يرد. "أن تحكم، نعم، لكن هل سيمشي محاربوك الأدنى مرتبة مثل إمبراطور بين أولئك الذين هزمتهم؟ هل سيسخرون منهم ويأخذون كل ما ليس من حقهم؟".

حدّق إليه جنكيز. "النبلاء عائلة الإمبراطور؟ إذا كنت تسأل إن كانت عائلتي ستأخذ ما تريده، بالطبع ستفعل ذلك. القوي يحكم يا شن يي. أولئك الذين ليسوا أقوياء يحلمون بالأمر". توقف قليلاً، محاولاً استيعاب ما يحدث. سأل: "هل تريد مني تقييد قومي بقوانين ثانوية؟".

سحب شن يي نفساً عميقاً آخر. كان قد أمضى حياته مع الجواسيس والأكاذيب، يكافح حتى لا يأتي يوم يقوم به جيش الإمبراطور بإخراجه بالنار والدم من المدينة. لم يكن ذلك اليوم قد جاء. بدلاً من ذلك، وجد نفسه يواجه شخصاً يمكنه أن يتحدث أمامه من دون أي قيد. لم يكن ليحظى مجدداً بمثل تلك الفرصة أبداً.

"أفهم ما كنت قد قلته، لكن هل سينتقل ذلك الحق إلى أبنائهم وأحفادهم بعد ذلك؟ عندما يقتل واهن قاسٍ فتى بعد مئة سنة من الآن، ألن يجرؤ أحد على الاحتجاج لأن دماءك تسري في عروقه؟".

بقي جنكيز ساكناً من دون حراك. بعد وقت طويل، هزّ رأسه.

"لا أعرف نبلاء تشن هؤلاء، لكن أبنائي سيحكمون من بعدي، إذا كانوا يتمتعون بالقوة. ربما بعد مئة سنة، سيكون أحفادي لا يزالون في الحكم وقد أصبحوا هؤلاء النبلاء الذين تزدريهم". هزّ كتفيه استخفافاً، وأفرغ كوبه في فمه.

تابع قائلاً: "معظم الرجال مثل الأغنام. إنهم ليسوا مثلنا". كان قد أطاح برد شن يي. "هل تشك بذلك؟ كم عدد الأشخاص في هذه المدينة الذين لديهم مثل نفوذك، سلطتك، حتى قبل أن أصل؟ لا يمكن لمعظم الناس تولي القيادة؛ إن الفكرة ترعبهم. على الرغم من ذلك، بالنسبة لأشخاص مثلك ومثلي، لا توجد متعة أكبر من معرفة أنه لا توجد مساعدة قادمة. القرار ملكنا وحدنا". أشار بعنف بكوبه. فضّ شن يي الختم الشمعي لقارورة أخرى وسكب الشراب مرة أخرى.

أطبق صمت متكلف على المكان. لدهشة كلا الرجلين، كان هو سا من تكلم.

قال: "لدي أبناء. لم أرَهم منذ ثلاث سنوات. عندما يكبرون، سيلحقون بي إلى الجيش. عندما يسمع الرجال أنهم أبنائي، سيتوقعون الكثير منهم. سيكون ارتقاؤهم أسرع من رجال ليسوا معروفين. أنا قانع بذلك، وأعمل بجد وأتحمل أي شيء لتحقيقه".

قال شن يي: "لن يكونوا نبلاء أبداً، هؤلاء الجنود من صلبك. سيأمر فتى من طبقة راقية بإلقائهم في النار فقط ليحافظ على قدر مثل التي كسرتها الليلة".

تقطب حاجبا جنكيز، منزعجاً من الصورة. "هل كل الرجال سواسية لديك؟".

هزّ شن يي كتفيه من دون مبالاة. كانت أفكاره تدور بفعل الشراب ولم يكن يعرف أنه يتكلم بلغة تشن. مكتبة الرمحي أحمد

"لست أحمق. أعرف أن لا قانون يحكم الإمبراطور، أو عائلته. كل القوانين تصدر عنه والجيش الذي يديره. لا يمكنه أن يخضع للقوانين مثل رجال آخرين. بالنسبة إلى باقي الناس، لآلاف الطفيليين الذين يتغذون من يده، لماذا سيُسمح لهم أن يقتلوا ويسرقوا من دون عقاب؟". أفرغ كوبه في فمه بينما كان هو سا

يترجم ما قاله، ويومئ برأسه كما لو أن الجندي يتكلم موافقاً على ذلك.

تمطّى جنكيز، متمنياً للمرة الأولى أن يكون تيموج هناك ليجادل في تلك المسألة نيابة عنه. كانت نيته التكلم إلى شن يي وفهم السلالة الغريبة التي عاشت في المدينة. بدلاً من ذلك، جعل الرجل القصير رأسه يدور.

قال جنكيز: "إذا أراد أحد المحاربين الزواج، يعثر على عدو ويقتله، ويستولي على كل ما يملكه. يمنح الجياد والماعز لوالد الفتاة. هل تلك جريمة قتل وسرقة؟ إذا منعت ذلك، سأجعلهم ضعفاء". كان رأسه يدور من الشراب، لكن مزاجه كان جيداً، ومرة أخرى ملأ الأكواب الثلاثة.

سأل شن يي: "هل يأخذ هذا المحارب من عائلته، ومن قبيلته؟".

قال جنكيز: "لا. سيكون مجرماً، ويزدريه الجميع إن فعل ذلك". حتى قبل أن يتكلم شن يي مجدداً، رأى إلى أين يريد الرجل القصير الوصول.

قال شن يي وهو ينحني إلى الأمام: "إذاً، ماذا عن قبائلك الآن بعد أن اتحدت معاً؟ ماذا ستفعل إن أصبحت كل أراضي تشن لكم".

كانت تلك فكرة أصابته بالدوار. كان صحيحاً أن جنكيز قد منع آنذاك شباب القبائل من مقاتلة بعضهم، وقدم بدلاً من ذلك هدايا زواج من قطيعه الخاص. لم يكن ذلك حلاً يستمر وقتاً طويلاً. ما كان شن يي يقترحه هو مجرد توسعة لذلك السلام، على الرغم من أنه سيتضمن أراضيَ يصعب تخيل اتساعها.

قال بكلمات بطيئة: "سأفكر بالأمر. تستحق مثل هذه الأفكار الغنية إمعان النظر فيها خلال أكثر من جلسة واحدة". ابتسم. "خاصة أن إمبراطور تشن يجلس بأمان في مدينته ونحن قد انطلقنا للتو. ربما سأكون السنة القادمة عظاماً مبعثرة".

قال شن يي: "أو ستكون قد سحقت النبلاء في قلاعهم ومدنهم، وحظيت بفرصة لتغيير كل شيء. أنت رجل صاحب رؤية. لقد أظهرت ذلك عندما استثنيت باوتو".

هزّ جنكيز رأسه وقد تشوش بصره. "كلمتي حديد. عندما يضيع كل شيء آخر، تبقى على حالها. لكن لو أنني لم استثنِ باوتو، لكانت مجرد مدينة أخرى".

رد شن يي: "لا أفهم".

أدار جنكيز بصره الحاد إليه مجدداً. "لن تستسلم المدن إذا لم يكن في ذلك فائدة لها". رفع قبضة شدّ عليها بقوة وثبتت نظرة شن يي عليها. "الآن، أهدد بإراقة الدماء، بشكل أسوأ من أي شيء يمكنهم تخيله. حالما أنصب الخيمة الحمراء، يعرفون أنهم سيخسرون كل رجل ضمن الأسوار. عندما يرون السوداء، يعرفون أنهم سيموتون جميعاً". هزّ رأسه. "إن كان الموت هو كل ما أقدمه، لن يكون لديهم خيار سوى أن يقاتلوا حتى آخر رجل". أنزل قبضته ومدّ يده مجدداً طلباً لكوب جديد ملأه شن يي بيدين مرتعشتين.

"إذا استثنيت مدينة واحدة فقط، سينتشر النبأ بأنهم ليسوا بحاجة للقتال. يمكنهم أن يختاروا الاستسلام عندما ترتفع الخيمة البيضاء. لهذا السبب استثنيت باوتو، ولهذا لا تزالون أحياء".

تذكر جنكيز السبب الآخر الذي دعاه لعقد لقاء مع شن يي. بدا أن ذهنه قد أضاع سرعة بديهته المعتادة وفكّر ربما بأنه ما كان ينبغي عليه أن يشرب كثيراً.

"هل لديك خرائط في هذه المدينة؟ خرائط للأراضي إلى الشرق من هنا؟".

شعر شن يي بالذهول مما كان قد رآه. كان الرجل الذي يواجهه فاتحاً لن يوقفه نبلاء تشن الضعفاء وجيوشهم الفاسدة. ارتعش فجأة، ورأى مستقبلاً مليئاً بألسنة اللهب.

قال القيس: "هناك مكتبة؟ لقد كانت ممنوعة علي حتى الآن. لا أعتقد أن الجنود دمروها قبل أن يرحلوا".

رد جنكيز: "أريد خرائط. هل ستبحث عنها من أجلي؟ هل ستساعدني في التخطيط لتدمير إمبراطورك؟".

كان شن يي قد جاراه في الشرب كوباً بكوب وكانت أفكاره تدور بسرعة في

رأسه. فكّر في ابنه الميت، الذي شنقه نبلاء لم يكونوا حتى لينظروا بعين العطف إلى رجل من أصل وضيع. ليتغير العالم، كما فكّر. ليحترقوا جميعاً.

"إنه ليس إمبراطوري يا مولاي. كل ما في هذه المدينة لك. سأبذل قصارى جهدي. إذا أردت كتّاباً لسن قوانين جديدة، سأرسلهم إليك".

أومأ جنكيز ثملاً. رد ساخراً: "كتابة. إنها مكيدة الكلمات".

"إنها تجعلها حقيقية يا مولاي. تجعلها دائمة".

في الصباح التالي لاجتماعه مع شن يي، استيقظ جنكيز وهو يشعر بصداع سيّئ جداً لدرجة أنه لم يغادر خيمته طيلة اليوم إلا ليتقيأ. لم يتذكر الكثير بعد الانتهاء من القارورة السادسة، لكن كلمات شن يي رنت في ذهنه بين الحين والآخر وناقشها مع كشيون وتيموج. لم يكن شعبه قد عرف سوى حكم الخان، وكانت كل العدالة تنبثق من حكم رجل واحد. نظراً إلى ما آلت إليه الأمور آنذاك، كان جنكيز يقضي كل يوم يفصل في النزاعات ويعاقب المجرمين في القبائل. كان ذلك كثيراً جداً بالنسبة إليه، إلا أنه لم يكن يستطيع السماح للقادة الأدنى منه استئناف أدوارهم، أو المخاطرة بخسارة كل شيء.

عندما أصدر جنكيز الأمر بالتحرك أخيراً، كان من الغريب أن يتركوا مدينة من دون رؤية ألسنة اللهب في الأفق خلفهم. كان شن يي قد زوّده بخرائط لأراضي تشن على طول الطريق إلى البحر الشرقي، وكانت أثمن من أي شيء ظفروا به من قبل. على الرغم من أن شن يي بقي في باوتو، إلا أن البنّاء ليان كان قد وافق على مرافقة جنكيز إلى ينكينغ. بدا أن ليان يعتبر أسوار مدينة الإمبراطور تحدياً شخصياً لمهارته وكان قد جاء إلى جنكيز ليقدم عرضاً قبل أن يطلب أحد منه ذلك. لم يكن ابنه قد أهمل عمله في أثناء غيابه وفكّر جنكيز أنه كان سيختار بين المضي قدماً مع جيش الغزو أو الاستقرار لتقاعد هادئ.

استمرت الرحلة العظيمة في أراضي تشن، وكانت الكتلة الرئيسية للعربات والخيام تتحرك ببطء، لكنها محاطة دائماً بعشرات أو آلاف الفرسان الذين

يبحثون عن أدنى فرصة للفوز بمديح قادتهم. كان جنكيز قد سمح للمراسلين بالسفر من باوتو إلى مدن أخرى على طريقهم إلى الجبال غرب ينكينغ وسرعان ما أتى القرار. كان الإمبراطور قد سحب الحامية من هوهت، ومن دون الجنود للشدّ من أزرها، استسلمت المدينة من دون إطلاق سهم واحد، ثم قدّمت ألفي شاب ليتم تدريبهم على فن الحصار واستعمال الرماح. كان شن يي قد أظهر قيمة ذلك بطريقته الخاصة، وانتقى الأفضل في مدينته لمرافقة المغول وتعلم مهارات القتال. كان صحيحاً أنه لم تكن لديهم جياد، لكن جنكيز منحهم كمشاة لأرسلان وقبلوا الانضباط الجديد من دون نقاش.

كانت حامية جينينغ قد رفضت الانصياع لأمر الإمبراطور وبقيت البوابات مغلقة. تم حرقها عن آخرها بعد نصب الخيمة السوداء في اليوم الثالث. كانت ثلاث مدن أخرى قد استسلمت بعد ذلك. تم أسر الشباب والأقوياء، وسوقهم مثل الأغنام. كان هناك ببساطة الكثيرون للاستفادة منهم كجنود من دون أن يفوقوا القبائل عدداً. لم يكن جنكيز يريدهم، لكنه لم يكن يستطيع ترك الكثيرين خلفه. كان قومه يقود نصف عدده من الأسرى مجدداً عبر الأرض، وكل يوم كانت هناك جثث خلفهم. عندما أصبحت الليالي أكثر برودة، تجمهر أسرى تشن وتهامسوا بهمهمة مستمرة كانت غريبة في الظلام.

كان واحداً من أحرّ فصول الصيف التي عرفها أي منهم. قال الشيوخ إن الشتاء التالي سيكون بارداً للغاية ولم يكن جنكيز يعرف ما إذا كان عليه المضي قدماً نحو العاصمة أو ترك الحملة لسنة أخرى.

كانت الجبال أمام ينكينغ قد ظهرت للعيان آنذاك وكان مستطلعوه يلاحقون مراقبي الإمبراطور كلما ظهروا في الأفق. على الرغم من أن جيادهم كانت سريعة، إلا أنه تم إلقاء القبض على بعض مراقبي تشن وأضاف كل منهم تفصيلاً للصورة التي كان جنكيز يبنيها.

في صبيحة أحد الأيام التي كانت فيها الأرض متجمدة في الليل، جلس على

كومة من السروج الخشبية وحدّق إلى الشمس الواهنة التي كانت قد ارتفعت فوق سلسلة من الصخور الخضراء الشاهقة التي تحمي ينكينغ منها، وكان الضباب يحجبها. أطول من القمم بين غوبي وكزي كزيا، كانت تجعل حتى الجبال التي يتذكرها من وطنه تبدو أقل إثارة للاهتمام. على الرغم من ذلك، تكلم المراقبون الذين تم إلقاء القبض عليهم في الممر المعروف باسم بادغر وشعر بأنه يتم سحبه إليه. كان الإمبراطور قد جمع قوته هناك، معتمداً على جيش واحد يبدو ضخماً أمام الجيش الذي كان جنكيز قد أحضره إلى ذلك المكان. يمكن أن ينتهي كل شيء هناك وتصبح كل أحلامه رماداً.

ضحك بصوت خافت لنفسه من تلك الفكرة. مهما كان الذي يحمله المستقبل، فسيلاقيه برأس مرفوع وسيف مشهور. سيكافح حتى النهاية، وإذا سقط أمام أعدائه، سيكون قد قضى حياة جيدة. كان جزء منه يشعر بالغصة من فكرة أن أبناءه لن يعيشوا طويلاً بعد موته، لكنه نفض عن كاهله الضعف. سيعيشون حياتهم الخاصة بهم كما فعل هو. إذا اجتاحتهم رياح أحداث كبيرة، سيكون ذلك قدرهم. لن يستطيع حمايتهم من كل شيء.

في الخيمة خلفه، سمع أحد أولاد تشاكاهي يصرخ. لم يستطع تحديد ما إذا كان الابن أم الابنة. أشرق وجهه عندما فكر بالفتاة الصغيرة التي على الرغم من أنها كانت قد بدأت تخطو خطواتها الأولى للتو، إلا أنها كانت تدفع برأسها بحنان في ساقه كلما رأته. كان قد رأى غيرة كبيرة في بورت عندما شاهدت ذلك الفعل البسيط وتنهد عندما تذكر الأمر. كان فتح مدن العدو أقل تعقيداً بكثير من النساء في حياته، أو الأولاد الذين أنجبنهم له.

من طرف عينه، شاهد شقيقه كشيون يقترب، يمشي بخطوات واسعة على أحد دروب المعسكر في شمس الصباح.

ناداه كشيون: "هل هربت إلى هنا؟". أومأ جنكيز برأسه، وربت على مكان إلى جانبه على السروج. انضم إليه كشيون وسلّم جنكيز إحدى شطيرتين

ساختين من لحم الضأن وخبز الفطير المشبع بالدهن الدافئ. تناول جنكيز شطيرته ممتناً. كان يشم رائحة الثلج في الهواء وتاق لشهور البرد القادمة.

سأل جنكيز، وهو يقتطع جزءاً من الخبز بأصابعه ويمضغه: "هل أتى خاسار هذا الصباح؟".

"إنه في الخارج مع هو سا والذئاب الفتية، يعلّمهم كيفية تنفيذ هجوم ضد مجموعة من الأسرى. هل رأيت ذلك؟ منح الأسرى رماحاً! خسرنا ثلاثة شباب أمس ضدهم".

قال جنكيز: "سمعت". كان خاسار يستفيد من مجموعات صغيرة فقط من الأسرى للتدريب. أدهش جنكيز أن عدد الراغبين بالاشتراك كان قليلاً جداً، حتى مع الوعد بمنح كل منهم رمحاً أو سيفاً. بالتأكيد كان من الأفضل لهم أن يلقوا حتفهم بتلك الطريقة بدلاً من عدم المبالاة والكسل. هزّ كتفيه استخفافاً من تلك الفكرة. كان ينبغي تعليم شباب القبائل القتال، كما كانوا قد فعلوا ذات مرة ضد أبناء جنسهم. كان جنكيز شبه واثق من أن خاسار يعرف ما يقوم به.

كان كشيون يراقبه بصمت، وابتسامة ساخرة على وجهه.

قال: "لم تسأل أبداً عن تيموج".

كشّر جنكيز. كان شقيقه الأصغر مصدر قلق بالنسبة إليه، وبدا أن علاقة خاسار به سيئة. في الحقيقة، لم يكن يستطيع جعل نفسه يهتم بشأن تعصب تيموج الديني الأخير. كان قد أحاط نفسه برقع تشن التي تم الاستيلاء عليها، وينكبّ على قراءتها حتى على ضوء المصباح في الظلام.

طرح كشيون سؤالاً ليغير الموضوع: "إذاً، لماذا تجلس هنا؟".

تأفف شقيقه. "هل ترى الرجلين اللذين ينتظران بالقرب من هنا؟".

اعترف كشيون: "عرفت أحد أبناء ويلا، البكر". لم تكن عيناه الحادتان تفوّتان شيئاً.

"كنت قد طلبت منهما عدم الاقتراب مني حتى أقف. عندما أفعل ذلك،

سيأتيان مع أسئلة ومطالب، كما يفعلان كل صباح. سيجعلانني أقرر أي منهما له الحق بامتلاك مطية خاصة، لأن أحدهما يمتلك الفرس والآخر الجواد. ثم سيرغبان بأن أصدر أمراً لأحد الحدّادين الذي يصادف أن يكون قريباً لهما بصنع درع جديد. ليست هناك نهاية لهذا".

تأوه من الفكرة. "ربما تستطيع تأخيرهما بما يكفي لأبتعد من هنا".

ابتسم كشيون من ورطة شقيقه.

قال: "وأنا الذي كنت أعتقد ألا شيء يخيفك. عيّن شخصاً آخر للتعامل معهما. ينبغي أن تكون خالي الذهن للتخطيط للحرب مع القادة".

أومأ جنكيز برأسه، ممتعضاً.

"لقد قلت ذلك من قبل، لكن بمن أستطيع أن أثق في مثل هذا الوضع؟ ينبغي أن يتمتع بالقوة مثل أي رجل في القبائل". خطر جواب لكليهما في الوقت نفسه، لكن كان كشيون من تكلم.

"سيكون تشريفاً لتيموج أن يتولى المهمة. تعرف أنه سيفعل ذلك".

لم يرد جنكيز، وتابع كشيون كما لو أنه شعر بعدم وجود معارضة.

"يبدو من غير المحتمل أن يسرق منك مثل رجال آخرين، أو يسيء استعمال المنصب. امنحه لقباً مثل سيد التجارة. سيدير المعسكر خلال بضعة أيام". عندما رأى أن شقيقه لم يتأثر، اختار كشيون منهجاً مختلفاً.

"قد يرغمه ذلك أيضاً على قضاء وقت أقل مع كوكشو".

رفع جنكيز بصره عند ذلك، ورأى أن الرجلين اللذين ينتظران قد تقدما خطوة إلى الأمام تحسباً لنهوضه. فكّر في الحديث الذي كان قد أجراه مع شن يي في باوتو. كان جزء منه يريد أن يتخذ كل قرار بنفسه، لكن كان صحيحاً أن لديه حرباً ينتصر فيها.

قال متردداً: "حسنٌ جداً. قل له إن المهمة له لسنة. سأرسل له ثلاثة محاربين تعرضوا للتشويه في المعارك من أجل ذلك العمل. سأمنحهم شيئاً يقومون به

وأريد أن يكون أحدهم رجُلك يا كشيون، ويقدم تقاريرَ لك فقط. سيحظى شقيقنا بفرص عديدة ليحصل على القشدة من كل شيء يمر بين يديه. لن يضر القليل، لكن إذا كان جشعاً، أريد أن أعرف". توقف عن الكلام لحظة. "وتأكد أن يفهم أن كوكشو لا علاقة له أبداً بدوره الجديد". تنهد عندها. "إذا رفض، من يوجد غيره؟".

قال كشيون بكل ثقة: "لن يرفض. إنه رجل أفكار يا شقيقي. سيمنحه الدور السلطة التي يريدها لإدارة المعسكر".

قال جنكيز وهو ينظر إلى بعيد: "لدى تشن قضاة لإقرار قوانين وفض النزاعات. أتساءل إن كان شعبنا سيقبل بمثل هؤلاء الرجال بينهم؟".

سأل كشيون: "إذا لم يكونوا من عائلتك؟ سيكون رجلاً شجاعاً إن حاول تسوية نزاعات دموية، بغض النظر عن اللقب الذي يحمله. في الواقع، سأرسل اثني عشر حارساً آخر إلى تيموج للحفاظ على سلامته. شعبنا ليس بعيداً عن إظهار استيائه بسهم في الظهر. إنه ليس خانهم، بالمحصلة".

تأفف جنكيز. "لا شك أنه سيجعل أرواحه الداكنة تنتزعه في الهواء. هل سمعت بالقصص التي تكبر من حوله؟ إنها أسوأ من تلك التي تخص كوكشو. أتساءل أحياناً إن كان كاهني العرّاف يعرف ما قد صنعت يداه".

"نحن من سلالة خانات يا شقيقي. نحكم أينما كنا".

ربّت جنكيز على ظهره. "سنكتشف إن كان إمبراطور تشن يشعر بالطريقة نفسها. ربما سيجعل جيشه يستسلم عندما يرانا قادمين".

"هل سيكون ذلك هذه السنة إذاً؟ في الشتاء؟ أعتقد أن الثلج سيتساقط عما قريب".

"لا يمكننا البقاء هنا من دون مراعٍ أفضل. ينبغي أن أتخذ القرار بسرعة، لكنني لا أحب فكرة ترك جيشهم عند معبر بادغر من دون تحدٍّ. يمكننا أن نتحمل برداً يجعلهم بطيئين وعديمي الفائدة".

قال كشيون: "لكنهم سيكونون قد حصّنوا الممر، غرسوا الرماح في الأرض، حفروا الأنفاق، وأي شيء يمكنهم التفكير فيه. لن يكون الأمر سهلاً علينا".

نظر جنكيز بعينيه الشاحبتين إلى شقيقه، وأشاح كشيون بصره بعيداً إلى الجبال التي سيحاولون عبورها.

قال جنكيز: "إنهم متغطرسون جداً يا كشيون. لقد اقترفوا خطأً عندما سمحوا لي بمعرفة مكانهم. يريدون أن نهاجمهم في مكمن قوتهم، حيث ينتظروننا. لم يوقفني سورهم، ولن توقفني جبالهم وجيشهم".

ابتسم كشيون. كان يعرف الطريقة التي يفكر فيها شقيقه. "أرى أنك أرسلت المستطلعين كلّهم إلى سفوح الجبال. هذا غريب إذا كنا سنخاطر بكل شيء لشن هجوم عبر الممر".

ابتسم جنكيز بشكل غريب. "يعتقدون أن جبالهم عالية جداً بحيث لا يمكن تسلقها يا كشيون. يمر أحد أسوارهم الأخرى عبر السلسلة الجبلية ووحدها القمم العالية تؤمن الحماية لهم، وارتفاعها شاهق بالنسبة إلى الرجال". تأفف. "بالنسبة إلى جنود تشن، ربما، لكننا ولدنا في الثلج. أتذكر أن والدي أخرجني من الخيمة عارياً عندما كنت في الثامنة من عمري. يمكننا تحمّل الشتاء وعبور السور الداخلي".

كان كشيون قد انتحب أيضاً عند باب خيمة والدهما، وصرخ مطالباً بإعادته إلى الداخل. كانت عادة قديمة يعتقد الكثيرون أنها تجعل الأولاد أقوياء. تساءل كشيون إن كان جنكيز قد فعل الشيء نفسه مع أبنائه، وفيما كان يقلب الفكرة، عرف أنه فعل ذلك. لم يكن شقيقه ليتسامح مع الضعف، على الرغم من أنه قد يحطم أبناءه في عملية جعلهم أقوياء.

أنهى جنكيز وجبته، ولعق الدهن اليابس بين أصابعه. "سيجد المستطلعون دروباً حول الممر. عندما يكون أفراد تشن يرتعشون في خيامهم، سننقض عليهم من كل الاتجاهات. عندها فقط يا كشيون، سأهجم على ممر بادغر وأدفع

شعبهم أمامي".

سأل كشيون: "الأسرى؟".

رد جنكيز: "لا يمكننا إطعامهم. يمكن أن يقدموا لنا خدمة إذا تلقوا سهام ورماح أعدائنا". هزّ كتفيه استخفافاً. "سيكون ذلك أسرع بالنسبة إليهم من التضور جوعاً حتى الموت".

عند ذلك، نهض جنكيز على قدميه، ونظر إلى الغيوم الكثيفة التي ستحول سهل تشن إلى قفرٍ من الثلج والجليد. لطالما كان الشتاء وقتاً للموت، عندما لا ينجو سوى الأقوى. تنهد عندما شاهد حركة من طرف عينه. كان الرجلان اللذان يراقبانه قد شاهداه ينهض وأسرعا بالاقتراب منه قبل أن يغير رأيه. حدّق جنكيز إليهما بكراهية.

قال وهو يخطو مبتعداً: "قل لهما أن يذهبا لرؤية تيموج".

الفصل العشرون

كان المستطلعان يتضوران جوعاً. كانت حتى عصيدة الجبن والماء في أمتعتهما قد تجمدت عندما تسلقا عالياً فوق ممر بادغر. إلى الشمال والجنوب، كان سور تشن الثاني يمر عبر الجبال. كان أقل ضخامة من السور الذي اجتازته القبائل لدخول أراضي تشن، على الرغم من أن هذا السور لم يُترك ليتداعى بمرور القرون. محفوظاً بالجليد، كان يشق طريقه عبر أودية بعيدة، مثل أفعى رمادية في منطقة بيضاء. ربما كان يبدو ذات مرة معجزة للمستطلعين المغول، إلا أنهم يهزّون الآن أكتافهم استخفافاً به. لم تكن جيوش تشن قد عملت على بناء سورها على قمم الجبال تماماً. كانت تعتقد أنه لن يستطيع أحد النجاة من الصخور والمنحدرات الشاهقة للجليد الصلب، وأن البرد الشديد على ذلك الارتفاع سيجعل الدم يتجمد في العروق بالتأكيد. كانوا مخطئين. اجتاز المستطلعان مستوى الجدار إلى عالم من الثلج والجليد، يبحثان عن طريق عبر الجبال.

كانت ثلوج جديدة قد تساقطت على السهول، ونزلت من سحب عاصفة على القمم التي تكللها. كانت هناك لحظات تحفر فيها الرياح الهوجاء ثقباً في الغطاء الأبيض، وتكشف الممر والأعمدة التي تشبه قوائم العنكبوت للسور الداخلي الذي يمتد بعيداً. من ذلك الارتفاع، رأى كلا الرّجلين الكتلة الداكنة لجيش تشن على الطرف الآخر البعيد. لم يكونا يستطيعان رؤية قومهما في السهل، لكنهم كانوا هناك أيضاً، ينتظرون عودة المستطلعين.

صرخ تاران لإسماع صوته في الرياح: "ليس هناك طريق للتقدم. ربما حالف بيراخ والآخرين حظ أفضل. ينبغي أن نعود أدراجنا". كان تاران يشعر بالجليد في عظامه، والبرد الشديد ينهش كل مفصل فيه. كان واثقاً أنه قريب من الموت، وكان من الصعب عدم إظهار خوفه. بالكاد تأفف مرافقه فيساك من دون أن

ينظر إليه. كان كلاهما جزءًا من مجموعة تتألّف من عشرة أشخاص، وهي إحدى مجموعات عديدة كانت قد خرجت إلى الجبال للعثور على طريق لمهاجمة مؤخر جيش تشن. على الرغم من أنهما قد انفصلا عن زملائهما في الليل، إلا أن تاران كان لا يزال يثق بفيساك لاكتشاف مسلك، لكن البرد كان يشلّه، وكان أقسى من أن تتم مقاومته.

كان فيساك رجلاً قد تجاوز الثلاثين من العمر، فيما لم يكن تاران قد بلغ الخامسة عشرة من عمره بعد. قال الرجال الآخرون في مجموعته أن فيساك يعرف قائد الذئاب الفتية، وأنه يحيي تسوبودي مثل صديق قديم كلما التقيا. ربما كان ذلك صحيحاً. مثل تسوبودي، كان فيساك من قبيلة يوريانخي البعيدة في الشمال وكان يبدو أنه لا يشعر بالبرد. نزل تاران عن منحدر جليدي، وكاد يقع. ثبّت نفسه بغرس سكينه في صدع، وكادت يده تنزلق عن القبضة عندما اهتز ليقف. شعر بيد فيساك على كتفه، ثم بدأ الرجل الأكبر سناً يهرول مجدداً وترنح تاران خلفه محاولاً اللحاق به.

كان الفتى المغولي ضائعاً في عالمه الخاص من البؤس والاحتمال عندما رأى فيساك يتوقف أمامه. كانا يتبعان مسار سلسلة صخور شرقية، زلقة وخطيرة جداً وكان فيساك قد استعمل حبلاً ليربط نفسه بتاران حتى يستطيع أحدهما إنقاذ الآخر. وحده الحبل المشدود إلى خصره أنقذ تاران من الخلود إلى النوم، وعندما تابع سيره قطع خمس خطوات قبل حتى أن يدرك أن فيساك قد جثم في مكانه. ربض تاران على الأرض وأطلق أنيناً مكبوتاً، وسقط الجليد عن ردائه بقطع حادة. كان يضع في يديه قفازين مصنوعين من جلد الأغنام، لكن أصابعه كانت على الرغم من ذلك متجمدة عندما ملأ فمه بالثلج ومصّه. كان العطش شيئاً يتذكره من المحاولات السابقة في القمم. مرة تجمّد الماء في قارورته، ولم يكن هناك شيء سوى الثلج لتذويبه. لم يكن كافياً أبداً لإرواء عطشه الشديد.

عندما ربض في مكانه، تساءل كيف تمكّنت الجياد من النجاة في الوطن،

عندما كانت الأنهار تتحول إلى جليد. كان قد رآها تجثم على الثلج وبدا ذلك كافياً بالنسبة إليها. مصاباً بالدوار والإرهاق، فتح فمه ليسأل فيساك. ألقى المستطلع الأكبر سنًّا نظرة عليه وأشار له بأن يصمت.

شعر تاران بحواسه تتنبه، وبدأ خفقان قلبه يزداد. كانا قد اقتربا من مستطلعي تشن من قبل. كان قائد الجيش في الممر يرسلهم رغماً عنهم للمراقبة وتقديم تقارير له. بعد أن جعلت العاصفة الرؤية على بعد أكثر من بضع خطوات صعبة، أضحت المرتفعات ساحة تنافس قاتل بين القوتين. كان شقيق تاران الأكبر قد تعثر بأحد هؤلاء، وكاد يسقط على الرجل. تذكر تاران الأذن التي كان شقيقه قد أعادها معه كغبطة وإثبات على ذلك. تساءل إن كان سيحظى بفرصة ليعيد تذكاراً خاصاً به ويقف شامخ الرأس بين المحاربين الآخرين. كان أقل من الثلث قد قتلوا أعداءً لهم وكان معروفاً أن تسوبودي يختار ضباطه من بين ذلك العدد وليس أولئك الذين لم تتضح شجاعتهم. لم يكن لدى تاران سيف أو قوس، لكن سكينه كانت حادة وفرك معصميه الخدرين لتسكينهما.

كانت ركبتاه تؤلمانه، لكنه زحف حتى أضحى قريباً من فيساك، وكانت الريح العاصفة تخفي صوت أي حركة. نظر إلى الأرض البيضاء، باحثاً عمّا رآه الرجل الأكبر سناً. كان فيساك مثل تمثال وحاول تاران تقليد سكونه، على الرغم من أن البرد تسلل إليه من الأرض وكان يرتعش بشكل مستمر.

هناك، تحرك شيء على الأرض البيضاء. كان مستطلعو تشن يرتدون ملابس باهتة يمتزج لونها مع الثلج، مما يجعلهم غير مرئيين تقريباً. تذكر تاران القصص التي كان يسردها رجال القبائل المسنّون بأن الجبال تخفي أكثر من مجرد رجال عندما تهب العاصفة الثلجية. كان يأمل بأن تكون مجرد قصص خيالية لإخافته، لكنه أمسك سكينه بإحكام. من طرفه، رفع فيساك ذراعه، مشيراً نحو شيء ما. كان قد رأى الشكل أيضاً.

مهما كان، إلا أنه لم يتحرك مجدداً. انحنى فيساك مقترباً منه ليهمس في أذنه، وفيما كان يفعل ذلك، رأى تاران شكل رجل ينهض وهو ينفض عنه كتلة من الثلج، وقوس في يديه.

كان فيساك حاضر البديهة. رأى عيني تاران تتسعان وألقى بنفسه أرضاً، واستدار بطريقة ما بينما كان يفعل ذلك. سمع تاران صوت انطلاق سهم من دون أن يراه، وفجأة كان هناك دم على الثلج وفيساك يصرخ غضباً وألماً. كان قد قيل له كيف يتصرف ضد قوس وعمل ذهنه بشكل حاد بينما كان يندفع إلى الأمام. لم يكن لديه سوى بضع دقات للقلب قبل أن يشد الرجل الوتر للخلف لإطلاق سهم آخر.

أسرع تاران على الأرض الشائكة التضاريس، والحبل الذي يربطه إلى فيساك يمتد عبر الثلج في إثره. لم يكن لديه وقت ليقطعه. رأى أن مستطلع تشن يكافح مع سلاحه وألقى بنفسه عليه مما جعله يسقط أرضاً. طار القوس مبتعداً ووجد تاران نفسه عالقاً في صراع مع رجل أقوى منه.

تقاتلا بصمت وهما يلهثان، وحيدين في البرد الشديد. كان تاران قد سقط على رأس الجندي وحاول يائساً الاستفادة من ذلك. ضربه بركبتيه ومرفقيه، وكانت يدا عدوه تمسكان بيده التي تحمل سكينه. كان تاران يحدّق في عيني الرجل عندما دفع رأسه بقوة إلى الأسفل على أنف عدوه، وشعر به ينكسر وسمعه يصرخ عالياً. كانت يدا الرجل لا تزالان تمسكان بيده التي تحمل السكين وضرب برأسه مراراً وتكراراً، ودفع بجبينه في الوجه الدامي تحته. استطاع وضع يده الحرة تحت ذقن الرجل، ودفع بها على العنق المكشوف. ابتعدت القبضة التي كانت تمسك بمعصمه وأنشبت الأصابع مخالبها في عينيه، محاولة أن تسبب له العمى. رفع تاران رأسه وضرب برأسه إلى الأسفل من دون أن ينظر.

انتهى الأمر بسرعة مثلما بدأ. فتح تاران عينيه ليرى جندي تشن يحدّق

بعينين انطفأ نورهما إلى الأعلى. كانت سكينه قد نزلت إلى الأسفل من دون حتى أن يشعر بها ولا تزال ظاهرة من رداء الرجل المطرّز بالفرو. استلقى تاران يلهث في الهواء العليل، غير قادر على التقاط أنفاسه. سمع فيساك ينادي وأدرك أن الصوت كان يصدر منذ بعض الوقت. كافح عندها حتى لا تبدو على وجهه أي تعبيرات، محاولاً استرجاع انضباطه. لن يشعر بالخجل أمام المحارب الأكبر سناً.

بهزّة واحدة، حرر تاران سكينه ودفع نفسه بعيداً عن الجثة. كان الحبل قد التفّ حول قدميه في القتال وخطا مبتعداً عنه، وركله بعيداً. نادى فيساك مجدداً، وكان الصوت أضعف من ذي قبل. لم يستطع تاران تحويل ناظريه عن الرجل الذي كان قد قتله، لكنه لم يتوقف عن التفكير. استغرق الأمر لحظات لينزع الرداء الثقيل عن الجندي، ويلفه حول نفسه. بدا الجسد أصغر من دون الرداء ووقف تاران يحدق إلى الأسفل إلى الدم السائل على الثلج، وكانت حلقة من قطيرات تشير إلى المكان الذي كان فيه الرأس. شعر بالدم يتجمد على جلده وحلّ وجهه بقوة، وشعر بالتقزّز فجأة. عندما نظر مجدداً إلى فيساك، كان مرافقه قد استطاع الجلوس وينظر إليه. أومأ تاران إلى الرجل الأكبر سناً، ثم مدّ يده ليبتر أذن ضحيته الأولى.

وضع القطعة المخيفة في جيبه، وترنح في مشيته عائداً نحو فيساك، وكان لا يزال يشعر بالدوار. كان البرد قد اختفى في أثناء القتال، لكنه عاد بقوة ووجد نفسه يرتعش، وأسنانه تصطك كلما فتح فكّه.

كان فيساك يلهث، ووجهه ينضح ألماً. كان السهم قد أصابه في جانبه تحت الأضلاع. رأى تاران النهاية السوداء للسهم تبرز منه، وقد بدأ الدم يتجمد آنذاك مثل شمع أحمر. مدّ ذراعه ليساعد فيساك على الوقوف على قدميه، لكن الرجل الأكبر سناً هزّ رأسه متعباً.

تمتم فيساك: "لا يمكنني الوقوف. دعني أجلس هنا وتابع طريقك".

هزّ تاران رأسه، رافضاً قبول ذلك. دفع فيساك ليقف على قدميه، على الرغم من أن وزنه كان ثقيلاً عليه. تأوه فيساك وسقط تاران معه، وانتهى به الأمر جاثياً على ركبتيه في الثلج.

قال فيساك: "لا يمكنني المضي قدماً. دعني أموت. استطلع مسلك عودة الرجل بأفضل ما تستطيع. لقد جاء من الأعلى. هل تفهم؟ لا بد من وجود طريق هناك".

قال تاران: "يمكنني سحبك على رداء الجندي، مثل مزلاج". لم يصدّق أن صديقه كان يستسلم وبدأ وضع رداء الفرو على الثلج. كادت ساقاه تخذلانه عندما فعل ذلك وأسند نفسه على صخرة، منتظراً أن يستعيد قوته.

همس فيساك: "ينبغي أن تجد مسلك العودة أيها الفتى. لم يأتِ من جانبنا على الجبال". كانت أنفاسه تخرج على فترات تصبح أطول وجلس وعيناه مغلقتان. نظر تاران خلف فيساك إلى حيث يستلقي الجندي مضرجاً بدمائه. جعلت الذكرى المفاجئة لما حدث معدته تتقلص وانحنى على نفسه وتقيأ. لم يكن هناك شيء صلب ليخرج منه، على الرغم من أن شريطاً من سائل أصفر سميك اندلق من بين شفتيه ورسم خطوطاً في الثلج. مسح فمه، غاضباً من نفسه. لم يكن فيساك قد شاهد ذلك. ألقى نظرة على مرافقه، وكان الثلج يغطي وجهه. هزّه تاران، لكنه لم يستجب. كان وحيداً والريح تعصف من حوله.

بعد وقت، نهض تاران مترنحاً وعاد إلى حيث كان جندي تشن يستلقي ساكناً من دون حراك. للمرة الأولى، نظر تاران إلى ما وراء الجثة وعادت القوة تسري في جسده. قطع الحبل بسكين، ثم مشى مترنحاً، تسلق بتهور وانزلق أكثر من مرة. لم يكن هناك درب، لكن الأرض بدت صلبة بينما كان يمسك بقبضته الثلج ويتسلق المنحدر. كان ينشج كل شهيق في الهواء العليل عندما توقفت الريح ووجد نفسه بملاذ صخرة كبيرة من الغرانيت. كانت القمة لا تزال بعيدة إلى

الأعلى، لكنه لم يكن بحاجة للوصول إليها. أمامه، رأى حبلاً واحداً حيث كان الجندي قد تسلق إلى تلك المنطقة. لقد كان فيساك محقاً. كان هناك مسلك إلى الجانب الآخر ولم يكن السور الداخلي الثمين لتشن يوفر حماية أفضل من السور الخارجي.

وقف تاران خدراً في البرد، وأفكاره تتوارد ببطء. أخيراً، أومأ لنفسه ثم بدأ يمشي عائداً إلى حيث الرجلين الميتين. لن يفشل. كان تسوبودي ينتظر الأنباء.

خلفه، كان الثلج يتساقط غزيراً، يُخفي الجثتين ويزيل كل آثار الصراع الدموي حتى غطّى كل شيء مرة أخرى.

لم يكن المعسكر هادئاً في الثلج. كان قادة جنكيز يجعلون رجالهم يجولون فيه، يتدربون على إجراء مناورات وفن الرماية، ويشدّون من عضدهم. كان المحاربون يغطّون أيديهم ووجوههم بطبقة سميكة من دهن الضأن ويتدربون لساعات على إطلاق السهام وهم يقودون جيادهم بأقصى سرعتها على دمى مصنوعة من القش، بعيدة بعضها عن بعض عشر خطوات. كانت دمى القش المصنوعة على شكل رجالٍ تهتزّ مرة تلو الأخرى ويجري الفتية ليسحبوا السهام منها، ويقدّروا الوقت اللازم لهم قبل أن يأتي الفارس التالي للتصويب عليها.

كانت أعداد السجناء الذين أسروهم من المدن لا تزال تُقدّر بالآلاف، على الرغم من ألعاب الحرب التي أرغمهم خاسار على خوضها. كانوا يجلسون أو يقفون معاً خارج الخيام. لم يكن يراقب الرجال الذين يتضورون جوعاً سوى عدد قليل من الرعيان، لكنهم لم يهربوا. في الأيام الأولى، كان البعض قد فرّ، لكن كل محارب في القبائل كان يستطيع تقفّي آثار غنمة ضائعة ولم يعيدوا معهم سوى رؤوس، وكانوا يرفعونها عالياً أمام حشد الأسرى كتحذير للآخرين.

كان الدخان يظهر فوق كل خيمة عندما يعمل موقدها، والنساء يطبخن الحيوانات المذبوحة ويحضّرن الشراب الأسود لتدفئة رجالهن. عندما يتدرب المحاربون، يأكلون ويشربون أكثر من المعتاد، ويحاولون إضافة طبقة من الدهن

لإبعاد البرد. كان من الصعب بقاء تلك الطبقة مع بقاء الفرد اثنتي عشرة ساعة على السرج كل يوم، لكن جنكيز كان قد أصدر الأمر وتم ذبح حوالى ثُلث القطعان لسد جوع الرجال.

أحضر تسوبودي تاران إلى الخيمة الكبيرة حالما قدّم المستطلع الشاب تقريره. كان جنكيز هناك مع شقيقيه خاسار وكشيون وخرج عندما سمع تسوبودي يقترب. رأى الخان أن ذلك الفتى مع تسوبودي كان مرهقاً، يرتجف قليلاً من البرد. كانت هناك دوائر سوداء تحت عينيه وبدا كما لو أنه لم يأكل منذ أيام.

قال جنكيز: "تعال معي إلى خيمة زوجتي. ستضع لحماً ساخناً في معدتك ويمكننا أن نتكلم". أحنى تسوبودي رأسه وحاول تاران فعل الشيء نفسه، خائفاً من التكلم إلى الخان نفسه. هرول خلف الرجلين بينما كان تسوبودي يتكلم عن الممر الذي عثر عليه مع فيساك. فيما كانوا يتكلمون، ألقى الفتى نظرة على الجبال، وكان يعرف أن جثة فيساك المتجمدة هناك في مكان ما. ربما سيكشف ذوبان الثلج في الربيع جثته مرة أخرى. كان تاران يشعر ببرد شديد وحاول التفكير، وعندما أصبح بمنأى عن الريح، تناول وعاءً من اللحم المطبوخ بيدين خدرتين، ودفعه في فمه من دون ظهور أي تعبير على وجهه.

راقب جنكيز الشاب، معجباً بشهيته الكبيرة والطريقة التي ينظر بها إلى نسر الخان الجاثم على عموده. كان الطائر الأحمر مغطى الرأس، لكنه استدار نحو الوافد الجديد الشاب وبدا أنه يراقبه بالمقابل.

اهتمت بورت بالمستطلع، وأعادت ملء وعائه حالما أفرغه. منحته قربة من الشراب الأسود أيضاً، والذي جعله يسعل ويدمدم، ثم أومأ برأسه عندما توردت وجنتاه المتجمدتان مرة أخرى.

سأله جنكيز عندما فقدت عينا تاران نظرتهما المذهولة: "هل وجدت طريقاً للعبور؟".

"وجدها فيساك يا مولاي". بدا أن فكرة ما تشغل باله وتحسس جيبه بأصابع

قوية، وأخرج شيئاً كان واضحاً أنها أذن. رفعها بفخر.

"قتلت جندياً هناك كان ينتظرنا".

أخذ جنكيز الأذن منه، وفحصها قبل أن يعيدها إليه.

قال بصبر: "لقد أبليت حسناً. هل يمكنك العثور على الطريق مجدداً؟".

أومأ تاران برأسه، وهو يقبض على الأذن وكأنها تعويذة. كانت أحداث كثيرة قد وقعت خلال مدة وجيزة، وأصيب مرة أخرى بالقلق لأنه كان يتكلم مع الرجل الذي شكّل أمّة من القبائل. لن يصدق أصدقاؤه أبداً أنه قد التقى الخان نفسه، وكان تسوبودي يراقب مثل والد فخور بابنه.

"يمكنني ذلك يا مولاي".

ابتسم جنكيز، وهو ينظر بعيداً. أومأ إلى تسوبودي وهو يرى البهجة التي ظهرت على وجهه.

"اذهب ونم الآن أيها الفتى. استرح وتناول الطعام حتى تشبع، ثم نم مجدداً. ينبغي أن تكون قوياً لتقود إخوانك". ربت على كتف تاران الذي تمايل في مكانه.

قال تسوبودي: "كان فيساك رجلاً صالحاً يا مولاي. كنت أعرفه جيداً".

نظر جنكيز إلى المحارب الشاب الذي كان قد سلّمه قيادة عشرة آلاف من شعبه. رأى لمسة حزن في عينيه وفهم أن فيساك كان من القبيلة نفسها. على الرغم من أنه كان قد منع الحديث عن العائلات القديمة، إلا أن بعض العرى كانت عميقة الجذور.

قال: "إذا كان يمكن العثور على جثته، سأجعلهم يجلبونها إلى هنا لدفنها بشكل لائق. هل لديه زوجة، أولاد؟".

رد تسوبودي: "نعم يا مولاي".

قال جنكيز: "سأحرص على أن يتم الاعتناء بهم. لن يأخذ أحد قطيعهم، أو يرغم زوجته على الالتحاق بخيمة رجل آخر".

كان ارتياح تسوبودي واضحاً.

قال: "شكراً لك يا مولاي". ترك جنكيز ليأكل مع زوجته واصطحب تاران إلى الخارج حيث الريح العاصفة مرة أخرى، يمسك به من مؤخر عنقه لإظهار افتخاره به.

كانت العاصفة لا تزال قوية بعد يومين عندما جمع خاسار وكشيون رجالهما. كان كل منهما قد قدّم خمسة آلاف محارب سيقودهم تاران فوق القمم إلى الدرب الذي كان قد عثر عليه. كانوا قد تركوا جيادهم خلفهم ولم يكن جنكيز قد أضاع هذين اليومين. تم صنع ألف رميةٍ للتدرّب على الرماية، كما تمّ وضع رجالٍ من القش، والخشب والقماش على كل جواد متوفر. إذا كان بمقدور مستطلعي تشن رؤية السهل في الثلج، لن يلاحظوا أن عدد الرجال قد أصبح أقل.

وقف خاسار مع شقيقه، يفرك الدهن على كل وجه آخر استعداداً للتسلق الصعب الذي سيتبع ذلك. بخلاف المستطلعين، كان رجالهما يحملون أقواساً وسيوفاً إضافة إلى مئة سهم في كنانتين ثقيلتين مربوطتين إلى ظهورهم. بينهما، كان العشرة آلاف رجل يحملون مليون سهم؛ وقد أمضوا سنتين من العمل الشاق لصنعها حتى أصبحت أكثر قيمة من أي شيء آخر يمتلكونه. من دون غابات البتولا، لم يكن بمقدورهم تعويضها.

كان ينبغي تغليف كل شيء يحملونه بقماش مشبّع بالدهن منعاً لتأثره بالرطوبة وتحركوا بصعوبة تحت الطبقات الإضافية، يضربون الأرض بأقدامهم بقوة ويشبكون أيديهم التي يضعونها في قفازات معاً اتقاء البرد.

كان تاران منتصب القامة وفخوراً بقيادة شقيقي الخان، ممتلئاً إثارة لأن جُل ما عليه القيام به هو الوقوف ساكناً من دون حراك. عندما أصبحوا مستعدين، أومأ خاسار وكشيون للفتى، ونظرا إلى الخلف إلى رتل الرجال الذين سيعبرون الجبال سيراً على الأقدام. سيكون الصعود سريعاً وصعباً، وامتحاناً قاسياً حتى

على أشد الرجال. إذا اكتشفهم مستطلعو تشن، كان الرجال يعرفون أنه ينبغي عليهم الوصول إلى الممر العالي قبل أن يتم الإبلاغ عن تحركاتهم. سيتركون كل من يتوقف خلفهم.

عصفت الريح بالصفوف عندما انطلق تاران، ونظر إلى الخلف عندما شعر بعيونهم تلاحقه. رأى خاسار عصبيته وابتسم، مشتركاً بلحظة الإثارة تلك مع شقيقه كشيون. كان ذلك اليوم أشدّ برودةً من أي يوم على الإطلاق، لكن مزاجه كان جيداً بين الرجال. أرادوا سحق الجيش الذي ينتظرهم على الجانب الآخر من الممر. أكثر من ذلك، أعجبتهم فكرة الظهور خلفهم وتشتيت دفاعاتهم المُحَكَمَة. كان جنكيز نفسه قد خرج ليراهم ينطلقون.

كان جنكيز قد قال لشقيقه: "لديكم حتى فجر اليوم الثالث يا كشيون. ثم سأعبر الممر".

استغرق الأمر حتى صبيحة اليوم التالي للوصول إلى البقعة العالية بين القمم التي لقي فيها فيساك حتفه. نبش تاران جثة صديقه من تحت كومة ثلج، ومسح ما تراكم على المعالم الرمادية بصمت مطبق.

تمتم خاسار لكشيون، الذي ابتسم: "يمكننا وضع راية في يده لتحديد الدرب". كان صف المحاربين يمتد إلى أسفل الجبل، وبدا أن العاصفة ستهدأ، لكنهم لم يطلبوا من المستطلع الشاب أن يسرع بينما كان يأخذ قطعة من قماش أزرق ويلفها حول جثمان فيساك، ويقدّمه لأب السماء.

وقف تاران، وأحنى رأسه للحظة قبل أن يقطع بسرعة المسافة الأخيرة من الأرض المتجمدة التي تقود إلى المنحدر. تجاوز الرتل الجسد المتجمد، وألقى كل رجل نظرة على الوجه الميت وتمتم بضع كلمات تحية أو تضرعاً.

عندما أصبح الممر العالي خلفهم، كان تاران على أرض جديدة، وأضحت الخطوات بطيئة بشكل يسبب الإحباط. كان ضوء الشمس يبهر الأبصار من كل الاتجاهات، وكان الاستمرار في التحرك شرقاً صعباً. عندما كشفت الريح الجبال على كلا الجانبين، حدّق خاسار وكشيون إلى البعيد، يدققان في تفاصيل التضاريس. بحلول الظهيرة، قدّرا أنهما أصبحا في منتصف المنحدر، وكان حصنا الممر بعيدين جداً إلى الأسفل منهما.

جعل سفح شديد الانحدار يبلغ طوله أكثر من خمسين قدماً حركتهم تتباطأ مجدداً، على الرغم من أن حبالاً قديمة دلت على المكان الذي كان مستطلع تشن قد تسلق منه. بعد أيام في البرد، أضحت الحبال قصمة فثبتوا حبالاً جديدة، وهبطوا المنحدر بحرص شديد مستعينين بأيديهم وأرجلهم. أولئك الذين يمتلكون قفازات وضعوها في ملابسهم للنزول ثم وجدوا أن أصابعهم أصبحت زرقاء ومتيبسة بسرعة كبيرة. كانت لسعة البرد شيئاً يدعو للقلق

بالنسبة للرجال الذين يُتوقع أن يستعملوا أقواسهم. فيما كانوا يسرعون الخطى على طول المنحدرات، كان كل محارب يفتح ويقبض يديه، أو يدّسهما تحت إبطيه ويترك ردني قميصه يهتزان بحرية.

انزلق العديد على الأرض المتجمدة ووقع أولئك الذين كانوا قد أخفوا أيديهم بقوة أكبر. نهضوا بصلابة، ووجوههم قاسية من الريح بينما كان رجال آخرون يتجاوزونهم من دون النظر إليهم. كان كل منهم يعتمد على نفسه ويكافح للبقاء واقفاً على قدميه بدلاً من أن يتركه الآخرون خلفهم.

كان تاران من أطلق صرخة تحذير عندما تشعب المسلك. تحت مثل ذلك الغطاء من الثلج، كان بالكاد أكثر من ثنية في السطح الأبيض، لكنه تعرّج باتجاه آخر ولم يعرف أي منهما سيأخذهم إلى الأسفل.

جاءه خاسار، ورفع قبضته لإيقاف أولئك الذين في الخلف. امتد صف الرجال حتى جثة فيساك تقريباً. لم يكونوا يستطيعون التأخر وغلطة واحدة في ذلك المكان قد تعني موتاً بطيئاً، محاصرين ومجهدين في طريق مسدود.

قضم خاسار قطعة من الجلد على شفته، ونظر إلى كشيون علّه يستلهم منه شيئاً. هزّ شقيقه كتفيه.

قال كشيون متعباً: "ينبغي أن نتابع السير شرقاً. يتجه الدرب الجانبي نحو الحصنين".

رد خاسار وهو يحدق إلى البعيد: "ربما هناك فرصة أخرى لمفاجأتهم من الخلف". لم يعد الدرب مرئياً على بعد أكثر من عشرين خطوة فيما كانت الريح والثلج يعصفان بالمكان.

ذكّره كشيون: "يريدنا جنكيز خلف تشن بأسرع ما يمكن". راقب تاران الحديث مفتوناً، لكنّ كليهما تجاهلا الفتى.

قال خاسار: "لم يكن يعرف أن هناك درباً آخر يقود إلى خلف الحصنين. يستحق الأمر إلقاء نظرة عليه، على الأقل".

هزّ كشيون رأسه، غاضباً.

"لدينا ليلة واحدة أخرى في هذا المكان المقفر، ثم سيتحرك عند الفجر. إذا ضعت، قد تتجمد حتى الموت".

نظر خاسار إلى وجه شقيقه الذي يبدو عليه القلق وابتسم.

"لاحظت أنك متأكد أنني سأسلك ذلك الدرب. يمكنني إصدار أمر لك بسلوكه".

تنهد كشيون. لم يكن جنكيز قد عيّن أي منهما قائداً وفكّر أن ذلك خطأ عند التعامل مع خاسار.

قال بصبر: "لا يمكنك ذلك. سأمضي قدماً، معك أو من دونك. لن أوقفك إذا أردت سلوك الطريق الآخر".

أومأ خاسار مستغرقاً في التفكير. على الرغم من نبرة صوته الهادئة، إلا أنه كان يعرف المخاطر.

"سأنتظر هنا وأقود آخر ألف. إذا لم يكن الدرب يقود إلى أي مكان، سأسرع بالعودة وانضم إليك في الليل". تصافحا على عجل، ثم انطلق كشيون وتاران مجدداً، وتركا خاسار هناك لحث الآخرين على إسراع الخطى.

كان عدّ تسعة آلاف رجل يمشون ببطء قد استغرق وقتاً أطول مما كان يعتقد. عندما أصبح آخر ألف في مرمى نظره، كان النهار قد شارف على نهايته. اقترب خاسار من محارب يترنح وأمسك به من كتفه، وصرخ لإسماع صوته في الريح.

قال: "تعالوا معي". من دون أن ينتظر رداً، خطا في الدرب الآخر، وغاص تقريباً حتى ردفيه في ثلج جديد. لم يناقش الرجال المتعبون خلفه الأمر، وكل منهم خدر من الإرهاق والبرد.

من دون شقيقه ليتكلم إليه، أمضى كشيون العديد من الساعات المتبقية من ضوء النهار صامتاً. كان تاران لا يزال يقودهم، على الرغم من أنه لم يكن يعرف

الدرب أكثر من أي منهم. كان الطريق إلى الأسفل أكثر وضوحاً على الطرف الآخر من الجبل، وبعد وقت طويل، بدا الجو أفضل. أدرك كشيون أنه لم يعد يلهث بقوة لملء رئتيه بالهواء، وعلى الرغم من أنه كان مرهقاً، إلا أنه شعر بأنه أقوى وعلى أهبة الاستعداد. انتهت العاصفة في الظلام واستطاعوا رؤية النجوم للمرة الأولى منذ عدّة أيام، ساطعة وكاملة عبر الغيوم المتحركة.

بدا أن البرد قد اشتد عندما تقدم الليل، لكنهم لم يتوقفوا، وأكلوا اللحم المقدد من جيوبهم ليمدّهم بالقوة. كانوا قد ناموا الليلة الأولى على المنحدرات، وجهّز كل رجل حفرة لنفسه كما تفعل الذئاب. كان كشيون قد تمكّن من النوم بضع ساعات فقط وكان متعباً كثيراً. من دون أن يعرفوا مدى اقترابهم من جيش تشن، لم يكن ليجرؤ على السماح لهم بالراحة مجدداً.

بدأ السفح يصبح أقل انحداراً بعد بعض الوقت. كانت أشجار البتولا الشاحبة تختلط بالصنوبر الأسود، وتنمو بكثافة شديدة في بعض الأماكن حتى إنّهم كانوا يسيرون على أوراق ميتة بدلاً من الثلج. وجد كشيون أن منظرها يبعث على الراحة، وأنها دليل على اقترابهم من نهاية رحلتهم. على الرغم من ذلك، لم يكن يعرف إن كانوا قد تجاوزوا جنود تشن، أم لا يزالون يمشون بموازاة ممر بادغر.

كان تاران يعاني أيضاً ورآه كشيون يحرك ذراعيه بشكل دائري بين الفينة والأخرى. كانت تلك خدعة مستطلع قديمة لإرغام الدم على العودة إلى أطراف الأنامل حتى لا تتجمد وتصبح سوداء. قلّده كشيون وأرسل أمراً على طول الصف لفعل الشيء نفسه. جعلته فكرة قيام صف من الجنود بتحريك أيديهم مثل أجنحة العصافير يضحك بصوت خافت، على الرغم من الألم الذي شعر به في كل عضلة.

ارتفع القمر بدراً وساطعاً فوق الجبال، وأضاء الرتل المتعب بينما كان يمشي مجهداً إلى الأمام. كانت القمة التي تسلقوها عالية فوقهم، بمثابة عالم آخر. تساءل كشيون عن عدد الرجال الذين سقطوا في الممرات العالية، وبقوا هناك

مثل فيساك. كان يأمل بأن يشعر الآخرون بضرورة حماية كنانات سهامهم قبل أن يغطيها الثلج. كان ينبغي أن يتذكر إصدار ذلك الأمر ودمدم غاضباً من نفسه بينما كان يمشي. كان بزوغ الفجر لا يزال بعيداً، ولم يسعه سوى أن يأمل بالعثور على الطريق إلى جيش تشن قبل أن يهاجمه جنكيز. تواردت الأفكار إلى ذهنه بينما كان يمشي بخطوات واسعة في الثلج، وركّز على خاسار لحظة، ثم على أولاده في المعسكر. أحياناً، كان يحلم كما لو أنه في خيمة دافئة وكان الأمر يتطلب حركة ما ليجد نفسه لا يزال يمشي. مرة، وقع وكان تاران من أسرع عائداً لمساعدته على النهوض. لن يدعوا شقيق الخان يموت على طرف الممر، وأخذ آخرون كنانتي سهامه؛ وكان ممتناً لذلك على الأقل.

شعر كما لو أنه كان يمشي منذ وقت طويل عندما تجاوزوا صف الأشجار وربض تاران أمامه. قلّد كشيون الفتى قبل أن يزحف إلى الأمام على ركبتيه اللتين تؤلمانه. خلفه، سمع لعنات مكتومة عندما ارتطم رجاله بعضهم ببعض في ضوء القمر، متنبهين من غفلتهم نتيجة التوقف المفاجئ. نظر كشيون حوله بينما كان يزحف إلى الأمام. كانوا في منطقة ليست شديدة الانحدار، وبدا أن أمامهم وادياً أبيض رائعاً يمتد إلى ما لا نهاية. على الطرف الآخر، ارتفعت الجبال مجدداً بمنحدرات شاهقة وانتابه شك بأن يستطيع أي شخص تسلقها. إلى يساره، كان ممر بادغر ينتهي بمنطقة سهل كبير على بعد لا يتجاوز الميل. بدت رؤية كشيون أكثر حدّة من المعتاد في ضوء القمر ونظر عبر الفراغ، الجميل والقاتل. كان بحر من الخيام والرايات يمتد حتى نهاية الممر. ارتفع الدخان فوقه ليلاقي الضباب من القمم، وعندما عادت أحاسيس كشيون إليه، شمّ رائحة الحطب المحترق في الجو.

تأوه لنفسه. كان قادة تشن قد جمعوا جيشاً عرمرماً لم يستطع رؤية نهايته. كان ممر بادغر ينتهي بسهل من الجليد والثلج، ويغمر تقريباً قاعدة القمم العالية قبل الطريق الذي يقود إلى مدينة الإمبراطور. على الرغم من ذلك، كان

جنود تشن يملأونه وينتشرون بعيداً حتى السهل خلفهم. كانت الجبال البيضاء تخفي مدى انتشارهم، لكن حتى مع ذلك، كان لديهم رجال أكثر مما كان كشيون قد رآه من قبل. لم يكن جنكيز يعرف عددهم وكان سينطلق ببطء عبر الممر بعد ساعات قليلة.

بنوبة خوف مفاجئ، تساءل كشيون عن إمكانية رؤية رجاله من المعسكر. لا بد أن مستطلعي تشن كانوا يجوبون المنطقة. سيكونون حمقى إن لم يفعلوا ذلك، وقد كان هناك مع رتل من المحاربين يمتد حتى يصل إلى المسلك الأبيض بين التلال. كانوا بحاجة لعنصر المفاجأة وكان قد تخلى عنه تقريباً. ربت على كتف تاران شاكراً إياه على التحذير وابتسم الفتى سعيداً بذلك.

وضع كشيون خططه، وأرسل الأمر على طول الخط. كان الرجال خلفه سيتراجعون مسافة كافية حتى لا يكشف الفجر وجودهم لأعدائهم الذين يمتلكون عيوناً حادة. نظر كشيون إلى السماء الصافية وتمنّى أن يتساقط المزيد من الثلج ليغطي آثارهم. كان الفجر يوشك أن يبزغ وتمنّى أن يكون خاسار قد وصل إلى برّ الأمان. ببطء وألم، بدأ صف المحاربين يتحرك عائداً على المنحدر إلى الأشجار التي تركوها خلفهم. لمعت في ذهن كشيون ذكرى عن طفولته عندما تسلق جبلاً. كان قد اختبأ مع عائلته في جرف صخري في تلال وطنه، وكان الموت والتضور جوعاً قريبين دائماً. مرة أخرى، سيختبئ، لكنه سيخرج هذه المرة وهو يجأر بصوتٍ عالٍ وسيهجم جنكيز معه.

صمت، وتضرع إلى أب السماء أن ينجو خاسار وألا يتجمّد حتى الموت على المنحدرات العالية، ضائعاً ووحيداً. عبس كشيون من الفكرة. لم يكن إيقاف شقيقه سهلاً. إن كان أحد سينجح في ذلك، فسيكون خاسار.

á á á

مرّر خاسار يداً جيئة وذهاباً فوق حنجرته، طالباً من الرجال خلفه أن يصمتوا. كانت العاصفة قد انتهت أخيراً واستطاع رؤية نجوم فوق رأسه، تبدو

من خلال غيوم تتحرك في الجو. كان القمر يضيء السفوح المقفرة ووجد نفسه على حافة حادة فوق منحدر شاهق. بقيت أنفاسه حبيسة حلقه ورأى البرج الأسود لأحد حصني تشن تحته، أسفل قدميه تقريباً، لكنه معزول بفجوة من السواد فوق صخور حادة جداً لم يستقر عليها سوى القليل من الثلج. استقرت كتل صخرية كبيرة حول الحصن كانت قد انزلقت من الجبال وتساءل خاسار إن كان رجاله يستطيعون تنفيذ الهبوط الأخير. كان الحصن نفسه مبنياً على قمة تل يطل على الممر، وكان من دون شك مليئاً بالأسلحة التي ستسحق أي شخص يمر عبره. إلا أنهم لن يتوقعوا هجوماً من الصخور التي تقع خلفهم.

كان هناك ضوء قمر على الأقل. عاد إلى حيث كان رجاله قد بدأوا يتجمعون. كانت الرياح قد هدأت حتى غدت نسمة رقيقة، وكان قادراً على نقل أوامره همساً، وبدأ بأن طلب منهم تناول الطعام ونيل قسط من الراحة في أثناء تمرير حبالهم إلى الأمام. كان الألف الأخير قد تلقى تدريباته على يد كشيون ولم يكن خاسار يعرفهم، لكن الضباط تقدموا إلى الأمام وأومأوا برؤوسهم فقط عندما سمعوا الأوامر. انتشر الأمر بسرعة وبدأت أول مجموعة مؤلّفة من عشرة أشخاص ربط الحبال معاً ولفّها قرب الحافة. كانت باردة وأيديهم لا تحسن التعامل مع العقد، مما جعل خاسار يتساءل إن كان يرسلهم إلى حتفهم.

همس للمجموعة الأولى: "إذا وقع أحدكم فليبقَ صامتاً. إن صرختم، فستوقظون الحصن تحتنا. قد تنجون حتى إذا سقطتم على الثلج الكثيف". عبس واحد أو اثنان منهم عند سماع ذلك، ونظرا من فوق الحافة وهزّا رأسيهما.

قال خاسار: "سأذهب أولاً". نزع قفازيه المصنوعين من الفرو وفزع من البرد عندما أمسك بالحبل الثمين. كان قد تسلق منحدرات صخرية أسوأ، كما قال لنفسه، على الرغم من أن ذلك لم يحدث عندما كان متعباً أو يشعر بالبرد. رسم تعبير ثقة بالنفس على وجهه بينما كان يتأرجح على الحبل. كان الضباط قد

ربطوا الحبل إلى جذع شجرة بتولا سقطت منذ زمن بعيد وكانت تبدو صلبة. استند خاسار إلى الحافة وحاول ألا يفكر في الفجوة خلفه. كان واثقاً ألا أحد يمكنه النجاة منها.

قال بينما كان يمضي قدماً: "ليس أكثر من ثلاثة رجال على الحبل". دفع نفسه بعيداً قدر استطاعته، وبدأ الهبوط على الصخر المتجمد. "اربطوا بعض الحبال الإضافية معاً وإلا سيستغرق نزولنا الليل بأكمله". كان يصدر الأوامر لإخفاء توتره، وأرغم نفسه على إظهار الوجه البارد ليخفي خوفه. اجتمعوا حول الحافة لمراقبته، حتى تجاوزها أخيراً وبدأ الهبوط إلى الأسفل. بدأ أقرب الرجال يربطون المزيد من الحبال معاً للسماح بنزول رجل آخر وأومأ أحدهم إلى أصدقائه واستلقى على بطنه لتثبيت الحبال التي تهتز وكان يمسك بها خاسار. اختفى هو أيضاً من فوق الحافة.

انتظر جنكيز بنفاد صبر بزوغ الفجر. كان قد أرسل مستطلعين إلى أبعد مكان يمكنهم الوصول إليه في الممر، لهذا عاد بعضهم وسهام مغروسة في دروعهم. كان آخرهم قد عاد إلى المعسكر عند غروب الشمس، وسهمان يبرزان من ظهره. كان أحدهما قد نفذ من الحديد الخارجي وترك شريطاً من الدم يلطّخ قدميه وقائمتي جواده الخلفيتين. سمع جنكيز تقريره قبل أن يتم الاعتناء بجروح الرجل، فقد كان بحاجة للمعلومات.

كان قائد تشن قد ترك الممر مفتوحاً. قبل أن يتراجع المستطلع نتيجة عاصفة السهام التي واجهها، كان قد رأى حصنين كبيرين يلوحان فوق قطعة من الأرض تحتهما. لم يكن جنكيز يشك بأن الجنود داخلهما كانوا مستعدين لإرسال الموت إلى أي شخص يحاول شقّ طريقه بالقوة. كانت حقيقة أن الممر غير مغلق تقلقه. كان ذلك يوحي بأن القائد يريد منه أن يشن هجوماً مباشراً وكان واثقاً أنه يمكن دفع جيش المغول إلى حيث يوجد رجاله وسحقهم في منطقة ضعفهم.

عند بدايته، كان الممر بعرض ميل، لكن تحت الحصنين، كانت الأسوار

الصخرية تضيق إلى مسافة لا تزيد عن بضع عشرات الخطوات. كانت حتى فكرة أن تتم محاصرتهم هناك ويصبحوا غير قادرين على شن هجوم تجعل معدة جنكيز تتقلص، ولهذا أبعدها عن ذهنه حالما خطرت له. كان قد فعل كل ما يستطيعه وسيهاجم شقيقاه حالما تصبح الرؤية كافية للتصويب. لم يكن يستطيع إعادتهما إليه، حتى إذا وجد خطة أفضل في اللحظات الأخيرة. كانا ضائعين بالنسبة إليه، تخفيهما الجبال والثلوج.

كانت العاصفة قد هدأت على الأقل. نظر جنكيز إلى النجوم، التي كانت تكشف الحشد الكبير من الأسرى الذين ساقهم إلى بداية الممر. كانوا سينطلقون في مقدمة جيشه، ويتلقون سهام رماة تشن. إذا خرج من الحصنين زيت ناري، سيتحمل الأسرى الحروق التي ستنجم عن ذلك.

كان الهواء شديد البرودة في الليل، لذلك لم يستطع النوم وسحب أنفاساً عميقة، وشعر بالصقيع يدخل رئتيه. لم يكن الفجر بعيداً. قلّب خططه مرة أخرى، لكن لم يكن هناك شيء آخر ليفعله. كان رجاله مستعدين تماماً، وأفضل مما كانوا عليه منذ شهور. كان أولئك الذين سيقودون الرجال إلى الممر محاربين متمرّسين يرتدون دروعاً جيدة. كان قد زوّد الصفوف الأولى للرجال بالرماح، لمساعدتهم في دفع الأسرى إلى الأمام. كانت ذئاب تسوبودي الفتية ستسير خلفهم، ثم محاربو أرسلان وجيلم. كانوا عشرين ألفاً لن يهربوا مهما حمي وطيس المعركة.

شهر جنكيز سيف والده، ورأى قبضة رأس الذئب تلمع في ضوء النجوم. لوّح به في يده، وجأر بينما كان يفعل ذلك. كان المعسكر صامتاً من حوله، على الرغم من وجود عيون تراقب دائماً. كان قد أخضع جسده لتدريب علّمه إياه أرسلان لتمرين عضلاته وجعله قوياً. كان الراهب ياو شو يدرّب أبناءه بشكل مماثل، ويقوي أجسادهم مثل أي أداة أخرى. تعرّق جنكيز بينما كان يستعمل سيفه على تلك الحال. لم يكن بسرعة الضوء كما كان من قبل، لكن قوته كانت

قد ازدادت وكان لا يزال رشيقاً على الرغم من ندوب العديد من الجروح القديمة.

لم يكن يرغب بالانتظار حتى الفجر. فكّر في العثور على امرأة، وكان يعرف أنها ستساعد على حرق بعضٍ من طاقته الملتهبة. ستكون زوجته الأولى بورت نائمة في الخيمة، محاطة بأبنائه. كانت زوجته الثانية لا تزال ترضع ابنتهما الصغيرة. عند ذلك أشرق وجهه.

أغمد سيفه بينما كان يمشي بخطوات واسعة عبر المعسكر إلى خيمة تشاكاهي، التي كانت تنتصب في مكانها. ضحك بصوت خافت بينما كان يمشي. امرأة دافئة ومعركة قادمة. كانت الحياة في مثل تلك الليلة أمراً رائعاً.

في خيمته، كان القائد زهي زهونغ يرتشف كوباً من شراب الأرز الساخن، وقد جافاه الكرى. كان الشتاء قد أطبق على الجبال واعتقد أنه يستطيع قضاء أبرد الشهور في الميدان مع جيشه. لم تكن تلك فكرة تبعث على السرور. كان لديه أحد عشر ابناً مع ثلاث زوجات في ينكينغ، وعندما كان في الوطن، كان هناك دائماً شيء يشتت انتباهه. اكتشف أن رتابة حياة المعسكر مريحة مقارنة بما كان يحدث، ربما لأنه كان قد اختبره طيلة حياته. حتى هناك في الظلام، كان يسمع تمتمة كلمات السر عند تغيير الحراس وشعر بشيء من الطمأنينة. لطالما كان النوم يداعبه ببطء وكان يعرف أن جزءاً من أسطورته بين الرجال أن يبقى مستيقظاً ليلة بعد أخرى، وأضواء المصابيح ظاهرة عبر القماش السميك لخيمة القيادة. كان ينام أحياناً والمصابيح لا تزال مشتعلة، لكن الحراس كانوا يعتقدون أنه لا يحتاج إلى الراحة مثلهم. كان يعتقد أن زيادة دهشتهم ليس بالأمر السيّئ. كان الرجال بحاجة لقائد لا تظهر عليه أي من علامات ضعفهم.

فكّر في الجيش الكبير حوله والاستعدادات التي كان قد أجراها. كانت أفواج حملة السيوف والرماح تفوق لوحدها محاربي المغول عدداً. كان إطعام مثل ذلك العدد الكبير يعني ببساطة إفراغ مخازن ينكينغ. لم يكن بمقدور التجار

سوى النحيب غير مصدّقين ما يرونه عندما عرض عليهم الوثائق التي كان الإمبراطور قد وقّعها. جعلته الذكرى يبتسم. كان باعة الحبوب البدينون أولئك يعتقدون أنهم قلب المدينة. كان مسلياً بالنسبة لزهي زهونغ أن يذكّرهم بمكمن القوة الحقيقية. من دون الجيش، لم تكن بيوتهم الفخمة تساوي شيئاً.

كان إطعام مئتي ألف رجل كل الشتاء سيحول المزارعين إلى متسولين على بعد ألف ميل شرقاً وجنوباً. هزّ زهي زهونغ رأسه عندما خطرت له تلك الفكرة، وكان ذهنه مشغولاً للغاية بالتفكير في محاولة النوم. ما الخيار الذي لديه؟ لم يكن أحد يقاتل في الشتاء، لكنه لا يستطيع ترك الممر من دون حراسة. حتى الإمبراطور الشاب يفهم أنه قد تنقضي شهور قبل أن تندلع المعركة. عندما يأتي المغول في الربيع، سيكون لا يزال هناك. تساءل زهي زهونغ مرتاحاً إن كان خانهم يعاني من مشكلات التموين نفسها التي يعاني منها. كان يشك بذلك. ربما كان رجال القبائل يأكلون بعضهم ويعتبرون ذلك شهياً.

ارتعش عندما تسلل هواء الليل البارد إلى خيمته، وشدّ بطانياته حول كتفيه الضخمين. لم يكن شيء قد بقي على حاله منذ توفي الإمبراطور العجوز. كان زهي زهونغ قد منح ولاءه المطلق للرجل الذي يوقر. في الحقيقة، كان العالم قد اهتز عندما توفي أخيراً، وقُضي الأمر بينما كان نائماً بعد مرض طويل. هزّ رأسه، حزيناً. لم يكن الابن مثل الأب. بالنسبة لجيل القائد، لم يكن هناك سوى إمبراطور واحد. كانت رؤية شاب يفتقر للخبرة على عرش الإمبراطورية تنهش أسس حياته بأكملها. كانت تلك نهاية حقبة وربما كان ينبغي عليه أن يتقاعد مع موت الرجل العجوز. كان ذلك رد فعل مناسب ويستحقّ التقدير. بدلاً من ذلك، كان قد تريث قليلاً ليرى تنصيب الإمبراطور الجديد ثم جاء المغول. لم يكن التقاعد ليتحقق قبل سنة أخرى، على الأقل.

كشّر زهي زهونغ عندما وجد البرد طريقه إلى عظامه. تذكر أن المغول لا يشعرون بالبرد. كان يبدو أنهم قادرين على تحمّله مثل ثعلب بري، من دون

شيء يحميهم سوى طبقة وحيدة من الفراء فوق جلودهم العارية. كانوا يثيرون اشمئزازه. لم يكونوا يبنون شيئاً، أو يحققوا شيئاً خلال حياتهم القصيرة. كان الإمبراطور القديم قد أبقاهم في مكانهم، لكن العالم قد تغير وقد تجرأوا الآن على تهديد بوابات المدينة العظيمة. لن يرحمهم عندما تنتهي المعركة. إذا سمح لرجاله بالعبث كما يحلو لهم في معسكرهم، فمن يبقى من القبائل سيربي ألف طفل ستلده نساؤهم بعد فترة. لن يسمح لهم بالتوالد مثل القمل لتهديد ينكينغ مجدداً. لن يرتاح حتى يقع آخرهم ميتاً وتصبح الأرض خاوية. سيحرقهم جميعاً، وفي المستقبل، إذا تجرأ عرق آخر على الوقوف ضد تشن، ربما سيتذكر المغول ويتخلى عن مكائده وطموحاته. كان ذلك ردّ الفعل الوحيد الذي يستحقونه. ربما تكون تلك هي الأسطورة التي سيتركها عندما يتقاعد، والثأر الدموي والنهائي الذي ستتردّد أصداؤه عبر القرون القادمة. سيكون الموت لأمة بأكملها. كان الخلود من نوع ما هي الفكرة التي أسعدته. تواردت الأفكار في ذهنه عندما كان المعسكر نائماً. قرر أن يترك المصابيح مشتعلة وتساءل إن كان سينام على الإطلاق.

عندما ظهرت خيوط الفجر الأولى خلف الجبال، نظر جنكيز إلى الغيوم التي لفّت القمم العالية. كانت السهول في الأسفل لا تزال غارقة في الظلام وشعر بخفقان قلبه يزداد لرؤية ذلك المشهد. كان جيش الأسرى الذي سيدفعه عبر الممر يلتزم الصمت. كان شعبه قد تجمّع خلف فرسانه، وأياديهم تمسك بالرماح والأقواس منتظرين أمره. لم يكن سيبقى سوى ألف فقط في الخلف لحماية النساء والأولاد في المعسكر. لم يكن هناك أي خطر. سيتم التصدي لأي تهديد على السهول وسحقه.

شدّ جنكيز يديه على لجام جواده البني. عند أول إشارة على بزوغ الفجر، بدأ الفتيان بقرع الطبول ووصل صوت الحرب إلى أذنيه. انتظر ألف منهم في صفوف مع طبول مربوطة إلى صدورهم. ترددت أصداء الصوت الذي صدر

عنهم عن الجبال وجعلت نبضه يتسارع. كان شقيقاه في مكان ما متقدم، متجمدين تقريباً بعد رحلتهما عبر الجبال العالية. كانت تقع خلفهم المدينة التي نثرت بذور تشن بين شعبه طيلة ألف سنة، ترشوهم وتذبحهم مثل قطيع من الكلاب عندما ترى ضرورة لذلك. ابتسم لنفسه من تلك الصورة، متسائلاً عن مكانة ابنه جوشي فيها.

كانت الشمس مخفية عندما ارتفعت فوقهم، ثم خلال لحظة، أضاء السهول لون ذهبي وشعر جنكيز بالدفء يمس وجهه. ارتفع بصره عن الأرض. لقد حان الوقت.

الفصل الثاني والعشرون

انتظر كشيون بينما كان الفجر يرسم ظلالاً من الأشجار. كان جنكيز سيتحرك عبر الممر بأسرع ما يستطيع، لكن الوصول إلى جيش تشن الرئيسي سيستغرق منه بعض الوقت. كان الرجال حول كشيون يقومون بتجهيز أقواسهم ويفكّون السهام المربوطة بإحكام في كناناتهم. كان اثنا عشر رجلاً قد لقوا حتفهم في الممرات العالية، وانفجرت قلوبهم في صدورهم فيما كانوا يلهثون في الهواء الرقيق. كان ألف آخرون قد ذهبوا مع خاسار. حتى من دون هؤلاء، كان لا يزال ممكناً إطلاق تسعمئة ألف سهم على عدوهم عندما يحين الوقت.

كان كشيون قد بحث من دون جدوى عن مكان لا تكون فيه صفوف الرجال مرئية لتشن، لكنه لم يجده. سيكون رجاله مكشوفين في الوادي، وليس لديهم سوى وابل من السهام لصدّ أي هجوم عليهم. فامتعض كشيون من تلك الفكرة.

وبالكاد كان النشاط قد دّب في معسكر تشن في برد الفجر. كان الثلج قد أزال علاماتهم الفارقة هناك، وبدت الخيم الباهتة جميلة ومتجمدة، والمكان هادئاً لا يوحي بعدد الرجال المقاتلين داخله. كان كشيون يفتخر بحدّة بصره، لكن لم يكن هناك إشارة على أن جنكيز قد تحرك أخيراً. تغير الحراس عند الفجر، واتجه المئات منهم عائدين إلى خيامهم لتناول الطعام والنوم فيما تمركز آخرون في مكانهم. لم يكن الذعر قد دبّ فيهم بعد.

كان كشيون قد شعر باحترام ممزوج بالضغينة للقائد الذي نظّم المعسكر البعيد. قبل الفجر تماماً، تم إرسال فرسان لاستطلاع الوادي، وساروا على امتداده إلى الجنوب قبل أن يعودوا. كان واضحاً أنهم لا يتوقعون أن يكون العدو قريباً، وكان كشيون قد سمعهم يتنادون في أثناء انطلاقهم، من دون أن ينظروا إلى القمم وسفوح الجبال. لا شك أنهم كانوا يعتقدون أنها مهمة سهلة أن يقضوا الشتاء دافئين مطمئنين، محاطين بذلك العدد الكبير من السيوف.

فزع كشيون عندما ربت أحد الضباط على كتفه ودفع بشطيرة من اللحم والخبز في يده. كانت دافئة ورطبة نتيجة التصاقها بجلد شخص ما، لكن كشيون كان قلقاً وأومأ فقط شاكراً فيما كانت أسنانه تقضمها. كان سيحتاج إلى كل قوته. حتى بالنسبة لرجال كانوا قد ولدوا مع قوس، كان رمي مئة قوس بسرعة كبيرة سيترك أكتافهم وأذرعهم تضج ألماً. همس بأمر للرجال لتشكيل ثنائيات في أثناء انتظارهم، والاستفادة من ثقل الشخص الآخر لتليين العضلات وإبقاء البرد بعيداً. كان المحاربون كلهم يعرفون فائدة مثل ذلك العمل. لم يكن أحدهم يرغب بأن يفشل عندما تحين اللحظة.

كان معسكر تشن لا يزال هادئاً. ابتلع كشيون آخر قطعة خبز بعصبية، وملأ فمه بالثلج حتى أصبح رطباً بما يكفي لينزلق الطعام عبر حلقه. كان عليه توقيت هجومه بشكل ممتاز. إذا انطلق قبل أن يصبح جنكيز تحت الأنظار، فسيتمكّن قائد تشن من تحويل جزء من جيشه الضخم لسحق رماة كشيون. إذا تأخر في ذلك، سيفقد جنكيز ميزة الهجوم الثاني وربما يلقى حتفه.

بدأت عينا كشيون تؤلمانه من جهد التحديق إلى مسافة بعيدة. لم يكن يجرؤ على النظر بعيداً.

بدأ الأسرى يتأوهون عندما تحركوا نحو الممر، مستشعرين ما ينتظرهم. كانت الصفوف الأولى من الفرسان المغول تسد طريق العودة ولهذا لم يكن لديهم خيار سوى الهرولة إلى الأمام. رأى جنكيز بعضاً من الشباب يندفعون بين اثنين من محاربيه. راقبت آلاف العيون محاولة الهرب باهتمام شديد، ثم أشاحت بأبصارها عندما تم قطع رؤوس الرجال بضربات سريعة.

تردّدت أصداء الطبول، والجياد والرجال، من الأسوار العالية للممر عندما دخلوا إليه. بعيداً في الأمام، كان مستطلعو تشن يتسابقون عائدين يحملون الأنباء لقائدهم. كان العدو سيعرف أنه قادم، لكنه لم يكن يعتمد على المفاجأة.

مشى حشد الأسرى مجهداً إلى الأمام على الأرض الصخرية، ينتظر برعب

الإشارة الأولى من رماة تشن. كان التقدم بطيئاً مع وجود أكثر من ثلاثين ألف رجل يمشون أمام فرسان المغول وقد وقع بعضهم، واستلقوا مرهقين على الأرض عندما وصل إليهم الفرسان. طُعنوا أيضاً بالرماح سواءً أقاتلوا أم لا. تم حثّ الآخرين على المضي قدماً بصرخات حادة من رجال القبائل، كما لو أنهم يزعقون ويصيحون على ماعز في الوطن. كان الصوت المألوف غريباً في مثل ذلك المكان. ألقى جنكيز نظرة أخيرة على صفوفه، ولاحظ موقع قادته الموثوقين قبل أن يحدّق بتوق إلى الأمام. كان طول الممر ميلين ولن يستدير عائداً.

رأى كشيون حركة تتسم بالذعر في معسكر تشن أخيراً. كان جنكيز يتحرك وكان النبأ قد وصل إلى الرجل في القيادة. قاد الفرسان جيادهم خبباً بين الخيام، وكانت تلك أفضل الجياد التي يراها كشيون حتى ذلك الوقت. ربما كان الإمبراطور يحتفظ بأفضل السلالات لجيشه الإمبراطوري. كانت الجياد أكبر من الجياد التي يعرفها وتلمع في شمس الفجر بينما كان فرسانها ينتظمون بالتشكيل في مواجهة ممر بادغر.

استطاع كشيون رؤية أفواج من حملة الأقواس والرمّاحين يسرعون إلى الصفوف الأولى وقد فزع من عددهم الكبير. قد يبتلع مثل ذلك الحشد الضخم شقيقه في هجوم واحد. كان تكتيكه المفضل في تطويق العدو مستحيلاً في ذلك المكان الضيق.

استدار كشيون إلى الرجال خلفه ووجد أنهم يحدّقون اتجاهه، ينتظرون الكلمة.

"عندما أُصدر الأمر، اخرجوا من أماكنكم مسرعين. سنشكل ثلاثة صفوف عبر الوادي، ونقترب منهم قدر المستطاع. لن تستطيعوا سماعي من صوت الأقواس، لهذا أصدروا أمراً بإطلاق عشرين سهماً ثم التوقف. سأقف وأقوم بإنزال ذراعي لإطلاق عشرين أخرى".

قال رجل من وراء كتفه، وهو يحدق إلى ما وراء كشيون: "فرسانهم مدرعون.

سيسحقوننا". كانوا جميعاً فرساناً. كانت فكرة وقوفهم وحيدين ضد هجوم تنافي كل ما كانوا يعرفونه.

قال كشيون: "لا. لا شيء في العالم يمكنه أن يقف أمام شعبي المسلح بالأقواس. ستجعل السهام العشرون الأولى الذعر يدب بينهم، ثم سنتقدم. إذا هجموا علينا، وسيفعلون ذلك، سنضع سهماً طويلاً في حنجرة كل رجل".

نظر مجدداً إلى وادي معسكر تشن. كان يبدو آنذاك كما لو أن شخصاً ركل جحر نمل. كان جنكيز قادماً.

تمتم كشيون: "انقلوا الأمر ليكون الرجال مستعدين". سال العرق على جبينه. كان ينبغي أن يكون تقديره ممتازاً. "سننتظر قليلاً. عندما ننطلق، سننطلق مسرعين".

في منتصف الطريق تقريباً داخل الممر، وصل الأسرى إلى مواقع رماة السهام الأولى. كان جنود تشن قد اتخذوا مواقع على مصاطب صخرية على ارتفاع خمسين قدماً فوق الأرض. رآهم الأسرى أولاً وابتعدوا عن الجانبين، وتباطأ الجميع عندما تمركزوا في الوسط. كانت إصابات جنود تشن محققة وأرسلوا سهاماً تطن على الحشد. عندما تعالت الصرخات، رفعت الصفوف الثلاثة الأولى مع جنكيز أقواسها. كان كل منهم يستطيع إصابة جناح طائر، أو ثلاثة رجال في صف وهو يقود فرساً تعدو بأقصى سرعتها. عندما أصبحوا في نطاق الرمي، اندفعت سهامهم في الهواء. وقع الجنود على رؤوس أولئك المارين في الأسفل. ترك المحاربون الصدوع الدامية خلفهم وتابعوا طريقهم بعد أن أرغموا الأسرى الذين ينتحبون على الهرولة.

ظهرت الثغرة الأولى بين صدعين صخريين كبيرين بعد مسافة قصيرة داخل الممر. تدافع الأسرى نحوها، وترنحوا وهم يركضون بينما كان المغول يصرخون بوجوههم ويدفعونهم برماحهم. استطاعوا جميعاً رؤية الحصنين الكبيرين اللذين يهيمنان على الممر الوحيد بينهما. كانت تلك أبعد نقطة استطاع أي

مستطلع رؤيتها قبل أن يعود أدراجه. بعد ذلك، كانوا على أرض جديدة ولم يكن أحد يعرف ما ينتظرهم.

كان خاسار يتصبب عرقاً. استغرق الأمر وقتاً طويلاً لهبوط ألف رجل باستعمال ثلاثة حبال فقط، وكلما كان المزيد منهم يصل سالماً إلى الأرض المنبسطة، كان ذلك يغريه بأن يترك الآخرين. كان الثلج عميقاً بما يكفي ليغوص الرجال حتى وسطهم عندما يتحركون ولم يعد يعتقد آنذاك أن الدرب كان مسلك صيد للرجال في الحصن، إلا إن كان لم ينتبه إلى درجات محفورة في الصخور. كان رجاله قد اكتشفوا طريقهم إلى مؤخّر الحصن، لكن في الظلام، لم يستطع رؤية طريق للدخول إليه. مثل نظيره إلى الجانب الآخر من الممر، كان الحصن مصمماً ليكون منيعاً على أي شخص يعبر ممر بادغر. وفقاً لما يعرفه، كان يتم سحب أولئك الذين يتمكنون من ذلك إلى الأعلى بالحبال.

كان ثلاثة من رجاله قد وقعوا في أثناء نزولهم، وعكس كل التوقعات، كان أحدهم قد نجا بعد أن هبط على كتلة ثلج عميقة وكان ينبغي بمرافقي المحارب المذهول أن يسارعوا لإخراجه من ذلك المكان. لم يكن الآخران محظوظين واصطدما بصخور مكشوفة. لم يصرخ أي منهما وكان الصوت الوحيد المسموع هو نعيب بوم الليل العائد إلى أعشاشه.

عندما بزغ الفجر، كان خاسار قد نقل الرجال عبر الثلج الكثيف، وكان أولهم يحقق تقدماً بطيئاً وهم يخوضون فيه. لاح الحصن أسودَ فوق رؤوسهم ولم يكن بوسع خاسار سوى أن يطلق اللعنات محبطاً، مقتنعاً أنه كان قد فصل عُشر قوة كشيون دونما سبب وجيه.

عندما وصل إلى درب على مساره، شعر بالإثارة. بالقرب منه، وجدوا كومة كبيرة من الحطب، مخفية عن الممر في الأسفل. كان يبدو منطقياً أن يحصل محاربو تشن على الحطب من المنحدرات الصخرية خلفهم، ويكدّسونه لاستعماله في الشتاء الطويل. وجد أحد رجال خاسار فأساً طويلة اليد مخفية في

الحطب. كان النصل مطلياً بالزيت ولا تظهر عليه سوى بقع من الصدأ. ابتسم عندما رآها، وعرف أنه لا بد من وجود طريق للدخول إلى الحصن.

تجمد خاسار مكانه عندما سمع وقع أقدام وأصوات عويل الأسرى من بعيد. كان جنكيز قادماً وكان لا يزال في موقع لا يمكنه فيه مساعدة شقيقيه.

قال للرجال حوله: "لا مزيد من الحذر. ينبغي أن ندخل إلى ذلك الحصن. تقدموا إلى الأمام واعثروا على الباب الذي يستعملونه لإدخال الحطب".

اندفع مسرعاً ثم لحقوا به، يرفعون سيوفهم وأقواسهم في أثناء ذلك.

كان القائد زهي زهونغ في وسط دوامة من المبعوثين الذين يركضون من حوله، ويصدر أوامره بالسرعة التي يتلقى بها الأنباء. لم يكن قد نام، لكن ذهنه كان يتقد طاقة وسخطاً. على الرغم من أن العاصفة قد انتهت، إلا أن الهواء كان لا يزال شديد البرودة والجليد يمتد على أرض الممر ويغطي المنحدرات حوله. كانت الأراضي المتجمدة ستجعل السيوف تنزلق. كانت الجياد ستقع وسيشعر كل رجل هناك بأن البرد يسرق قوته. نظر القائد بكآبة إلى حيث كان حطب الطهي معدّاً لكن أحداً لم يشعله بعد. كان سيأمر بتحضير الطعام الساخن، لكن الإنذار انطلق قبل أن يأكل جيشه ولم يكن لديه وقت لذلك آنذاك. لا أحد يذهب إلى الحرب في الشتاء، كما حدّث نفسه، وسخر من اليقين الذي شعر به في الليل.

كان قد استقر عند نهاية الممر طيلة شهور بينما نهب جيش المغول الأراضي التي خلفه. كان رجاله مستعدين. عندما يصبح المغول ضمن المدى، سيتلقون ألف سهم كل عشر دقات للقلب وكانت تلك هي البداية فقط. ارتعش زهي زهونغ عندما هبت الريح، وعصفت بالمعسكر. كان قد أحضرهم إلى المكان الوحيد الذي لا يمكنهم فيه استعمال تكتيكات حرب السهول. كان ممر بادغر سيحرس جناحي الجيش أفضل من أي قوة من الرجال. ليأتوا، كما اعتقد.

نظر جنكيز شزراً إلى الأمام عندما تدفق الأسرى تحت الحصنين. كان الممر

مزدحماً بالرجال البعيدين جداً عن قومه وبالكاد كان يستطيع رؤية ما يحدث. من بعيد، سمع صرخات تعود مع الهواء المتجمد ورأى نيراناً تندلع فجأة. كان الأسرى في الخلف قد رأوها أيضاً وترنحوا في الحشد المجنون أمام فرسانه، خائفين. من دون أمر منه، نزلت الرماح وأرغمتهم على التحرك إلى الأمام نحو الفتحة بين الحصنين. بغض النظر عن الأسلحة التي يمتلكها تشن، كان من الصعب إيقاف ثلاثين ألف أسير. كان بعضهم قد تجاوز الثغرة آنذاك واندفعوا وراءها. اندفع جنكيز على جواده وكان يأمل فقط بأنه في الوقت الذي يصبح فيه تحت الحصنين، سيكون جنود تشن قد استنفدوا زيتهم وسهامهم. استلقت الجثث ساكنة على الأرض، وكان هناك المزيد منها كلما اقترب من المكان الضيق.

فوق رأسه، رأى جنكيز رماة على الحصنين، لكن لدهشته، كان يبدو أنهم يسددون على الممر نفسه، يطلقون سهماً إثر آخر على رجالهم. لم يفهم الأمر وسيطر القلق على أفكاره من ذلك التطور. على الرغم من أن الأمر بدا هدية، إلا أنه لم يكن يحب المفاجآت عندما يندفع إلى مثل ذلك المكان. شعر بالأسوار الصخرية تضغط عليه، وترغمه على متابعة الطريق.

سمع بالقرب من الحصنين ضربات مكتومة لمنجنيقات، وكان ذلك صوتاً يعرفه جيداً ويفهمه. رأى سحابة دخان تنتشر في الهواء فوق الممر واندلعت النيران فوق أسوار الحصن إلى يساره. سقط الرماة محترقين من منصاتهم وتعالت الهتافات من الجانب الآخر. شعر جنكيز بقلبه يقفز من مكانه. لم يكن هناك سوى تفسير واحد وجأر بأوامر لتقليص عرض الرتل حتى يمر من الطرف الأيمن لممر بادغر، بعيداً عن اليسار قدر ما يستطيع أفراده.

كان كشيون أو خاسار قد استولى على الحصن. أياً يكن الشخص الموجود في الأعلى، سيكرّمه جنكيز عندما تنتهي المعركة، إذا بقي كلاهما على قيد الحياة.

كانت الكثير من الجثث تستلقي على أرض الممر، لهذا كان على جواده أن يخطو عليها، وصهل بانزعاج. شعر جنكيز بقلبه يخفق خوفاً عندما اعترض ظل

وجهه. كان أسفل الحصنين تقريباً، في قلب منطقة القتل التي صممها نبلاء تشن منذ أمد طويل. كان آلاف من أسراه قد ماتوا وكانت هناك أماكن يصعب رؤية الأرض فيها من الجثث. على الرغم من ذلك، كانت طليعة جيشه المرهقة قد اندفعت إلى الأمام، وأفرادها يركضون آنذاك مطلقين صرخات مرعبة. لم تكن قبائل المغول نفسها قد خسرت رجلاً واحداً وتهلل جنكيز فرحاً. مر أسفل الحصن إلى الجهة اليمنى، وصرخ عالياً بأفراد قومه الموجودين فيه والذين كانوا قد شقوا طريقهم بالقوة إليه. لم يكونوا يستطيعون سماعه، وبالكاد استطاع سماع نفسه.

انحنى إلى الأمام على السرج، يريد أن يحث فرسه على الجري عدواً. كان من الصعب جعل جواده يُهرول والسهام في الجو، إلا أنه سيطر على نفسه، ورفع يداً مبسوطة الكف لجعل الرجال يقفون في أماكنهم. كان أحد الحصنين يحترق من الداخل، وألسنة اللهب تشتعل في فتحات الرماية. عندما نظر جنكيز إلى الأعلى، انهارت منصة خشبية اشتعلت بها النيران، وسقطت على الأرض أسفلها. صهلت الجياد خوفاً واندفع بعضها إلى الأمام، تجري في أعقاب الأسرى.

وقف جنكيز على السرج لينظر إلى الممر. ابتلع ريقه بعصبية عندما رأى خطاً داكناً يعبر نهايته. كان الممر هناك ضيقاً مثل الثغرة بين الحصنين، ويشكل دفاعاً طبيعياً ممتازاً. لم تكن هناك طريقة للمرور سوى بتدمير جيش إمبراطور تشن. كان الأسرى قد وصلوا عندها إلى هناك وسمع جنكيز آنذاك قرقعة وابل من السهام مثل الرعد، وكان صوتها عالياً في المكان المحصور لدرجة أنها أذت أذنيه مع كل ضربة.

اندفع الأسرى يتخبطون من خوفهم، والسهام تنهمر عليهم بينما كان كل رجل يتلقى المزيد والمزيد من الضربات، ثم يدور ويتمزق إرباً وهو يسقط. ركضوا نحو عاصفة من النصال وكشف جنكيز عن أسنانه، وكان يعرف أن دوره سيأتي.

كان مبعوث القائد شاحباً من الخوف، ولا يزال يرتعش مما رآه. لم يكن شيء في حياته العملية حتى تلك اللحظة قد جعله مستعداً لرؤية مذبحة الممر.

قال: "لقد استولوا على أحد الحصنين أيها القائد، وحوّلوا المنجنيقات على الآخر".

نظر القائد زهي زهونغ بهدوء إلى الرجل، منزعجاً من الخوف الذي أظهره.

ذكّر الرجل: "لا يمكن للحصنين سوى التخفيف من أعدادهم. سنوقفهم هنا". بدا أن المبعوث يستمد الثقة من القائد الرصين وأخرج زفيراً طويلاً.

انتظر زهي زهونغ أن يسيطر المراسل على نفسه، ثم أشار إلى أحد الجنود القريبين منه.

قال: "خذ هذا الرجل واجلده حتى ينسلخ الجلد عن ظهره". فغر المبعوث فمه عندما سمع الأمر. "عندما يتعلم الشجاعة، يمكنك أن تترفق به، أو عندما يتلقى ستين ضربة بالعصا، أيهما يأتي أولاً".

أحنى المبعوث رأسه خجلاً بينما كان يتم اقتياده بعيداً، وللمرة الأولى ذلك الصباح، أضحى زهي زهونغ وحيداً. أطلق لعنة بصوت خافت للحظة قبل أن يخرج من خيمته بخطوات واسعة، متعطشاً للمعلومات. كان يعرف آنذاك أن المغول يدفعون أسرى تشن أمامهم، وأنهم يتصدّون للدفاعات بأفراد من شعبه. كان زهي زهونغ يستحسن التكتيك بصمت، حتى عندما كان يفكر بطريقة لمواجهته. يمكن أن يكون عشرات آلاف الرجال غير المسلحين بخطورة جيش إذا وصلوا إلى خطوطه. سيسببون الإرباك لفرق رماة السهام التي كان قد نشرها على طول الممر. أمر جندياً ينتظر أن يرسل عربات جديدة من السهام إلى الجبهة وراقبه بينما كان يجري مبتعداً.

كان الخان ذكياً، لكن الأسرى سيشكلون درعاً حتى يموتوا فقط وكان زهي زهونغ لا يزال واثقاً من نفسه. كان ينبغي على المغول أن يقاتلوا من أجل كل قدم. من دون وجود مساحة للمناورة، سيتم سحبهم وذبحهم.

انتظر، متسائلاً إن كان ينبغي عليه الاقتراب أكثر من جبهة القتال. من مكانه البعيد عنها، كان يستطيع رؤية دخان أسود يرتفع من الحصن المستولى عليه وأطلق اللعنات مجدداً. كانت خسارة مذلة، لكن الإمبراطور لن يهتم عندما يموت آخر رجل من القبائل.

كان زهي زهونغ يأمل بقتل العديد منهم قبل أن يفتح الممر أمام جيشه، ويضغط عليهم أكثر. سوف يتسابقون إلى الأمام نحو الثغرة ويكتشفون أنهم عرضة للهجوم من كل جانب، وستضيع طليعة جيشهم في حشد من الجنود المتمرسين. كان ذلك تكتيكاً جيداً. كان البديل إغلاق الممر تماماً. كان قد خطط لكلا الأمرين ووازن بينهما. هدأ نبض قلبه المتسارع، وأظهر أنه واثق من نفسه للرجال من حوله. بيد ثابتة، تناول دورق ماء وسكب كوباً، وأخذ يرتشف بينما كان يحدّق إلى الممر.

من طرف عينه، رأى حركة في الوادي المغطى بالثلج. نظر إلى هناك وتجمد للحظة. كانت خطوط داكنة من الرجال تخرج من بين الأشجار، تشكل صفوفاً بينما كان يراقب ما يجري.

ألقى زهي زهونغ الدورق جانباً بينما كان المبعوثون يتسابقون عبر المعسكر لينقلوا إليه آخر التطورات. لم يكن من الممكن تسلق القمم. كان ذلك مستحيلاً. حتى في صدمته، لم يتردد، وأصدر أوامر قبل أن يصل المبعوثون إليه.

جأر: "لتنتظم فرق الفرسان من واحد إلى عشرين في التشكيل! حافظوا على الجناح الأيسر واكتسحوا تلك الصفوف". تسابق الفرسان لنقل الأوامر وبدأت نصف قوة فرسانه الانفصال عن الجيش الرئيسي. راقب تشكيل خطوط المغول، التي تخطو عبر الثلج نحوه. لم يسمح لنفسه بأن يشعر بالذعر. كانوا قد تسلقوا القمم سيراً على الأقدام وسيكونون مرهقين. سيقضي عليهم رجاله.

بدا أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً من عشرين ألف فارس إمبراطوري لتشكيل صفوف على الجناح الأيسر، وعند ذلك، كانت خطوط المغول قد توقفت. شدّ

زهي زهونغ قبضتيه فيما كانت الأوامر تنتقل ذهاباً وإياباً على طول الصف وبدأ فرسانه يدفعون جيادهم للجري هرولة نحو العدو، الذي يقف في الثلج. لم يكن يستطيع رؤية أكثر من عشرة آلاف منهم، على الأكثر. لم يكن المشاة يستطيعون الوقوف ضد هجوم منضبط. سيتم تدميرهم.

فيما كان القائد يراقب، زاد فرسانه من سرعتهم، ورفعوا سيوفهم لتحصد رؤوساً. أرغم نفسه على النظر إلى الخلف إلى الممر، وفمه جافّ. كانوا قد دفعوا الأسرى أمامهم، استولوا على أحد الحصنين والتفوا حوله من فوق القمم. إذا كان ذلك كل ما لديهم، سوف يستطيع على الرغم من ذلك تحطيمهم. للحظة، اهتزت ثقته بنفسه وفكر بإغلاق الممر. لا، لم يصل الأمر إلى ذلك الحدّ بعد. كان احترامه لخان المغول قد ازداد كثيراً، لكن القائد بقي واثقاً فيما كانت صرخات فرسانه تتردد في أنحاء الوادي.

الفصل الثالث والعشرون

على بعد تسعمئة خطوة، دفع فرسان تشن جيادهم للجري بأقصى سرعة. كان ذلك مبكراً للغاية، كما ظنّ كشيون. وقف بهدوء يراقب مع تسعة آلاف رجل كانوا برفقته. على الأقل لم يكن الوادي عريضاً جداً بحيث يمكن تطويقه بسهولة. كان يشعر بعصبية الرجال من حوله. لم يكن أحد منهم قد واجه أبداً هجوماً سيراً على الأقدام، وفهموا ما يشعر به عدوهم بالتأكيد. لمعت أشعة الشمس على دروع تشن والسيوف التي رفعها الفرسان، مستعدين لسحق الصف.

صرخ كشيون: "تذكروا هذا! لم يقابلنا هؤلاء الرجال في الحرب من قبل. لا يعرفون ما يمكننا القيام به. سهم واحد لإيقاعهم أرضاً، ثم آخر لقتلهم. اختاروا رجالكم وعند إشارتي، أطلقوا عشرين!".

سحب قوسه إلى الخلف حتى أذنه، وشعر بقوة ذراعه اليمنى. كان قد تدرب طيلة سنوات لهذا الغرض، وقام ببناء عضلات حتى أضحت مثل الحديد. لم تكن ذراعه اليسرى بقوة اليمنى وكانت كتلة العضلات على كتفه تجعله يبدو مائلاً عندما يكون عاري الصدر. شعر بالأرض تهتز بينما كان حشد الفرسان يقترب منهم. على بعد ستمئة خطوة، جال ببصره على صفوفه، وخاطر بإلقاء نظرة على الرجال في الخلف. كانوا قد شدّوا أقواسهم، مستعدين لإرسال الموت إلى العدو. كان جنود تشن يصرخون في أثناء اقترابهم، وصوتهم يملأ الوادي ويصل إلى خطوط المغول الصامتة. كانوا مسلحين جيداً ويرتدون دروعاً ستحميهم من العديد من السهام. لاحظ كشيون كل تفصيل عندما اقتربوا بسرعة مخيفة. كان أبعد مدى للقتل أربعمئة يارد وتركهم يقتربون من دون التعرض لهم. على بعد ثلاثمئة يارد، رأى من طرف عينه أن رجاله ينظرون إليه، منتظرين أن يطلق سهمه.

عند مئتي يارد، كان صف الفرسان يشكل سوراً. شعر كشيون بالخوف يزداد داخله بينما كان يصدر أمره.

صرخ مزمجراً بينما كان يطلق سهمه: "اقضوا عليهم!". انطلق تسعة آلاف سهم في لحظة، تطقطق في الهواء.

ترنح الهجوم كما لو أنه اصطدم بخندق. سقط رجال عن سروجهم ووقعت جياد. ارتطم أولئك الذين في الخلف بهم وجيادهم تعدو بأقصى سرعتها، وعند ذلك، وضع كشيون السهم الثاني على الوتر وسحبه للخلف. انطلق وابل آخر من السهام على الرجال المهاجمين.

لم يكن فرسان تشن يستطيعون التوقف، حتى إذا كانوا قد فهموا ما يجري. انهارت الصفوف الأولى وتلقى أولئك الذين عبروا بجيادهم فوقها موجة أخرى من السهام، وأصيب كل رجل بسهمين أو ثلاثة كانت تنطلق بسرعة لا يمكن معها رؤيتها. أفلت اللجام من الأصابع، وحتى عندما أنقذهم الدرع أو الترس، إلا أن قوة الصدمة الكبيرة قذفت بهم إلى الأرض.

عدّ كشيون بصوتٍ عالٍ بينما كان يطلق السهام، مستهدفاً الوجوه المكشوفة لجنود تشن الذين كانوا يقتربون منه. عندما لم يكن يرى وجهاً، كان يصوب على الصدر ويعتمد على رأس النصل الثقيل ليخترق قطع الحديد. شعر بأن كتفيه بدأتا تؤلمانه عندما وصل إلى السهم الخامس عشر. كان الفرسان المهاجمون قد استنفدوا طاقتهم ولم يقتربوا منهم. مدّ كشيون يده إلى الأسفل ووجد أنه قد استعمل عشرين سهماً.

صرخ، وهو يجري ببطء: "عشرون خطوة إلى الأمام، معي!". مشى رجاله معه، يسحبون حزماً جديدة من السهام من كناناتهم. رآهم جنود تشن يتحركون وكان لا يزال هناك آلاف يكافحون عبر صفوف الموتى. كان العديد منهم قد سقطوا من دون أن يصابوا بجروح، وتعثرت جيادهم بالموتى والحيوانات النافقة. صرخ الضباط بأوامر لاعتلاء الجياد مجدداً وصاح الجنود عندما رأوا المغول

يتقدمون إلى الأمام.

رفع كشيون قبضة ذراعه اليمنى فتوقف الصف. رأى أحد ضباطه يلطم شاباً بقوة كانت كافية لجعله يترنح.

قال الضابط بحدّة: "إذا رأيتك تضرب جواداً آخر، سأقتلك بنفسي!". ضحك كشيون بصوت خافت.

صرخ، وتردد الأمر على طول الصف: "عشرون أخرى! صوّبوا على الرجال!". كان فرسان تشن قد تعافوا من انهيارهم الأول واستطاع رؤية ضباط يعتمرون خوذات عليها ريش يحثّون جنودهم على التقدم إلى الأمام. سدّد كشيون على واحد منهم عندما استدار الرجل على جواده، يلوح بسيف في الهواء.

تبعت تسعة آلاف سهم آخر ذاك الذي أطلقه كشيون وأصاب الرجل في عنقه. عند ذلك المدى، كانوا يستطيعون انتقاء ضحاياهم وكان وابل السهام مدمراً. تحطمت الهجمة الثانية بفعل السهام التي أزّت في الجو وبدأ جنود تشن يشعرون بالذعر. استطاع بضعة رجال الخروج سالمين من تلك الفوضى، والسهام تبرز من دروعهم. على الرغم من أن إصدار الأمر كان مؤلماً، إلا أن كشيون جأر: "الجياد!" للرجال من حوله وسقطت الجياد وقد تحطمت عظامها.

كانت عشرة سهام تنطلق كل ستين دقة قلب ولم يكن هناك تأجيل. مات أكثرهم شجاعة بسرعة ولم يبقَ سوى الضعفاء والخائفين، وحاولوا الاستدارة بجيادهم للعودة إلى رجالهم. كانت الخطوط خلفهم مزدحمة بجياد سقطت بعد تلقيها السهام، وكان فرسانها معلقين على السروج والسهام تبرز من صدروهم.

كانت كتف كشيون تؤلمه عندما أطلق سهمه الأربعين وانتظر حتى ينتهي الرجال حوله من ضرباتهم. كان الوادي أمامهم مليئاً بالدماء والموتى، وكانت هناك بقع حمراء من حوافر الجياد وأقدام الجنود في الثلج. لم تكن لديهم

فرصة لشن هجوم آنذاك وعلى الرغم من أن ضباط تشن كانوا لا يزالون يصرخون بجنودهم لشق طريقهم بالقوة، إلا أنهم لم يكونوا يستطيعون القيام بذلك مرة أخرى.

جرى كشيون إلى الأمام من دون إصدار أمر ولحق به رجاله. عدّ عشرين خطوة، ثم ترك إثارته تتغلب على حكمه الصائب، ومشى عشرين خطوة أخرى حتى أضحى قريباً بشكل خطير من مجموعة من الرجال والجياد المنهارة. كانت مئة يارد فقط تفصل القوتين عندما ألقى كشيون بعشرين سهماً آخر على الثلج الذي لم يمسه أحد وقطع العقدة التي تربطها معاً. انتحب جنود تشن خوفاً عندما رأوا ذلك وتم شدّ الأقواس مجدداً. كان الذعر ينتشر بين صفوفهم وأصابتهم المزيد من السهام مما جعلهم يتشتتون.

في البداية، كان الاضطراب بطيئاً ومات كثيرون كانوا يحاولون الهرب في أثناء دفعهم إلى الأمام من الخلف. أطلق المغول بشكل منهجي على أي شيء يمكنهم رؤيته. سقط الضباط بسرعة وصرخ كشيون بصوتٍ عالٍ عندما رأى الاضطراب ينتشر. تنحّى أولئك الذين لم يكونوا قد اقتربوا من الصفوف الأولى جانباً وأصيبوا بالخوف.

صرخ كشيون برجاله: "ببطء الآن!". أطلق سهمه الخمسين بينما كان يناديهم وفكّر في الاقتراب من الجنود ليكتمل الاضطراب. حذّر نفسه عندها، على الرغم من أنه كان يريد الجري وراء الجنود الهاربين. كان هناك وقت، كما قال لنفسه. تباطأت الحركة كما كان قد أمر وازدادت الدقة بشكل أكبر، وسقط مئات الرجال مع أكثر من سهم في كل منهم. ستون، وقد أضحت الكنانات آنذاك خفيفة على ظهورهم.

توقف كشيون. كان قد بعثر الفرسان والعديد منهم يفرّون عائدين. كان لا يزال باستطاعتهم تنظيم صفوفهم، على الرغم من أنه لم يكن يخاف من هجوم آخر، ورأى فرصة لإلحاق الهزيمة بصفوفهم الخلفية. كان يعرف أن الاقتراب

منهم خطير. إذا وصل جنود تشن إلى رجاله، قد يستطيعون تحويل الهزيمة إلى نصر. نظر كشيون إلى الوجوه البشوشة حوله واستجاب لها بضحكة.

قال: "هل ستمشون معي؟". تهللوا فرحاً ومشى بخطوات واسعة إلى الأمام، يسحب سهماً آخر من كنانته. هذه المرة، أمسك به على الوتر فيما كانوا يسيرون نحو الصفوف الأولى من الموتى. كان العديد منهم لا يزال حياً واستولى بعض المغول على سيوفهم الثمينة، واستغرق الأمر منهم لحظات ليطعنوهم بها تحت حزام ملابسهم. كاد كشيون يقع أرضاً بسبب جواد ينطلق عبر الصف. مدّ يده ليمسك اللجام لكنه أخطأه، وأوقف الجواد اثنان من رجاله على بعد مسافة قصيرة. كانت هناك مئات الجياد التي فقدت فرسانها وقد أمسك بآخر بينما كان يجري، ويصهل فزعاً من صف الرماة الصلب. عمل كشيون على تهدئة الجواد بفرك أنفه وشاهد أن فرسان تشن بدأوا يعيدون تشكيل صفوفهم. كان قد أظهر لهم ما يستطيع شعبه فعله بالأقواس. ربما كان الوقت قد حان ليعرفوا ما يستطيعون فعله عن صهوة جواد.

صرخ: "خذوا السيوف وامتطوا الجياد!". مرة أخرى، تكرّر الأمر ورأى رجاله يندفعون فرحين فوق الموتى ليقفزوا على سروج جياد تشن. كان هناك عدد أكثر من كافٍ منها، على الرغم من أن بعضها كان لا يزال خائفاً وملطخاً بدماء فارسه الأخير. قفز كشيون إلى السرج، ووقف على الركاب ليرى ما يفعله العدو. تمنّى لو أن خاسار كان هناك لرؤية ذلك. كان شقيقه سيحب انتهاز فرصة الهجوم على جيش تشن باستعمال جيادهم. صرخ متحدياً وضرب بكعبيه ردفي جواده، وانحنى منخفضاً فوق السرج عندما انطلق جواده قافزاً إلى الأمام.

á á á

كانت الفوضى تعم نهاية الممر عندما مرّ جنكيز فوق جثث القتلى. كانت أقواس جنود تشن قد قتلت تقريباً أسراه كلهم، وتكدس نصف مليون سهم حديدي تحت الأقدام. على الرغم من ذلك، كان بعض الأسرى قد هربوا إلى

صفوف تشن مذعورين. كان جنكيز قد رآهم يمسكون بأسلحة ويقيمون متاريس بأيدٍ ملطخة بالدماء.

أضحى وابل السهام المنتظم متقطعاً عندما وصل آخر الأسرى إلى الصفوف. شق المئات طريقهم إلى ما خلف الصف الأول، وهم يضربون ويركلون بيأس. عندما كانوا يجدون سلاحاً، كانوا يستعملونه ليضربوا به على نطاق واسع حولهم حتى يتم القضاء عليهم.

عندما تقدم جنكيز إلى الأمام، شعر بالسهام من حوله وانحنى فوق سرجه عندما مرّ أحدها قريباً جداً منه. كان جيش تشن الكبير أمامه وقد فعل كل ما يستطيع. اتسعت الثغرة عندما وصل إليها وأدرك أن جانباً واحداً فقط كان سوراً من صخور. من مكان بعيد في الخلف، كان قد فكّر في الثغرة كبوابة عظيمة، لكن بالقرب منها، رأى أن تشن كانوا قد رفعوا جذع شجرة ضخمة عالياً إلى أحد الجانبين. كانت هناك حبال تمتد إلى الأعلى وأدرك جنكيز أنه يمكن إسقاطها على الممر نفسه، وشطر جيشه نصفين. إذا سقطت، سيُقضى عليه. بينما كان الذعر يسري فيه، تباطأ تقدمه حتى توقف أمام تل من جثث القتلى. صرخ جنكيز محبطاً، منتظراً أن يتلقى ضربة أو أن تسقط الشجرة. نادى رجالاً أمامه بأسمائهم، وأمرهم بالتقدم سيراً على الأقدام وأشار إلى الجذع الضخم الذي سيحطم في حال سقط كل آماله. كافحوا للوصول إلى الحبال وقطعوها.

خلف الثغرة، استطاع جنكيز رؤية حركة في خطوط تشن. كان هناك خطأ ما وخاطر بالوقوف على ركابه ليتحقق من ماهيته. كان آخر الأسرى يدفع المتاريس الضعيفة التي تحمي جنود تشن في أثناء تجهيزهم لأسلحتهم. حبس جنكيز أنفاسه عندما انضم جنوده إلى الأسرى المجهدين، وكانت سيوفهم مثل خطوط لامعة في الشمس. كانت الأقواس قد صمتت أخيراً واستطاع جنكيز رؤية أيدٍ تطلب المزيد.

كانت السهام قد نفدت منهم أخيراً، كما كان يأمل. كانت الأرض قد أصبحت

سوداء بسبب مسامير صغيرة حديدية كانت قد ملأت كل جثة ملقاة على الأرض. وإذا بقيت الشجرة في مكانها فسيحقّق اختراقاً في صفوف تشن. شهر جنكيز سيف والده، وشعر بضغط مفاجئ يشبه انهيار سدّ. خلفه، رفع المغول رماحاً أو سيوفاً طويلة وضربوا بأقدامهم على أرداف جيادهم، وأرغموها على القفز فوق الجثث. تم تحطيم المتاريس الباقية. مرّ جنكيز تحت ظل الشجرة الضخمة ولم يستطع التوقف بينما كان يواجه جيش إمبراطور تشن.

انتشر الفرسان بين جنود تشن، وأعملوا سيوفهم عميقاً بين صفوفهم. ازداد الخطر مع كل مسافة كانوا يقطعونها، وكانوا يواجهون رجالاً ليس أمامهم فحسب، وإنما على كلا الجانبين أيضاً. ضرب جنكيز أي شيء يتحرك، بأسلوب جزّار يمكنه المواظبة عليه طيلة ساعات. أمامه، رأى صفاً من الفرسان المذعورين يصطدمون بخطوط جنودهم، ويشتتونها. لم يستطع التوقف لحظة للنظر إلى الخلف إلى الشجرة وذلك العدد الكبير من السيوف يدور حوله. فقط عندما اصطدم صف آخر من المحاربين بالفرسان الذين يدفعون جيادهم للجري بأقصى سرعتها، رفع بصره إلى الأعلى بعد أن أدرك أن محاربي قومه يمتطون جياد تشن. صرخ بصوت أجش عندها، وشعر بالذعر والارتباك الكبيرين في صفوف أعدائه. خلفه، كان رجاله يدمرون أفواج النشّاب الضعيفة فيما كانوا يشقون طريقهم عميقاً داخل الصفوف المحتشدة. لم يكن ذلك كافياً من دون الهجوم الجانبي، لكن جنكيز رأى الفرسان ينشرون الفوضى في صفوف تشن، وكان أفضل فرسان العالم يندفعون بقوة وسط أعدائهم.

أصاب سيف جواده في عنقه، وتسبب بجرح بليغ تدفق منه الدم على وجوه الجنود المقاتلين. شعر جنكيز بالجواد يترنح وقفز عنه، وأسقط رجلين أرضاً عندما سقط عليهما بكل ثقله.

كان شعوره بالمعركة غائباً في تلك اللحظة ولم يكن بوسعه فعل شيء سوى الاستمرار بالقتال على الأقدام، على أمل أن يكون ذلك كافياً. كان المزيد من

محاربيه يتدفقون خارج الممر ويندفعون نحو المركز... كان جيش المغول يدخل مثل قبضة مدرّعة تجعل صفوف تشن تدور حول نفسها.

لم يسع زهي زهونغ سوى أن يراقب ما يجري فاغراً فمه بينما كان المغول يدمرون صفوفه الأمامية. كان قد رأى إيقاف فرسانه ثم دفعهم إلى الخلف نحو الجيش الرئيسي مما نشر الذعر في الصفوف. كان واثقاً من قدرته على جعلهم يثبتون في مكانهم، لكن المغول اللعينين لحقوا بهم بعد ذلك على جياد مسروقة. كانوا يمتطون الجياد بمهارة مدهشة، ويتوازنون عليها بشكل ممتاز فيما يطلقون وابلاً من السهام بسرعة كبيرة، ويفتحون ثغرة. رأى فوجاً من حملة السيوف ينهار ثم تراجعت الصفوف الأولى عند الممر واندفعت موجة جديدة منهم عبر جنوده كما لو أنهم أطفال يحملون سيوفاً.

فغر القائد فمه، وذهنه غير قادر على استيعاب ما يجري. كان ضباطه ينظرون إليه بانتظار أوامره، لكن أحداثاً كثيرة كانت تقع بسرعة كبيرة وتجمّد في مكانه. لا، كان لا يزال بمقدوره استعادة زمام المبادرة. كان أكثر من نصف جيشه لم يلتحم بعد بالعدو كما أن عشرين فوجاً من الفرسان كانوا ينتظرون على طول الصف. طلب إحضار جواده وامتطاه.

صرخ: "أغلقوا الممر!"، وتسابق مبعوثوه على طول الصف إلى المقدمة. كان لديه رجال جاهزون لتنفيذ الأمر، إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة. إذا استطاع إيقاف تدفق المغول عبر الممر، يمكنه محاصرة وتدمير أولئك الذين اخترقوا صفوفه. كان قد رفع الشجرة كملاذ أخير، لكنها أضحت الشيء الوحيد الذي يمكنه توفير وقت كافٍ له لإعادة تجميع قواته.

رأى تسوبودي جنكيز يندفع عبر نهاية الممر، وحصانه يعدو بسرعة كبيرة. شعر بضغط كبير يزداد حوله عندما بدأ المزيد من الرجال يتبعون خانهم عبر الثغرة. صرخت ذئاب تسوبودي الفتية من الإثارة. كان العديد منهم لا يزالون محاصرين بين رجال وجياد لا يمكنهم تحريكها. كان بعضهم قد استدار عائداً في

الحشد المتدافع ويكافح للعودة إلى القتال في الأمام.

لم يعد تسوبودي يرى جنكيز عندما شاهد أحد الحبال فوق رأسه يشتد عندما تسلقه الرجال. نظر إلى الأعلى، وفهم في لحظة بأن الشجرة غير الثابتة يمكن أن تسقط وتفصله عن أولئك الذين عبروا الثغرة.

لم يلاحظ رجاله الخطر وركلوا جيادهم ليحثّوها على التحرك إلى الأمام، يصرخون كما ينبغي لشباب مثلهم. أطلق تسوبودي لعنة عندما اشتد حبل آخر. كانت الشجرة ضخمة، لكنها لا تتطلب الكثير لرميها إلى الأسفل.

جأر برجاله، مشيراً إلى الاتجاه بينما كان يسحب سهماً ويطلقه بأسرع ما يستطيع: "صوبوا إلى هناك!". أصاب سهمه الأول أحد جنود تشن في حنجرته ووقع مبتعداً عن الحبل، لكن المزيد ركضوا لتنفيذ أمر زهي زهونغ وبدأت الشجرة تنقلب. ردت ذئاب تسوبودي الفتية بعاصفة من السهام، وقضت على عشرات الرجال. كان الوقت قد تأخر. دفع آخر جنود تشن الجذع الضخم فوقهم تماماً، وسقط محدثاً دوياً هائلاً في الممر. لم يكن تسوبودي بعيداً أكثر من عشرين خطوة عن السهل حيث سقط الجذع. تراجع جواده خوفاً وكان عليه أن يشدّ اللجام ليسيطر عليه مجدداً.

حتى الأسرى الناجون تنبّهوا مما هم فيه نتيجة الصوت. بينما كان تسوبودي يحدّق خائفاً ومذهولاً، أطبق الصمت على الصفوف المزدحمة للحظة قبل أن تخرج صرخة واحدة مرعبة من محارب سُحقت ساقاه. كان جانب الشجرة يسد الممر بارتفاع رجل. لم يكن بمقدور أي جواد القفز فوقها. شعر تسوبودي بآلاف العيون تتحول تلقائياً نحوه، لكنه لم يكن يعرف ما ينبغي عليه فعله.

تقلصت معدته عندما رأى صفوفاً من رمّاحي تشن تظهر خلف الحاجز. تم إرغام أولئك الذين تجرأوا على إظهار وجوههم على التراجع إلى الخلف، لكن أسلحتهم بقيت، وكان هناك خط من حديد ثقيل ظهر مثل أسنان على طول الجذع. فابتلع تسوبودي ريقه الجاف.

صاح: "فؤوساً! أريد فؤوساً هنا!". لم يكن يعرف كم سيستغرق الأمر لتحطيم مثل ذلك الجذع الضخم. حتى ينجحوا في ذلك، كان خانه سيبقى عالقاً على الطرف الآخر.

الفصل الرابع والعشرون

رأى جنكيز الشجرة تسقط فصرخ غاضباً، وبتر رأس رجل عن كتفيه بضربة قوية واحدة. كان في بحر من الرايات الحمراء والذهبية، التي ترفرف بأصوات مثل خفق أجنحة الطيور. كان يقاتل وحيداً، ويائساً. لم يكونوا قد أدركوا بعد من يكون. حاول أولئك القريبون منه فقط القضاء على المحارب الذي يقاتل ويزمجر في وجههم. كان يدور ويندفع بينهم، ويستعمل كل قطعة من الدرع كسلاح؛ وأي شيء يمكن أن يبقيه حياً. ترك خلفه الألم ولم يتوقف عن الحركة أبداً. كان التوقف يعني الموت في مثل ذلك الحشد من الرايات.

شعر مقاتلو تشن بالتردد المفاجئ الذي اعترى أعداءهم وجأروا بتحدٍّ، وقد عادت ثقتهم إليهم. استطاع جنكيز رؤية قوة كبيرة من الفرسان الجدد تندفع على طول الجناح ولم يعد يستطيع رؤية شقيقه كشيون. كان مترجلاً بين أعداء، والغبار في كل مكان وعرف أن الموت على بعد خطوة فقط.

عندما شعر باليأس، سحق فارس جنوداً في طريقه وسحب الخان خلفه بقوة كبيرة. كان المصارع تولي. لهث جنكيز بالشكر للمحارب الضخم فيما كانا يستعملان سيفيهما ضدّ أولئك الذين يصرخون بهما. قعقعت السهام على درعيهما.

صرخ تولي من فوق رؤوس جنود تشن المحتشدين مدافعاً عن الخان: "إلي". رأى جواداً من دون فارس ووجّه جواده نحوه. بينما كان جنكيز يمتطي السرج الفارغ، تلقى ضربة على فخذه وصرخ ألماً. ركل بقوة، وكسرت قدمه فك الرجل. جعله الجرح يتنبه من حالة اليأس التي كانت تسيطر عليه ونظر حوله بين الضربات، وأصبح لديه انطباع عن ساحة المعركة.

كانت الفوضى عارمة. بدا أن مقاتلي تشن يقاتلون دون تشكيلات، ربما ظنوا أن أعدادهم الكبيرة كافية. على الرغم من ذلك، كان قائدهم إلى الشرق يعيد

تنظيمهم. كان الفرسان على طول الجناح سيصلون إلى رجال جنكيز بعد الانتهاء من قتال حشد الجنود. هزّ جنكيز رأسه لإبعاد الدم عن عينيه. لم يتذكر أنه أصيب بجرح، لكن رأسه كان مكشوفاً بعد أن وقعت خوذته بعيداً. استطاع تذوق الدم وبصق إلى الأسفل بينما كان يضرب عنق جندي آخر.

صرخ تولي، ووصل صوته بعيداً: "الخان!". سمعه كشيون واستجاب له، وكان يلوّح بسيفه في يده. لم يستطع الوصول إلى شقيقه وكان العديد من رجاله قد لقوا حتفهم آنذاك، وسُحقوا تحت الأقدام. ربما بقي معه خمسة آلاف رجل. كانت كل كناناتهم خاوية وكانوا بعيدين جداً عن ممر بادغر والخان.

لوّح كشيون بسيفه وأحدث جرحاً بليغاً على طول ردف جواده. تدفق الدم بينما كان الحصان يصرخ وينطلق فوق الرجال، ويضربهم في طريقه. كرّر كشيون النداء اليائس لرجاله أن يلحقوا به، وبالكاد كان يستطيع قيادة الجواد المصاب. مرّ عبر جنود تشن، يضرب أي شيء يمكنه الوصول إليه. كان الجواد يجري بجنون وسمع كشيون عظم قفصه الصدري ينكسر عندما اصطدم بعقبة ما. اندفع من فوق رأس الجواد، وضرب رجلاً آخر بدرعه. صرخ أحد محاربيه خلفه وقبض كشيون على ذراع منخفضة، مذهولاً يشعر بالألم بينما كان يجلس على السرج خلفه.

قاتل الخمسة آلاف كما لو أنهم فقدوا عقولهم، من دون تفكير بسلامتهم. جرح أولئك الذين حوصروا جيادهم كما فعل كشيون، وجعلوها تركل وتصهل فيما كانت تعدو نحو السهل المكشوف بين الجبال. كان عليهم الوصول إلى جنكيز قبل أن يلقى حتفه.

شعر كشيون بالجواد الثاني يتعثّر وكاد يقع مرة أخرى. استعاد توازنه بطريقة ما واندفع عبر الخطوط نحو أرض مكشوفة، وقد اتسعت عينا الجواد خوفاً. كانت الجياد التي لا يمتطيها فرسان في كل مكان وقفز كشيون على أحدها من دون تفكير، وكاد يمزّق ذراعه اليمنى في فم الجواد بينما كان يمسك باللجام.

خرج من ساحة المعركة ثم كافح للسيطرة على الجواد المذعور حتى هدأ مجدداً. كان رجاله قد جاؤوا معه، على الرغم من أنه لم يكن هناك أكثر من ثلاثة آلاف بعد الهجوم القوي على قلب جيش تشن.

صرخ كشيون، وهو يهزّ رأسه ليكون صاحياً: "هجوم!". بالكاد كان يرى ورأسه يضج ألماً من أثر السقوط الأول على الأرض. شعر بأن كل وجهه متورم بينما كان يدفع جواده للجري بأقصى سرعته على طول جناح الجيش عائداً إلى شقيقه. على بعد نصف ميل أمامه، كان مؤخّر صفّ فرسان زهي زهونغ المؤلّف من عشرين ألف جواد ورجل يُهاجم لإغلاق الممر. كان كشيون يعرف أن عددهم كبير جداً، لكنه لم يخفف سرعته. رفع سيفه بينما كان ينطلق، ووضع ألمه جانباً وأظهر أسناناً حمراء للرياح.

لم يكن أكثر من ألف قد تمكنوا من عبور الممر قبل أن تسقط الشجرة. كان نصف هؤلاء قد لقوا حتفهم وتجّمع الباقون حول خانهم، مستعدين للدفاع عنه حتى آخر رجل. تحرك جنود تشن حولهم مثل دبابير، لكنهم قاتلوا مثل رجال مهووسين، وطيلة الوقت، كان جنكيز يلقي نظرات إلى الخلف على الجذع الذي يسد الممر. كان رجاله مولودين للحرب، وكل منهم أكثر مهارة من جنود تشن الذين قاتلوا من فوق ركاب جيادهم وماتوا. كانت كل كناناتهم خاوية، لكن العديد من الرجال ناوروا مع جيادهم كما لو أنهم مخلوق واحد. كانت الجياد تعرف متى تتراجع عن سيف يلوح في الهواء ومتى تركل صدر أي شخص يجرؤ على الاقتراب كثيراً. مثل جزيرة في بحر هائج، تحرك فرسان المغول أمام جيش تشن ولم يستطع أحد إسقاطهم أرضاً. قعقعت سهام الأقواس على دروعهم، لكن الأفواج كانت محاصرة ولم تستطع التسديد جيداً. لم يكن أحد يرغب بالاقتراب من تلك السيوف المضرجة بالدماء والمحاربين الشرسين. كان أولئك الذين يقاتلون مع جنكيز ملطخين بالدماء، وأيديهم تلتصق بسيوفهم. كانوا رجالاً يصعب قتلهم. كانوا يعرفون أن خانهم معهم وأن كل ما عليهم

فعله هو الصمود حتى تتمّ إزالة الحاجز. حتى عندها، بدأ عددهم يتناقص، على الرغم من أنهم كانوا يقضون على عشرة أو عشرين مقابل كل رجل يسقط منهم. بدأ المزيد ينظرون إلى الممر، وعيونهم متجهمة ويأسهم يزداد فيما يتابعون القتال.

وصل جيلم وأرسلان معاً إلى الممر المسدود، وشاهدا تسوبودي شاحباً. أومأ القائد الشاب إلى الرجلين.

قال جيلم بحدّة: "نريد المزيد من العمال مع الفؤوس. بهذا المعدل، سيستغرق الأمر ساعات".

حدّق إليه تسوبودي ببرود. "القيادة لك أيها القائد. كنت فقط أنتظر قدومك إلى هنا". أدار جواده بعيداً عنهما من دون أن ينطق بكلمة أخرى، وسحب نفساً عميقاً ليصرخ من فوق رؤوس رجاله. قال بحدّة: "ترجلوا أيها الذئاب! أقواس وسيوف! على الأقدام! معي!".

فيما كان القائدان البارزان يتوليان مهمة الإشراف على فرق الفؤوس، تسلق تسوبودي جذع الشجرة، ونظر إلى الأسفل على رمّاحي تشن قبل أن يركل أحد الأسلحة جانباً ويقفز عليهم. تبعه رجاله باندفاع كبير جعل فرق الفؤوس تبتعد عنهم. لم يكونوا ليدعوا قائدهم الشاب يذهب وحيداً لإنقاذ الخان وكانوا نشيطين وغاضبين من خدع مقاتلي تشن.

نظر جنكيز عالياً عندما انضم الذئاب الفتية إلى المعركة. شقوا طريقهم ضمن جنود تشن المتفاجئين من الخلف، وفتحوا ثغرة كبيرة في صفوفهم. بدا أن أولئك الذين أصيبوا بجراح لم يشعروا بها لأن عيونهم كانت معلقة على تسوبودي بينما كان يشق طريقه إلى الأمام. كان قد رأى الخان وكانت ذراعه لا تزال مرتاحة ذلك اليوم. ضرب جنود تشن بصف لا يتعدى عدد أفراده الاثني عشر شخصاً، وكانوا محاربين شباباً يتحركون بسرعة كبيرة ولا يمكن إيقافهم. فتحوا ثغرة أوصلتهم إلى جنكيز فوق درب من القتلى.

نادى جنكيز تسوبودي: "لقد كنت أنتظركم! ماذا تريدون مني في هذا الوقت؟".

ابتسم القائد الشاب لرؤية خانه حياً، حتى عندما ابتعد عن سيف بتّار وطعن الرجل الذي يحمله. سحب السيف وهو يطلق تنهيدة كبيرة وتعثر بجثة عندما تراجع إلى الخلف. كان جنود تشن يدورون حولهم، لكنهم كانوا لا يزالون يحتشدون بأعداد كبيرة بدا معها أنه يمكن تطويق حتى الألف الذي يقوده تسوبودي. عند خاصرة جيش تشن الكبير، صدحت أبواق الفرسان واستدار جنكيز على السرج عندما تراجعت صفوف تشن بانتظام، وفتحت طريقاً لشن هجوم. نظر المحاربون المغول بعضهم إلى بعض عندما دفع فرسان تشن جيادهم للجري بأقصى سرعتها انطلاقاً من صفوفهم. كشّر جنكيز، وكان يلهث فيما تجمّع رجاله حوله.

قال: "تلك جياد جيدة. سأكون أول من يختار منها عندما ننتهي". ضحك أولئك الذين سمعوه، ثم، كرجل واحد، دفعوا جيادهم للجري خبباً، وانحنوا فوق السروج. تركوا تسوبودي وحيداً للسيطرة على الأرض حول الممر ودفعوا الجياد للجري بأقصى سرعتها قبل أن تصطدم القوتان بعضهما ببعض.

لقي قائد فرسان تشن حتفه في أول لحظة من القتال مع فرسان المغول. على صوت الحوافر، كان رجاله يلقون حتفهم من فوق سروجهم. لوّح أولئك الذين استطاعوا تفادي الضربة سيوفهم في الهواء عندما انخفض فرسان المغول أو تمايلوا جانباً. كانوا قد تدربوا على هذا طيلة حياتهم. دفع جنكيز جواده للانطلاق بأقصى سرعته، عميقاً بين صفوف الفرسان، وكانت ذراعه التي تحمل السيف تؤلمه. لم تكن هناك نهاية لهم وتلقى ضربة جديدة فوق ردفه حيث كان الدرع قد انكسر. جعلته ضربة أخرى يتراجع إلى الخلف ورأى السماء الشاحبة تهتز فوقه قبل أن يستعيد توازنه. لم يسقط؛ ولم يكن بمقدوره ذلك. سمع صرخات عندما اصطدمت جياد كشيون بفرسان تشن من الخلف وتساءل

إن كان سيلتقي شقيقه في الوسط أو سيموت أولاً. كانت هناك أعداد كبيرة من الأعداء. لم يكن يتوقع أن ينجو آنذاك وجعل ذلك مزاجه أفضل ودفعه ليقود جواده بين أعدائه في لحظة فرح غامر. كان من السهل أن يتخيل والده معه. ربما سيكون الرجل العجوز فخوراً أخيراً. لم يكن أبناؤه ليختاروا نهاية أفضل.

خلفه، كان قد تم تحطيم الشجرة أخيراً إلى ثلاثة أجزاء. قاد أفراد جيش المغول جيادهم ببطء إلى الساحات المغطاة بالجليد، متجهمين ومصممين على الثأر لخانهم. قاد جيلم وأرسلان جواديهما في المقدمة وكان كل من الأب والابن مستعدين. نظرا إلى رايات وأعلام تشن التي ترفرف من بعيد.

نادى أرسلان ابنه: "لن أغير حياتي يا جيلم إن استطعت العودة بالزمن. سوف أكون هنا".

رد جيلم بابتسامة: "أين ستكون غير هنا أيها الرجل العجوز؟". وضع سهماً على وتر القوس وسحب نفساً عميقاً قبل أن يطلق أول سهم على صفوف العدو.

كان زهي زهونغ يراقب ما يجري بإحباط عندما فُتح الممر وتدفق منه عشرون ألف محارب، مستعدين للقتال. لم تكن الآلهة قد وضعت الخان بين يديه. كان فرسان زهي زهونغ يشتبكون مع قوة الخان الصغيرة، فيما اندفعت مجموعة أخرى بين جنود تشن مثل نمر يمزق بطن ظبي يجري. لم يكن يبدو أن المغول يتواصلون في ما بينهم، وعلى الرغم من ذلك كانوا يعملون معاً عبر ساحة المعركة، بينما كان هو المركز الوحيد للقيادة. فرك زهي زهونغ عينيه، وحدّق إلى سحب الغبار فيما كانت المعركة دائرة.

كان رمّاحوه غارقين في فوضى وقد ترك بعضهم السهل، وكانت أشكالهم تبدو آنذاك مثل بقع بعيدة بين التلال. هل يمكنه إنقاذ المعركة؟ كانت الخدع كلّها قد انتهت. وصل الأمر إلى القتال على سهل منبسط وكان لا يزال متفوقاً بالعدد.

أصدر أوامر جديدة لمبعوثيه وراقب فيما كانوا يدفعون جيادهم للجري

بأقصى سرعتها عبر ساحة المعركة. كان المغول من الممر يمطرون رجاله بسهم إثر آخر، ويشقون طريقهم وسط الجيش الذي كان ينتظرهم. كانت الدقة المتناهية ترغم صفوفه على التراجع على بعضها، مما جعلها تتجمع حيث ينبغي عليها أن تكون متباعدة. مسح زهي زهونغ العرق عن جبينه عندما رأى فرساناً يندفعون عبر رمّاحيه كما لو أنهم غير مسلحين. لم يسعه سوى أن يراقب ما يجري متجمداً عندما انفصلوا إلى مجموعات من مئات، هاجموا من كل الزوايا بأقواسهم، ومزّقوا جيشه شرّ تمزيق.

بدا أن الأمر استغرق لحظة فقط قبل أن تلاحظ إحدى مجموعات الغزو أنه يقف هناك، يوجّه المعركة. رأى زهي زهونغ وجوههم تشرق عندما شاهدوا رايات الحرب الضخمة حول خيمة قيادته. بينما كان يحدّق، رأى اثني عشر قوساً مشدودة باتجاهه وآخرين يشدّون لجام جيادهم لتحويل اتجاهها. كان المدى بعيداً جداً بالتأكيد. كان مئات من حرسه الشخصي يقفون في طريقهم، لكنهم لم يستطيعوا منع السهام وشعر القائد فجأة بالخوف. كانوا مثل شياطين، هؤلاء الرجال من السهول. كان قد جرّب كل شيء وتدفقوا مع ذلك نحوه. كان العديد منهم قد تعرض لجروح في القتال، لكن بدا أنهم لا يشعرون بالألم بينما كانوا يسحبون أقواسهم بأيدٍ ملطخة بالدماء ويوجهون جيادهم نحوه.

انغرس سهم في صدره، وبرز من درعه مما جعله يصرخ. كما لو أن الصوت حرّر خوفه، فقد أعصابه تماماً وصرخ بحارسه، سحب جواده بقوة وحشية وقفز محنياً ظهره على السرج. طنّت سهام أخرى فوق رأسه، وقتلت رجالاً حوله. كان القائد زهي زهونغ قد فقد رباطة جأشه في مواجهة موته، وتبعثرت ثقته بنفسه. ضرب بعقبيه على ردفي جواده الذي انطلق بأقصى سرعة عبر الصفوف تاركاً حراسه وراءه.

لم ينظر إلى الأسفل إلى وجوه جنوده الذين اتسعت عيونهم دهشة عندما رأوه يتخلى عنهم. ألقى الكثيرون أسلحتهم وركضوا ببساطة، مقتدين به. سقط

بعضهم أرضاً عندما اصطدم بهم جواده فيما كانوا يتحركون ببطء شديد. أضحت رؤيته مشوشة في الريح شديدة البرودة ولم يعرف شيئاً سوى الحاجة للهرب من المغول قساة الوجوه الذين يلاحقونه. خلفه، أصيب جيشه بانهيار كامل واستمرت المذبحة. اندفع جيش جنكيز نحو جنود الإمبراطور، وقتلوا منهم حتى أصيبت أذرعهم بالإرهاق وأضحت أفواه جيادهم بيضاء من اللّعاب.

حاول ضباط بارزون ثلاث مرات تجميع رجالهم، وفشلت كل محاولة لأن جنكيز استطاع الاستفادة من الأرض الواسعة لشن هجمات وسحقهم. عندما نفدت آخر سهام جيلم، عملت الرماح جيداً بسرعة كاملة، وجعلت رجالاً يسقطون صرعى من تأثير الصدمة. كان جنكيز قد رأى قائد تشن يهرب ولم يعد يشعر بالجروح الفظيعة التي أصيب بها. ارتفعت الشمس عالياً فوق ساحة القتال، وبحلول الظهيرة، تكدست قوات الإمبراطور في جبال من القتلى الملطخين بالدماء، وتبعثر الباقون في كل اتجاه مُطارَدين.

فيما كان زهي زهونغ يقود جواده، فقد ذهنه الخدر الذي كان قد حل به. تلاشت أصوات المعركة من بعيد بينما كان يقود جواده بأقصى سرعة على طول الطريق إلى ينكينغ. نظر إلى الخلف مرة فقط إلى الحشد المتشابك من الرجال المتقاتلين، وكان العار والغضب مريرين. كان بعض حرسه الخاص قد امتطوا جيادهم للحاق بقائدهم، متمسكين بولائهم له على الرغم من فشله. من دون كلمة، قادوا جيادهم في تشكيل حوله، وكانت هناك كتيبة من حوالى مئة فارس تقترب من بوابات مدينة الإمبراطور.

عرف زهي زهونغ رجلاً يقود جواده إلى جانبه، وكان ضابطاً بارزاً من باوتو. لم يستطع في البداية أن يتذكر اسمه ولم يسعه سوى أن يستغرب من الأفكار التي تدور في ذهنه. لاحت المدينة بسرعة أمامهم وتطلب الأمر جهداً وإرادة كبيرين ليستعيد رباطة جأشه ويجعل قلبه الذي يخفق بقوة يهدأ. لوجان. تذكر أخيراً أن اسم الرجل كان لوجان.

كان القائد يتصبب عرقاً في درعه عندما نظر إلى الأسوار العالية والخندق المحيط بالمدينة. بعد الفوضى وإراقة الدماء، بدت المدينة مسالمة ووادعة وهي تستيقظ ببطء لاستقبال يوم جديد. كان زهي زهونغ قد سبق أي مبعوثين وبقي الإمبراطور غير مدرك للكارثة التي وقعت على بعد عشرين ميلاً فقط.

قال للرجل إلى جانبه: "هل تريد أن يتم إعدامك يا لوجان؟".

رد الرجل: "لدي عائلة أيها القائد". كان شاحباً، ويفهم ما يواجهونه.

رد زهي زهونغ: "إذاً، أصغِ إلي واتبع أوامري".

تم التعرف على القائد من بعيد وإنزال البوابة الخارجية فوق مساحة من الأرض تغمرها المياه. استدار زهي زهونغ على السرج لإصدار أوامر للرجال خلفه.

قال بسرعة: "ينبغي إخبار الإمبراطور. يمكننا القيام بهجوم مضاد مع حرس المدينة". رأى أن للكلمات تأثيرها في الرجال المهزومين، وأنها جعلتهم يشدون قاماتهم فوق سروجهم. كانوا لا يزالون يثقون بقائدهم لإنقاذ شيء من الكارثة. جعل زهي زهونغ وجهه يبدو مثل قناع بينما كان يدخل إلى المدينة، وكانت أصوات الحوافر على الطرقات الممهدة عالية في أذنيه. كان قد خسر؛ وأسوأ من ذلك، كان قد هرب.

كان القصر الإمبراطوري بناءً ضخماً داخل المدينة، محاطاً بحدائق فائقة الجمال. توجه زهي زهونغ نحو أقرب بوابة كانت ستقوده إلى غرفة الاستقبال. تساءل إن كان الإمبراطور الشاب مستيقظاً في تلك الساعة. كان سيتنبّه خلال وقت قصير جداً، عندما يسمع الأنباء.

تم إرغام الحرّاس على الترجل عند البوابة الخارجية، ومشوا بخطوات واسعة إلى الداخل على طول طريق عريض تحيط به أشجار الزيزفون. قابلهم خدم، ثم تفرقوا عبر سلسلة من القاعات. قبل أن يلتقوا الإمبراطور، سدّ جنود من حرس الإمبراطور الخاص طريقهم.

لم يظهر أي شيء على زهي زهونغ عندما سلّم سيفه وانتظر أن يتنحوا جانباً. كان جنوده سيبقون في القاعات الخارجية فيما يتابع هو طريقه. تخيل بأنه كان يتم إيقاظ الإمبراطور وي في تلك اللحظة، وعبيده يطوفون حوله حاملين الأنباء بأن القائد قد عاد. سيغرق القصر بالشائعات، لكنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً بعد. ستظهر الصورة الكاملة للمأساة لاحقاً، لكن ينبغي أن يعرف الإمبراطور أولاً.

مرّ وقت طويل قبل أن يرى زهي زهونغ أبواب حجرة الاستقبال تُفتح أمامه ومشى بخطوات واسعة على الأرض الخشبية نحو الشكل الجالس على كرسي في الطرف الآخر. كما كان يعتقد، كان وجه الإمبراطور منتفخاً من النوم، وقد مشّط شعره على عجل حتى أن خصلاً منه كانت تتمايل فوق رأسه.

قال الإمبراطور وي بصوت متكلف: "ما هي الأنباء المهمة جداً؟".

شعر القائد بالهدوء أخيراً وسحب نفساً عميقاً بينما كان يجثو على ركبتيه.

قال: "لقد منحني جلالة الإمبراطور شرفاً كبيراً". رفع رأسه عندها وجعلت العينان اللتان ظهرتا من الوجه المكتئب الإمبراطور الشاب يمسك رداءه خوفاً. كان هناك جنون فيهما.

وقف زهي زهونغ ببطء، ينظر حوله في القاعة. كان الإمبراطور قد صرف وزراءه لسماع الرسالة الخاصة من قائد جيشه. وقف ستة عبيد في أطراف الغرفة، لكن زهي زهونغ لم يكن يكترث لهم. كانوا سيحملون الأنباء للمدينة كما فعلوا دائماً. أخرج زفيراً طويلاً. كان ذهنه مشوشاً ذلك الوقت، لكنه كان صاحياً على الأقل.

قال، أخيراً: "لقد دخل المغول عبر الممر. لم أستطع صدهم". رأى الإمبراطور يشحب، ولون جلده يصبح مثل الشمع في الضوء القادم من نوافذ عالية.

سأل الإمبراطور وي وهو ينهض ليقف أمامه: "الجيش؟ هل تم إرغامنا على الانسحاب؟".

"لقد تحطم يا جلالة الإمبراطور".

حدّقت عينا قائد الجيش إلى الشاب الذي يواجهه ولم ينظر أحدهما بعيداً هذه المرة.

"خدمت والدك بإخلاص يا جلالة الإمبراطور. معه، كنت سأنتصر. معك، أيها الأقل شأناً، خسرت".

فغر الإمبراطور وي فمه مذهولاً. "جئت إلي بهذا النبأ وتجرؤ على إهانتي في قصري؟".

تنهد القائد. لم يكن لديه سيف، لكنه سحب سكيناً طويلة من حيث كان يخفيها تحت درعه. شهق الإمبراطور الشاب لدى رؤيتها، وقد شعر بالخوف ينتابه فجأة.

"لم يكن والدك ليسمح لي بالمجيء إليه يا جلالة الإمبراطور. كان ينبغي ألا تثق بقائد جيش عائد من هزيمة". هزّ زهي زهونغ كتفيه استخفافاً. "بعد أن خذلتك، أصبحت أستحق الموت. ما الخيار الذي لدي غير هذا؟".

سحب الإمبراطور نفساً عميقاً لينادي حراسه. اندفع زهي زهونغ نحوه وأطبق يداً حول حنجرته، وأخمد الصرخة. شعر بيدين تضربان على درعه ووجهه، لكن الفتى كان ضعيفاً واشتدت قبضته عليه. كان يستطيع خنقه عندها، لكن تلك ستكون إهانة لابن رجل عظيم. بدلاً من ذلك، وجد مكاناً في صدر الإمبراطور بينما كان يتلوى ويقاوم، وغرس السكين في قلبه.

سقطت اليدان بعيداً وعندها فقط شعر بألم الخدوش على وجنتيه. بلل الدم الثوب حول السكين ورفعه القائد ليعيده إلى كرسيه.

كان العبيد يصرخون وتجاهلهم زهي زهونغ، ووقف أمام جثة الإمبراطور الشاب. لم يكن هناك خيار، كما قال لنفسه.

فُتح الباب الخارجي على مصراعيه واندفع حرّاس الإمبراطور إلى الداخل. رفعوا أسلحتهم ووقف زهي زهونغ لمواجهتهم، ورأى أشكال رجاله يملأون الممر

في الخلف. كان لوجان قد التزم بالأوامر التي صدرت له وكان ملطخاً بالدماء آنذاك. لم يستغرق أمر الإجهاز على آخرهم وقتاً طويلاً.

وقف لوجان وصدره يعلو ويهبط، يحدّق مستغرباً إلى الوجه الأبيض للإمبراطور الميت.

قال خائفاً: "لقد قتلته. ماذا سنفعل الآن؟".

نظر القائد إلى الرجال المرهقين الملطخين بالدماء الذين نقلوا ساحة المعركة إلى مثل ذلك المكان. ربما سينتحب لاحقاً على كل ما كان قد خسره، وكل ما اقترفته يداه، لكن الوقت لم يكن مناسباً لذلك آنذاك.

"سنقول للشعب إن الإمبراطور مات وإنه ينبغي إغلاق المدينة وتحصينها. المغول قادمون إلى هنا ولا يمكننا فعل شيء آخر".

قال لوجان: "لكن من سيكون الإمبراطور الآن؟ أحد أولاده؟". كان شاحباً جداً ولم ينظر مجدداً إلى الجسد المسجّى على العرش.

رد زهي زهونغ: "عمر أكبر أبنائه لا يتجاوز السادسة. بعد الانتهاء من الجنازة، اجلبه إلي. سأحكم كوصي عليه".

حدّق لوجان إلى قائده. وهمس: "يحيا الإمبراطور الجديد"، وردّد الكلمات أولئك الموجودون حوله. بذهول تقريباً، انحنى لوجان حتى مس جبينه الأرض الخشبية. تبعه الجنود الآخرون وابتسم القائد زهي زهونغ.

قال بلطف: "عشرة آلاف سنة. عشرة آلاف سنة".

الفصل الخامس والعشرون

تحولت السماء إلى اللون الأسود فوق الجبال، ووصل الدخان إلى بعد أميال. كان العديد من جنود تشن قد استسلموا في النهاية، لكن القبائل كانت قد فقدت الكثير من أفرادها ولم تُظهر أي رحمة. استمر القتل عدّة أيام حول الممر، وكان هناك محاربون يلاحقون كل ناجٍ من الجنود الهاربين ويذبحونهم مثل حيوانات الغرير في الوطن.

تم إشعال نيران عظيمة من عصيّ الرماح والرايات. كانت العائلات قد مرّت ببطء عبر الممر خلف المحاربين، وأحضرت معها عربات وأدوات الكير لتذويب رؤوس الرماح والحصول منها على الفولاذ. تم سحب مؤن تشن إلى المنحدرات الثلجية حتى يتم الحفاظ عليها.

لم يقم أحد بتعداد جثث تشن، ولم تكن هناك حاجة لذلك. لم يكن بوسع كل من رأى جبال الجثث أن ينساها أبداً. ساعد الأولاد والنساء في تعرية الجثث من دروعها وكل شيء ذي قيمة. كانت الرائحة مريعة بعد يوم واحد فقط وامتلأ الهواء بالذباب الذي طقطق واحترق في دخان النيران.

على حافة النار، انتظر جنكيز قادة جيشه. كان يرغب برؤية المدينة التي كانت قد أرسلت مثل ذلك الجيش ضده. جاء كشيون وخاسار للانضمام إليه، وحدّقا برهبة إلى الخلف إلى حقل الدم والنار الذي يمتد بعيداً. كانت النيران تلقي بظلال متحركة على جبال الوادي وحتى القبائل كانت خانعة وهي تغني بأصوات خافتة على قتلاها.

انتظر الأشقاء الثلاثة بصمت بينما كان الرجال الذين استدعاهم جنكيز يقودون جيادهم هرولة نحوه، وقاماتهم مشدودة. جاء تسوبودي أولاً، شاحباً وفخوراً بغرزات سوداء قبيحة على طول ذراعه الأيسر. جاء جيلم وأرسلان معاً، ولونهما داكن بسبب النيران. كان هو سا وليان البنّاء آخر الواصلين. لم يبقَ سوى

تيموج في الخلف لنقل المعسكر إلى نهر على بعد عشرة أميال شمالاً. كانت ألسنة اللهب ستبقى مستعرة أياماً، حتى من دون قيام القبائل بتغذيتها. كان الذباب يصبح أسوأ وأضحى تيموج عليلاً من الطنين المستمر ورائحة القتلى العفنة.

لم يكن جنكيز يستطيع أن يشيح بناظريه بعيداً عن السهل. كان واثقاً أن ما يراه يعني موت إمبراطورية. لم يكن قد اقترب من قبل من الهزيمة والدمار مثلما كانت عليه الحال في المعركة عبر الممر. كان ذلك قد ترك أثره فيه وعرف أن بمقدوره دائماً إغلاق عينيه واستحضار الذكريات. كان قد تم لف ثمانية آلاف من رجاله بقماش أبيض وأخذهم إلى الجبال. نظر إلى حيث يستلقون مثل أصابع من عظام في الثلج، بعيداً عنه. آنذاك، كانت الصقور والذئاب تنهش لحمهم. كان قد بقي فقط ليشهد تقديمهم إلى السماء، وتكريمهم مع عائلاتهم.

قال للقادة: "تيموج يدير المعسكر. فلنرَ ينكينغ هذه وإمبراطورها". ضرب بعقبيه على ردفي جواده الذي اندفع يجري إلى الأمام. بينما تبعه الآخرون، كما كانوا يفعلون دائماً.

مبنية على سهل كبير، كانت ينكينغ آنذاك أضخم مدينة رآها أي منهم. فيما كانت تظهر أمامهم، تذكر جنكيز كلمات وين تشاو، دبلوماسي تشن الذي كان قد التقاه قبل عدّة سنوات. كان قد قال إن الرجال يستطيعون بناء مدن مثل جبال. كانت ينكينغ إحدى تلك المدن.

كانت تنهض على صخرة رمادية داكنة ترتفع خمسين قدماً على الأقل من أساسها إلى قمتها. أرسل جنكيز ليان وهو سا حول المدينة لعدّ الأبراج الخشبية التي ترتفع أكثر من ذلك. عندما عادا، كانا قد قطعا أكثر من خمسة أميال وعدّا أكثر من ألف برج تقريباً، وقد بدت مثل أشواك على طول الأسوار. كان الأسوأ وصف أسلحة الأقواس الضخمة على الأسوار، والتي يقوم عليها جنود صامتون يراقبون ما يجري.

راقب جنكيز ليان بحثاً عن إشارة ما على أن البنّاء لم يكن خائفاً، لكن الرجل كان يطأطئ رأسه بشكل واضح فوق السرج. مثل المغول، لم يكن قد زار العاصمة من قبل ولا يستطيع التفكير بطريقة لتحطيم أسوار بذلك الحجم.

على زوايا المستطيل الضخم، انتصبت أربعة حصون منفصلة عن الأسوار الرئيسية. كان هناك خندق عريض بين الحصون والأسوار ويوجد آخر يطوقها من الخارج. كانت قناة كبيرة الثغرة الوحيدة في الأسوار نفسها، وتمر عبر بوابة ضخمة من الحديد والتي كانت بالمقابل محمية بمنصات عليها رماة سهام ومنجنيقات. كانت القناة تمتد نحو الجنوب، إلى أبعد نقطة يمكن لأحدهم رؤيتها. كان كل ما يتعلق بينكينغ ضخماً جداً ولا يمكن تخيله. لم يستطع جنكيز التفكير بطريقة لفتح البوابات.

في البداية، بقي جنكيز وقادة جيشه قريبين مثلما كانوا من ينشوان، أو بعض مدن تشن الأخرى إلى الغرب. ثم صدح صوت في هواء المساء وتجاوزهم شيء داكن جعل جواد كشيون يترنح من قوة تأثيره. كاد جنكيز يقع عندما تراجع جواده ولم يسعه سوى التحديق بذهول إلى سهم انغرس حتى منتصفه في الأرض الطرية، وكان مثل جذع شجرة أملس أكثر منه سهماً.

من دون أي كلمة، تراجع قادة جيشه إلى ما بعد مدى السلاح المخيف، وانخفضت معنوياتهم أكثر بعد أن فهموا جزءاً آخر من الدفاعات. كان الاقتراب أكثر من خمسمئة خطوة يعني دعوة المزيد من الأعمدة الضخمة برؤوسها الحديدية. كانت مجرد فكرة غوص أحدها في حشد من فرسانه تبث الرعب في القلوب.

استدار جنكيز فوق السرج إلى الرجل الذي كان قد حطّم أسواراً أقل ضخامة.

سأل: "هل يمكننا الاستيلاء على المكان يا ليان؟". لم ينظر البنّاء إلى عينيه وحدّق إلى المدينة. أخيراً، هزّ رأسه.

قال: "ليس لمدينة أخرى سور بهذا العرض في الأعلى. من ذلك الارتفاع،

سيكون لديهم دائماً مدى أوسع مما يمكنني الوصول إليه. إذا بنينا متاريس حجرية، ربما أستطيع حماية المنجنيقات؛ لكن إذا كنت أستطيع الوصول إليهم، يمكنهم بالتأكيد الوصول إلي وتحويل المنجنيقات إلى حطب".

حدّق جنكيز بإحباط باتجاه ينكينغ. كان الوصول إلى ذلك الحد والتوقف على الرغم من ذلك عند العقبة الأخيرة يثير الحنق. قبل يوم واحد فقط، كان يهنئ خاسار على استيلائه على الحصن في الممر وكشيون على هجومه الموفق. كان يعتقد عندها أنه لا يمكن إيقاف شعبه، وأن النصر سيتحقق بسهولة دائماً. كان جيشه يعتقد ذلك بالتأكيد. كان محاربون يتهامسون أن العالم له ليستولي عليه. بمواجهة ينكينغ، كان يشعر بسخرية الإمبراطور من مثل ذلك الطموح.

لم يظهر على وجه جنكيز أي تعبير عندما استدار إلى شقيقيه.

"ستجد العائلات هنا أرضاً جيدة لجمع القوت. سيكون هناك وقت للتخطيط للهجوم على هذا المكان".

أومأ خاسار وكشيون متشككين. كانا يستطيعان أيضاً رؤية الفتح الكبير يتوقف عند قدمي ينكينغ. مثل جنكيز نفسه، كانا قد أصبحا معتادين على الإيقاع السريع والمثير للاستيلاء على المدن. كانت عربات شعبهم آنذاك محمّلة بالذهب والثروة التي تكسر محاورها في أي رحلة طويلة.

سأل جنكيز فجأة: "كم سيستغرق تجويع مثل هذه المدينة؟".

لم تكن لدى ليان أي فكرة مثلهم، لكنه لم يرغب بأن يقر بجهله.

"كنت قد سمعت أن أكثر من مليون من رعايا الإمبراطور يعيشون في ينكينغ. من الصعب تخيل إطعام مثل ذلك العدد الكبير، لكن بالطبع لديهم صوامع ومخازن كبيرة. كانوا يعرفون أننا قادمون منذ شهور". رأى جنكيز يقطّب حاجبيه وتابع كلامه بسرعة. "يمكن أن يصل الأمر إلى ثلاث سنوات، أو حتى أربع، يا مولاي".

تأوه خاسار بصوت عالٍ من التقدير، لكن أصغرهم تسوبودي أشرق وجهه.

"لم يعد لديهم جيش لفك الحصار يا مولاي. لا حاجة بك لإبقائنا جميعاً هنا. إذا لم نستطع تحطيم الأسوار، ربما ستسمح لنا بالانتشار في هذه الأرض الجديدة. نظراً للظروف الحالية، ليس لدينا حتى خرائط لما يوجد خلف ينكينغ".

نظر جنكيز إلى القائد، ورأى التعطش في عينيه. وشعر بمزاجه يتحسن.

"هذا صحيح. إذا كان علي الانتظار حتى يصبح هذا الإمبراطور جلداً وعظماً قبل أن يستسلم، على الأقل لن يتوقف قادة جيشي عن العمل". أشار بذراعه إلى أرض تبدو من بعيد شاسعة جداً بشكل لا يمكن لأي منهم أن يتخيله.

"عندما تستقر العائلات، تعالوا إلي من أي اتجاه وستكون الأرض لكم. لن نضيع الوقت هنا ونصبح بدينين وكسالى".

ابتسم تسوبودي، وحماسته تلهب الآخرين وتبدل مزاجهم السيئ الذي كان سائداً سابقاً.

رد: "كما تشاء يا مولاي".

بدرع أسود مصقول لامع، مشى القائد زهي زهونغ غاضباً بينما كان ينتظر وزراء الإمبراطور للانضمام إليه في قاعة التتويج. كان النهار هادئاً واستطاع سماع نعيب الغربان في الخارج. لم يكن هناك شك بأن الذين يأخذون بالإشارات سيستنتجون شيئاً من الطيور المزعجة، إذا رأوها.

كانت جنازة الإمبراطور وي قد انتهت منذ عشرة أيام، ومزّق نصف سكان المدينة ملابسهم ووضعوا الرماد على جلودهم قبل أن يتم حرق الجثة. كان زهي زهونغ قد تحمّل خطباً لا تنتهي من عائلات النبلاء. لم يكن أحد منهم قد ذكر طريقة موت الإمبراطور، ليس وزهي زهونغ يحدّق إليهم وحراسه يقفون وأيديهم على مقابض سيوفهم. كان قد قضى على رأس الإمبراطورية، وأنهى الأمر بضربة واحدة إلا أن كل شيء آخر بقي على حاله.

كانت الفوضى عارمة في الأيام القليلة الأولى، لكن بعد إعدام ثلاثة وزراء رفعوا عقيرتهم بالكلام، انهارت أي مقاومة أخرى، ومضت الجنازة الكبيرة قدماً

كما لو أن الإمبراطور الشاب كان قد توفي في أثناء نومه.

كان مفيداً اكتشاف أن النبلاء الحاكمين كانوا قد أعدوا خططاً للمناسبة قبل وقت طويل من وقوعها. كانت إمبراطورية تشن قد نجت من ثورة وحتى من مؤامرة لقتل الإمبراطور من قبل. بعد موجة الاعتداءات الأولى، عادت الأمور إلى مجراها وارتاح الجميع تقريباً. كان الفلاحون في المدينة لا يعرفون شيئاً سوى أن ابن السماء كان قد ترك جسده الفاني. انتحبوا بجهل في شوارع المدينة على غير هدى بهستيريا وأسى.

لم يكن ابن الإمبراطور الصغير قد بكى عندما سمع بموت والده. في ذلك على الأقل، كان الإمبراطور وي قد جعل عائلته تستعد جيداً. كان لدى والدة الفتى إدراك كافٍ لتعرف أن أي احتجاج سيعني موتها، وكانت قد بقيت صامتة خلال الجنازة، شاحبة وجميلة فيما كانت تراقب جثة زوجها تتحول إلى رماد. عندما انهارت محرقة الجنازة وارتفعت ألسنة اللهب، اعتقد زهي زهونغ بأن نظرتها تستقر عليه، لكن عندما نظر إلى الأعلى، كان رأسها منخفضاً تضرعاً لإرادة الآلهة. إرادته، كما اعتقد، على الرغم من أن النتيجة كانت نفسها.

صكّ القائد أسنانه غضباً بينما كان يمشي. أولاً، كانت الجنازة قد استغرقت وقتاً أطول مما كان يعتقد أنه ممكن ثم قيل له إن التتويج سيستغرق عدّة أيام أخرى. كان ذلك يثير الحنق. كانت المدينة مفجوعة ولا أحد من الفلاحين يعمل فيما تجري أحداث عظيمة أمامهم. كان قد تحمّل جلسات قياس لا تنتهي لتفصيل ملابس جديدة تليق بمنصبه كوصي. كان قد بقي صامتاً حتى عندما ألقى الوزراء بعصبية على مسامعه محاضرات عن مسؤولياته الجديدة. بالإضافة إلى كل ذلك، كان خان المغول يتجول مثل ذئب عند الباب، ويراقب المدينة.

في ساعات فراغه، كان زهي زهونغ قد صعد الدرجات إلى اثني عشر مكاناً على السور ليشاهد القبائل القذرة تستقر على الأرض الإمبراطورية. اعتقد أحياناً أنه يستطيع شمّ لحم ضأنهم العفن وحليب ماعزهم في النسيم. كان من المزعج

أن يتغلب عليه رعاة الأغنام، لكنهم لن يستولوا على ينكينغ. كان الأباطرة الذين بنوا المدينة يرغبون بأن تكون استعراضاً لقوتهم. لن تسقط بسهولة، كما أخبر زهي زهونغ نفسه.

كان لا يزال يستيقظ في الليل من كوابيس يتصور فيها نفسه ملاحقاً، قرقعة سهام الأقواس مثل بعوض يطنّ في أذنيه. ما الذي كان يستطيع فعله غير ذلك؟ لم يكن أحد يعتقد أن المغول يستطيعون تسلق أعلى القمم لتطويقه. لم يعد زهي زهونغ يشعر بذل الهزيمة. لقد كانت الآلهة ضده وعلى الرغم من ذلك منحته المدينة بين يديه كوصي. كان سيراقب جيش المغول يتحطم على الأسوار، وعندما تثخنهم الجروح، سيمسك رأس خانهم بيديه ويدفنه في أعمق حفرة غائط في المدينة.

جعلت الفكرة مزاجه يتحسن بينما كان ينتظر ظهور الإمبراطور الفتى. في مكان ما بعيد، كان يسمع أجراساً تُقرع، معلنة ظهور ابن السماء الجديد على الشعب.

فُتحت الأبواب إلى قاعة التتويج لتكشف الوجه الذي يتصبب عرقاً لروين تشو، الوزير الأول.

قال عندما رأى زهي زهونغ: "مولاي الوصي! أنت لا ترتدي ثوبك! سيكون جلالة الإمبراطور هنا في أي لحظة". بدا كما لو أنه على وشك الانهيار، بعد أيام من تنظيم الجنازة والتتويج. وجد زهي زهونغ الرجل البدين مثيراً للغضب وأسعده التأثير الذي كانت كلماته ستتركه.

"لقد تركتها في غرفتي، أيها الوزير. لن أحتاج إليها اليوم".

"لقد تم التخطيط لكل لحظة من الاحتفال يا مولاي الوصي. ينبغي...".

قال زهي زهونغ بحدّة: "لا تقل لي ينبغي. أحضر الفتى إلى هنا وضع التاج على رأسه. أنشدوا، غنّوا، أشعلوا البخور، افعلوا ما يحلو لكم، لكن قل كلمة واحدة لي بشأن ما ينبغي عليّ فعله وسأقطع رأسك".

فغر الوزير فمه دهشة، ثم أخفض عينيه، وكان يرتعش بشكل ظاهر للعيان. كان يعرف أن الرجل الذي يواجهه قد قتل الإمبراطور. كان قائد الجيش خائناً قاسياً ولم يكن روين تشو يشك بأنه سيريق المزيد من الدماء في يوم التتويج. أحنى رأسه بينما كان يمشي إلى الخلف، ويفتح الأبواب. سمع زهي زهونغ الخطوات البطيئة لسير شخص وانتظر بصمت بينما كان الوزير يلتقي القادم. ضحك بصوت خافت عندما سمع الخطوات تسرع.

عندما فُتحت الأبواب مجدداً، كانت هناك نظرة خوف مؤكدة في حاشية الفتى البالغ من العمر ست سنوات والذي سيصبح إمبراطوراً. رأى زهي زهونغ أنه كان يتحمل الموقف جيداً، على الرغم من أنه لم ينم كثيراً في الأيام الماضية.

تباطأ التقدم مجدداً عندما تجاوز زهي زهونغ، متجهاً نحو العرش الذهبي. كان الرهبان البوذيون يلوحون بأوعية بخور تملأ الهواء بدخانها. كانوا يشعرون بالتوتر أيضاً لرؤية قائد الجيش مرتدياً درعه، والرجل الوحيد الذي يحمل سيفاً في الغرفة. مشى خلفهم بينما كان ابن الإمبراطور وي يأخذ مكانه على العرش. كانت تلك بداية المرحلة النهائية فقط. كانت تلاوة الألقاب وحدها ستستمر حتى الظهيرة.

راقب زهي زهونغ ما يجري بغضب بينما كان الوزراء يرتاحون في أماكنهم، ويجلسون مثل طواويس حول مركز الاحتفال. جعلته الرائحة يشعر بالنعاس ولم يسعه سوى أن يفكر بالمغول في السهول خارج المدينة. في البداية، كان قد شدّد على الحاجة لإجراء الطقوس، وكانت تلك طريقة للحفاظ على النظام بعد أن قتل الإمبراطور. كانت المدينة ستثور من دون يد قوية تحكمها وكان من الضروري السماح للنبلاء ممارسة تقاليدهم كما يحلو لهم. كما أنه كان متعباً آنذاك من الأمر. كانت المدينة هادئة في حزنها والمغول قد بدأوا يبنون منجنيقات ضخمة، ويرفعون أسواراً من الحجارة لحماية أسلحتهم.

في إشارة إلى نفاد صبره، مشى زهي زهونغ بخطوات واسعة إلى الأمام، مقاطعاً

صوت الراهب الرتيب. تجمد الفتى الصغير عندما نظر إلى الشكل الذي يرتدي درعاً داكناً. أخذ زهي زهونغ التاج الإمبراطوري من حيث كان موضوعاً على وسادة من الحرير المذهب. كان ثقيلاً بشكل مدهش، وللحظة، امتلأ رعباً من فكرة تسليمه. كان قد قتل الرجل الذي كان يضعه.

وضعه بإحكام على رأس الإمبراطور الجديد. قال: "كسوان، أنت إمبراطور، ابن السماء. ليكن عهدك حكيماً". تجاهل الصدمة في وجوه الرجال حوله. "أنا الوصي عليك، ويدك اليمنى. حتى تبلغ العشرين من العمر، ستطيعني في كل شيء، من دون نقاش. هل تفهم ذلك؟".

امتلأت عينا الفتى الصغير بالدموع. لم يكن يدرك تماماً ما يحدث، لكنه تمتم رداً. "أنا... أنا أفهم".

"انتهى الأمر إذاً. ليسعد الشعب. سأذهب إلى السور".

ترك زهي زهونغ الوزراء المذهولين خلفه في غفلتهم وفتح الأبواب على مصراعيها ومشى خارجاً من القصر. كان البناء يشرف على بحيرة سونغي التي تغذي القناة الكبيرة، وسمح له الموقع من أعلى الدرجات بالنظر إلى المدينة بينما كان الرعايا ينتظرون الأنباء. كان كل جرس سيقرع وسيشرب الفلاحون طيلة أيام. سحب نفساً عميقاً وارتعش بينما كان يقف هناك، ونظر إلى الأسوار الداكنة. خلفها، كان أعداؤه يبحثون عن نقطة ضعف. لكنّهم لن يدخلوا.

جلس تيموج يحدّق حالماً إلى ثلاثة رجال كانوا مرة زعماء بين قومهم. استطاع رؤية تغطرسهم في كل عمل يقومون به، وازدراؤهم له يكاد يظهر في نظراتهم. متى سيفهمون ألا سلطة لهم في النظام الجديد الذي كان شقيقه قد وضعه؟ لم يكن هناك سوى غورخان واحد، رجل واحد أعلى شأناً منهم جميعاً. كان شقيقه يجلس أمامهم، وعلى الرغم من ذلك كانوا يجرؤون على التكلم إلى تيموج كما لو أنهم أنداد له.

فيما كانت القبائل تنصب خيامها في السهل أمام ينكينغ، كان مصدر سعادة

لتيموج إبقاء الرجال ينتظرون كما يرغب. كان جنكيز قد أظهر ثقته به بمنحه لقب سيد التجارة على الرغم من أن تيموج نفسه كان قد حدد طبيعة الدور بمواجهة معارضة فظّة. كان سعيداً بالسلطة التي يتمتع بها ويبتسم دائماً عندما يفكر في طول المدة التي أبقى فيها كوكشو ينتظر رؤيته قبل يوم. كان الكاهن العرّاف شاحباً من الغضب في الوقت الذي سمح له فيه تيموج أخيراً بالدخول إلى خيمة الخان. كان سماح الخان له باستعمال خيمته لإدارة عمله دليلاً على دعم جنكيز في إشارة لم يكن أحد غافلاً عنها. لم تكن هناك فائدة من اللجوء إلى جنكيز إذا لم يكونوا يقبلون بحكم صدر باسمه. كان تيموج قد تأكد من أنهم يفهمون ذلك. إذا كان كوكشو يرغب بجمع رجال لاستكشاف معبد على بعد مئة ميل، كان ينبغي أن تتم الموافقة على الطلب وطريقة توزيع الغنائم من قبل تيموج نفسه.

شبك تيموج يديه أمامه، وهو بالكاد يصغي إلى الرجال الذين كانوا زعماء. كان الأب ويلا يستند على اثنين من أبنائه، لأنه لم يكن قادراً على الوقوف وحده. كان من اللباقة أن يعرض عليه كرسياً، لكن تيموج لم يكن بالشخص الذي ينسى جروحاً قديمة. وقفوا وتكلموا عن الرعي والأخشاب، بينما كان ينظر بعيداً.

كان ويلا يقول: "إذا لم تسمحوا للقطعان بالانتقال إلى مراعٍ جديدة لا تحمل إحدى علاماتكم الصغيرة، فسنضطر إلى ذبح حيوانات موفورة الصحة بدلاً من أن تتضور جوعاً". كان جسده قد أصبح أضخم منذ قطع جنكيز وتري قدميه. كان تيموج يستمتع برؤية وجه الرجل يصبح أحمر اللون غضباً ونظر إليه متكاسلاً من دون أن يرد عليه. لم يكن أحدهم يحسن القراءة أو الكتابة، كما ذكّر نفسه بارتياح. كانت العلامات فكرة رائعة، وتحمل رمز ذئب ملتهب في ساحات من خشب الصنوبر. كان لديه رجال في المعسكر يطلبون رؤية مثل تلك العلامة إذا شاهدوا محاربين يقطعون أشجاراً، أو يتقاسمون ثروة من غنيمة، أو

أي شيء آخر. لم يكن النظام مكتملاً بعد، لكن جنكيز كان قد دعمه بإعادة أولئك الذين يشتكون خالي الوفاض، ووجوههم شاحبة من الخوف.

عندما أنهى الرجال خطبتهم المطوّلة، تكلم إليهم تيموج بلطف كما لو أنهم يناقشون حالة الطقس. كان قد اكتشف أن نبرة الصوت الناعمة تساعد في تهدئة غضبهم وكان يسعده التعامل معهم بتلك الطريقة.

قال وهو يهزّ رأسه مؤنباً: "في كل تاريخنا، لم نكن قد جمعنا هذا العدد الكبير من الناس في مكان واحد. ينبغي أن نكون منظمين، إذا أردنا العيش برخاء. إذا سمحت للجميع بقطع الأشجار كما يحلو لهم، فلن يبقى شيء للشتاء القادم. هل تفهمون؟ وفقاً لما تجري عليه الأمور الآن، نأتي بالأخشاب فقط من الغابات التي تبعد مسيرة أكثر من ثلاثة أيام، ونجرّها إلى هنا. يستغرق ذلك وقتاً وجهداً، لكنكم سترون الفائدة السنة القادمة".

بقدر ما أغضبهم كلامه اللطيف، إلا أن الجزء البهيج كان أنهم لا يستطيعون نقض منطقه. كانوا رجال قوس وسيف وكان قد اكتشف أنه يستطيع نسج دوائر حولهم فيما هم مرغمون على الاستماع إليه.

سأل خان ويلا المقعد: "فكرة الرعي؟ لا يمكننا تحريك معزاة من دون أن يطلب أحد رجالك المشوهين علامة على موافقتك. يزداد قلق القبائل من يد حاكمة لم يعرفوها من قبل".

ابتسم تيموج للرجل الغاضب، ورأى كيف أن وزنه قد أصبح مجهداً لابنيه اللذين يقفان عند كتفيه.

"آه، لكن لم يعد هناك قبائل يا ويلا. ألم يكن ذلك درساً تعلمته؟ كنت أعتقد أنك تتذكره كل يوم؟". أومأ بإشارة من يده ووضع خادم من تشن كوباً من الشراب الأسود في يده. كان تيموج قد عثر على كادره بين أولئك الذين سباهم جنكيز من المدن. كان بعضهم خدماً لعائلات نبيلة ويعرفون كيف يعاملون رجلاً في مكانته. كان يبدأ كل يوم بحمام ساخن في حوض حديدي تم بناؤه

خصيصاً لذلك الغرض. كان الرجل الوحيد في المعسكر الذي يفعل ذلك، وللمرة الأولى في حياته، استطاع أن يشم رائحة قومه. تغضّن أنفه من تلك الفكرة. كانت تلك هي الطريقة التي ينبغي أن يحيا عليها الإنسان، كما قال لنفسه، وهو يرتشف الشراب فيما كانوا ينتظرون.

"هذه أيام جديدة أيها السادة. لا يمكننا الانتقال من هنا حتى تسقط المدينة، وهذا يعني أن ندير عمليات الرعي بحرص. لو أنني لم أضع بعض القيود، لأصبحت الأرض خالية من العشب بحلول الصيف وأين سنكون حينها؟ هل سيكون شقيقي بعيداً عن قطعانه ألف ميل؟ لا أعتقد أن هذا ما تريدونه". هزّ كتفيه استخفافاً. "ربما نجوع قليلاً نهاية الصيف. ربما سنضطر لذبح بعض القطعان، إذا لم تستطع الأرض إطعام الكثير منها. ألم أرسل رجالاً للبحث عن الملح لتقديد اللحم؟ سيتضور الإمبراطور جوعاً قبل أن نجوع نحن".

حدّق إليه الرجال بإحباط صامت. كانوا يستطيعون المجاهرة بأمثلة عن قيادته في المعسكر الشاسع. كان لديه جواب لكل منها. ما لم يستطيعوا التعبير عنه كان غضبهم عند استدعائهم لتقديم فروض الطاعة عند كل مناسبة يصدر فيها حكم جديد من تيموج. لم يكن ينبغي إقامة مراحيض بالقرب من المياه الجارية. كان ينبغي تزويج الجياد فقط وفقاً للائحة سلالات الدم التي وضعها تيموج بنفسه، من دون استشارة أحد. لم يعد بمقدور رجل يمتلك مهرة وجواداً رائعين تزويجهما معاً من دون طلب إذن بذلك. كان ذلك يضايقهم جميعاً وكان صحيحاً أن الاستياء يعم المعسكر.

لم يجرؤوا على رفع عقيرتهم بالشكوى علانية، ليس وجنكيز يدعم شقيقه. لو أنه استمع إلى شكواهم، لكان قوّض سلطة تيموج وألغى المنصب الجديد. كان تيموج يفهم ذلك، ويعرف شقيقه أفضل بكثير مما يعرفونه. حالما منحه جنكيز ذلك الدور، لم يكن ليتدخل في أي شيء. استفاد تيموج من الفرصة ليظهر ما يمكن لرجل ذكي تحقيقه عندما لا يكون مقيداً.

قال تيموج: "إذا كان هذا كل شيء، لدي آخرون ينبغي أن أراهم هذا الصباح. ربما تفهمون الآن لماذا مقابلتي صعبة. أكتشف أن هناك دائماً بعض الأشخاص الذين يتكلمون النهار بطوله قبل أن يفهموا ما ينبغي بنا فعله هنا؛ وما ينبغي أن نصبح عليه".

لم يكن قد منحهم شيئاً وكان إحباطهم وغضبهم مثل شراب بارد بالنسبة إليه. لم يستطع مقاومة المضي قدماً في تعليقاته اللاذعة.

"إذا كان هناك شيء آخر، أنا مشغول، لكن يمكنني تخصيص بعض الوقت للإنصات إليكم بالطبع".

قال الرجل المقعد متعباً: "أنت تنصت، لكنك لا تسمع".

مدّ تيموج يديه آسفاً.

"اكتشفت أن كل من جاء قبلي لم يستطع فهم المشكلات التي تعانون منها. هناك حتى أوقات تتم فيها التجارة في هذا المعسكر من دون دفع عُشر الخان وإرساله لي".

حدّق إلى الخان العجوز الذي كان يستند على ذراعي ابنيه وتكلم فيما اهتزت نظرة الرجل المتقدة. إلى أي مدى كانت معرفة تيموج واسعة؟ كانت هناك إشاعات أنه يدفع لجواسيس لينقلوا إليه أنباء كل التعاملات التي تحدث، وكل صفقة وتبادل للثروة. لم يكن أحد يعرف مدى نفوذه.

تنهد تيموج وهزّ رأسه كما لو أنه محبط.

"كنت آمل أن تعلمني بالأمر من دون أن أطلب ذلك منك يا ويلا. ألم تبع اثنتي عشرة جواداً إلى أحد عمالنا من تشن؟". ابتسم مشجعاً. "لقد سمعت أن السعر كان جيداً، على الرغم من أن الجياد لم تكن من أفضل نوعية. لم أتلقَ بعد العُشر عن الجوادين والذي تدين به لشقيقي، على الرغم من أنني أفترض أنه سيصلني قبل مغيب الشمس. هل افتراض ذلك شيء معقول، برأيك؟".

تساءل خان ويلا عمن يكون قد خانه. بعد مرور بعض الوقت، أومأ برأسه

وابتسم تيموج.

"ممتاز. ينبغي أن أشكرك لابتعادك عن أولئك الذين ما زالوا يعتبرونك تمثل السلطة. تذكر أنني هنا دائماً في حال كان أي شيء آخر بحاجة إلى اهتمامي".

لم يقف عندما استداروا ليغادروا خيمة الخان. نظر أحد أولئك الذين لم يتكلموا إلى الخلف بغضب ظاهر وقرّر تيموج أن يراقبه. كانوا يخافون منه، لدوره ككاهن عرّاف ومن ظل شقيقه. كان كوكشو قد قال الحقيقة في ما يتعلق بذلك. ربما كانت رؤية الخوف في عيني رجل آخر أروع شعور ينتاب الإنسان. كان ذلك يجعله يشعر بالقوة والرشاقة اللتين لا يشعر بهما بخلاف ذلك سوى من العجينة السوداء التي يقدمها له كوكشو.

كان هناك رجال آخرون ينتظرون رؤيته، وكان قد استدعى بعضهم بنفسه. فكّر في قضاء فترة بعد الظهر معهم، وفي نزوة انتابته، قرر خلاف ذلك. أدار رأسه إلى الخادم.

قال: "ربما كوب من الشراب الأسود الممزوج بملء ملعقة من دوائي". كانت العجينة السوداء ستجلب له رؤى ملونة ثم سينام طيلة بعد الظهر، ويتركهم ينتظرون. تمطّى عندما خطرت له الفكرة، سعيداً بعمل ذلك اليوم.

استغرق بناء متاريس من الحجارة والخشب لحماية أسلحة الحرب الكبيرة شهرين. كان قد تم بناء المنجنيقات التي صممها ليان في الغابات إلى الشرق. بعوارضها الكبيرة التي كانت لا تزال دبقة بالصمغ، انتصبت مثل وحوش ساكنة على بعد ميل كامل عن أسوار المدينة. عندما ينتهي بناء المنصّات، سيتم سحبها إليها لتكون في ظل حمايتها. كان عملاً بطيئاً ومجهداً، لكن بطريقة ما، كانت ثقة حشد المغول قد ارتفعت بمرور الوقت. لم يكن أي جيش قد خرج لمهاجمتهم، وكانت هناك بحيرة مياه عذبة إلى الشمال من المدينة وسواحلها مليئة بالطيور التي كانوا يستطيعون اصطيادها خلال شهور الشتاء. كانوا أمراء سهل تشن. على الرغم من ذلك، لم يكن هناك شيء يفعلونه سوى العيش على الرغم من أنهم كانوا معتادين على الغزو السريع وتحقيق الانتصارات، واكتشاف أرض جديدة كل يوم. كان التوقف فجأة قد بدأ يعطل الصداقة القوية بين القبائل. كانت هناك معارك بالسكاكين آنذاك تنتج عن ضغائن قديمة. تم العثور على رجلين وامرأة مقتولين على شاطئ البحيرة، من دون أن يعرف أحد من قتلهم.

انتظر الجيش بقلق أن تتضور المدينة جوعاً. لم يكن جنكيز يعرف ما إذا كان يمكن للمنصات الحجرية حماية المنجنيقات الثقيلة، لكنه كان بحاجة إلى شيء يبعد قومه عن الكسل. على الأقل، كان دفعهم للعمل حتى يصابوا بالإرهاق يجعلهم رشيقين فيما يبعدهم التعب عن الشجار. كان المستطلعون قد وجدوا تلاً من صخر الإردواز، على بعد مسيرة أقل من يوم من ينكينغ. تفحّص المحاربون الصخر بالحماسة التي ينفذون بها أي مهمة، وكسروه بالأسافين والمطارق، ثم دفعوا الكتل الصخرية فوق العربات. كانت خبرة ليان ضرورية هناك ولم يغادر موقع المقلع إلا نادراً في تلك الأسابيع. علّمهم كيف يلصقون

الصخور ببعضها بعجينة من الجير المحروق، وكانت المنصات تكبر يومياً. لم يعد جنكيز يعرف كم ألف عربة كانت قد تجاوزت خيمته، إلا أن تيموج احتفظ بسجل دقيق لما لديهم من مخطوطات حصلوا عليها في أثناء حروبهم.

كانت الآلات التي صممها ليان عبارة عن شبكات من الحبال تحمل حجارة ضخمة، والتي تتدلى من روافعها. كان هناك رجلان قد سحقا أيديهما في عملية البناء، وعانيا ألماً مبرحاً بينما كان كوكشو يبتر الأطراف المشوهة منهما. كان الكاهن العرّاف قد فرك عجينة كثيفة خشنة على لثتيهما للتخفيف من الألم، لكنهما على الرغم من ذلك بقيا يصرخان. مضى العمل قدماً، وكان دائماً محط أنظار أولئك الموجودين على أسوار ينكينغ. لم تكن لدى جنكيز حيلة لمنع أقواس الحرب الضخمة التي تتحرك أعلى السور من مواجهة أسلحته. بنت فرق تصببت عرقاً من الحرس الإمبراطوري قواعد جديدة لها، وعملوا لساعات طويلة مثل المحاربين المغول تحتهم.

تطلب الأمر مئات الرجال الأقوياء لدفع المنجنيقات إلى أعلى المنصات أمام ينكينغ. مع تساقط ثلوج جديدة على السهل، وقف جنكيز محبطاً بينما كان مهندسو تشن يشدّون أوتار سبعة أقواس كبيرة، والتي أرسلت أعمدة لها رؤوس حديدية اصطدمت بالمنصات. ردّت المنجنيقات بصخرتين كبيرتين ارتطمتا بالأسوار، وتسببت بتطاير شظايا منها. بقيت أسلحة تشن سليمة من دون أن تُمس.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً لتزويد روافع ليان الضخمة بالحجارة. في ذلك الوقت، دكّت أقواس السور المنصات بالسهام مراراً وتكراراً. قبل أن تصبح المنجنيقات جاهزة لرمية ثانية على المدينة، ظهرت شقوق في المنصات التي كانت القبائل قد بنتها. بعد ذلك، حدث الدمار بسرعة. تطايرت الحجارة في الهواء مع كل ضربة، وأمطرت ليان ورجاله بشظاياها. سقط العديد منهم يمسكون بأيديهم ووجوههم، وترنحوا إلى الخلف عندما استمر وابل القصف.

بقي ليان نفسه سليماً ووقف يراقب بصمت كئيب منصّاته تتمزق إرباً وآلاته تتحطم.

لبعض الوقت، بدا أن المنجنيقات نفسها ربما تنجو، لكن إصابة مباشرة بعد ذلك فرقعت عبر السهل، وتبعها مباشرة تقريباً ثلاث أخرى. عندما أصيبت فرق السور بالتعب، تباطأ العمل، لكن كل ضربة كانت تتمتع بقوة مرعبة. مات محاربون وهم يحاولون سحب الآلات إلى خارج مدى الأقواس. في لحظة واحدة، كانوا يصلون إلى هناك وهم يتصببون عرقاً ويصرخون. في اللحظة التالية، يصبحون أشلاء ملطخة بالدماء على الخشب والهواء حولهم مليء بالثلج والغبار.

لم يكن ممكناً إنقاذ شيء. همهم جنكيز بلطف من حنجرته بينما كان ينظر فوق أشلاء الرجال وقطع الخشب المكسورة. كان قريباً بما يكفي من المدينة لسماع الهتافات داخلها وأغضبه أن ليان كان محقاً. من دون حماية، لن يستطيعوا مجاراة مدى أسلحة السور وسيتم تحطيم كل ما يبنونه. كان جنكيز قد ناقش بناء أبراج عالية يتم دفعها على عجلات نحو المدينة، وربما تغليفها بالحديد، لكن السهام الثقيلة ستضربها مباشرة، تماماً كما تخترق سهامه الدروع الثقيلة. إذا صنع حدّادوه أبراجاً قوية بما يكفي لتحمل الضربات، ستكون ثقيلة جداً على تحريكها. كان الأمر جنونياً.

مشى جنكيز جيئة وذهاباً فيما أرسل تسوبودي محاربين شجعان لجلب الجرحى وإخراجهم من مدى الأسلحة. كان رجاله يعتقدون أنه يستطيع الاستيلاء على ينكينغ كما فعل مع مدن أخرى. لم تكن رؤية آلات ليان الاستثنائية تتحطم إلى قطع صغيرة لتساعد على رفع المعنويات في المعسكر.

فيما كان جنكيز يراقب الذئاب الفتية يخاطرون بحياتهم، اقترب كشيون وترجّل. لم يكن التعبير على وجه شقيقه واضحاً، على الرغم من أن جنكيز اعتقد أنه يرى الغضب الشديد نفسه من الفشل.

قال كشيون: "مهما يكن الذي بنى هذه المدينة فقد فكّر جيداً في دفاعاتها. لن نستولي عليها بالقوة".

قال جنكيز بحدّة: "إذاً، سيتضورون جوعاً. لقد نصبت الخيمة السوداء أمام ينكينغ. لن تكون هناك رحمة".

أومأ كشيون برأسه، يراقب شقيقه الأكبر عن كثب. لم يكن جنكيز في أفضل حالاته عندما يتم إرغامه على عدم فعل شيء. كانت تلك أوقاتاً يسير فيها قادة جيشه بحرص حوله. خلال الأيام الماضية، كان كشيون قد رأى جنكيز يفقد مزاجه السيّئ عندما ارتفعت المنصات، وبدا قوياً بشكل مدهش. كانوا جميعاً يتمتعون بالثقة، لكن كان من الواضح أن قائد تشن قد انتظرهم فقط ليسحبوا الأسلحة الجديدة حتى تصبح ضمن مدى أسلحته. أياً يكن، كان الرجل صبوراً، والأعداء الصبورون هم الأكثر خطورة.

كان كشيون يعرف أن جنكيز قد يندفع لاتخاذ قرارات متسرعة. نظراً للموقف آنذاك، كان لا يزال يستمع إلى قادة جيشه، لكن مع اقتراب الشتاء، ربما سيكون مغرياً لجنكيز أن يحاول تقريباً أي شيء وقد تعاني القبائل نتيجة لذلك.

سأل جنكيز، مردّداً أفكار كشيون: "ما رأيك بإرسال رجال لتسلق الأسوار في الليل؟ خمسون أو مئة منهم، لإشعال حرائق في المدينة".

رد كشيون بحرص: "يمكن تسلق الأسوار. لكن دوريات تشن على القمة كثيفة مثل الذباب. قلت إن ذلك سيكون خسارة للرجال، من قبل".

هزّ جنكيز كتفيه غاضباً.

"لدينا المنجنيقات إذاً. ربما لا يزال ممكناً تجريبها".

أدار جنكيز عينيه الشاحبتين إلى شقيقه. نظر إليه كشيون، وكان يعرف أن شقيقه يريد سماع الحقيقة.

قال كشيون: "قال ليان إن لديهم أكثر من مليون في المدينة. سيتم اصطياد

كل من نرسلهم مثل كلاب برية ويصبح الأمر تسلية لجنودهم". تأفف جنكيز رداً على ذلك، مكتئباً ويائساً. فكّر كشيون في طريقة للتخفيف من حدّة مزاجه.

"ربما حان الوقت لإرسال قادة الجيش لشن غارات أخرى، كما قلت إنك ستفعل. لن نحقق انتصاراً سريعاً هنا وهناك مدن أخرى في هذه الأرض. دع أبناءك يذهبون معهم، حتى يتعلموا ما نقوم به".

رأى كشيون ارتياباً يظهر على وجه جنكيز واعتقد أنه يفهم ما يريد. كان قادة الجيش رجالاً يثق جنكيز بأنهم سيتصرفون كما ينبغي من دون إشراف منه. كانوا موالين تماماً، لكن كان يتم خوض الحرب حتى تلك المرحلة تحت عيني جنكيز. كان إرسالهم بتلك الطريقة، وربما بعيداً آلاف الأميال، أمراً لن يقره جنكيز بسهولة. كان قد وافق على الأمر أكثر من مرة، لكن على الرغم من ذلك وبطريقة ما، لم يكن الأمر الأخير قد صدر بعد.

سأل كشيون بلطف: "هل تخاف الخيانة؟ من أين ستأتي؟ من أرسلان وابنه جيلم اللذين كانا معنا منذ البداية؟ من خاسار، أو تسوبودي الذي لا يحب أحداً في هذه الدنيا أكثر منك؟ مني؟".

ابتسم جنكيز قليلاً من الفكرة. رفع بصره إلى أسوار ينكينغ التي كانت لا تزال سليمة أمامه. بتنهيدة، أدرك أنه لا يستطيع إبقاء الكثير من الرجال النشيطين في ذلك السهل لمدة تصل إلى ثلاث سنوات. سينقضّون بعضهم على بعض قبل ذلك بوقت طويل، وينفذون عمل إمبراطور تشن نيابة عنه.

"هل ينبغي أن أرسل الجيش كله؟ ربما سأبقى هنا وحيداً وأتحدّى جنود تشن أن يخرجوا إلي".

ضحك كشيون بصوت خافت من تلك الصورة.

رد: "في الحقيقة، سيعتقدون على الأرجح أنها مكيدة ويتركونك هنا. على الرغم من ذلك، إن كنت الإمبراطور، سأدرب كل رجل يستطيع أن يصبح محارباً، وأبني جيشاً من الداخل. لا يمكنك ترك عدد قليل لمراقبة ينكينغ، وإلا

سيرون فرصة لشن هجوم".

تأفف جنكيز.

"لا يمكنك صنع محارب في بضعة شهور. ليتدربوا، هؤلاء الخبّازون والتجار. سأرحب بفرصة أن أُظهر لهم ما يعنيه أن يكون المرء محارباً بالولادة".

قال كشيون بوجه صارم: "مع صوت مثل الرعد، وأشياء أخرى مثل البرق". بعد لحظة صمت، انفجر كلا الرجلين ضاحكين.

كان مزاج جنكيز السيّئ الذي رافقه منذ تدمير المنجنيقات قد تحسن. استطاع كشيون تقريباً رؤية الطاقة تزداد فيه بينما كان يفكر بالمستقبل.

"لقد قلت إنني سأرسلهم يا كشيون، على الرغم من أن الوقت لا يزال مبكراً على ذلك. لا نعرف إن كانت مدن أخرى ستحاول إغاثة ينكينغ وربما نحتاج إلى كل رجل هنا". هزّ كتفيه استخفافاً. "إذا لم تسقط المدينة بحلول الربيع، سأرسل قادة الجيش للصيد".

كان زهي زهونغ مستغرقاً في أفكاره عندما وقف أمام نافذة عالية في حجرة استقبال القصر الصيفي. لم يكن قد تكلم كثيراً إلى الفتى الإمبراطور منذ قام بتتويجه. كان كسوان في مكان ما في متاهة الأروقة والغرف التي كانت تشكل مكان إقامة والده الرسمي وكان زهي زهونغ نادراً ما يفكر فيه.

كان الجنود قد حيّوا قائدهم عندما تم تدمير منجنيقات المغول ذلك الصباح. كانوا يتطلعون إلى زهي زهونغ للحصول على استحسانه والذي أظهره بإيماءة قصيرة إلى ضابطه قبل أن ينزل الدرجات إلى المدينة. استطاع في خلوته فقط أن يشد قبضته بنشوة نصر صامت. لم يكن ذلك كافياً لمحوِ ذكرى ممر بادغر، لكنه كان نصراً من نوع ما وكان المواطنون الخائفون بحاجة إلى شيء ينتشلهم من يأسهم. تأفف زهي زهونغ عندما تذكر تقارير حالات الانتحار. كان قد تم العثور على أربع فتيات شريفات النسب ميتات في غرفهن حالما انتشرت أنباء هزيمة الجيش في ينكينغ. كانت الأربع يعرفن بعضهن وبدا أنهن فضّلن نهاية

جليلة على الاغتصاب والدمار الذي اعتبرن ألا مفر منه. كانت إحدى عشرة أخريات قد سلكن الدرب نفسه في الأسابيع التي تلت ذلك وأصيب زهي زهونغ بالقلق من انتشار الشكل الجديد للموت عبر المدينة. شبك يديه خلف ظهره، ونظر من فوق البحيرة إلى منازل النبلاء. كانت ستصلهم أنباء أفضل ذلك اليوم. ربما سيترددون بسكاكينهم العاجية وإبداء سخريتهم من مهارته. كانت ينكينغ لا تزال تقاوم الغزاة.

أدرك الوصي أنه كان متعباً وجائعاً. لم يكن قد تناول الطعام منذ الصباح وأمضى النهار في عدد من الاجتماعات أكبر من أن يتذكره. بدا أن كل رجل سلطة في ينكينغ يحتاج إلى موافقته ونصيحته. كما لو أنه يعرف أكثر منهم ما سيحدث خلال الشهور القادمة. تقطب حاجباه عندما فكر في إمدادات الطعام، وألقى نظرة على طاولة جانبية عليها لفائف من ورق البردي مثل هرم. كان مواطنو ينكينغ يستهلكون أنفسهم قبل الهزيمة. يمكن لذلك أن يجعل دفاعاته موضع سخرية، لكن زهي زهونغ نفسه كان قد جرّد مخازن المدينة لإطعام الجيش. كان يغيظه التفكير في المغول يأكلون الإمدادات التي كان قد جمعها طيلة سنة عند الممر، لكن لم تكن هناك فائدة من إعادة النظر في قرارات سيئة. بالمحصلة، كان والإمبراطور قد اعتقدا أنه يمكن إيقاف المغول قبل أن يصبحوا في مرمى نظر المدينة الإمبراطورية.

زمّ زهي زهونغ شفتيه. لم يكن تجار ينكينغ حمقى. كان توزيع حصص الطعام يتم بالقوة في المدينة. حتى السوق السوداء كانت قد انهارت عندما أدركوا أن الحصار ربما لن يُفك بسرعة. كان قلة فقط لا يزالون يبيعون الطعام بأرباح عالية. أما الباقون فكانوا يحصلون على المؤن لعائلاتهم. مثل كل طبقتهم، كانوا سيحاولون الانتظار حتى تمر العاصفة ثم يصبحون بدناء وأثرياء مجدداً بعد ذلك.

سجل زهي زهونغ ملاحظة ذهنية لجعل أغنى التجار يمثل أمامه. كان يعرف

كيف يضغط عليه لكشف مخازنه السرية. من دونها، كان الفلاحون سيأكلون القطط والكلاب خلال شهر وبعد ذلك...؟ طقطق عنقه غاضباً. بعد ذلك، سيكون محاصراً في مكان مع مليون شخص جائع. ستكون تلك جحيماً على الأرض.

كان الأمل الوحيد ألا ينتظر المغول خارج الأسوار إلى الأبد. قال في قرارة نفسه إنهم سيتعبون من الحصار ويذهبون إلى مدن أخرى تكون دفاعاتها أقل تحصيناً. فرك زهي زهونغ عينيه، سعيداً لعدم وجود أحد عدا العبيد لرؤية ضعفه. في الحقيقة، لم يكن قد عمل بجد في حياته مثلما فعل في دوره الجديد. لم يكن ينام كثيراً وعندما كان يرتاح فعلاً، كانت أحلامه مليئة بالخطط والخدع الحربية. لم يكن قد نام طيلة الليل قبل أن يقف مع فرق الأقواس.

ابتسم بتكلف عندما تذكر مجدداً تدمير آلات المغول. لو أنه استطاع فقط رؤية وجه الخان في تلك اللحظة. كان يرغب باستدعاء الوزراء لعقد اجتماع أخير قبل أن يستحم وينام. لا، ليس وهم ينظرون إليه بشيء أكثر من الهزيمة في عيونهم. سيتركهم ينتظرون طيلة هذا اليوم، والذي كان قد حطّم فيه صورة خان المغول الذي لا يُقهر.

استدار زهي زهونغ مبتعداً عن النافذة وسلك طريقاً عبر أروقة مظلمة إلى حيث كان الإمبراطور وي يستحم كل مساء. تنهد بسعادة غامرة عندما وصل إلى الباب ودخل غرفة في وسطها حوض استحمام. كان العبيد قد سخّنوا الماء استعداداً لحمامه وطقطق عنقه بينما كان يستعد للتخلص من أعباء النهار.

نزع العبيد ملابس زهي زهونغ بكفاءتهم المعتادة بينما كان ينظر إلى الفتاتين اللتين تنتظران أن تفركا جلده بالزيت في حوض الاستحمام. بصمت، هنّأ الإمبراطور وي على حسن ذوقه. لم يكن ابنه ليستفيد من الجاريتين في البيت الإمبراطوري، على الأقل لبضع سنوات قادمة.

عارياً، غمر زهي زهونغ نفسه في الماء، مستمتعاً بالمساحة في غرفة عالية

السقف. سُكب الماء وترددت الأصداء في الغرفة وبدأ يسترخي فيما كانت الفتاتان تفركان جلده بالصابون بأيدٍ ناعمة. أنعشته لمساتهما...

بعد ثلاث ليالٍ من تدمير منجنيقات المغول، نزل رجلان خلسة عن أسوار ينكينغ، وهبطا المسافة القصيرة الأخيرة من دون صوت. اختفت الحبال فوق رأسيهما، وسحبها حرّاس العاهل الوصي.

في الظلام، نظر أحد الرجلين إلى الآخر، مسيطراً على أعصابه. لم يكن يحب رفقة القاتل وسيكون سعيداً عندما تفرّق بينهما السبل. كان قد نفّذ مثل مهمته من قبل للإمبراطور وي واستساغ فكرة السرقة من رعايا تشن الذين كانوا يعملون من دون كلل أو ملل لصالح خان المغول. بالنسبة لرجل، كان الخونة يستحقون الموت، لكنه سيبتسم لهم ويعمل بجد مثلهم فيما يجمع المعلومات. بطريقته الخاصة، كان يعرف أن مساهمته ستكون قيّمة مثل أي جندي آخر على الأسوار. كان الوصي يحتاج إلى كل معلومة مهما كانت صغيرة عن القبائل ولم يقلل الجاسوس من أهميته لتحقيق ذلك.

لم يكن يعرف اسم القاتل، والذي ربما كان محمياً جيداً مثله تماماً. على الرغم من أنهما وقفا معاً داخل السور، إلا أن الرجل الذي يرتدي ملابس سوداء لم ينطق ببنت شفة. لم يستطع الجاسوس مقاومة النظر إليه بينما كان الرجل يتفقد أسلحته، يربط ويؤمن النصال الصغيرة اللازمة لتحقيق مهمته فيما كانا ينتظران. لم يكن هناك شك بأن زهي زهونغ قد دفع ثروة من الذهب مقابل خدمته، والتي كانت تعني بالتأكيد موت القاتل نفسه.

كان من الغريب أن يربض بجانب رجل يتوقع أن يموت الليلة التالية، من دون أن تظهر عليه على الرغم من ذلك أي علامة على الخوف. هزّ الجاسوس كتفيه استخفافاً عمداً. لم يكن يرغب بأن يتبادل المواقع معه أو يفهم الطريقة التي يفكر فيها مثل ذلك الشخص. ما الدافع الذي يكمن خلف مثل ذلك الولاء الأعمى؟ على الرغم من أن مهمته خطيرة مثل أخرى قام بها في الماضي، إلا أنه

كان يأمل بالعودة إلى أسياده، وإلى بيته.

بملابسه الداكنة، كان القاتل يشبه الظلّ. كان رفيقه يعرف أنه لن يرد حتى إذا تجرأ على الهمس بسؤال له. كان الرجل يركز على ما يفعله، وقد باع حياته. لم يكن ليسمح لشيء بأن يشتت انتباهه. بصمت مطبق، صعدا قارباً خشبياً صغيراً واستعملا سارية ليعبرا الخندق الأسود. كان هناك حبل مربوط إلى طرفه الآخر ليتم سحبه وإخفاؤه، أو إغراقه. لن يكون هناك أثر للرجلين يثير الشبهات في ضوء النهار.

على الطرف الآخر، جثم الرجلان عندما سمعا جلبة جواد. كان المستطلعون المغول ماهرين، لكنهم لا يستطيعون التدقيق في كل بقعة مظلمة، وكانوا يراقبون ظهور أي علامة على وجود قوة، وليس رجلين ينتظران التسلل خلسة إلى معسكرهم. كان الجاسوس يعرف أين أقام رعايا تشن خيامهم، مقلّدين بيوت أسيادهم الجدد من دون خجل. كانت هناك فرصة بأن يكتشفوه وأن يلقى حتفه أيضاً، لكن تلك كانت مخاطرة تتعلق بمهارته ولم يسمح للفكرة بأن تزعجه. نظر مجدداً إلى القاتل، وهذه المرة، رأى رأس الرجل يتجه نحوه. أشاح ببصره بعيداً، محرجاً. طيلة حياته، كان قد سمع بالفرقة، وهم رجال يتدربون طيلة ساعات استيقاظهم على القتل. لم يكن لديهم شرف كجنود يفهمون الشرف. كان الجاسوس قد لعب دور جندي عدداً كافياً من المرات ليعرف عقيدتهم وشعر بالاشمئزاز لدى التفكير برجل يعيش فقط ليقتل. كان قد رأى إخفاء قوارير السم التي بحوزة الرجل وسلك الخنق الذي كان قد لفّه بخبرة حول معصمه.

كان يقال إن ضحايا القتلة يمثّلون قربانهم لآلهة الظلام. كان موتهم الإثبات الأخير على إيمانهم ويضمن لهم مكاناً مرموقاً على عجلة الحياة. هزّ الجاسوس كتفيه غير مبالٍ مجدداً، منزعجاً من أن عمله جعله رفيقاً لمثل ذلك المدمّر.

تلاشت أصوات مستطلعي المغول واهتز الجاسوس متفاجئاً عندما شعر

باللمسة الخفيفة على ذراعه. دفع القاتل بجرة دبقة بين يديه. كانت رائحتها كريهة من دهن الضأن الفاسد ولم يسع الجاسوس سوى أن ينظر إليها بارتباك.

تمتم القاتل: "ضعه على جلدك. من أجل الكلاب".

عندما فهم الجاسوس الأمر، نظر إلى الأعلى، لكن الشكل الأسود كان يمشي مبتعداً آنذاك بخطوات صامتة، واختفى في الظلام. شكر الجاسوس أسلافه على الهدية وفرك الدهن فوق جلده. فكّر في البداية أن ذلك لطف منه، على الرغم من أن القاتل على الأرجح لم يكن يرغب بأن ينهض المعسكر فيما يقوم بتنفيذ مهمته. احمرّ وجهه إذلالاً من الفكرة. لن تكون هناك مفاجآت أخرى تلك الليلة.

عندما استعاد رباطة جأشه، وقف وهرول عبر الظلام، متجهاً إلى المقصد الذي كان قد راقبه في أثناء النهار. من دون رفيقه المتجهم، شعر بأن الثقة بدأت تعود إليه. خلال وقت قصير، سيكون بين رعايا تشن، يدردش ويتكلم معهم كما لو أنه يعرفهم منذ سنين. كان قد فعل ذلك من قبل، عندما شك الإمبراطور بولاء حاكم أحد الأقاليم. وضع الفكرة جانباً، مدركاً أنه ينبغي أن يصل إلى المكان قبل أن ينفذ القاتل ضربته وإلا سيتم اعتقاله واستجوابه. مشى بهدوء عبر المعسكر النائم، وألقى التحية على محارب مغولي عندما خرج الرجل ليتبول في الليل. رد عليه الرجل نعساً بلغته الخاصة من دون أن يتوقع أنه يفهمه. رفع كلب رأسه عندما مرّ به، لكنه همهم بصوت خافت فقط عندما شم رائحته. ابتسم الجاسوس غير المرئي في الظلام، وكان قد أصبح في الداخل.

اقترب القاتل من الخيمة الكبيرة للخان، وتحرك عبر المعسكر المظلم مثل شبح. كان قائد المغول أحمق لأنه كشف موقعه لكل شخص على أسوار ينكينغ. كان ذلك من نوع الأخطاء التي يقترفها الإنسان مرة واحدة فقط، عندما لا يكون يعرف شيئاً عن الجمعية السوداء. لم يكن القاتل يعرف إن كان المغول سيعودون إلى جبالهم وسهولهم عندما يموت الخان. لم يكن يهتم لذلك. كان

سيده قد منحه رقعة مربوطة بشريط حريري أسود في احتفال رسمي، ترهن حياته برباط الدم. بغض النظر عما يحدث، لن يعود إلى إخوانه. إذا فشل، سينتحر بدلاً من أن يتم إلقاء القبض عليه ويكشف ربما أسرار نظامه. زمّ شفتيه بمتعة ظلامية؛ لن يفشل. كان المغول رعاة أغنام، ماهرين باستعمال القوس، لكنهم مثل الأطفال ضد رجل بمثل تدريبه. لم يكن هناك شرف كبير في اختياره لقتل خان رجال القبائل النتنين هؤلاء، لكنه لم يفكر في ذلك. كان الشرف يأتي من الطاعة والموت الكريم.

لم يرَه أحد عندما وصل إلى الخيمة الكبيرة على عربتها، والتي تضيء بلون أبيض في الظلام. لاحت فوقه بينما كان يزحف نحوها، وينظر بحثاً عن حراس. كان هناك رجلان بالقرب منها. استطاع سماع صوت أنفاسهما فيما كانا يقفان بثبات ممل، ينتظران الأوامر لينصرفا. من أسوار ينكينغ، كان مستحيلاً معرفة التفاصيل ولم يكن يعرف كم مرة يتم تبديلهم في الليل. كان ينبغي عليه التصرف بسرعة حالما ينقل الموت إلى ذلك المكان.

واقفاً بصمت كامل، راقب القاتل بينما كان أحد الرجلين يتحرك بعيداً ويطوف حول خيمة الخان. لم يكن المحارب متأهباً، وفي الوقت الذي شعر فيه بشخص يقف في الظلال، كان الوقت قد فات. شعر الحارس بشيء يحزّ عنقه ويقطع حنجرته، مما خنق صرخته. خرجت تنهيدة من هواء ملطخ بالدماء من رئتيه وهمس الحارس الآخر بسؤال، ولم يكن متأهباً بعد. وضع القاتل الحارس الأول أرضاً واقترب من حافة العربة، وقضى على الثاني بسرعة عندما اقترب منه. مات الثاني أيضاً من دون صوت وتركه القاتل حيث سقط، وعبر بسرعة إلى الدرجات التي تقود إلى الأعلى. كان رجلاً صغيراً وبالكاد أصدر صوتاً تحت ثقله.

في الظلام الداخلي، استطاع سماع أنفاس بطيئة لرجل يغط في نومه. زحف القاتل ببطء على الأرضية. بتوازن تام، وصل إلى الشكل النائم وجثم بجانب السرير المنخفض. كانا وحدهما. سحب سكيناً حادة، وكان معدنها أسود من

سخام زيتي حتى لا تلمع.

دفع بيده إلى الأسفل نحو مصدر الأنفاس، وعثر على الفم. عندما اهتز النائم، أنزل السكين بسرعة إلى الحنجرة. وقد تمّ إخماد الأنين بالسرعة التي بدأ بها واستلقى الجسد الذي كان يختلج ساكناً من دون حراك. انتظر القاتل حتى عاد الهدوء إلى المكان، وكان يتنفس بصعوبة من رائحة الأمعاء الممزقة. في الظلام، لم يستطع رؤية وجه الرجل الذي كان قد قتله واستعمل أصابعه ليتبين المعالم، وتقطب حاجباه عبوساً. لم تكن رائحة الرجل مثل المحاربين في الخارج. ارتعشت يداه قليلاً عندما كانتا تستكشفان الفم المفتوح والعينين، وتنتقلان إلى الشعر.

لعن القاتل نفسه عندما مسّ الضفائر المدهونة بالزيت لأحد أبناء قومه. كان بالتأكيد خادماً، وشخصاً يستحق الموت شنقاً لمساعدته المغول بتقديم خدماته لهم. جلس القاتل على عقبيه بينما كان يفكر في ما ينبغي القيام به. سيكون الخان قريباً بالتأكيد، كما فكر. كان هناك عدد من الخيام المتناثرة حول الخيمة الكبيرة. كانت إحداها ستضم الرجل الذي يسعى خلفه. سيطر القاتل على نفسه، وتمتم كلمات من تدريبه كانت تجلب له السكينة مباشرة. لم يكن قد استحق الموت بعد.

الفصل السابع والعشرون

استطاع القاتل سماع أصوات تنفس عندما دخل خيمة أخرى. كان الظلام حالكاً، لكنه أغلق عينيه وركّز على الأصوات. كان هناك خمسة أشخاص نائمين في تلك المساحة الصغيرة، غافلين جميعاً عن الرجل الواقف فوقهم. كان أربعة منهم يتنفسون بصعوبة وعبس مجدداً لأنه أيقن أن النيامَ أطفال. وربما كانت النائمة الأخيرة والدتهم، على الرغم من أنه لم يستطع التأكد من ذلك من دون ضوء. شرارة واحدة من ضرب صوان بفولاذ ستكون كافية، لكن كان في الأمر مجازفة. إذا أفاقوا، لن يستطيع قتلهم جميعاً قبل أن يصرخوا. فاتّخذ القرار بسرعة.

نجم عن ضربة سريعة واحدة وميض ضوء في الخيمة، وكان كافياً لإظهار خمسة أجساد نائمة. لم يكن أحدها كبيرة بما يكفي لرجل راشد. أين كان الخان؟

استدار القاتل ليغادر، قلقاً من نفاد الوقت. لم يكن سينقضي وقت طويل قبل أن يتم اكتشاف الحارسين الميتين. عندما سيتم العثور عليهما، سيتحطم سكون الليل.

شخر أحد الأطفال النائمين، وتغير إيقاع صوته. تجمّد القاتل. انتظر وقتاً بدا طويلاً حتى استعاد الطفل أنفاسه المعتادة، ثم تقدم بهدوء نحو باب الخيمة. كان قد دهن المفصلات بالشحم وفتح الباب من دون أن يصدر عنه صوت.

شدّ قامته بينما كان يغلق الباب خلفه، وأدار رأسه ببطء ليختار الخيمة التالية. ما عدا الخيمة السوداء المميزة التي تواجه المدينة وتلك الموجودة على العربة، كانت كل الخيام تبدو مثل بعضها تماماً.

سمع القاتل صوتاً خلفه واتسعت عيناه عندما أدرك أنه صوت سحب نفس، من النوع الذي يظهر قبل إطلاق صرخة أو صيحة. كان يتحرك حتى عندما انطلق الصوت، مبتعداً في الظلال الداكنة. لم يفهم الكلمات التي ترددت في

الليل، لكن رد الفعل كان مباشراً تقريباً. خرج محاربون بسرعة من كل خيمة في مرمى النظر، وأقواسهم وسيوفهم جاهزة في أيديهم.

كان جوشي من صرخ وقد أيقظه من نومه وجود رجل صامت في بيته. كان أشقاؤه الثلاثة قد استفاقوا مرتعشين من صرخته وبدأوا معاً يطرحون أسئلة في الظلام.

سألت بورت بصوت أعلى من الضجيج، وهي ترمي البطانيات عنها: "ما الأمر؟".

كان جوشي يقف آنذاك في الظلام.

قال: "كان هناك شخص هنا. أيها الحرّاس!".

قالت بورت بحدّة: "ستوقظ المعسكر بأكمله. لم يكن سوى حلم سيّئ".

لم تستطع رؤية وجهه عندما رد. "لا. لقد رأيته".

نهض تشاغاتي ليقف بجانب شقيقه. صدحت أبواق النفير من بعيد وأطلقت بورت لعنة بصوت خافت.

"تضرع أن تكون محقاً يا جوشي، وإلا سيسلخ والدك جلدك عن جسدك".

فتح جوشي الباب على مصراعيه وخرج من دون أن يزعج نفسه بالرد. كان المحاربون يتدافعون حول الخيام، ويبحثون عن المتطفل حتى قبل أن يعرفوه. ابتلع ريقه بصعوبة متمنياً ألا يكون قد حلم بالرجل.

جاء تشاغاتي إليه في الخارج، عاري الصدر لا يضع سوى طماقات اتقاء البرد. كان هناك ضوء نجوم خافت في الخارج، لكن الفوضى كانت عارمة وأمسك بهما رجال مرتين وتركوهما يفلتان من قبضاتهم القوية فقط عندما عرفوهما.

رأى جوشي والده يمشي بخطوات واسعة بين الخيام، وقد شهر سيفه، لكنه كان يحمله كيفما اتفق بيد واحدة.

قال: "ما الذي يجري؟". توقفت نظرته عند جوشي، لاحظ عصبيته. ذبل الفتى بتأثير النظرة القوية، وأدرك فجأة أنه قد أيقظهم جميعاً دونما سبب. على الرغم

من ذلك، واجه الأمر بتحدٍّ ورفض أن يكون موضع سخرية أمام والده.

"كان هناك رجل في الخيمة. استيقظت ورأيته يفتح الباب ليغادر".

تأفف جنكيز، لكن قبل أن يردّ، صرخت أصوات جديدة في الليل.

"رجلان مقتولان هنا!".

فقد جنكيز اهتمامه بأبنائه، وزمجر بصوت عالٍ من فكرة وجود عدو طليق في المعسكر.

صرخ: "جدوه!". رأى كشيون يأتي مسرعاً، وسيف طويل بين يديه. لم يكن خاسار بعيداً خلفه ووقف الأشقاء الثلاثة معاً فيما كانوا يحاولون فهم سبب تلك الفوضى.

قال كشيون عندما توقف، وكان وجهه لا يزال منتفخاً من النوم: "قل لي".

هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً، مشدوداً مثل وتر قوس.

"رأى جوشي رجلاً في خيمته وهناك حارسان مقتولان. هناك شخص بيننا وأريد العثور عليه".

"جنكيز!".

سمع بورت تنادي باسمه واستدار نحوها. من طرف عينه، رأى شكلاً داكناً يتحرك لدى سماع الاسم.

استدار جنكيز حول نفسه ولمح القاتل يثب عليه. لوّح بسيفه وتنحّى الرجل جانباً، وتدحرج مثل البهلوان ووقف يحمل سكينين في يديه. رأى جنكيز أنه سيرمي بهما قبل أن يستطيع ضربه مجدداً وقفز على الشكل الداكن، وأسقطه أرضاً. مست شرارة ألم حنجرته وأسرع شقيقاه بطعن القاتل، ودفعا سيفيهما عميقاً بقوة كبيرة حتى وصلا إلى الأرض تحته. ولم يصرخ الرجل.

حاول جنكيز النهوض، لكن العالم دار ببطء وأضحت رؤيته مشوشة بشكل غريب.

قال وهو يشعر بدوار ويقع على ركبتيه: "لقد أصبت...". استطاع سماع

قدمي القاتل تُسحب على الأرض ووضع شقيقاه ركبهما على صدره، وقاما بتحطيم أضلاعه. رفع جنكيز يده إلى عنقه وطرفت عيناه على الأشكال الملطخة بالدماء. كانت اليد ثقيلة جداً وسقط إلى الوراء على أرض جافة، وكان لا يزال مشوشاً.

رأى وجه جيلم يلوح فوقه، ويتحرك ببطء. حدّق جنكيز إلى الأعلى، ولم يستطع سماع ما كان يقوله. رأى جيلم يمدّ يده ويمزّق القماش الذي يغطي الجرح في عنقه. عندما تكلم مجدداً، بدا أن الصوت يدوي في أذني جنكيز، والذي تحول إلى همسات متسارعة جعلته لا يسمع شيئاً. التقط جيلم سكين القاتل وأطلق لعنة عندما شاهد المادة الداكنة على طول الحافة.

قال جيلم، وانعكس خوفه على كشيون وخاسار اللّذين كانا يقفان مذهولين فوق شقيقهما: "السكين مسمومة". لم يتكلم القائد مجدداً، ووضع بدلاً من ذلك فمه على عنق جنكيز ومصّ الدم المتدفق منها. كان حاراً ولاذعاً جعله يتقيأ عندما بصقه إلى أحد الجانبين. لم يتوقف، على الرغم من أن يدي جنكيز لطمتا وجهه بضربات ضعيفة، وقد خارت قوته.

سمع جيلم أبناء الخان الصغار ينتحبون بأسى عندما شاهدوا والدهم يستلقي قريباً من الموت. التزم جوشي وتشاغاتي الصمت، وراقبا جيلم يبصق ملء فمه من الدماء حتى أصبحت مقدمة ردائه ملطخة به.

اندفع كوكشو عبر الحشد، وتوقف مصدوماً عندما رأى الخان على الأرض. جثا إلى جانب جيلم ومرّر يديه فوق صدر جنكيز متفقداً قلبه. كان يخفق بسرعة لا تُصدّق، ولبعض الوقت، لم يستطع كوكشو تمييز ضرباته. كان العرق يتصبب من جسد الخان كلّه وكان جلده أحمر وحاراً.

مص جيلم وبصق وتدفق الدم. كان القائد يشعر بأن شفتيه تصبحان خدرتين وتساءل إن كان السم سينتقل إليه. لم يكن ذلك مهماً. فكّر في الأمر كما لو أنه يشاهد شخصاً آخر. سال الدم على شفتيه بينما كان يلهث بين كل محاولة

وأخرى.

حذّره كشيون، وكانت يداه النحيلتان لا تزالان على الصدر: "ينبغي ألا تريق الكثير من الدماء، وإلا سيصبح ضعيفاً جداً ليقاوم السم الذي يبقى". نظر إليه جيلم بعينين مليئتين بالدموع قبل أن يومئ موافقاً ويدفع وجهه بالجلد الممزق مرة أخرى. كانت وجنتاه قد احمرّتا نتيجة التماس مع مثل تلك الحرارة وتابع عمله لأن التوقف كان يعني رؤية خانه يموت.

شعر كوكشو بالقلب الذي يخفق بسرعة ينتفض وخشي أن يتوقف تحت يديه. كان بحاجة للرجل الذي كان قد منحه ذلك الاحترام بين القبائل، خاصة أن تيموج آنذاك قد تخلى عنه. بدأ كوكشو يتضرع بصوتٍ عالٍ، مستحضراً الأرواح بأسمائها القديمة. نادى على سلالة جنكيز نفسها بأصوات متلاحقة. نادى ياسوجي، وحتى بكتر، الشقيق الذي كان جنكيز قد قتله. كان بحاجة إليهم جميعاً لإبعاد الخان عن مملكتهم. شعر كوكشو أنهم يجتمعون بينما كان ينشد بأسمائهم، ويحتشدون حوله حتى امتلأت أذنيه بالهمسات.

انتفض القلب مجدداً وشهق جنكيز بصوت عالٍ، وعيناه المفتوحان تحدّقان إلى غير هدى. شعر كوكشو بالنبض المتسارع يستقر، وتباطأ فجأة كما لو أن باباً أُغلق في الداخل. ارتعش في البرد، وفكّر للحظات قليلة أنه كان يمسك بمستقبل القبائل في يديه.

قال بصوت أجش: "يكفي الآن، لقد أصبح قلبه أقوى". تراجع جيلم إلى الخلف. مثلما كان سيفعل مع جواد مصاب بجرح بليغ، صنع القائد عجينة من التراب والبصاق وضغط بها على الجرح. انحنى كوكشو فوق جنكيز ليراقب العملية، وارتاح عندما رأى الدم يتباطأ إلى وشل. لم تكن أي من الأوردة الرئيسية قد قُطعت وبدأ كوكشو يبتهج لفكرة أن جنكيز لا يزال حياً.

مرة أخرى، بدأ كوكشو يتضرع بصوتٍ عالٍ، مرغماً أرواح الموتى على العناية بالرجل الذي شكّل أمة. لم يكونوا ليرغبوا بانضمام مثل ذلك الرجل إليهم فيما

يقود شعبه قدماً إلى الأمام. كان متأكداً من ذلك بشكل أخافه. كان رجال القبائل يراقبون بأسى عندما مرّر كوكشو يديه فوق الجسد الممدد على ظهره، وأخذ يجمع خيوطاً غير مرئية كما لو أن الأصابع النحيلة تلف الخان بشبكة من الأرواح والإيمان.

نظر كوكشو إلى بورت التي كانت تقف محمرّة العينين وتترنح من الصدمة. كانت هولن هناك أيضاً، شاحبة ويائسة وهي تتذكر موت خان آخر قبل سنوات عديدة. أشار إليهما كوكشو بأن تقتربا.

قال لهما، وعيناه تلمعان: "لقد تركته الأرواح هنا، الآن. ياسوجي هنا، مع والده بارتان. بكتر هنا لدعم الخان، شقيقه". ارتعش في البرد، ولمعت عيناه للحظة. "لقد مصّ جيلم مقداراً كبيراً من السم، لكن قلبه ينتفض؛ ويكون أحياناً قوياً وأحياناً ضعيفاً. يحتاج إلى الراحة. إذا كان سيأكل، امنحوه دماً وحليباً ليسترجع قوته". لم يعد كوكشو يشعر آنذاك بالبرودة الشديدة للأرواح تتجمع حوله، لكنها كانت قد قامت بعملها. كان جنكيز لا يزال حياً. نادى شقيقَيْ الرجل ليحملاه إلى الخيمة. تنبّه كشيون من غفلته ليأمر المعسكر بالبحث عن أي عدو آخر لا يزال مختبئاً. بعد ذلك، رفع جسد شقيقه الرخو على كتفه مع خاسار وحمل جنكيز إلى خيمة بورت.

تركوا جيلم جاثياً، يهزّ رأسه حزناً. مدّ والده أرسلان يده إليه في اللحظة التي تقيأ فيها القائد الشاب على الأرض المليئة بالدماء.

أمر أرسلان وهو يدفع ابنه للوقوف على قدميه: "ساعدوني". كان وجه جيلم كئيباً وأرخى بكامل ثقله على والده قبل أن يتقدم محاربان ويضعان ذراعيه حول كتفيهما.

سأل أرسلان كوكشو: "ما خطبه؟". أشاح الكاهن العرّاف نظره عن خيمة جنكيز. استعمل أصابعه ليفتح عيني جيلم عن آخرهما، ويحدق فيهما. كان البؤبؤان كبيرين وداكنين وأطلق كوكشو لعنة بصوت خافت.

"ربما يكون قد ابتلع الدم. لقد دخل إليه بعض السم أيضاً". دفع كوكشو بيده تحت رداء جيلم الرطب، متحسساً صدره.

"ليس بالشيء الكثير وهو قوي. أبقِه مستيقظاً إذا استطعت. اجعله يمشي. سأحضّر جرعة من فحم الخشب ليشربها".

أومأ أرسلان برأسه. أشار إلى أحد المحاربين اللذين يسندان جيلم وأخذ مكانه، ووضع ذراع ابنه حول عنقه كما لو أنهما يتعانقان. مع الرجل الآخر، دفع جيلم للمشي بين الخيام، وتكلم إليه في أثناء ذلك.

لم يتحرك الحشد المتزايد من المحاربين، النساء والأطفال. لم يكونوا ليعودوا إلى النوم حتى يتأكدوا أن خانهم سيعيش. استدار كوكشو عنهم، وكان بحاجة لتحضير عجينة من فحم الخشب يمكنها امتصاص السم الذي ابتلعه جيلم. لن تكون العجينة ذات فائدة كبيرة لجنكيز، لكنه سيجلب وعاءً ثانياً له أيضاً. عندما وصل إلى حلقة الوجوه التي تحدّق مراقبةً ما يجري، أفسحوا المجال له وعندها فقط كان تيموج يشق طريقه عبرهم إلى المقدمة. واتّقد الحقد في عيني كوكشو.

قال كوكشو بهدوء عندما اقترب تيموج: "لقد تأخرت كثيراً على مساعدة الخان. قتل شقيقاه القاتل وأبقيته مع جيلم حياً".

هتف تيموج وهو يحدّق حوله إلى الوجوه الكثيرة البائسة والخائفة: "قاتل؟".

قال له كوكشو: "ينبغي معالجة بعض الأشياء بالوسائل القديمة. لا يمكن عدّها أو وضعها على لوائحك".

ردّ تيموج على إهانة الكاهن العرّاف كما لو أنها صعقته.

قال: "كيف تجرؤ على التكلم معي؟". هزّ كوكشو كتفيه استخفافاً ومشى مبتعداً. لم يستطع مقاومة إبداء ملاحظة جارحة، على الرغم من معرفته بأنه سيندم عليها. تلك الليلة، كان الموت قد طاف بالمعسكر ووقف كوكشو له بالمرصاد.

ازداد حجم الحشد بينما كان الوافدون الجدد يضغطون على أولئك الموجودين في المقدمة، متلهفين للأنباء. تمّت إضاءة مشاعل في المعسكر فيما كانوا ينتظرون بزوغ الفجر. كان جسد القاتل ممدداً مسحوقاً على الأرض وحدّقوا إليه برهبة بسيطة غير راغبين بالاقتراب كثيراً منه.

عندما عاد كوكشو مع وعاءين من شراب أسود كثيف، اعتقد أنهم يشبهون قطيعاً من الثيران في يوم الذبح، وكانوا يائسين وقد أضحت عيونهم داكنة لكنهم لا يستطيعون فهم ما جرى. أمسك أرسلان بفك ابنه وأمال الرأس بينما كان كوكشو يدفع السائل المرير في فمه. غصّ جيلم وسعل، وبصق قطيرات سوداء على وجه والده. كان قد استعاد بعض وعيه في الوقت الذي استغرقه طحن فحم الخشب ولم يتردد كوكشو معه. دفع بوعاء نصف فارغ في يد أرسلان وتابع طريقه حاملاً الوعاء الآخر. لا يمكن لجنكيز أن يموت، ليس في ظل ينكينغ. شعر كوكشو برهبة وبرودة تسري في جسده عندما فكر بالمستقبل. تخلى عن خوفه بينما كان يدخل الخيمة الصغيرة، وخفض رأسه ليمر تحت الحافة العليا. كانت الثقة جزءاً من صنعته ولن يدعهم يرونه خائفاً جداً.

عندما اقترب بزوغ الفجر، خرج خاسار وكشيون، غير منتبهين لآلاف العيون التي تسمّرت عليهما. استعاد خاسار سيفه من حيث كان عالقاً في صدر الرجل الميت وركل الرأس المتراخي قبل أن يغمده.

صرخ أحدهم: "هل الخان حي؟".

ألقى خاسار نظرة غاضبة عليهم، من دون أن يعرف من كان قد تكلم.

قال: "إنه حي". تم تكرار كلماته همساً حتى سمعوها جميعاً.

التقط كشيون سيفه من حيث كان قد وقع ورفع رأسه عندما سمع صوتاً. لم يكن يستطيع مساعدة شقيقه في الخيمة وربما لهذا السبب اتقد غضباً عندما رآهم.

قال كشيون بحدّة: "هل سينام أعداؤنا فيما نجتمع نحن هنا؟ لن يناموا.

اذهبوا إلى خيامكم وانتظروا الأنباء". لدى رؤية نظرته الصارمة، استدار المحاربون مبتعدين أولاً، ومرّوا عبر تجمّع النساء والأطفال. بدأ هؤلاء أيضاً التحرك بعيداً، وحدّقوا إلى الخلف كيفما اتفق.

وقف كشيون مع خاسار كما لو أنهما يحرسان الخيمة التي يستلقي فيها جنكيز. كانت زوجة الخان الثانية تشاكاهي قد جاءت، ووجهها قناع شاحب من الخوف. كان الرجال كلّهم يتطلعون إلى بورت ليروا كيف ستتصرف، لكنها أومأت فقط إلى امرأة كزي كزيا بإشارة على قبول وجودها. في الصمت، استطاع كشيون سماع تمتمة إنشاد كوكشو في الخيمة. للحظة، لم يكن يرغب بالعودة إلى الداخل الكريه الرائحة، المزدحم بأولئك الذين يحبون شقيقه. كان يخفف من حزنه نوعاً ما وجود الآخرين. تنفس بعمق في الهواء البارد، وعمل على تنقية ذهنه.

قال: "لا يوجد شيء آخر يمكننا فعله. الفجر على وشك أن يبزغ وهناك أشياء ينبغي أن نناقشها. تعال معي يا خاسار، لبعض الوقت".

تبعه خاسار إلى حيث لا يمكن سماعهما. كان قد مرّ وقت طويل قبل أن يخرجا من المعسكر، وأقدامهما تطأ أعشاباً متجمدة.

قال خاسار أخيراً، بعد أن أوقف شقيقه بأن وضع يداً على ذراعه: "ما الأمر؟ ماذا تريد؟".

استدار كشيون إليه، ووجهه غاضب. "فشلنا الليلة. فشلنا في الحفاظ على أمن المعسكر. كان ينبغي أن أفكر بأن الإمبراطور سيرسل قتلة. كان ينبغي أن أضع المزيد من الحراس لمراقبة الأسوار".

كان خاسار متعباً كثيراً لمناقشة ذلك الأمر.

قال: "لا يمكنك تغيير ذلك الآن. إن كنت أعرفك، لن يتكرر ذلك مجدداً".

قال كشيون بحدة: "مرة واحدة قد تكون كافية. إذا مات جنكيز، ماذا سنفعل عندها؟".

هزّ خاسار رأسه. لم يكن يريد التفكير في ذلك. عندما تردّد، أمسك به كشيون من كتفيه، وهزّه تقريباً.

رد خاسار: "لا أعرف! إذا مات، سنعود إلى الوطن عند جبال خينتي ونقدمه للصقور والنسور. إنه خان، ماذا تتوقع مني أن أقول؟".

رفع كشيون يديه عنه.

"إذا فعلنا ذلك، سيدّعي الإمبراطور أنه حقق نصراً عظيماً ضدنا". بدا كما لو أنه يتكلم إلى نفسه ولم يقاطعه خاسار. لم يكن يستطيع أن يتخيل المستقبل إن لم يكن جنكيز موجوداً.

تابع كشيون بتجهم: "سيرى الإمبراطور جيشنا ينسحب. خلال سنة، ستعرف كل مدينة تشن أننا انسحبنا".

لم يقل خاسار شيئاً.

قال كشيون: "ألا ترى الأمر يا شقيقي؟ سنخسر كل شيء".

رد خاسار وهو يتثاءب: "يمكن أن نعود". هل نال قسطاً من النوم على الإطلاق. لم يكن متأكداً من ذلك.

تأفف كشيون.

"خلال سنتين، سوف يهاجموننا. لقد رأى الإمبراطور ما يمكننا فعله ولن نقترف الأخطاء نفسها مجدداً. إنها فرصة واحدة صنعناها بأنفسنا يا خاسار. لا يمكنك أن تجرح دباً ثم تهرب. سيلاحقك".

قال خاسار بعناد: "سيعيش جنكيز. إنه أقوى من أن يموت".

رد كشيون: "افتح عينيك يا شقيقي! يمكن أن يموت جنكيز مثل أي رجل آخر. إذا مات فعلاً، من سيقود القبائل، أم ستراهم يتمزقون مجدداً؟ كم سيكون الأمر سهلاً عندها على جيش تشن عندما يخرج للصيد؟".

رأى خاسار أول أضواء الفجر الوردية خلف ينكينغ من بعيد. رحب به في ليلة كان يعتقد أنها لن تنتهي أبداً. كان كشيون محقاً. إذا مات جنكيز،

ستتحطم الأمة الجديدة إلى أشلاء. سوف يستعيد الزعماء القدماء سلطتهم على القبائل المتصارعة. هزّ رأسه ليصحو.

قال لكشيون: "أفهم ما تقوله. لست أحمق. تريد مني أن أقبلك كخان".

وقف كشيون متسمراً لدى سماعه ذلك. لم تكن هناك طريقة أخرى، لكن إذا لم يكن خاسار يفهم الأمر، سيبدأ اليوم الجديد بإراقة دماء عندما تتقاتل القبائل لترحل أو تبقى موالية لهم. كان جنكيز قد كبّلها معاً. عند أول إشارة على الضعف، سيختبر الزعماء الحرية ويقاتلون للاحتفاظ بها.

سحب كشيون نفساً عميقاً، وكان صوته هادئاً.

"نعم يا شقيقي. إذا مات جنكيز اليوم، ينبغي أن تشعر القبائل بيد قوية على أعناقها".

قال خاسار بلطف: "أنا أكبر منك. أقود العدد نفسه من المحاربين".

"لست من نوع الرجال الذين يقودون الأمة. تعرف ذلك". كان خفقان قلب كشيون يتسارع وهو يحاول جعل خاسار يفهم. "إذا كنت تعتقد أنك كذلك، سأقطع عهدي لك. سيتبع قادة الجيش ما أقوم به ويرغمون الزعماء على فعل ذلك. لن أقاتلك على هذا يا خاسار، ليس وكل شيء على المحك".

صرف خاسار التعب عن عينيه بينما كان يفكر في الأمر. كان يعرف ما تكبده كشيون ليقدم له ذلك العرض. كانت فكرة قيادة القبائل تجعله ينتشي، وهي شيء لم يكن قد حلم به من قبل. كانت الفكرة تغريه. على الرغم من ذلك، لم يكن الشخص الذي يرى المخاطر التي تحيط بالأمة الهشّة. كانت تلك مثل شوكة في جسده تؤرقه. كان القادة يأتون إليه متوقعين أن يحل مشكلاتهم، والعثور على طريق عبر الصعاب التي لم يكونوا يستطيعون تخطيها. كان عليه حتى أن يضع خططاً للمعارك، وكان النصر أو الهزيمة متعلّقين بكلمته.

كان اعتزاز خاسار بنفسه ممزوجاً بمعرفة أن شقيقه أفضل للقيادة. لم يكن يشك أن كشيون سيدعمه بالكامل إذا أصبح خاناً. كان سيحكم شعبه ولم يكن

أحد ليعرف أبداً بشأن تلك المحادثة. كما كان جنكيز، سيكون أب كل شعبهم. سيكون مسؤولاً عن الحفاظ على حياتهم ضد إمبراطورية قديمة انحنت أمام جبروتهم.

أغلق عينيه، وسمح للأفكار اللامعة بالخروج من ذهنه.

"إذا مات جنكيز، سأقطع عهدي لك يا شقيقي الأصغر. ستكون الخان".

تنهد كشيون بارتياح بعد الإرهاق. كان مستقبل شعبه متعلقاً بثقة خاسار به.

قال كشيون: "إذا مات، سأحرص على تدمير كل مدينة تشن بالنار، وأبدأ من ينكينغ". نظر كلا الرجلين إلى أسوار المدينة التي تلوح أمامهما، وكانا موحدين في رغبتهما بالثأر.

وقف زهي زهونغ على منصة رماة، عالياً فوق السهل ومعسكر المغول. كان نسيم بارد يهب عليه وكانت يداه خدرتين على الحاجز الخشبي. كان يقف هناك منذ ساعات، يراقب القبائل بحثاً عن إشارة ما على أن القاتل نجح في مسعاه.

قبل وقت قصير فقط، كان سهره قد أتى أُكله. تحركت نقاط ضوء بين الخيام وكان زهي زهونغ قد أمسك بالحاجز بقوة أكبر، وابيضّت مفاصله بينما كان ينظر إلى البعيد. تسابقت أشكال داكنة عبر بقع الضوء المتراقصة وارتفعت آمال زهي زهونغ، وتخيل انتشار الذعر بينهم.

همس، وحيداً في برج المراقبة: "كن ميتاً".

الفصل الثامن والعشرون

فتح جنكيز عينيه المحتقنتين، ووجد كلتا زوجتيه ووالدته إلى جانبه. شعر بضعف مروّع وكان عنقه ينبض ألماً. رفع يده فأسرعت تشاكاهي وأمسكت بمعصمه قبل أن يفسد الضمادة. دارت أفكاره ببطء وحدّق إليها، محاولاً أن يتذكر ما حدث. استعاد في ذهنه أنه كان يقف خارج الخيمة، ومحاربون يندفعون من حوله. كان الوقت ليلاً والظلام لا يزال حالكاً في الخيمة، مع مصباح صغير فقط يُبعد الدجنة. كم مرّ من الوقت؟ طرفت عيناه ببطء، ضائعاً. كان وجه بورت شاحباً وقلقاً، وتبدو عليه دوائر سوداء تحت عينيها. ورآها تبتسم له.

سأل: "لماذا... أستلقي هنا؟". كان صوته واهناً ويلفظ الكلمات بصعوبة بالغة.

قالت هولن: "لقد تسممت. جرحك قاتل من تشن ومصّ جيلم الدم الفاسد منك. لقد أنقذ حياتك". لم تذكر ما قام به كوكشو. كانت قد تحملت إنشاده، لكنها لم تسمح له بالبقاء، أو لأحد بدخول الخيمة. كان أولئك الذين سيدخلون سيتذكرون ابنها على تلك الحال مما سيضعف من سلطته. كونها زوجة ووالدة خان، كانت هولن تعرف حق المعرفة كيف يفكر الرجال وتدرك أهمية ذلك.

بجهد كبير، كافح جنكيز للجلوس على مرفقيه. كما لو أنه كان ينتظر تلك اللحظة بالتحديد، شعر بصداع في رأسه.

تأوه وهو ينحني إلى الأمام: "دلواً". كانت هولن سريعة بما يكفي لتدفع دلواً جلدياً تحت رأسه بينما كان يتقيأ سائلاً أسود من معدته بسلسلة من التشنجات المؤلمة. جعل ذلك صداعه لا يحتمل تقريباً، لكنه لم يستطع التوقف، حتى عندما لم يبقَ شيء يخرج منه. أخيراً، استلقى على السرير، ووضع يداً فوق عينيه لحجب الضوء الخافت الذي كان يزعجه.

قالت هولن: "اشرب هذا يا بني. لا تزال ضعيفاً من الجرح".

نظر جنكيز إلى الوعاء الذي رفعته إلى شفتيه. كان مزيج الدم والحليب مرّاً على لسانه وابتلع منه مرتين قبل أن يدفعه بعيداً. شعر بأن عينيه تؤلمانه وقلبه يخفق بقوة في صدره، لكن أفكاره كانت صافية على الأقل.

"ساعدوني على النهوض وارتداء ملابسي. لا يمكنني الاستلقاء هنا، من دون أن أعرف شيئاً".

لغضبه، دفعته بورت للنوم على السرير بينما كان يحاول النهوض. كان يفتقر للقوة ليدفعها بعيداً وفكّر في استدعاء أحد شقيقيه. لم يكن سعيداً بعجزه ولن يتجاهل كشيون أوامره.

قال بصوتٍ أجش: "لا أتذكر شيئاً. هل قبضنا على الرجل الذي فعل هذا بي؟".

تبادلت النساء الثلاث النظرات. كانت أمه من ردت.

"إنه ميت. لقد مرّ يومان يا بني. كنت قريباً من الموت طيلة ذلك الوقت". امتلأت عيناها بالدموع فيما كانت تتكلم ولم يسعه سوى التحديق إليها بارتباك. طفا الغضب من دون سابق إنذار في ذهنه. لقد كان سليماً ومعافى، ثم أفاق فجأة ليجد نفسه على تلك الحال. كان شخص ما قد سبب له الأذى: ذلك القاتل الذي ذكرنه. تصاعد الغضب في نفسه مثل دخان وحاول النهوض مجدداً.

نادى: "كشيون!"، لكنها كانت مجرد همسة في فمه.

تحركت النساء حوله، ووضعن قطعة قماش رطبة باردة على جبينه بينما كان يخفض رأسه على البطانيات وهو لا يزال يحدق إليهنّ. لم يستطع أن يتذكر وجود كلتا زوجتيه في الخيمة نفسها من قبل. وجد أن الفكرة غير مريحة، كما لو أنهما ستتبادلان الآراء بشأنه. كان بحاجة...

استولى عليه النوم مجدداً من دون إنذار واسترخت النساء الثلاث. كانت المرة الثالثة التي يستيقظ فيها خلال يومين، وفي كل مرة، كان يطرح الأسئلة نفسها. كن ممتنات لأنه لم يتذكر أنهن ساعدنه على التبول في دلو، أو قمن بتغيير

البطانيات عندما أفرغت أمعاؤه ما بداخلها من أوساخ سوداء والتي حملت السم خارج جسده. ربما كان ذلك فحم الخشب الذي أحضره كوكشو، لكن حتى لون بوله كان داكناً أكثر مما سبق لأي من النساء أن شاهدن من قبل. كان هناك توتر في الخيمة عندما امتلأ الدلو. لم تتحرك سواء بورت أو تشاكاهي لإفراغه، على الرغم من أنهما نظرتا باتجاهه وتحدّتا بعضهما بعيونهما. كانت إحداهما ابنة ملك والأخرى الزوجة الأولى لجنكيز نفسه. لم تتنازل أي منهما. في النهاية، كانت هولن من حملته إلى الخارج بمزاج سيّئ وهي تحدّق إلى كلتيهما.

قالت تشاكاهي: "بدا أقوى قليلاً هذه المرة. إن عينيه صافيتان".

أومأت هولن برأسها، ومسحت جبينها بيدها. كن جميعاً مرهقات، لكنهن لم يغادرن الخيمة سوى لقضاء حاجة أو إحضار أوعية جديدة من الدم والحليب.

"سينجو. وسيندم أولئك الذين هاجمونا. يمكن أن يكون ابني رحيماً، لكنه لن يسامحهم على ذلك. كان من الأفضل لهم لو أنه مات".

تحرك الجاسوس بسرعة في الظلام. كان القمر قد اختفى خلف الغيوم ولم يكن لديه سوى القليل من الوقت. كان قد عثر على مكانه بين آلاف رعايا تشن. كما كان يأمل، لم يكن أحد يعرف إن كان الرجل من باوتو، أو لنهي أو أي مدينة أخرى. كان يستطيع التحرك بصفة مقيم في أي منها. لم يكن هناك سوى بعض الضباط المغول لتدريب رجال المدينة على أن يصبحوا محاربين ولم يكونوا يعتبرون أن في تلك المهمة شرفاً عظيماً. كان في غاية السهولة بالنسبة إليه أن يتجول مع أي مجموعة ويتابع عمله. كان الضابط المغولي بالكاد قد نظر إليه عندما كان يسلّمه قوساً ويرسله للانضمام إلى اثني عشر آخرين من رماة السهام.

عندما شاهد العلامات الخشبية تنتقل من شخص إلى آخر في المعسكر، انتابه القلق من أن تكون دليلاً على إجراء إداري صارم. لم يكن ممكناً أن ينضم إلى فوج من تشن بتلك الطريقة، أو حتى أن يقترب منه من دون أن يتم توجيه

أسئلة له عدّة مرات. كان جنود تشن يفهمون خطر الجواسيس بينهم وطوّروا تقنيات للإيقاع بهم.

عبس الجاسوس عندما فكر في ذلك. لم تكن هناك كلمات سر أو رموز في ذلك المكان. كانت الصعوبة الوحيدة التي يلاقيها تتمثل في إرغام نفسه على إظهار المقدار نفسه من الجهل مثل الآخرين. كان قد اقترف خطأً في اليوم الأول عندما أطلق سهماً أصاب به وسط الهدف مباشرة. في ذلك الوقت، لم تكن لديه فكرة عن مزارعي تشن عديمي الفائدة الذين كان يعمل معهم، وعندما أطلقوا السهام خلفه، لم ينجح أحدهم في إصابة الهدف. كان الجاسوس قد أخفى خوفه عندما مشى الضابط المغولي بخطوات واسعة نحوه، وطلب منه إطلاق سهم آخر. كان حريصاً على إطلاق سهام طائشة بعد ذلك وفقد الضابط الاهتمام به، ووجهه يخفي بالكاد اشمئزازه من مهاراتهم.

على الرغم من أن الحرّاس كلّهم قد تذمروا من المناوبة في منتصف الليل، إلا أن القاتل الفاشل كان قد أحدث تأثيراً كبيراً في المعسكر كله. أصرّ الضباط المغول على مراقبة المحيط الخارجي للمعسكر تحسباً من محاولة أخرى، حتى في قسم المعسكر الذي يضم رعايا تشن. كان الجاسوس قد تطوع للحراسة في وقت متأخر، من منتصف الليل إلى الفجر. وضعه ذلك على حافة المعسكر وحيداً. حتى عندها، كان تَرْكُ موقعه ينطوي على مخاطرة كبيرة، لكن كان عليه الاتصال بسيده، وإلا ستضيع جهوده كلّها. كان قد طُلب منه أن يجمع معلومات، وأن يكتشف كل ما يمكنه اكتشافه. كان يعود إليهم أن يفعلوا ما يرونه مناسباً بما يكتشفه.

جرى حافي القدمين في الظلام، وأبعد عن ذهنه فكرة قيام ضابط بتفقد حرّاسه. لم يكن يستطيع تقرير مصيره وكان بالتأكيد سيسمع الإنذار إن اكتشفوا أنه قد ذهب. كانت لديه بالفعل كلمة سر يمكنه استعمالها عند السور ولن تمر سوى لحظات قبل أن يرمي إليه قومه بحبل ويصل برّ الأمان مرة أخرى.

تحرك شيء إلى يمينه واستلقى على الأرض، وسيطر على أنفاسه وبقي ساكناً تماماً بينما كان يستنفر حواسه. منذ الهجوم على الخان، كان المستطلعون ينتشرون طيلة الليل، في مناوبات، أكثر تأهباً مما كانوا عليه من قبل. كانت مراقبة المدينة المظلمة مهمة يائسة بالنسبة إليهم، لكنهم كانوا سريعين وصامتين، وفتّاكين إذا قبضوا عليه. بينما كان مستلقياً هناك، تساءل الجاسوس إن كان هناك قتلة آخرون سيأتون بحثاً عن الخان إذا نجا من الأول.

أياً كان الفارس، لم يرَ شيئاً. سمع الجاسوس الرجل يصدر صوتاً خافتاً لفرسه، لكن الأصوات تلاشت ثم انطلق مجدداً مثل أرنب بري. كان كل شيء يعتمد على السرعة.

كانت أسوار المدينة سوداء تحت السحب واعتمد على ذاكرته للوصول إلى المكان المناسب. عدّ عشرة أبراج مراقبة من الزاوية الجنوبية وركض مباشرة إلى الخندق المائي. زحف على بطنه ليتحسس ما يوجد على طول الحافة، وابتسم عندما شعر بخشونة زورق القصب الذي كان مربوطاً من أجله. حاول ألا يصاب بالبلل وكان حريصاً في الظلام عندما جثم في الزورق، وعبر الماء ببضع ضربات. في الظلام، كان يقوم بكل شيء باللمس، وخرج من الزورق وربط الحبل الرطب حول صخرة. لم يكن من المفيد أن يترك القارب الصغير يطفو بعيداً.

لم يكن الخندق المائي يصل إلى الأسوار التي تلوح فوقه. كان هناك ممر عريض من الحجارة يلتف حول المدينة، وكان رطباً وزلقاً من التعفن. في أيام الصيف، كان قد رأى النبلاء يتسابقون على الجياد على طوله، ويراهنون بمبالغ كبيرة على أول رجل يعود إلى البداية. عبره بسرعة ومس مدينة ولادته، ووضع يده لوقت قصير على السور في إشارة إلى وصوله برّ الأمان في وطنه.

فوق رأسه، ربما كان هناك اثنا عشر رجلاً يجثمون على قمة السور بصمت. على الرغم من أنهم لن يتكلموا، إلا أنهم سيفهمونه، وفي تلك اللحظات القليلة، تضاءل التوتر الذي عاش معه حتى تلاشى تماماً ولم يعد له وجود.

مرت يداه بسرعة على الأرض، يبحث عن حصاة. عالياً فوق رأسه، كانت السحب تمر مسرعة على المدينة. قدّر موقع القمر بحرص شديد. ستكون هناك فتحة في الغيوم لوقت قصير فقط وينبغي أن يكون بعيداً عن السور بحلول ذلك الوقت. ضرب الحجر على السور، وكان الصوت عالياً في صمت الليل. سمع صوت الحبل ينزل إليه قبل أن يراه. بدأ يتسلق عليه، وفي الوقت نفسه، سحبوه عالياً مما جعله يرتفع بسرعة كبيرة.

بعد بضع لحظات فقط، كان الجاسوس يقف على قمة أسوار ينكينغ. كان أحد أفراد فرق الأقواس يلف الحبل، ويستعد لإنزاله مجدداً. وكان رجل آخر يقف هناك وانحنى الجاسوس أمامه.

قال الرجل وهو ينظر إلى معسكر المغول: "تكلم".

"لقد أصيب الخان. لم أستطع الاقتراب كثيراً، لكنه لا يزال حياً. المعسكر مليء بالإشاعات ولا أحد يعرف من سيتولى القيادة إذا مات".

رد الرجل بهدوء: "أحد أشقائه"، وتوقف الجاسوس متسائلاً عن عدد الرجال الذين يقدمون تقاريرهم لهذا الشخص.

"ربما، أو سينفرط عقد القبائل ليعود حكم الزعماء القدامى. إنه وقت الهجوم".

أطلق سيده صوتاً خافتاً من الغضب.

"لا أريد سماع استنتاجاتك، وإنما ما تعرفه فقط. لو أن لدينا جيشاً، هل كنت تعتقد أن الوصي كان سيقنع بالجلوس داخل الأسوار؟".

رد الجاسوس: "أنا آسف. لديهم مؤن تكفيهم عدّة سنوات، مع ما حصلوا عليه من مخازن الجيش في ممر بادغر. كنت قد اكتشفت أشخاصاً يتمنّون أن يحاولوا مجدداً استعمال المنجنيقات ضد الأسوار، لكنهم قلة فقط وليس لأحدهم نفوذ".

قال سيده، وهو يمسك بكتفه بإحكام: "ماذا أيضاً؟ زوّدني بشيء أنقله الوصي".

"إذا مات الخان، سيعودون إلى الجبال. كل الرجال يقولون ذلك. إذا عاش، يمكنهم البقاء هنا لسنوات".

أطلق سيده لعنة بصوت خافت، وشتمه. تحمّل الجاسوس ذلك، ونظر إلى قدميه. كان يعرف أنه لم يفشل. كانت مهمته نقل ما يعرف بصدق وكان قد قام بها.

"اعثر لي على شخص يمكننا الوصول إليه. بالذهب، بالخوف، بأي شيء. اعثر لي على شخص في هذا المعسكر يمكنه أن يجعل الخان يفكك الخيمة السوداء. إذا بقيت على حالها، لا يمكننا فعل شيء".

رد الجاسوس: "حاضر يا سيدي". استدار الرجل مبتعداً عنه وأذن له بالانصراف، وكان الحبل يتدلى آنذاك من أعلى السور. نزل بالسرعة نفسها تقريباً التي صعد بها وبعد لحظات كان يربط الزورق الصغير على الطرف الثاني ويجري مسرعاً عبر الأعشاب إلى موقعه. كان شخص آخر سيتكفل بالأمر ولن يعرف المغول شيئاً.

كان من الصعب مراقبة الغيوم والانتباه في الوقت نفسه للأرض التي حوله. كان الجاسوس ماهراً في عمله، وإلا لما كان الاختيار قد وقع عليه. تابع الجري وعندما ظهر القمر من بين الغيوم وأضاء السهل، كان قد استلقى على الأرض آنذاك مختبئاً بين الشجيرات خارج المعسكر الرئيسي. في الضوء الفضي، فكّر في الرجال حول الخان. ليس خاسار أو كشيون. ليس أحد قادة جيشه. لم يكونوا يرغبون بشيء أكثر من رؤية تدمير ينكينغ، حجراً إثر آخر. فكّر في تيموج للحظة. لم يكن على الأقل محارباً. لم يكن الجاسوس يعرف الكثير عن سيد التجارة. جعلت الغيوم الأرض داكنة مرة أخرى واندفع إلى الحلقة الخارجية لنقاط الحراسة. عاد إلى موقعه كما لو أنه لم يغادره أبداً، وأمسك بقوسه وسكينه وانتعل خفين مصنوعين من الحبال. تسمّر فجأة عندما سمع شخصاً يقترب منه، وقف منتصباً مثل أي حارس آخر.

صرخ تسوبودي في الظلام بلغة تشن: "هل لديك ما تبلّغ عنه يا ما تسن؟".
تطلب الأمر منه جهداً كبيراً ليسيطر على تنفسه ويرد.
"لا شيء أيها القائد. إنها ليلة هادئة". عندها، تنفس الجاسوس عبر أنفه بصمت، وانتظر إشارة تدل على اكتشاف غيابه.
تفوه تسوبودي بكلام غير مفهوم، ومشى مبتعداً لتفقد الرجل التالي في الصف. بقي الجاسوس وحيداً، وتصبب العرق على جلده. كان المغولي قد استعمل الاسم الذي زوّدهم به. هل كان مشبوهاً؟ لم يكن يعتقد ذلك. لا شك أن القائد الشاب كان قد تفقد الأوضاع مع ضابطه قبل أن يبدأ جولاته. سيشعر الحرّاس الآخرون بالدهشة من تلك الذاكرة القوية، لكن الجاسوس ابتسم فقط في الظلام. كان يعرف الجيوش جيداً ولا يمكن أن يتأثر بخدع الضباط.
فيما كان يقف في مناوبته ويسمح لخفقان قلبه بأن يهدأ، فكّر في السبب الذي يكمن خلف ذلك الأمر. لا يمكن أن يكون سوى الاستسلام. ما الذي قد يريده الوصي من تفكيك الخيمة السوداء إذا لم يكن عرض الجزية عن ينكينغ؟ على الرغم من ذلك، إذا سمع الخان، فسيعرف أنهم قريبون من تحقيق اختراق ويبتهج لأن الحصار اقترب من نهايته. هزّ الجاسوس رأسه خائفاً عندما فكّر في الأمر. كان الجيش قد استولى على مخازن المدينة وخسرها جميعها للعدو عند الممر. كانت ينكينغ جائعة منذ البداية تقريباً وكان زهي زهونغ أكثر يأساً من أي شخص عرفه.
ظهر كبرياؤه عندها. كان قد تم اختياره لتلك المهمة لأنه كان ماهراً مثل أي قاتل أو جندي، وأكثر فائدة من أي منهما. كان لديه وقت للعثور على شخص يحب الذهب أكثر من خانه. لطالما كان ذلك الشخص موجوداً. خلال بضعة أيام فقط، كان الجاسوس قد عرف بأمر الزعماء الساخطين الذين تم تجريدهم من السلطة. ربما يمكن دفع أحدهم ليعتبر أن الجزية أفضل من التدمير. فكّر في تيموج مرة أخرى، متسائلاً لماذا تشير أحاسيسه إلى الرجل. أومأ لنفسه في

الظلام، مستسيغاً التحدّي وواضعاً مهارته على المحك.

عندما استفاق جنكيز مجدداً في اليوم الثالث، كانت هولن في الخارج تجلب الطعام. طرح الأسئلة نفسها، لكنه لم يستلقِ على ظهره هذه المرة. كانت مثانته مليئة إلى حدِّ الألم وأخرج ساقيه من تحت البطانيات، وثبّت قدميه على الأرض قبل أن يحاول الوقوف. ساعدته تشاكاهي وبورت في الوصول إلى العمود المركزي للخيمة، ولف أصابعه حوله حتى تأكدتا أنه لن يقع. وضعتا الدلو حيث سيصل بوله وتراجعتا إلى الخلف.

طرفت عيناه على زوجتيه مستغرباً رؤيتهما معاً.

قال: "هل ستراقبانني أنتما الاثنتان؟". لسبب ما كان يجهله، ابتسمت كلتا المرأتين. قال لهما: "اخرجا"، وبقي متمسكاً بالعمود حتى غادرتا الخيمة واستطاع إفراغ مثانته. تغضن أنفه من رائحة البول الكريهة، والذي لم يكن لونه طبيعياً أبداً.

نادى فجأة: "كشيون! تعال إلي!". سمع صرخة فرح وابتسم. لا شك أن الزعماء كانوا يراقبون الموقف تحسباً لموته. أمسك بالعمود الخشبي بإحكام بينما كان يفكر بأفضل الخطط للسيطرة على المعسكر مرة أخرى. كان هناك الكثير مما ينبغي فعله.

فُتح الباب على مصراعيه عندما دخل كشيون الخيمة على الرغم من احتجاجات زوجتّيْ شقيقه.

كان كشيون يقول وهو يندفع بينهما بلطف: "سمعته يناديني". صمت عندما رأى شقيقه واقفاً أخيراً. لم يكن جنكيز يضع سوى طماقات وسخة وكان شاحباً ونحيلاً أكثر مما سبق ورآه من قبل.

سأل جنكيز: "هل تساعدني على ارتداء ملابسي يا كشيون؟ يداي أضعف من أن تفعلا ذلك لوحدهما".

امتلأت عينا كشيون بالدموع ونظر جنكيز إليه.

سأل بذهول: "لست تبكي؟ بحق الأرواح، أنا محاط بالنساء".

ضحك كشيون، ومسح عينيه قبل أن تراه تشاكاهي أو بورت.

"جيد أن أراك واقفاً يا شقيقي. كدت أصاب باليأس مما أصابك".

تأفف جنكيز. كان لا يزال ضعيفاً ولم يترك العمود تحسباً لأن يتسبب بالعار لنفسه ويقع.

"أرسل شخصاً يجلب لي درعي وطعاماً. لقد جعلتني زوجتاي أتضور جوعاً بإهمالهما".

في الخارج، كانوا جميعاً يستطيعون سماع الأنباء تنتقل عبر المعسكر، والأصوات تعلو شيئاً فشيئاً. لقد أفاق. إنه حي. تعالت الأصوات حتى تحولت إلى صرخات وصلت إلى أسوار ينكينغ وقاطعت زهي زهونغ في مجلسه مع الوزراء.

تجمد قائد الجيش في وسط النقاش عندما سمع الصوت وشعر بكتلة باردة تستقر في معدته.

عندما خرج جنكيز أخيراً من خيمة مرضه، اجتمعت القبائل لتحيته، وضرب المحاربون بأقواسهم على دروعهم. بقي كوكشو خلفه تحسباً لتعثره، لكن جنكيز مشى بثبات إلى الخيمة الكبيرة على عربتها، وصعد الدرجات من دون إشارة على أي ضعف.

حالما أصبح في الداخل، كاد يقع عندما أفلت قبضة إرادته عن جسده الواهن. جمع كشيون قادة الجيش بينما كان شقيقه يجلس منتصباً بشكل مؤلم لوحده.

حالما أخذوا مواقعهم، رأى كشيون أن جنكيز لا يزال شاحباً بشكل غير طبيعي، والعرق يتصبب من جبينه على الرغم من البرد. كان عنق جنكيز ملفوفاً بضمادات جديدة، مثل طوق. على الرغم من أن وجهه كان نحيلاً بما يكفي لرؤية شكل جمجمته، إلا أن عينيه كانتا تلمعان بسطوع متقد بينما كان

يرحب بكل رجل.

ابتسم خاسار لرؤية تعبير الصقر بينما كان يأخذ مكانه إلى جانب أرسلان وتسوبودي. كان جيلم آخر من وصل وأشار إليه جنكيز بأن يقترب منه. لم يكن يعتقد أن قدميه ستحملانه إذا نهض، لكن جيلم جثا على ركبة واحدة أمامه وأمسك به جنكيز من كتفه.

قال جنكيز: "قال كشيون إنك عانيت من السم الذي أخرجته مني".

هزّ جيلم رأسه وقال: "لم يكن شيئاً ذا أهمية".

لم يبتسم جنكيز لذلك، على الرغم من أن خاسار فعل.

قال: "لقد اشتركنا بالدم، أنت وأنا. هذا يجعلك شقيقي، مثل خاسار أو كشيون أو تيموج".

لم يرد جيلم. وارتعشت اليد على كتفه ورأى كيف تتقد عينا خانه، غائرتين في الجمجمة. على الرغم من ذلك، كان حياً.

"ستأخذ خُمس قطعاني، مئة قطعة من الحرير واثني عشر قوساً وسيفاً رائعاً. سأكرمك في القبائل يا جيلم، لما قمت به".

أحنى جيلم رأسه، وشعر بنظرة أرسلان الفخورة به. رد جنكيز يده إليه ونظر حوله إلى الرجال الذين كانوا قد اجتمعوا لديه.

"لو أنني مت، من منكم كان سيقود القبائل؟". استدارت العيون إلى كشيون وأومأ له شقيقه. ابتسم جنكيز، متسائلاً عن الأحاديث التي فوّتها بينما كان نائماً مثل الميت. كان يعتقد أنه ربما يكون خاسار، لكن لم يكن هناك خزي في نظرته. كان كشيون قد تعامل معه كما ينبغي.

قال لهم جنكيز: "لقد كنا حمقى لأننا لم نخطط لشيء من هذا القبيل. اعتبروا ما حدث إنذاراً. يمكن لأي منا أن يسقط، وإذا حدث ذلك، سيشعر جنود تشن بضعفنا ويهاجموننا. ينبغي بكل منكم أن يسمّي رجلاً يثق به ليأخذ مكانه. ورجلاً آخر يأخذ مكان من اخترتم. سنقوم بإنشاء هيكلية للقيادة حتى

أصغر جندي ليعرف كل رجل من يقوده، بغض النظر عن عدد الأشخاص الذين يموتون حوله. لن نقع في هذا مجدداً".

توقف قليلاً ليسمح بمرور موجة من الضعف سرت في جسده. ينبغي بالاجتماع أن يكون قصيراً.

"بالنسبة لي، سأقبل إرادتكم وأعين كشيون خليفة لي، حتى يكبر أبنائي. سيتبعه خاسار في ذلك. إذا متنا، سيحكم جيلم القبائل ويضرب باسمنا".

واحداً إثر آخر، أحنى الرجال الذين ذكرهم رؤوسهم في إشارة على قبولهم النظام الجديد وراحتهم له. لم يكن جنكيز يعرف مدى الفوضى التي كانوا قريبين منها عندما كان يستلقي مصاباً. كان كل رجل من الزعماء القدامى قد جمع رجاله حوله، وكان الولاء القديم قد تقدم على الضباط وقادتهم. بضربة واحدة، كان القاتل قد أعادهم إلى صلات الدم القديمة.

على الرغم من أن جسده تعرض لإصابة، إلا أن جنكيز كان لا يزال يفهم القبائل. كان يستطيع تسمية خمسين رجلاً سيرحبون بالحرية من حكمه إذا مات. لم يتكلم أحد بينما كان يفكر بالمستقبل، وكان يعرف أن عليه إعادة بناء هيكلية الجيش الذي كان قد منحهم مدن تشن. أي شيء آخر سيجعلهم يتفرقون ويتعرضون للدمار في نهاية المطاف.

"كنت وكشيون قد ناقشنا إرسالكم بعيداً من هنا عدّة مرات. لقد كنت متردداً من قبل، لكن ينبغي أن نفصل القبائل الآن. سيكون بعضهم قد نسي العهد الذي قطعوه لي ولقادتهم. ينبغي تذكيرهم به". نظر حوله إلى وجوه قادة جيشه. لم يكن أحدهم ضعيفاً، لكنهم كانوا لا يزالون بحاجة إليه لقيادتهم، ومنحهم سلطته. ربما كان كشيون يستطيع إبقاءهم معاً إن كان قد لقي حتفه، لكنه لا يستطيع أن يكون واثقاً من ذلك.

"عندما تغادرون هذا المكان، شكّلوا الأفواج في السهل، على مرأى من الأسوار. لنجعلهم يشاهدون قوتنا ثم ازدراءنا لهم عندما ترحلون. اجعلوهم يخافون

ممّا ستحققونه عندما تستولون على مدن أخرى". استدار إلى تسوبودي، ورأى إثارة واضحة في عينيه.

"ستأخذ جوشي يا تسوبودي. إنه يحترمك". فكّر جنكيز للحظة. "لا أريد أن يُعامل كأمير. إنه فتى حسّاس ومتغطرس وينبغي نزع ذلك منه. لا تخف من معاقبته باسمي".

رد تسوبودي: "كما تشاء يا مولاي".

سأل جنكيز بفضول: "إلى أين ستذهب؟".

لم يتردد تسوبودي. كان قد فكر في الجواب عدّة مرات منذ معركة ممر بادغر.

"شمالاً يا مولاي. سأقطع أرض صيد قبيلتي القديمة، يوريانخي، وأرى ما يوجد خلفها".

"حسناً. كشيون؟".

رد كشيون: "سأبقى هنا يا شقيقي. سأرى هذه المدينة تسقط".

ابتسم جنكيز من التعبير الصارم على وجه شقيقه. "رفقتك موضع ترحيب. جيلم؟".

رد جيلم: "شرقاً يا مولاي. لم أرَ المحيط أبداً ولا نعرف شيئاً عن تلك الأراضي".

تنهد جنكيز من تلك الفكرة. كان قد وُلد أيضاً في بحر من الأعشاب وكانت الفكرة مغرية. على الرغم من ذلك، كان سيرى تدمير ينكينغ أولاً.

"خذ ابني تشاغاتي يا جيلم. إنه فتى رائع وربما يصبح خاناً عندما يكبر". أومأ القائد بوقار، وكان لا يزال متأثراً بالشرف الذي أصبغه عليه جنكيز. قبل يوم واحد فقط، كانوا جميعاً متوترين، ينتظرون رؤية ما سيحدث في القبائل عندما تصل الأنباء بأن جنكيز قد مات. أعاد سماعهم لأوامره الثقة إلى نفوسهم. كما كانت القبائل تهمس، كان من الواضح أن جنكيز محبوب من الأرواح. شعر جيلم بكبريائه يتعاظم وفشلت محاولته في عدم إظهار أي تعبير على وجهه

عندما ابتسم.

تابع جنكيز قائلاً: "أريدك هنا معي يا أرسلان عندما تتضور المدينة جوعاً وتستسلم. ربما بعدها ستسلك طريقك ببطء إلى وطنك وتستمتع لعدّة سنوات بالتجوال في السهول بسلام".

استهجن خاسار الأمر بصوت خافت.

"ذلك كلام رجل مريض يا شقيقي. عندما تصبح بصحة جيدة سترغب بأن تلحق بي جنوباً وتستولي على مدن تشن مثل فاكهة ناضجة، واحدة إثر الأخرى. هل تتذكر السفير وين تشاو؟ سأتجه نحو كيفنغ والجنوب. سأود رؤية وجهه عندما يراني مجدداً".

"إلى الجنوب يا خاسار. عمر ابني أوجيدي عشر سنوات، لكنه سيتعلم منك أكثر مما إذا بقي هنا وحدّق إلى الأسوار. سيبقى تولي الصغير فقط معي. إنه يحب الراهب البوذي الذي أحضرته مع هو سا وتيموج".

رد خاسار: "إذاً، سآخذ هو سا أيضاً. في الواقع، يمكنني أخذ تيموج معي حتى لا يتسبب بأي مشكلات أخرى".

فكّر جنكيز في الفكرة. لم يكن أصمّ كما كان يدّعي بشأن الشكاوى التي تطال شقيقه الأصغر.

"لا. إنه مفيد بما فيه الكفاية. إنه يقف بيني وبين ألف سؤال من حمقى ويستحق ذلك شيئاً بالمقابل". تأفف خاسار عندها، وكانت مشاعره واضحة. تابع جنكيز وهو مستغرق بالتفكير، وكان يختبر أفكاراً جديدة كما لو أن مرضه قد حرّر ذهنه.

"لطالما أراد تيموج إرسال مجموعات صغيرة لمعرفة ما يوجد في أراضٍ أخرى. ربما كان محقاً بأن المعلومات التي سيجلبونها ستكون مفيدة. انتظار عودتهم ستخفف على الأقل من رتابة موقعه اللعين". أومأ لنفسه. "سأختار الرجال وسيغادرون أيضاً عندما ترحلون. سننتشر في كل الاتجاهات". عندها، شعر بأنه

قد استنفد طاقته فجأة كما جاءت، وأغلق عينيه عندما شعر بموجة دوار.

"اتركوني الآن، ما عدا كشيون. شكّلوا أفواجكم وودّعوا زوجاتكم وخليلاتكم. سيكونَنّ بأمان معي، إلا إن كن جذّابات للغاية".

ابتسم بضعف عندما نهضوا، وكان سعيداً لرؤيتهم أكثر ثقة مما كانوا عليه عندما وصلوا. عندما وقف كشيون وحيداً في الخيمة الكبيرة، فقد جنكيز حيويته، وبدا فجأة أكبر عمراً.

"ينبغي أن أرتاح يا كشيون، على الرغم من أنني لا أريد العودة إلى تلك الخيمة التي تعبق بروائح المرض. هل يمكنك وضع حارس على الباب حتى أستطيع النوم والأكل هنا؟ لا أريد أن يراني أحد".

"سأفعل يا شقيقي. هل يمكنني إرسال بورت لتنزع عنك ملابسك وتُطعمك؟ لقد رأت الأسوأ حتى الآن".

هزّ جنكيز كتفيه استخفافاً، وكان صوته ضعيفاً.

"ربما من الأفضل أن ترسل كلتا زوجتيّ. لن يستمر الهدوء الذي عاشتا فيه إذا فضلت واحدة على الأخرى". كانت عيناه مشوشتين آنذاك. كان الجهد الذي بذله في ذلك الاجتماع الوحيد قد أوصله إلى حافة الإجهاد، واهتزت يداه عندما وضعهما في حجره. واستدار كشيون ليغادر.

تمتم جنكيز من خلفه: "كيف جعلت خاسار يقبل بأن تخلفني؟".

رد كشيون: "قلت له إن بمقدوره أن يكون الخان. أعتقد أن ذلك قد أرعبه".

الفصل التاسع والعشرون

استغرق الأمر من القادة ستة أيام أخرى لجمع رجالهم في ساحات ضمت كل منها عشرة آلاف محارب، مستعدين للرحيل. في الجوهر، كان كل فوج فرقة غزو على نطاق واسع، وهو شيء يعرفه جميعهم جيداً. على الرغم من ذلك، كان ذلك الحشد يتطلب تنظيماً وكان تيموج وكادره من الرجال المشوهين مشغولين بالإمدادات، الجياد، الأسلحة ولوائحهم. مرة فقط، لم يتذمر الضباط من التدخل. كانت تقع أمامهم أراضٍ لم يرَها أحد من شعبهم. كان حب السفر قوياً في الرجال فيما كانوا يحدّقون إلى الاتجاهات التي كان قادتهم قد اختاروها.

كان أولئك الذين تخلّفوا أقل ابتهاجاً واعتمد جنكيز على كشيون للحفاظ على الانضباط حتى يستعيد عافيته. حقق ذلك التكتيك نجاحاً مدهشاً ولم يكن على شقيقه سوى أن ينظر إلى خيمة الخان الكبيرة حتى يصمت الرجال المتخاصمون. لم يكن أحد يرغب بإزعاج جنكيز في الوقت الذي يستعيد فيه قوته. كانت الحقيقة البسيطة بأنه لا يزال حياً قد قضت على القوة المتزايدة للزعماء القدامى في المعسكر. حتى عندها، كان والد ويلا الشخص الذي طلب رؤية جنكيز، غافلاً عن العواقب. كان كشيون قد زار الرجل في خيمته، وبعد ذلك، لم ينبس خان ويلا ببنت شفة لأحد. كان أبناؤه سيتجهون جنوباً مع خاسار وسيتركونه وحيداً مع خدمه فقط لحمله كل يوم.

كان الثلج قد تساقط في الليلة السابقة، لكن الصباح كان مشرقاً والسماء زرقاء صافية فوق ينكينغ. في الساحات الضخمة على السهل المتجمد، انتظر المحاربون الأوامر، ووقفوا جاهزين لامتطاء جيادهم التي كانت ترعى في الثلج. كان ضباطهم مشغولين بتفقد الصفوف والمعدات على الرغم من أنه لم يكن هناك مهملون كُثر ليتركوا شيئاً خلفهم، ليس وحياتهم تعتمد على ذلك. ضحك

الكثير من الرجال وتبادلوا الدعابات مع بعضهم. كانوا قد تحركوا فوق سطح الأرض طيلة حياتهم ولم يكن التوقف الإلزامي عند ينكينغ طبيعياً بالنسبة إليهم. ستكون هناك مدن أقل تحصيناً على طريق رحلتهم، وكان كل فوج يسافر مع منجنيقات في اثنتي عشرة عربة ورجال مدربين على استعمالها. كانت العربات ستجعلهم بطيئين، بالطبع، لكن كل رجل هناك كان يتذكر ينشوان في مملكة كزي كزيا. لم يكونوا مضطرين للصراخ خارج أسوار بعيدة. بدلاً من ذلك، كانوا سيحطمون بوابات المدينة ويلقون بملوك صغار من ارتفاعات عالية. كان ذلك احتمالاً بهيجاً وغمرتهم السعادة كما لو أنهم في يوم وليمة صيفية.

كانت المواد الأخيرة التي قدّمها تيموج ليستعملها كل قائد خياماً بيضاء، حمراء وسوداء. استمد المحاربون الشجاعة من رؤيتها تُطوى ويتم تحميلها، وتُربط بحبال طويلة. كان وجود الخيام يدل على نيتهم في قهر كل أولئك الذين يقفون ضدهم. كانت قوتهم تمنحهم الحق في ذلك.

إضافة إلى الأفواج، كان جنكيز قد جمع عشر مجموعات تتألّف كل واحدة منها من عشرين محارباً لاستطلاع أراضٍ جديدة. في البداية، فكّر فيهم كمجموعات غزو، لكن تيموج كان قد حثّه على منحهم حمولة عربات من الذهب والهدايا. كان تيموج قد تكلم إلى ضابط كل مجموعة، وتأكد من أن الرجل يفهم بأن مهمته المراقبة والتعلم، وحتى تقديم الرشى. كان تيموج قد دعاهم دبلوماسيين، وهي كلمة كان قد تعلمها من وين تشاو، قبل عدّة سنوات. في ما يتعلق بذلك، كما هي حال كل شيء آخر، كان تيموج قد ابتكر شيئاً جديداً للقبائل. كان يعرف قيمتهم على الرغم من أنهم أنفسهم لم يكونوا يعرفونها. كان أولئك الرجال أقل ابتهاجاً بكثير من الذين عرفوا أنهم سيفتحون المدن التي تقع في طريقهم.

كان جنكيز قد أزال الضمادات عن عنقه، وظهرت خثرة سميكة فوق كدمات صفراء وسوداء. تنفس بعمق في الهواء البارد، وسعل في يده عندما شعر بموجة

ضعف. لم يكن قريباً من تمام عافيته، لكنه تمنّى أيضاً أن يكون مع الآخرين، حتى أولئك الذين يُتوقع منهم أن يتكلموا ويتجسسوا لا أن يقوموا بالغزو. ألقى نظرة غاضبة على ينكينغ عندما خطرت له تلك الفكرة، وكانت المدينة تجثم مثل ضفدع على السهل. لم يكن هناك شك بأن إمبراطور تشن كان على الأسوار في تلك اللحظة، يراقب تلك الحركة الغريبة للرجال والجياد. بصق جنكيز على الأرض باتجاه المدينة. كانوا قد اختبأوا خلف الجنود عند ممر بادغر وأضحوا يختبئون آنذاك خلف الأسوار. تساءل عن عدد المواسم التي يمكنهم فيها تحمل ذلك وأصبح مزاجه أفضل.

قال كشيون، بعد أن اقترب على صهوة جواده وترجل عنه: "الرجال جاهزون. لا يستطيع تيموج التفكير في شيء آخر لإثارة غضبهم، شكراً للأرواح. هل ستنفخ في البوق بنفسك؟".

نظر جنكيز إلى بوق الاستطلاع اللامع الذي يتدلى من عنق شقيقه. هزّ رأسه.

قال: "سأودّع أبنائي أولاً. أحضرهم إلي". أشار إلى بطانية كبيرة على الأرض، مع قارورة من الشراب اللاذع الأسود وأربعة أكواب على القماش.

أحنى كشيون رأسه ووثب عائداً إلى السرج، وركل الحيوان ليعدو بأقصى سرعته عبر الساحات المليئة بالرجال المنتظرين. كان الطريق طويلاً للوصول إلى أبناء شقيقه. كان كل محارب هناك يمتلك جوادين آخرين ما شكّل قطيعاً ضخماً من الجياد وكان الصباح مليئاً بضوضاء صهيلها.

انتظر جنكيز بصبر حتى عاد كشيون مع جوشي، تشاغاتي، وأوجيدي تنحّى شقيقه جانباً للسماح للأبناء بالاقتراب. راقب كشيون من طرف عينه بينما كان جنكيز يجلس وقد وضع ساقاً على ساق والأبناء الثلاثة يواجهونه على بطانية خشنة. بصمت، سكب لكل واحد منهم كوباً من الشراب الناري فتناول كل منهم كوبه بشكل رسمي باليد اليمنى، وأمسكوا مرافقهم بأيديهم اليسرى لإظهار أنهم لا يحملون أسلحة.

لم يستطع جنكيز العثور على شيء ينتقده في سلوكهم بينما كان ينظر إليهم. كان جوشي يرتدي درعاً جديداً، أكبر قليلاً من جسده. كان لا يزال لدى تشاغاتي الدرع الذي كان قد منحه إياه. وحده أوجيدي كان يرتدي الثوب المبطّن التقليدي، وكان صغيراً جداً بعمر العاشرة على ارتداء درع رجل، حتى مع ما كانوا قد كسبوه عند ممر بادغر. كان الفتى الصغير ينظر إلى كوب الشراب بشيء من الريبة، لكنه ارتشف منه مع الآخرين، ولم يظهر على وجهه أي تعبير.

قال جنكيز مبتسماً: "ذئابي الصغار. ستكونون جميعاً رجالاً عندما أراكم مجدداً. هل تكلمتم إلى والدتكم؟".

رد جوشي: "فعلنا ذلك". نظر إليه جنكيز وتساءل عن عمق الخصومة في عيني الفتى. ما الذي كان قد فعله ليستحق ذلك؟

رداً على نظرة جوشي العابسة، تكلم جنكيز إليهم جميعاً.

"لن تكونوا أمراء بعيداً عن هذا المعسكر. كنت قد أوضحت ذلك لقادتكم. لن تكون هناك معاملة خاصة لأبنائي. ستسافرون مثل أي محارب آخر من الشعب وعندما تُدعون للقتال، لن يكون هناك أحد لإنقاذكم بسبب من تكونون. هل تفهمون؟".

لقد بدا أن كلماته قد نزعت الإثارة منهم، وتلاشت ابتساماتهم. واحداً إثر الآخر، أحنوا رؤوسهم. وأفرغ جوشي كوبه ووضعه على البطانية.

تابع جنكيز: "إذا رّقيتُم إلى رتبة ضابطٍ، سيكون ذلك فقط لأنكم أظهرتم بأنكم سريعو التفكير، ماهرون وشجعان أكثر من الرجال حولكم. لا أحد يرغب بأن يقوده أحمق، حتى وإن كان ذلك الأحمق ابني".

توقف قليلاً، وسمح لذلك بأن يتغلغل فيهم فيما كانت نظرته تستقر على تشاغاتي. "بأي حال، أنتم أبنائي وأتوقع أن أرى دمائي تجري في كل منكم. سيفكر المحاربون الآخرون في المعركة التالية، أو الأخيرة. أنتم ستفكرون في الأمة التي يمكنكم قيادتها. أتوقع منكم العثور على رجال يمكنكم أن تثقوا بهم وأن

يرتبطوا بكم. أتوقع منكم أن تضغطوا على أنفسكم وتقسوا عليها أكثر مما يفعله أي شخص آخر. عندما تشعرون بالخوف، أخفوه. لن يعرف أحد غيركم بذلك، ومهما كان السبب، سيزول. سيتذكر الجميع كيف تحتفظون برباطة جأشكم".

كان هناك الكثير ليقوله لهم. كان من المفرح أنّ حتى جوشي انتبه لكل كلمة، لكن من يمكنه أن يقول لهم كيف يحكمون إذا لم يكن والدهم؟ كانت تلك مهمته الأخيرة للفتية قبل أن يصبحوا رجالاً.

"عندما تتعبون، لا تتكلموا عن ذلك أبداً وسيعتقد الآخرون أنكم من حديد. لا تسمحوا لمحارب آخر أن يسخر منكم، حتى على سبيل المزاح. إنه شيء يفعله الرجال ليروا من يمتلك القوة ليقف ضدهم. أظهروا لهم أنكم لن تخافوا وإذا كان ذلك يعني أن تقاتلوا، حسناً، هذا ما ينبغي عليكم فعله".

قال جوشي بهدوء: "ماذا إن قام أحد الضباط بالسخرية منا؟".

نظر إليه جنكيز بحدّة.

"لقد رأيت رجالاً يحاولون تفادي مثل تلك الأمور بابتسامة، أو بخفض رؤوسهم، أو حتى المزاح لجعل الآخرين يضحكون بقوة أكبر. إذا فعلتم ذلك، لن تقودوا أبداً. نفذوا الأوامر التي تصدر إليكم، لكن حافظوا على كرامتكم؟". فكّر للحظة.

"منذ هذا اليوم، لم تعودوا أطفالاً. أنت أيضاً يا أوجيدي. إذا كان عليكم أن تقاتلوا، حتى إذا كان صديقاً، اطرحوه أرضاً بأسرع وأقوى ما تستطيعون. اقتلوه إذا كنتم مضطرين لذلك، أو اصفحوا عنه. لكن، احذروا من ترك دين لأي رجل في أعناقكم. من بين كل الأشياء، يثير ذلك الاستياء. ينبغي أن يعرف أي محارب يرفع قبضته لكم أنه يغامر بحياته وأنه سيفقدها. إذا لم تستطيعوا تحقيق النصر في البداية، اثأروا إذا كان ذلك آخر شيء تفعلونه. ستسافرون مع رجال لا يحترمون سوى الأقوى منهم، رجال أقسى منهم. إضافة إلى كل شيء آخر، هم

يحترمون النجاح. تذكروا ذلك".

جال ببصره الحاد عليهم وارتعش أوجيدي بعد أن شعر ببرودة الكلمات. لم يبتسم جنكيز لرؤية ذلك عندما تابع كلامه.

"لا تسمحوا لأنفسكم أبداً بأن تصبحوا رقيقين، وإلا سيأتي رجل يوماً ما ويأخذ كل شيء منكم. استمعوا إلى أولئك الذين يعرفون أكثر منكم وكونوا آخر من يتكلم في كل محادثة، حتى ينتظروا منكم أن ترشدوهم إلى الطريق. واحذروا الرجال الضعفاء الذين يأتون إليكم بسبب اسمكم. اختاروا أولئك الذين يتبعونكم بعناية مثل الزوجات. إذا كنت أتمتع بمهارة واحدة جعلتني أحكم شعبنا، ستكون تلك. يمكنني أن أرى الفرق بين محارب متبجح ورجل مثل تسوبودي، أو جيلم، أو خاسار".

لاحت علامات سخرية على فم جوشي قبل أن ينظر بعيداً ورفض جنكيز السماح لغضبه بالظهور.

"شيء واحد بعد قبل أن تغادروا. احرصوا على عدم إراقة بذوركم". احمرّ وجه جوشي خجلاً عندها وفغر تشاغاتي فمه دهشة. وحده أوجيدي بدا مرتبكاً. تابع جنكيز الكلام.

"يصبح الفتية الذين يقضون كل ليلة يلعبون بأعضائهم ضعفاء، مهووسين بحاجات أجسادهم. أبعدوا أيديكم عنها وعاملوا الرغبة مثل أي نقطة ضعف أخرى. ستجعلكم العفة أقوياء. ستكون لديكم زوجات وخليلات في الوقت المناسب".

فيما كان الفتية الثلاثة يجلسون هناك بصمت محرجين، وضع سيفه في غمده. لم يكن قد خطط لذلك، لكن الأمر بدا صحيحاً وأراد أن يفعل شيئاً يتذكرونه.

قال: "خذه يا تشاغاتي". رمى الغمد بين يدي ابنه. تحسّسه تشاغاتي بسعادة ممزوجة بالدهشة. راقب جنكيز الفتى بينما كان يرفع قبضة رأس الذئب لتلمع

في الشمس، ثم شهر السيف الذي كان والده قد حمله طيلة شبابه. كانت عيون الآخرين على المعدن اللامع، ممتلئة حسداً.

قال جنكيز بهدوء: "كان والدي ياسوجي يحمله معه في اليوم الذي مات فيه. كان والده قد أمر بصنعه في وقت كانت فيه الذئاب عدواً لكل قبيلة أخرى. لقد أزهق أرواحاً وشهد ولادة أمة. احرص على عدم تدنيسه".

أحنى تشاغاتي رأسه حيث كان جالساً، وقد غمرته السعادة.

رد: "لن أفعل يا مولاي".

لم ينظر جنكيز إلى وجه جوشي الأبيض.

"اذهبوا الآن. عندما تعودون إلى قادتكم، سأنفخ في البوق. سنرى بعضنا مجدداً عندما تصبحون رجالاً ويمكننا الالتقاء كأنداد".

قال جوشي فجأة: "أتطلع قدماً إلى ذلك اليوم يا أبي".

رفع جنكيز بصره الشاحب إليه، لكنه لم يقل شيئاً. لم يتكلم الفتية بعضهم مع بعض عندما انطلقوا مبتعدين على الأرض القاسية ولم ينظروا إلى الخلف.

عندما أصبح جنكيز لوحده مرة أخرى مع كشيون، شعر بشقيقه يحدّق إليه.

سأل كشيون: "لماذا لم تمنح السيف لجوشي؟".

قال جنكيز بحدّة: "لوغد تتاري. أرى والده ينظر إلي كلما التقينا".

هزّ كشيون رأسه، وأحزنه أن يكون جنكيز أعمى في تلك المسألة وبصيراً في كل ما سواها.

قال: "نحن عائلة غريبة يا شقيقي. إذا تركتنا وحدنا، نصبح ضعفاء ورقيقين. إذا تحدّيتنا، تجعلنا نكره، ونصبح أقوياء بما يكفي لنرد الضربة". نظر إليه جنكيز مستفسراً وتنهد كشيون.

قال كشيون: "إذا أردت حقاً إضعاف جوشي، كان ينبغي أن تمنحه السيف. سيعتبرك الآن عدواً ويجعل نفسه حديداً، تماماً كما فعلت. هل ذلك ما تريده؟".

طرفت عينا جنكيز، مندهشاً من الفكرة. كان كشيون يرى الأشياء بوضوح مؤلم ولم يستطع الحصول على رد.

تنحنح كشيون وقال: "كانت تلك نصيحة مثيرة للاهتمام، خاصة الجزء المتعلق بإراقة بذورهم". تجاهله جنكيز، وراقب الأشكال التي تبتعد للانضمام إلى ساحات المحاربين.

قال كشيون: "لا يبدو أن ذلك تسبب بالأذى لخاسار أبداً". ضحك جنكيز بصوت خافت، ومدّ يده طلباً لبوق كشيون. نهض على قدميه ونفخ نغمة عميقة طويلة عبر السهل. قبل أن تتلاشى، قعقعت الأفواج وهي تتحرك، وكان شعبه يتجه نحو النصر. كان يتوق للتواجد معهم، لكن كان عليه رؤية ينكينغ تسقط أولاً.

تأوه تيموج عندما دلّك خادمه كتفيه مزيلاً عنهما هموم اليوم. بدا أن شعب تشن يمتلك فكرة عن الحضارة لا يمكن لأحد في القبائل أن يجاريها. ابتسم نعساً من فكرة الطلب إلى محارب أن يدهن عضلاته بالزيت. كان إما سيعتبرها إهانة له، أو يعمل عليها مثل جزّ الصوف.

في البداية، كان قد ندم على خسارة خادمه الأول. نادراً ما كان الرجل يتكلم ولم يكن يعرف حقاً شيئاً من لغة المغول. على الرغم من ذلك، كان قد عمل على تنظيم يوم تيموج، حتى بدت الأحداث تجري بسلاسة حوله من دون توتر. كان تيموج قد أضحى معتاداً على الاستيقاظ بعد الفجر والاستحمام. كان خادمه يقوم بعد ذلك بإلباسه وتحضير إفطار خفيف له. كان يقرأ التقارير من رجاله حتى ينقضي الصباح، ثم يبدأ العمل المناسب لذلك اليوم. بدت خسارة مثل ذلك الرجل بفعل سكين قاتلٍ مأساة في البداية.

تنهد تيموج سعادة بينما كان الخادم الجديد يعمل على العضلات، وإبهاماه تفركان بقوة. ربما لم تكن بالخسارة الكبيرة، بالمحصلة. لم يكن سن العجوز يعرف شيئاً عن الزيوت والتدليك، وعلى الرغم من أن وجوده كان مريحاً، إلا أن

الرجل الجديد كان يتكلم كلما سمح له تيموج بذلك، ويشرح له أي مظهر يلفت انتباهه في مجتمع تشن.

تمتم: "ذلك جيد جداً يا ما تسن. كاد الوهن يختفي".

رد الجاسوس: "على الرحب والسعة يا مولاي". لم يكن يستمتع بفرك ظهر الرجل، لكنه كان قد أمضى مرة حوالى السنة كحارس دورية ويعرف كيف تجعل الفتيات زبائنهن يسترخون.

قال بلطف: "رأيت الجيوش تتحرك بعيداً هذا الصباح يا سيدي. لم يسبق أن رأيت مثل ذلك العدد الكبير من الجياد والرجال في مكان واحد".

تأفف تيموج.

"ابتعادهم يجعل حياتي أبسط. لقد اكتفيت من شكواهم وشجارهم. أعتقد أن شقيقي اكتفى منهم أيضاً".

تابع الجاسوس كلامه: "سيجلبون الذهب للخان عندما يعودون. لا أشك بذلك". بدأ يربت على عضلات ظهر تيموج الثقيلة، قبل أن يجد عقدة أخرى يعمل عليها بأصابع قوية.

تمتم تيموج: "لسنا بحاجة للمزيد منه. لدينا عربات من النقود ووحدهم رعايا تشن يبدون مهتمين بها".

توقف الجاسوس للحظة. كانت تلك إحدى سمات ذهنية المغول التي تربكه. كان تيموج مسترخياً آنذاك، لكنه تابع العمل، محاولاً أن يفهم.

سأل: "هل صحيح إذاً أنك لا تسعى لتكديس ثروة؟ لقد سمعت مثل ذلك القول".

"ماذا سنفعل بها؟ لقد جمع شقيقي الذهب والفضة لأن هناك بعض الأشخاص الذين ينظرون بجشع إلى مثل تلك الأشياء. لكن ما فائدتها؟ الثروة الحقيقية لا توجد في المعادن".

تابع الجاسوس: "يمكنك شراء جياد بها، وحتى أسلحة أو أراضٍ". تحت يديه،

شعر تيموج يهز كتفيه لا مبالياً.

"ممن؟ إذا كانت كومة من النقود ستجعل رجلاً آخر يعطينا جياده، يمكننا أخذها منه. إذا كانت لديه أرض، ستكون لنا بأي حال، لنجول فيها كما يحلو لنا".

طرفت عينا الجاسوس غضباً. لم يكن لدى تيموج سبب ليكذب عليه، لكن الرشوة لن تكون سهلة إذا تكلم الصدق. حاول مجدداً، معتقداً بأن الأمر ميؤوس منه.

"في مدن تشن، يمكن للذهب شراء بيوت كبيرة إلى جانب بحيرة، طعام شهي، وحتى آلاف الخدم". كافح لتقديم المزيد من الأمثلة. بالنسبة إلى شخص كان قد ولد في مجتمع يستعمل النقود، كان من الصعب أن يفسر الماء بالماء. "يمكنه حتى شراء النفوذ والتعاطف من رجال أقوياء يا مولاي. قطع فنية نادرة، وربما هدايا لزوجاتك. يجعل كل شيء ممكناً".

رد تيموج غاضباً: "أفهم ذلك. اصمت الآن".

استسلم الجاسوس تقريباً. لم يستطع شقيق الخان استيعاب المفهوم. في الحقيقة، جعله ذلك يدرك الطبيعة المزيفة لعالمه. كان الذهب ليناً جداً على أي استعمال حقيقي. لماذا كان يعتبره قيّماً؟

"ماذا إن أردت جواد رجل في القبائل يا سيدي؟ لنقل إنه جواد أفضل من كل الجياد الأخرى".

قال تيموج بحدّة: "إذا كنت تقدّر يديك، لن تتكلم مجدداً". عمل الجاسوس بصمت لبعض الوقت وتنهد تيموج. "سأمنحه خمسة جياد من سلالة أدنى، أو عبدين، أو ستة أقواس، أو سيفاً صنعه رجل ماهر، أي شيء يريده وفقاً لما احتاجه". ضحك تيموج بصوت خافت، وهو يكاد ينام. "إذا قلت له إن لدي حقيبة من معدن نفيس سيشتري له جواداً آخر، سيقول لي أن أحاول مع أحمق آخر".

جلس تيموج عندها. كانت سماء المساء صافية وتثاءب. كان يوماً حافلاً بترتيب مغادرة ذلك العدد الكبير من الرجال.

"أعتقد أنني سأتناول جرعات من دوائي الليلة يا ما تسن، لتساعدني على النوم".

ساعد الجاسوس تيموج على ارتداء ثوب حريري. كانت خيلاء الرجل تسليه، لكنه لم يستطع التخلص من الإحباط الذي شعر به. كانت سلطة الزعماء الصغار قد انتهت عندما أصدر جنكيز الأمر بتشكيل الأفواج. لم تكن تلك خسارة. لم يكن لأحدهم نفوذ حقيقي في المعسكر. كان الجاسوس قد خفف من خسائره وعمل بسرعة ليحل محل الخادم الذي لقي حتفه على يدي القاتل. كان التحرك بمثل تلك السرعة يجلب مخاطر عديدة وشعر بأن الجهد الذي يبذله يزداد يومياً. كان لا يزال يعتقد أن تيموج رجل فاشل وسطحي، لكنه لم يكن قد وجد شيئاً ربما يغريه على الخيانة، كما لم يجد مرشحاً أفضل منه. كان ينبغي تفكيك الخيمة السوداء، لكن ينبغي ألا يعرف جنكيز بالصراع المرير في ينكينغ. فكّر الجاسوس في أن الوصي قد أرسله لتنفيذ مهمة شبه مستحيلة.

ضائعاً في أفكاره الخاصة، حضّر الجاسوس الشراب الساخن اللاذع الطعم وأضاف ملعقة من عجينة الكاهن العرّاف السوداء، بعد أن كشطها من قدر. عندما لم يكن تيموج ينظر إليه، شمّ رائحتها، متسائلاً إن كانت مخدراً. كان النبلاء يدخنون الأفيون في المدن ويبدون متعلقين بمشاربهم، تماماً كما يبدو تيموج متعلقاً بشرابه.

قال: "كادت الكمية تنفد لدينا يا مولاي".

تنهد تيموج. "إذاً، ينبغي أن أطلب المزيد من الكاهن العرّاف".

"سأذهب إليه يا سيدي. لا ينبغي أن تزعج نفسك بأشياء صغيرة".

رد تيموج سعيداً: "ذلك صحيح". تناول الكوب وارتشف منه، وأغلق عينيه بسعادة. "اذهب إليه، لكن لا تخبره شيئاً عما تفعله لي. ليس كوكشو رجلاً

لطيفاً. تأكد من عدم إخباره بأي شيء كنت قد رأيته أو سمعته في هذه الخيمة".

قال الجاسوس: "سيكون الأمر أسهل إن استطعت شراء العجينة منه بالنقود الذهبية يا سيدي".

"لا يريد كوكشو ذهبك. أعتقد أنه مهتم بالسلطة فقط". أفرغ الكوب، وكشّر من الرواسب المرّة، لكنه استمر في تحريكه لشرب كل قطرة. كانت فكرة الوعاء الفارغ تزعجه بشكل غريب. كان سيحتاجه مجدداً في الصباح.

"قابله الليلة يا ما تسن. إذا استطعت، حاول اكتشاف كيف يصنع العجينة، حتى تتمكن من تحضيرها بنفسك. لقد سألته من قبل، لكنه أخفى الأمر عني. أعتقد أنه يستمتع بحقيقة أنه ما زالت لدي حاجة عنده. إذا استطعت العثور على السر، فلن أنسى ذلك".

رد الجاسوس: "كما تشاء يا مولاي". كان ينبغي به العودة إلى السور تلك الليلة، لتقديم تقريره. كان هناك وقت لرؤية الكاهن العرّاف قبل أن يذهب إلى هناك. أي شيء وكل شيء يمكن أن يكون مفيداً، ونظراً لطبيعة الموقف، لم يكن قد حقق الكثير في المعسكر، فيما كانت ينكينغ تتضور جوعاً.

الفصل الثلاثون

كان ذلك الصيف الأكثر هدوءاً وفقاً لذاكرة جنكيز. لولا الحضور الطاغي للمدينة الذي يملأ العين كل يوم، لكان ذلك الوقت مخصصاً للراحة. أعاق محاولات الخان لاستعادة لياقته سعال متواصل كان يتركه يلهث وقتاً طويلاً، والذي أضحى أسوأ من ذي قبل عندما أصبحت السنة أكثر برودة. كان كوكشو قد أصبح زائراً منتظماً لخيمته، يحضر معه أشربة من العسل والأعشاب المرّة جداً التي لم يكن جنكيز يستطيع بلعها إلا بصعوبة بالغة. كانت تجعله يشعر براحة مؤقتة فقط وخسر جنكيز وزناً بشكلٍ ينذر بالخطر، وظهرت عظامه بيضاء تحت الجلد الذي بدا شاحباً وعليلاً.

خلال شهور البرد، جثمت ينكينغ في مرمى بصره متينة على حالها، وتسخر من حضوره في تلك الأرض. كانت قد انقضت سنة تقريباً منذ انتصر في معركة ممر بادغر. مرّت عليه أوقات كان فيها على استعداد للتخلي عن أي شيء للسفر إلى الوطن واستعادة قوته في التلال والجداول النظيفة.

في قبضة الخمول الذي أثّر فيهم جميعاً، بالكاد نظر جنكيز إلى الأعلى عندما سدّ كشيون باب الخيمة الكبيرة. عندما رأى تعبير وجه شقيقه، أرغم نفسه على الاعتدال في جلسته.

"أنت محمل بالأنباء يا كشيون. قل لي إن شيئاً مهماً قد حدث".

رد كشيون: "أعتقد ذلك. يقول المستطلعون من الجنوب إن هناك رتل إغاثة يتجه نحونا. يبلغ عدد رجاله حوالى خمسين ألف جندي ومعهم قطيع كبير من الماشية".

رد جنكيز وقد ارتفعت معنوياته: "لم يقابلهم خاسار إذاً. أو جاؤوا من مكان ما ليس على طريقه". كان كلا الرجلين يعرفان أن الجيوش يمكن أن تتجاوز بعضها فقط إذا كان هناك وادٍ يفصلها. كانت الأرض شاسعة بما يفوق الخيال،

وتلون أحلام رجال اضطروا للبقاء في مكان واحد لمدة أطول مما فعلوا من قبل.

ارتاح كشيون لرؤية شرارة السعادة القديمة في جنكيز. كان شقيقه الأكبر قد عانى من الضعف نتيجة السم الذي سرى في دمه، وكان بمقدور أي شخص رؤية ذلك. حتى عندما حاول أن يرد، تقطّع صوته بنوبة سعال جعلت لون وجهه أحمر وتشبث بالعمود المركزي للخيمة.

قال كشيون بصوت غطّى على السعال: "ستكون المدينة بأمس الحاجة إلى دخولهم. أتساءل إن كنا سنندم على إرسال نصف رجالنا بعيداً من هنا؟".

هزّ جنكيز رأسه بصمت قبل أن يسحب نفساً عميقاً في النهاية. مشى متجاوزاً كشيون إلى الباب وبصق كمية من البلغم على الأرض، وفزع عندما حاول أن يتنحنح.

قال بصوت أجش وهو يتناول أحد أقواس تشن التي كانوا قد حصلوا عليها عند ممر بادغر: "انظر إلى هذا". تبع كشيون نظرة أخيه إلى هدف من القش على بعد ثلاثمئة يارد في أحد الطرقات. كان جنكيز يطلق سهاماً طيلة ساعات النهار لاستعادة قوته وكان مندهشاً من تقنيات أسلحة تشن. بينما كان كشيون يراقب، سدد بحرص وسحب القوس، وأطلق سهماً أسودَ يطن في الهواء. وقع قبل أن يصل إلى هدفه، وابتسم كشيون وقد فهم مباشرة. من دون كلمة، التقط أحد أقواس شقيقه واختار سهماً من كنانة، سحبه إلى الخلف نحو أذنه قبل أن يطلقه بشكل لا يخطئ إلى مركز الترس المصنوع من القش.

كان الدم قد اختفى من وجنتي جنكيز وأومأ لشقيقه.

"سيكونون بطيئين بالإمدادات إلى المدينة. خذ رجالك وقم بإشغالهم، ولا تقترب منهم بما يكفي ليصلوا إليك. أنهكهم قليلاً وسأتكفل بالباقي عندما يصلون".

فيما كان كشيون يدفع جواده للجري بأقصى سرعة عبر المعسكر، كان النبأ من المستطلعين قد انتشر بسرعة أكبر. كان كل محارب هناك مستعداً خلال

بضع لحظات تكفي للوصول إلى جواده والتقاط أسلحته من على جدران خيمته.

أصدر كشيون أوامره لكبار ضباطه الذين نقلوا كلامه، واصطدموا بالعديد من الرجال في طريقهم. كان التشكيل الجديد للعمليات الحربية لا يزال موضع تجريب من قبل الفرق المختلفة، لكن هيكلية القيادة كانت متينة لتتلقى المجموعات العشر تعليماتها. كان على الكثيرين العودة إلى خيامهم لجلب كنانة أخرى تتسع لخمسين سهماً بناءً على أمر كشيون قبل أن يتسابقوا للوقوف في تشكيل الساحة الكبيرة التي تضم عشرة آلاف محارب. تفقّد كشيون بنفسه الصف الأبعد وقاد جواده جيئة وذهاباً أمامه، وكانت راية حرب طويلة من الحرير الذهبي ترفرف خلفه.

اجتمع مرة أخرى مع المستطلعين الذين كانوا قد رأوا جيش الإغاثة ومرّر الراية التي تخفق إلى المبعوث في الصف الأمامي، وكان فتى لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر. نظر كشيون على طول الصفوف فيما كانت تتشكل وكان راضياً عمّا يراه. كان كل رجل يحمل كنانتين ثقيلتين مربوطتين إلى كتفيه. لم يكونوا بحاجة إلى مؤن من أجل غارة سريعة، ولم يكن هناك سوى أقواس وسيوف على أفخاذهم وسروجهم.

جأر، وهو يدير جواده في مكانه: "إذا سمحنا لهم بالوصول إلى المدينة، سننتظر سنة أخرى لنراها تسقط. أوقفوهم وستكون جيادهم وأسلحتهم لكم، بعد عُشر الخان".

صرخ أولئك الذين استطاعوا سماعه إعجاباً بذلك ورفع كشيون ذراعه اليمنى وأنزلها، آمراً بالتقدم. تحركت الصفوف إلى الأمام بتشكيل رائع، وكان ذلك نتاج شهور من التدريب على السهل أمام المدينة عندما لم يكن هناك أعداء يقاتلونهم. أصدر الضباط أوامرهم على غير العادة، لكن في الواقع، لم يكن هناك أخطاء في الصفوف. كانوا قد أطلقوا أخيراً العنان لحماسهم للحرب، حتى بعد

انتظار طويل.

كان الرتل على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب من ينكينغ عندما رآه المستطلعون. في الوقت الذي استغرقه كشيون للتحرك، كان الحشد البطيء من الرجال والحيوانات قد قصّر المسافة إلى اثني عشر ميلاً فقط. بعد أن عرفوا أن المغول رأوهم، كانوا قد دفعوا القطعان للسير بأسرع ما يمكن، لكن لم يكن هناك الكثير مما يستطيعون فعله قبل أن يشاهدوا سحابة غبار المحاربين الذين يقتربون منهم.

همّس الضابط القائد، سونغ لي سن، بصوت خافت استهجاناً عندما رأى العدو للمرة الأولى. كان قد قاد حوالى خمسين ألف محارب شمالاً وشرقاً من كيفنغ لإنقاذ مدينة الإمبراطور. كان الرتل ضخماً وثقيلاً، مع عربات وثيران تمتد على طول الطريق. جال ببصره على تشكيلات الفرسان التي تحمي خاصرتيه وأومأ لقائدهم من فوق رؤوس الرجال. كانت تلك معركة متوقعة منذ وقت طويل.

قال بحدّة، وتكرر أمره عبر الصفوف التي تمشي مجهدة: "التشكيل الأول!". كانت الأوامر التي صدرت واضحة تماماً. لن يتوقف حتى يصل إلى ينكينغ. إذا اشتبك معه العدو، كان عليه أن يخوض معركة استنزاف على طول الطريق وصولاً إلى المدينة ويتفادى التأخير في المناوشات. تقطّب حاجباه عبوساً من تلك الفكرة. كان سيفضل إصدار أمر شامل بسحق رجال القبائل ويقلق بشأن ينكينغ بعد أن يصبحوا عظاماً.

على طول الأفعى الممتدة من الرجال، رفع الجنود رماحاً طويلة مثل الشعر المنتصب. قام ألف جندي بتحضير أقواسهم وأومأ سونغ لي سن لنفسه. كان يرى صفوف الغزاة المغول بوضوح أكبر آنذاك واستجمع قواه على السرج، وكان يعرف أن الرجال ينظرون إليه كمثال على الشجاعة. لم يكن الكثيرون منهم قد سافروا تلك المسافة شمالاً من قبل وكل ما يعرفونه عن رجال القبائل الهمجيين هؤلاء يتعلق بطلب الإمبراطور الدعم من مدنه الجنوبية. شعر سونغ لي سن

بفضوله يتعاظم عندما غيّر الفرسان اتجاههم على طول خط ظاهر للعيان، كما لو أن رتله كان رأس رمح لا يجرؤون على الاقتراب منه. رأى أنهم سيمرّون من أحد جانبيه وابتسم بتكلف. كان قيامهم بذلك يناسب أوامره. كان الطريق مفتوحاً إلى ينكينغ ولن يتوقف.

قام كشيون بتأخير الانطلاق بأقصى سرعة حتى اللحظة الأخيرة الممكنة قبل أن ينحني في الريح ويصرخ لدفع الجياد للجري عدواً. كان يحب صوت الرعد الذي ينطلق من حوله عندما يقف على الركاب. من مثل تلك المسافة، بدا أنهم يقتربون ببطء، ثم اندفع كل شيء فجأة نحوه. خفق قلبه بقوة عندما وصل إلى رتل تشن، وأطلق أول سهامه يطن في الهواء. شاهد سهام رماة تشن تنطلق نحوهم، وتقع دونما فائدة على العشب. كانت قيادة الجياد على طول ذلك الصف الذي لا ينتهي تعني أنهم لن يتعرضوا لخطر، وضحك كشيون عالياً فرحاً بذلك، وهو يرسل سهماً إثر الآخر. لم يكن عليه أن يسدد بدقة مع وجود خمسة آلاف رجل على الطرف الآخر من الرتل، وكان يطلق سهامه عليهم بضربات سريعة.

لم يستطع فرسان تشن دفع جيادهم للانطلاق بأقصى سرعتها قبل أن يتعرضوا للهجوم، ويلقوا حتفهم على متن جيادهم. ابتسم كشيون عندما رأى أن جياد العدو كلها بقيت سليمة. كان رجاله حريصين، خاصة بعد أن شاهدوا آنذاك العدد القليل من الفرسان الذين كان تشن قد أحضروهم إلى الميدان.

عندما تم سحق الفرسان، اختار كشيون أهدافه بدقة، وسدّد على أي ضابط استطاع رؤيته. خلال ستين دقة قلب، أطلق فوجه مئة ألف سهم على الرتل. على الرغم من دروع تشن المصقولة، سقط الآلاف على الدرب، وتعثر بهم أولئك الذين كانوا خلفهم.

استطاع كشيون سماع الأبقار تخور بأسى وذعر، ولسعادته، رأى القطيع يفر بشكل جماعي، ويسحق أكثر من مئة جندي من تشن، ويفتح ثغرة في الرتل

قبل أن يتجمع بعيداً. كان قد وصل إلى نهاية الذيل وقطع مسافة أبعد عنه استعداداً للهجوم من جديد. قعقعت سهام الأقواس على صدره، وهي تكاد تقع من تلقاء نفسها. بعد شهور من التدريب المضني، كان من الرائع أن يشنوا هجوماً على عدو، وأفضل من ذلك، أنه لم يكن يستطيع المساس بهم وإنما الموت فحسب. تمنّى لو أنه كان يعرف ذلك لإحضار المزيد من الكنانات. كانت أصابعه الجشعة قد وجدت الكنانة الأولى فارغة وبدأ يسحب من سهامه الخمسين الأخيرة، وأسقط حامل راية تشن بالسهم الأول.

طرفت عينا كشيون وخرجت الدموع التي تسببت بها الرياح خارجهما. كان قد أثخن الرتل بما يكفي ليستهدف الخمسة آلاف رجل الآخرين على الجانب الشرقي. كانوا يقودون خيولهم بشكل أخرق أيضاً، ويطلقون سهامهم كيفما اتفق. ستون ضربة قلب أخرى وطار مئة ألف سهم نحو الفرسان الباقين. لم يستطع فرسان تشن الاختباء وبدأ الرتل المنضبط بالتفكك. ألقى الرجال الذين كانوا يمشون مجهدين قرب العربات أنفسهم تحتها طلباً للحماية بينما كان زملاؤهم يموتون من حولهم. صدر عويل خوف من الرمّاحين ولم يكن هناك ضباط على قيد الحياة لتجميعهم أو إبقائهم على الدرب إلى ينكينغ.

بدأ كشيون جولته الثانية، ولم يكن بعيداً جداً هذه المرة عن الرتل ليُضيع سهماً. هاجمت الصفوف مطمئنة نتيجة ساعات متواصلة من التدريب وتم إفراغ الكنانات الجديدة بسرعة. قاد كشيون جواده للانطلاق بأقصى سرعة على طول الصفوف، ونظر إلى الخلف إلى القتلى الذين تركهم خلفه بينما كان الرتل يندفع إلى الأمام عبر العاصفة. كان الجنود قد حافظوا على انضباطهم، على الرغم من أن الحركة تباطأت. أصدر رجال آخرون الأوامر مكان الضباط الموتى، وكانوا يعرفون أن تفشّي الذعر يعني دماراً كاملاً.

همهم كشيون لنفسه بإعجاب ممزوج بالضغينة. كان قد رأى قوات كثيرة تتفكك قبل ذلك. وصل إلى رأس الرتل وانعطف عائداً إلى الصف الداخلي مرة

أخرى، وشعر بكتفيه تؤلمانه عندما شد القوس مجدداً وجواده يعدو بأقصى سرعته. تخيل وجه شقيقه عندما يصل الباقون إلى مكان الترحيب الذي كانوا قد أعدوه لهم عند ينكينغ. أطلق كشيون ضحكة عندما فكر في ذلك، وكانت أصابعه متقرحة عندما تحسست الكنانة التي كانت تفرغ بسرعة. كان هناك عشرة سهام على الأكثر، لكن الرتل بدا يترنح عندما انتشر الذعر بين صفوفه. لم تكن سهام أقواس العدو قد توقفت وكان على كشيون أن يتخذ قراراً. كان يشعر برجاله ينظرون إليه بانتظار الأمر الذي سيجعلهم يشهرون سيوفهم ويمزقون الرتل إلى أشلاء. كانت السهام قد بدأت تنفد منهم جميعاً وعندما يتم إطلاق آخر وابل منها، يكون عملهم قد انتهى. كانوا يعرفون الأوامر مثله، لكنهم على الرغم من ذلك أبقوا عيونهم عليه، على أمل.

تحسس كشيون فكّه. كانت ينكينغ بعيدة جداً وسيسامحه جنكيز بالتأكيد إذا قضى على الرتل لوحده. كان يشعر بمدى اقترابهم من الانهيار. كان كل شيء تعلمه خلال سنوات الحرب قد جعل ذلك شيئاً يكاد يتحسسه.

عبس وهو يمعن التفكير فيما كانت اللحظة تطول حوله. أخيراً، هزّ رأسه ورسم دائرة واسعة في الهواء بقبضته. كرر كل ضابط في الموقع الإشارة وتراجعت الصفوف عن بقايا الرتل المبعثرة.

شاهد كشيون رجاله يشكلون صفوفاً وهم يلهثون، مبتهجين. أولئك الذين كان لا يزال لديهم سهام أطلقوها بعناية كبيرة، وقضوا على رجال كيفما أرادوا. استطاع كشيون رؤية إحباطهم فيما كانوا يكبحون جماح جيادهم خلف الرتل ويراقبونه يتحرك مبتعداً عنهم. ربت العديد منهم على أعناق جيادهم وحدّقوا إلى ضباطهم، غاضبين لمنعهم من القتل. لم يكن ذلك يبدو منطقياً وكان على كشيون أن يصمّ أذنيه عن صرخات الشكوى الصادرة من كل الاتجاهات.

عندما ابتعد الرتل عنهم، نظر العديد من الجنود إلى الوراء خائفين، مقتنعين بأنهم سيتعرضون لهجوم من الخلف. ترك كشيون الفجوة تتسع، ثم دفع

جواده للسير إلى الأمام. أصدر أمراً للجناحين الأيمن والأيسر بالسير قدماً، حتى يستطيعوا محاصرة الرتل وسوقه إلى الأمام نحو ينكينغ.

خلفهم، تركوا أثراً من الرجال القتلى يمتد أكثر من ميل، مع رايات خفّاقة ورماح في أكوام. أرسل كشيون مئة محارب لسلب الجثث والإجهاز على الجرحى، لكن نظرته لم تغادر الرتل بينما كان يشق طريقه إلى شقيقه الذي ينتظره.

استغرق الأمر من الرتل المثخن بالجروح حتى بعد الظهيرة ليرى المدينة التي كان قد جاء لإغاثتها. في ذلك الوقت، كان جنود تشن الذين نجوا من المذبحة يسيرون ورؤوسهم مطأطأة إلى الأسفل، وقد تحطمت معنوياتهم من الموت الذي خلّفوه وراءهم. عندما رأوا عشرة آلاف آخرين يسّدون طريقهم، وكانوا رجالاً نشيطين يحملون حراباً وأقواساً، تأوهوا ببؤس مطلق. اضطرب الرتل مجدداً عندما ترددوا، وكانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون شق طريقهم بالقتال. من دون إشارة، توقفوا أخيراً ورفع كشيون قبضة لإيقاف رجاله الذين كانوا يتبعونهم عن قرب. في الظلمة المتزايدة، انتظر أن يقترب منه شقيقه. كان سعيداً لأنه لم يسلب جنكيز هذه اللحظة عندما رآه يقود جواده لوحده بعيداً عن فوج المحاربين ويدفعه للجري خبباً فوق العشب.

راقبه جنود تشن بعيون باهتة، وهم يلهثون مرهقين من طريقة السير التي تم إرغامهم على اتّباعها. كانت عربات السلع قد تراجعت إلى الخلف عبر الصفوف التي تسير مسرعة وتركوها خلفهم، وقام كشيون بالقضاء على الرجال الذين يحرسونها للتدقيق في محتوياتها.

بتفكير متأنٍ، عرف جنكيز مزاج الرتل واقترب مباشرة من حافته. سمع كشيون رجاله يتمتمون بسعادة لعرض الشجاعة الذي يقدمه الخان. ربما كان لا يزال هناك خطر من إصابته بسهام وإيقاعه عن السرج، لكن جنكيز لم ينظر إلى جنود تشن عندما مرّ بهم، ولم يكن يبدو أنه يكترث لآلاف الرجال الذين

استداروا ليراقبوه من تحت جباههم التي أحنوها خنوعاً.

قال جنكيز: "لم تترك لي الكثير يا شقيقي". رأى كشيون أنه كان شاحباً ويتعرق من ركوب الجواد. فجأة، ترجل كشيون وجعل رأسه يمسّ قدم شقيقه.

رد كشيون: "تمنّيت لو أنك كنت هناك لترى وجوه الضباط. كنا ذئاباً حقاً في عالم من الأغنام يا شقيقي".

أومأ جنكيز برأسه، وكان تعبه يمنعه من مشاركة كشيون مزاجه الطيب.

قال: "لا أرى أي إمدادات هنا".

"لقد تركوها كلها خلفهم، تركوا بما في ذلك قطيعاً رائعاً من الثيران كما سترى".

انتعش جنكيز عندما سمع ذلك.

"لم آكل لحم بقر منذ وقت طويل. سنشويها أمام ينكينغ ونطلق رائحة اللحم فوق الأسوار. لقد أبليت حسناً يا شقيقي. هل نُجهز عليهم؟". نظر كلا الرجلين إلى رتل الجنود المتجهمين، والذي لم يبقَ منه أكثر من نصف حجمه الأصلي.

هزّ كشيون كتفيه غير مبالٍ. "هناك الكثير من الأفواه التي ينبغي إطعامها، إلا إن منحتهم الإمدادات التي جاؤوا بها إلى هذا المكان. دعني أحاول نزع أسلحتهم أولاً، أو يمكنهم الاستمرار في القتال".

سأل جنكيز: "هل تعتقد أنهم سوف يستسلمون؟". تألقت عيناه من اقتراح شقيقه، وتأثر بكبرياء كشيون الواضح. من بين كل الأشياء، كانت القبائل توقر قائداً يمكنها تحقيق انتصار معه من دون استعمال العنف.

هزّ كشيون كتفيه غير مبالٍ. "لنرَ".

استدعى اثني عشر رجلاً يمكنهم تكلم لغة تشن وأرسلهم لقيادة جيادهم على طول الرتل وقريبين منه، مثل جنكيز نفسه، لعرض شروط سلام إذا تخلوا عن أسلحتهم. لا شك أن ما كان ذا فائدة أن الرجال كانوا قريبين من الإجهاد

بعد يوم من مطاردتهم من قبل عدو يضربهم بقوة مرعبة من دون أن يمسه سوء. كانت معنوياتهم قد تدنت في المسير وابتسم جنكيز عندما سمع صوت الأسلحة التي كان يتم إلقاؤها أرضاً.

كان الظلام قد بدأ يحل عندما تم نزع الرماح، والأقواس، والسيوف من الصفوف الصامتة. كان جنكيز قد أرسل كنانات جديدة إلى كشيون والمغول الذين ينتظرون بترقب هادئ فيما كانت الشمس تصبغ السهول بلون ذهبي.

قبل أن يتلاشى آخر أضواء النهار، صدح بوق عبر السهل وشُدّ عشرون ألف قوس. صرخ جنود تشن برعب من الغدر الذي حاق بهم، واختنقت الأصوات عندما انهمر وابل السهام مراراً وتكراراً حتى لم يعد ممكناً الرؤية في الظلمة.

عندما ارتفع القمر، تم ذبح مئات الثيران وشويها على السهل؛ وعلى أسوار المدينة، تذوق زهي زهونغ لعابه المرّ، وكان اليأس يتملكه. في ينكينغ، كانوا يأكلون الموتى.

عندما كانت الوليمة في ذروتها، شاهد الجاسوس الكاهن العرّاف ينهض ويمشي مترنحاً وثملاً بين الخيام. نهض مثل ظل ليلحق به، وترك تيموج لينام بعد أن تناول فخذاً من لحم الثيران الملطخ بالدماء. كان المحاربون ينشدون ويرقصون حول النيران وفتيان الطبول يقرعون أنغاماً قوية أخفت وقع خطواته. أبقى الجاسوس الرجل الأكبر سناً في مرمى بصره عندما توقف كوكشو ليتبول على الدرب، وفقد السيطرة على نفسه وأطلق لعنة في الظلام عندما أصاب بوله قدميه. لم يعد الجاسوس يرى طريدته عندما انسل الرجل في الظلام الدامس بين عربتين. لم يسرع الخطى، وظن أن الرجل كان عائداً إلى فتاة تشن التي يحتفظ بها كجارية في بيته. بينما كان يمشي، فكّر في ما يمكن أن يقوله للكاهن العرّاف. في رحلته الأخيرة إلى الأسوار، سمع أن الوصي كان قد أطلق مسابقة موت في المدينة، وكان يتم إرغام فلاح من كل عائلة على مدّ يده في وعاء طين بعمق ذراعه. كان يتم قتل أولئك الذين كانوا يسحبون قطعة آجر أبيض لإطعام

الآخرين. كان كل يوم يحفل بمشاهد ألم وأسى لا يمكن تخيلها.

مستغرقاً في الأفكار، شاهد ظلاً يتحرك عندما اقترب من إحدى الخيام وأطلق صرخة صدمة وألم عندما تلقى ضربة جعلته يتراجع إلى الخلف على جدارها. صرّ الباب عندما تم إغلاقه خلفه وشعر بنصل بارد على حنجرته أعاق تنفسه.

عندما تكلم كوكشو، كان صوته خافتاً وحازماً، من دون أي إشارة على ثمالة كان الجاسوس قد لاحظها من قبل.

"لقد كنت تراقبني طيلة الليل أيها العبد. وتبعتني الآن إلى بيتي. صه!". أطلق كوكشو الصوت بينما كان الجاسوس يرفع يديه تلقائياً من الخوف.

همس كوكشو في أذنه: "إذا تحركت، سأجزّ عنقك. قف مثل تمثال أيها العبد فيما أقوم بتفتيشك". فعل الجاسوس ما طُلب منه، وتحمل اليدين النحيلتين اللتين كانتا تمرّان فوق جسده. لم تستطع يدا الكاهن العرّاف الوصول إلى كاحليه وكان لا يزال يضع السكين على عنقه. وجد بالفعل سكيناً صغيرة وألقى بها بعيداً في الظلام من دون أن ينظر إليها. لم ينتبه للسكين الموجودة في الحذاء وأطلق الجاسوس تنهيدة ارتياح ببطء.

وقفا في ظلمة حالكة بين الخيام، متواريين عن القمر والمحاربين الذين يحتفلون.

"لماذا سيتبعني عبد، أتساءل؟ جئت إلي طلباً لعجينة سيدك وكانت عيناك تجولان في كل مكان، وأسئلتك بريئة جداً. هل أنت جاسوس لتيموج، أم قاتل آخر؟ إذا كنت كذلك، ستكون خياراً سيئاً".

لم يرد الجاسوس، على الرغم من أنه أمسك بفكه حتى لا تظهر الدهشة على وجهه. كان يعرف أنه لم ينظر إلى الكاهن العرّاف كثيراً ذلك المساء ولم يسعه سوى أن يتساءل عن تلك الذهنية التي تساورها مثل تلك الشكوك المستمرة. شعر بالسكين تضغط بقوة أكبر على عنقه وتفوّه بأولى الكلمات التي خرجت من بين شفتيه.

قال: "إذا قتلتني، لن تعرف شيئاً".

بقي كوكشو صامتاً لوقت طويل، يحاول استيعاب ذلك. حرّك الجاسوس عينيه في رأسه لرؤية تعبير وجه الرجل ووجد أن فضوله يمتزج بالضغينة.

سأل كوكشو: "ما الذي ينبغي أن أعرفه أيها العبد؟".

رد الجاسوس: "لا شيء سترغب بأن يسمعه غيرك". تجاهل حذره المعتاد، وكان يعرف أن حياته على المحك تلك اللحظة. كان كوكشو يستطيع أن يقتله فقط ليحرم تيموج من نصير. "دعني أتكلم ولن تندم".

شعر بدفعة وتعثر إلى الأمام. حتى في الظلام، أحس بأن كوكشو خلفه. فكّر الجاسوس في وسيلة لنزع سلاح الرجل من دون أن يقتله، لكنه أرغم نفسه على الاسترخاء. وضع يديه على رأسه، وسمح لكوكشو بأن يقوده إلى خيمته.

تطلب الأمر شجاعة ليخفض رأسه عند الباب والكاهن العرّاف يحمل سكيناً وراءه، لكن الجاسوس كان قد قطع شوطاً طويلاً ليعتبر كلماته دعابة سيئة. كان يعرف العرض الذي عليه أن يقدّمه. كان الوصي نفسه قد التقى به على السور في أثناء تقديم تقريره الأخير. سحب نفساً عميقاً ودفع الباب الصغير ليفتحه.

كانت فتاة فائقة الجمال تجثو على الأرض عند الباب المفتوح. كشف الضوء معالمها عندما رفعت بصرها إليه وشعر الجاسوس بصدره يشتد لأن مثل تلك الفتاة الرقيقة كانت مرغمة على انتظار الكاهن العرّاف مثل كلب. أخفى غضبه عندما أشار كوكشو إليها لتتركهما وحدهما. تبادلت نظرة واحدة أخيرة مع مواطنها عندما كانت تغلق الباب وضحك كوكشو بصوت خافت.

"أعتقد أنك أعجبتها أيها العبد. لقد بدأت أتعب منها. ربما سأمنحها لضباط تشن. يمكن أن تحصل على دور عندما ينتهون من تعليمها التواضع". تجاهل الجاسوس الكلمات، وجلس على السرير المنخفض، ونزلت يداه بشكل طبيعي قرب كاحليه. إذا لم يجرِ الاجتماع على ما يرام، فيمكنه قتل الكاهن العرّاف والعودة إلى الأسوار قبل أن يشعر به أحد. منحته تلك الفكرة ثقة شعر بها

كوكشو الذي تقطب حاجباه عبوساً.

"نحن وحدنا أيها العبد. لست بحاجة إليك، أو إلى أي شيء تقوله لي. تكلم بسرعة، أو سأطعمك للكلاب غداً صباحاً".

سحب الجاسوس نفساً طويلاً وبطيئاً، وجهّز الكلمات التي ربما كانت تعني الموت تعذيباً قبل أن تشرق الشمس. لم يكن قد اختار تلك اللحظة. كانت الجثث في ينكينغ قد فعلت ذلك. آنذاك، كان إما محقاً بشأن الكاهن العرّاف، أو ميتاً.

شد من قامته ووضع يداً على ركبته، ونظر بجفاء إلى كوكشو وكان الاستنكار بادياً على محياه. حملق الكاهن العرّاف في التغير الذي أصاب الرجل، وتحوله من عبد خائف إلى محارب موقر خلال لحظة فقط.

قال الرجل بهدوء: "أنا رجل من ينكينغ. رجل الإمبراطور".

اتسعت عينا كوكشو. أومأ الجاسوس له.

"حياتي بين يديك حقاً الآن". دفعه شعور مفاجئ لإخراج الخنجر من حذائه ووضعه على الأرض عند قدميه. أومأ كوكشو موافقاً على تصرفه، لكنه لم يضع سكينه جانباً.

قال كوكشو بهدوء: "لا بد أن الإمبراطور يائس، أو مجنون من الجوع".

"الإمبراطور فتى في السابعة من العمر. القائد الذي هزمه خانكم يحكم المدينة الآن".

سأله كوكشو بفضول كبير: "هل أرسلك إلى هنا؟ لماذا؟". قبل أن ينطق بحرف، أجاب كوكشو عن سؤاله. "لأن القاتل فشل. لأنه يريد أن تغادر القبائل قبل أن يتضور شعبه جوعاً حتى الموت، أو يتم حرق المدينة في أعمال شغب".

أكّد الجاسوس: "الأمر كما تقول. حتى إذا كان القائد يريد دفع الجزية عن المدينة، إلا أن الخيمة السوداء تنتصب أمام الأسوار. ما الخيارات التي لديه سوى الصمود لسنتين أخريين، أو حتى لوقت أطول؟". لم يظهر أثر على كذبة

يائسة على وجه الجاسوس. كانت ينكينغ ستسقط بعد شهر، أو ثلاثة على أبعد تقدير.

أخيراً، وضع كوكشو سكينه جانباً. لم يعرف الجاسوس كيف يفسر ذلك. كان الوصي قد ألقى به إلى الذئاب لتقديم العرض. كان لديه حدس بأن كوكشو كان في القبائل لكنه ليس منها، وأنه رجل منفصل عنها. كان مثل هؤلاء الرجال ناضجين للقطاف، لكنه كان يعرف أن حياته لا تزال على الرغم من ذلك على المحك. نوبة وفاء واحدة من الكاهن العرّاف، وصرخة واحدة قد تنهي كل شيء. كان جنكيز سيعرف أنه قد حطم ينكينغ وستضيع جوهرة الإمبراطورية إلى الأبد. شعر الجاسوس بالعرق يتصبب على جلده على الرغم من الهواء المتجمد. تابع كلامه قبل أن يستطيع كوكشو الرد.

"إذا قاموا بنصب الخيمة البيضاء مرة أخرى، سيدفع إمبراطوري جزية تجعل مئة ملك يبكي. حرير يكفي لتغطية الطرقات إلى وطنكم، جواهر، عبيد، أعمال مكتوبة عن سحر عظيم، علم وطب، عاج، حديد، خشب...". كان قد رأى عيني كوكشو تشعان لذكر السحر، لكنه لم يتلعثم في أثناء العدّ. "... ورق، جياد، آلاف آلاف العربات المحملة. ما يكفي لبناء مدن خاصة به".

تمتم كوكشو: "سيحصل على كل ذلك بأي حال عندما تسقط المدينة".

هزّ الجاسوس رأسه بحزم. "في نهاية المطاف، عندما تكون الهزيمة محتومة، ستحترق المدينة من الداخل. أعرف أنني أتكلم الحقيقة عندما أقول إن خانك لن يحصل سوى على رماد وسنتين أخريين من الانتظار في هذا السهل". توقف قليلاً، محاولاً أن يرى تأثير كلماته لكنه فشل. وقف كوكشو مثل تمثال، وبالكاد كان يتنفس في أثناء سماعه ذلك.

سأل كوكشو: "لماذا لم تقدم هذا العرض للخان نفسه؟".

هزّ ما تسن رأسه، وقد انتابه القلق فجأة.

"لسنا طفلين أيها الكاهن العرّاف، أنت وأنا. دعني أتكلم بصراحة. كان

جنكيز قد نصب خيمته السوداء وكل رجاله يعرفون أنها تعني الموت. سيكلفه القبول بجزية الإمبراطور كبرياءه، ومما كنت قد رأيته، سيدع ينكينغ تحترق أولاً. لكن إذا استطاع رجل آخر، رجل يثق به، نقل النبأ إليه في خلوة؟ قد يقترح إظهار الرحمة، ربما، لهؤلاء الأبرياء في المدينة الذين يعانون".

لدهشته، أطلق كوكشو ضحكة عندما سمع تلك الفكرة.

"رحمة؟ سيعتبر جنكيز ذلك ضعفاً. لن تقابل أبداً رجلاً يفهم الخوف في الحرب مثل الخان الذي أتبعه. لن تستطيع إغراءه بمثل ذلك العرض".

رغماً عن أنفه، شعر الجاسوس بالغضب يعتمل في نفسه من نبرة الكاهن العرّاف الساخرة. "إذاً أخبرني كيف يمكن ردّه عن ينكينغ، أو اقتلني هنا وارمِني لكلابك. لقد أخبرتك بكل ما أعرفه".

قال كوكشو بهدوء: "يمكنني ردّه عنها. لقد أظهرت له ما يمكنني القيام به".

رد الجاسوس بسرعة، وهو يمسك بذراعه النحيلة: "أنت مهاب الجانب في المعسكر. هل أنت الرجل الذي أحتاجه؟".

رد كوكشو: "أنا كذلك". تلوّن وجهه عندما رأى وجه الرجل الآخر يرتاح. "كل ما يتبقى هو أن تضع سعراً لمساعدتي على هذا الشيء الصغير. أتساءل، كم تساوي مدينتك لإمبراطورك؟ ما السعر الذي ينبغي أن أضعه مقابل حياته؟".

رد الجاسوس: "أي شيء تريده سيكون جزءاً من الجزية التي سيتم دفعها للخان". لم يكن يجرؤ على الاعتقاد بأن الرجل يتلاعب به. ما الخيار الذي كان يملكه سوى الوصول إلى حيث يقوده الكاهن العرّاف؟

كان كوكشو عندها صامتاً لبعض الوقت، يتأمل الرجل الذي جلس منتصباً على السرير.

قال أخيراً: "هناك سحر حقيقي في العالم أيها العبد. لقد شعرت به واستعملته. إذا كان شعبك يعرف شيئاً عن ذلك الفن، سيكون لدى إمبراطورك الفتى في مدينته الثمينة. لا يمكن لرجل أن يتعلم ما يكفي في مئة حياة. أريد

أن أعرف كل سر كان شعبك قد اكتشفه".

"هناك العديد من الأسرار أيها الكاهن العرّاف: من صنع الورق والحرير إلى المسحوق الذي يحرق البوصلة، والزيت الذي لا ينفد. ماذا ترغب بأن تعرف؟".

تأفف كوكشو. "لا تساومني. أريد كل شيء. هل لديك رجال يعملون بهذه الفنون في المدن؟".

أومأ الجاسوس برأسه.

"كهنة وأطباء من كل المراتب".

"اجعلهم يجهّزون أسرارهم لي، كهدية بين زملاء. قل لهم ألا ينسوا شيئاً أو سأنقل لخاني رؤية مليئة بالدماء وسيعود ليحرق أراضيكم كل الطريق إلى البحر. هل تفهم؟".

تحرّرت عقدة لسان الجاسوس وأجاب، واهناً ومرتاحاً. كان يسمع أصواتاً مرتفعة في مكان ما قريب واندفع بكلامه، وكان بأمس الحاجة إلى قول كل ما لديه.

همس: "سأجعلهم يفعلون ذلك. عندما ترتفع الخيمة البيضاء، سوف يستسلم الإمبراطور". فكّر للحظة، ثم تكلم مجدداً. كانت الأصوات في الخارج عالية.

"إذا كانت هناك خيانة أيها الكاهن العرّاف، سيحترق كل ما ترغب بمعرفته في ألسنة اللهب. هناك ما يكفي من المسحوق الحارق في المدينة لتحويل الحجارة إلى غبار".

رد كوكشو ساخراً: "تهديد شجاع. أتساءل إن كان شعبك يتمتع بالإرادة حقاً لفعل مثل ذلك الشيء. لقد سمعتك أيها العبد. لقد قمت بعملك. الآن، عد إلى مدينتك وانتظر الخيمة البيضاء مع إمبراطورك. سيحدث ذلك في الوقت المناسب".

كان الجاسوس يرغب بمواصلة الجدال مع الكاهن العرّاف، لجعله يفهم أن

عليه التحرك بسرعة. أوقف الحذر فمه وفكّر أن ذلك سيؤدي فقط إلى إضعاف موقفه. لم يكن الكاهن العرّاف ببساطة يهتم إن كان شعب المدينة يموت كل يوم.

قال كوكشو بحدّة، منزعجاً من الصراخ والنداء خارج خيمته: "ما الذي يحدث في الخارج؟". أشار للجاسوس بأن يغادر ولحق به إلى ضوء القمر في الخارج. كان كل من حولهم يحدّق إلى المدينة وأدار كلا الرجلين ناظريهما إلى الأسوار.

كانت الشابات يصعدن الدرجات الحجرية ببطء، وكن يرتدين الأبيض، لون الموت. كن نحيلات مثل الهياكل العظمية وحافيات الأقدام، لكنهن لم يكن يرتعشن. لم يكن يبدو أن البرد يؤثر فيهنّ على الإطلاق. تراجع الجنود عن الأسوار برهبة وتطيّر ولم يقف أحد في طريقهن. بالآلاف، تجمّعن فوق المدينة. بعشرات الآلاف. حتى الريح تحوّلت إلى نسيم فوق ينكينغ وأطبق الصمت على المكان.

كان الممر حول المدينة أبيض متجمداً، تحت المكان الذي يقفن عليه بخمسين قدماً. كشخص واحد تقريباً، تقدمت شابات ينكينغ إلى طرف الحافة. كانت كلّ واحدة منهنّ تمسك بيدي من تقفان بجوارها، فيما وقفت أخريات لوحدهن، يحدّقن في الظلام. على امتداد أميال السور، كن يقفن هناك، ينظرن إلى الأسفل على ضوء القمر.

التقط الجاسوس أنفاسه، وهمس بابتهال لم يكن قد تذكره منذ سنوات، من قبل أن يكون قد نسي اسمه الحقيقي. انفطر قلبه على شعبه ومدينته.

على طول السور، كانت أشكال بملابس بيضاء قد صعدت إليه مثل صف من الأشباح. رأى المحاربون المغول أنهن كن نساء ونادوهنّ بأصوات جشّة، وكانوا يضحكون ويسخرون من الأشكال البعيدة. هزّ الجاسوس رأسه لإبعاد الأصوات الفظّة، وكانت الدموع تنهمر من عينيه. أمسكت العديد من الفتيات بأيدي بعضهن فيما كن يحدّقن إلى الأسفل إلى العدو الذي كان قد وصل إلى بوابات

مدينة الإمبراطور.

فيما كان الجاسوس يراقب ما يجري بأسى، تقدمن إلى الأمام في الهواء. صمت المحاربون الذين كانوا يراقبون مندهشين مما يجري. من بعيد، كن يتساقطن مثل تويجات بيضاء وحتى كوكشو هزّ رأسه، مندهشاً. أخذت آلاف غيرهن مواقعهن على السور وألقين بأنفسهن إلى حتفهن من دون أي صرخة، وكانت أجسادهن تتحطم على الصخور القاسية في الأسفل.

همس الجاسوس للكاهن العرّاف، وكان صوته أجشّ من الأسى: "إذا كانت هناك خيانة، فسيتمّ تدمير المدينة وكل ما فيها بالنار".

لم يعد كوكشو يشك بذلك.

الفصل الحادي والثلاثون

عندما حل فصل الشتاء، ولد أطفال في الخيام، وكان العديد منهم أبناء لرجال بعيدين مع قادة الجيش أو إحدى المجموعات الدبلوماسية التي كان تيموج قد أرسلها. كان الطعام متوفراً بكثرة بعد الاستيلاء على رتل الإمدادات واستمتع المعسكر الشاسع بمدة من السلام والازدهار لم يعرفها من قبل. حافظ كشيون على لياقة المحاربين بالتدريب المستمر في السهل حول ينكينغ، لكنه كان سلاماً زائفاً وكان قليل من الرجال لا يشخصون بأبصارهم إلى المدينة عدّة مرات كل يوم، ينتظرون.

عانى جنكيز من البرد للمرة الأولى في حياته. لم تكن لديه شهية كبيرة على الطعام، لكنه كان قد أضاف طبقة من الدهن إلى جسده بإرغام نفسه على تناول لحم البقر والأرز. على الرغم من أنه أضحى أقل نحولاً، إلا أن سعاله استمر، وكان يخطف أنفاسه ويجعله يشعر بالحنق. بالنسبة إلى رجل لم يكن قد عرف المرض من قبل، كان من المحبط للغاية أن يخونه جسده. من بين كل الرجال في المعسكر، كان أكثر من يحدّق إلى المدينة، ويرغب بأن تسقط.

جاءه كوكشو في منتصف ليلة عاصفة بالثلج. لسبب ما، كان السعال أسوأ في الليل وقد اعتاد جنكيز على قيام الكاهن العرّاف بزيارته قبل الفجر يحمل شراباً ساخناً. نظراً لاقتراب الخيام بعضها من بعض، كان يمكن لكل أولئك الذين حوله سماع نوبات سعاله.

جلس جنكيز عندما سمع الحرّاس يعترضون كوكشو. لن يكون هناك تكرار لمحاولة الاغتيال بعد وضع ستة رجال حول الخيمة الكبيرة في مناوبات طيلة الليل. حدّق إلى الدجنة بينما كان كوكشو يدخل ويضيء مصباحاً يتدلى من السقف. لم يستطع جنكيز أن يتكلم معه للحظة. كان البلغم قد أرهق صدره حتى أصبح وجهه أحمر اللون. انقضى ذلك، كما هي العادة، تاركاً إياه يلهث

لالتقاط أنفاسه.

همس بإرهاق: "أهلاً بك في بيتي يا كوكشو. ما هي الأعشاب الجديدة التي ستجربها الليلة؟".

ربما كان ذلك من نسج خياله، لكن الكاهن العرّاف بدا عصبياً بشكل غريب. كان جبين كوكشو يلمع من العرق وتساءل جنكيز إن كان يشعر بالمرض أيضاً.

قال: "لا شيء لدي سيجعلك أفضل يا مولاي. لقد جرّبت كل شيء أعرفه. كنت أتساءل إن كان هناك شيء آخر يمنع عنك المرض مجدداً".

سأل جنكيز: "شيء آخر؟". شعر بحنجرته تدغدغه بشكل أغاظه وابتلع ريقه بصعوبة، وكان قد اعتاد على ذلك الشيء، ويغصّ بشكل مستمر.

"لقد أرسل الإمبراطور قاتلاً يا مولاي. ربما لديه وسائل أخرى لمهاجمتك، وسائل لا يمكن رؤيتها والتخلص منها".

فكّر جنكيز في ذلك باهتمام. "هل تعتقد أن لديه سحرة في مدينته؟ إذا كان أفضل ما يستطيعون فعله هو السعال، لن أخشاهم".

هزّ كوكشو رأسه. "يمكن للعنة أن تقتلك يا مولاي. كان ينبغي أن أفكر بذلك من قبل".

تراجع جنكيز على سريره مرهقاً. "ماذا يدور في ذهنك؟".

أشار كوكشو لخانه بأن يقف وأشاح بنظره بعيداً بدلاً من أن يرى جنكيز يعاني.

"إذا جئت إلى خيمتي يا مولاي، سأستدعي الأرواح وأرى إن كنت هدفاً لعمل شرير من المدينة".

ضاقت عينا جنكيز، لكنه أومأ برأسه.

"حسناً. أرسل أحد حرّاسي إلى تيموج لينضم إلينا".

"ذلك ليس ضرورياً يا مولاي. شقيقك ليس معتاداً على هذه الأمور...".

سعل جنكيز بصوت حوّله إلى همهمة غاضبة من جسده الضعيف.

قال: "افعل ما أقوله لك أيها الكاهن العرّاف، أو اخرج". زمّ كوكشو شفتيه وانحنى قليلاً.

تبع جنكيز كوكشو إلى الخيمة الصغيرة، وانتظر في الثلج والريح فيما ولج الكاهن العرّاف إلى الداخل. لم يتأخر تيموج في الوصول، يرافقه المحارب الذي كان قد أيقظه من نومه. نحّى جنكيز شقيقه جانباً حيث لا يمكن لكوكشو سماعهما.

"يبدو أنني مضطر لتحمّل دخانه وطقوسه يا تيموج. هل تثق بالرجل؟".

قال تيموج بحدّة، وكان لا يزال غاضباً من إيقاظه: "لا".

ابتسم جنكيز من نزق شقيقه في ضوء القمر. "كنت أعتقد أنك ربما لا تثق به، ولهذا السبب أنت هنا. سترافقني يا شقيقي، وتراقبه طيلة الوقت الذي أكون فيه داخل خيمته". أشار إلى المحارب الذي يقف بالقرب منهما وجاء الرجل بسرعة.

"ستحرس خيمته يا كيوك ضد كل من يحاول إزعاجنا".

رد المحارب وهو يحني رأسه: "كما تشاء يا مولاي".

قال جنكيز: "وإذا لم أخرج أو تيموج، ستكون مهمتك قتل الكاهن العرّاف". شعر بنظرة تيموج إليه وهزّ كتفيه غير مبالٍ. "لست رجلاً يثق بالآخرين يا شقيقي".

سحب تيموج نفساً عميقاً من الهواء المتجمد، وسيطر جنكيز على حنجرته التي ترتعش بقوة ودخل خيمة الكاهن العرّاف، وشقيقه خلفه. كانت هناك بالكاد مساحة لثلاثة أشخاص في ذلك المكان الصغير، لكنهما جلسا على الأرض المكسوة بالحرير وركبتاهما متلاصقتان، ينتظران ليشاهدا ما يمكن لكوكشو أن يفعله.

أشعل كوكشو مساحيق في أطباق ذهبية على الأرض والتي أطلقت شرارات، ونتج عنها سحابة كثيفة من دخان مخدّر. عندما وصلت أولى الخيوط الرفيعة

من الدخان إلى جنكيز، تكوّم على نفسه في نوبة سعال. كان كل لهاث يجعل الأمر أسوأ وانتاب كوكشو قلق شديد من أن ينهار الخان. أخيراً، سحب جنكيز نفساً عميقاً وشعر بحنجرته المجروحة تهدأ، وكان الأمر مثل ماء جدول في يوم حار. سحب نفساً آخر وآخر، مبتهجاً من الخدر الذي سرى في جسده.

أقرّ وهو يحدّق إلى الكاهن العرّاف بعينين محتقنتين: "هذا أفضل".

كان كوكشو في محيطه الخاص به، على الرغم من نظرة تيموج القاسية إليه. حضّر وعاءً من عجينة سوداء ومدّ يده إلى فم جنكيز. اهتز عندما أمسكت يد جنكيز بمعصمه.

قال جنكيز، متشككاً: "ما هذا؟".

ابتلع كوكشو ريقه. لم يكن قد رآه يتحرك. "سيساعدك على كسر حواجز الجسد يا مولاي. من دونه، لا يمكنني اصطحابك على الدروب".

قال تيموج فجأة، وعيناه تلمعان أكثر من ذي قبل: "لقد تناولته. إنه غير مؤذٍ".

رد جنكيز، متجاهلاً خيبة أمل شقيقه: "لن تفعل الليلة. أريدك أن تراقب ما يجري يا تيموج، وهذا كل ما ستفعله".

فتح جنكيز فمه وتحمل أصابع الكاهن العرّاف ذات الأظافر السوداء وهي تفرك العجينة على لثته. في البداية، لم يكن هناك تأثير، لكن عندما بدأ جنكيز يشعر به، لاحظ أن الضوء الخافت لمصباح الكاهن العرّاف قد أصبح أكثر سطوعاً. حدّق إليه باستغراب وانتشر الضوء حتى ملأ الخيمة الصغيرة، وغمرهم جميعاً بلون ذهبي.

همس كوكشو: "خذ يدي، وسر معي".

راقب تيموج بعدم ثقة فيما كانت عينا شقيقه تدوران في رأسه ويسقط فجأة. كان كوكشو قد أغلق عينيه وشعر تيموج بأنه لوحده. فزع عندما فغر جنكيز فمه، والذي أضحى أسود من العجينة. طال الصمت وفقد تيموج بعضاً

من توتره عندما تذكر رؤاه الخاصة في تلك الخيمة الصغيرة. اندفع بصره إلى وعاء العجينة السوداء، ومع وجود رجلين مغشياً عليهما، استبدل الوعاء وأخفاه داخل ردائه. كان خادمه ما تسن يجلب له بانتظام كمية منه قبل أن يختفي. كان تيموج قد توقف منذ وقت طويل عن التساؤل إلى أين ذهب، على الرغم من أنه كان يشك بأن كوكشو له يد في ذلك. كان هناك خدم آخرون يمكن العثور عليهم بين جنود تشن الذين أسرهم جنكيز، على الرغم من ألا أحد منهم كان بمثل مهارته.

لم يكن لدى تيموج طريقة لتقدير مرور الوقت. جلس وقتاً طويلاً ساكناً من دون حراك، ثم صحا من أحلام يقظته على صوت كوكشو، المتعب والبعيد. ملأت الكلمات الخيمة ثم تنبّه تيموج لتدفق المقاطع الصوتية غير المفهومة. استفاق جنكيز أيضاً على الصوت، وفتح عينين لامعتين بينما كان كوكشو يتكلم بصوت أعلى وأسرع.

ومن دون سابق إنذار، انهار الكاهن العرّاف، وسقط جسده بين يدي جنكيز. شعر جنكيز بالأصابع تنسل بعيداً وطرفت عيناه ببطء، وكان لا يزال متأثراً بعمق بالأفيون.

استلقى كوكشو إلى جانبه، يبصق لعاباً من فمه. حدّق إليه تيموج من بعيد. من دون إنذار، هدأ هذيان الكلمات الغريبة وتكلم كوكشو من دون أن يفتح عينيه بصوت خافت وحاسم.

"أرى خيمة بيضاء ترتفع أمام الأسوار. أرى الإمبراطور يتكلم إلى جنوده. رجال يشيرون ويناشدونه. إنه فتى صغير وهناك دموع في وجهه".

صمت الكاهن العرّاف وانحنى تيموج مقترباً منه، قلقاً من أن يكون سكونه يعني أن قلب الرجل قد توقف. مس كتف الكاهن العرّاف بلطف، وعندما فعل ذلك، اهتز كوكشو، تلوّى، وأصدر أصواتاً لم يكن لها معنى. مرة أخرى، صمت وتكلم الصوت الخافت مجدداً.

"أرى كنوزاً، جزية. آلاف العربات والعبيد. حريراً، أسلحة، عاجاً. جياداً بالآلاف، تكفي لتملأ السماء. ما يكفي لبناء إمبراطورية. إنها تلمع!".

انتظر تيموج المزيد، لكنه لم يأتِ. كان شقيقه قد أسند نفسه مجدداً على جدار الخيمة المصنوع من أغصان الصفصاف وكان يشخر بهدوء. هدأت أنفاس كوكشو واسترخت قبضتاه القويتان عندما نام هو أيضاً. مرة أخرى، كان تيموج وحيداً ومندهشاً مما كان قد سمعه. هل سيتذكر أي من الرجلين الكلمات؟ كانت مجموعة رؤاه الخاصة مشوشة بأفضل الحالات، لكنه تذكر أن كوكشو لم يكن قد وضع العجينة السوداء داخل فمه. لا شك أنه سيخبر الخان بكل ما رآه.

كان تيموج يعرف أنه لا يستطيع إيقاظ شقيقه. كان سينام عدة ساعات تمتد إلى ما بعد استيقاظ المعسكر بكثير. هزّ تيموج رأسه متعباً. كان جنكيز منزعجاً من الحصار مع اقتراب السنة الثانية من نهايتها. ربما يتشبث بأي فرصة. ابتسم تيموج. إذا كانت رؤية كوكشو صحيحة، سيلجأ جنكيز إليه في المستقبل، في كل الأشياء.

فكّر تيموج في قطع عنق كوكشو في أثناء نومه. بالنسبة إلى رجل يعمل بالسحر الأسود، لن يكون تفسير ذلك صعباً للغاية. تخيل تيموج أنه يقول لجنكيز كيف ظهر خط أحمر على حنجرة كوكشو بينما كان يراقب ما يجري مذعوراً. سيكون تيموج من يخبر جنكيز عمّا كان الكاهن العرّاف قد رآه.

سحب تيموج سكينه ببطء، من دون أن يصدر صوتاً. اهتزت يده قليلاً، حتى عندما كان يحث نفسه على القيام بذلك. انحنى فوق الكاهن العرّاف، وفي تلك اللحظة، فتح كوكشو عينيه بسرعة، متنبهاً بطريقة ما. هزّ ذراعه لوضع السكين جانباً، وأخفاها بين طيات ردائه.

تكلم تيموج بسرعة. "أنت حي إذاً يا كوكشو؟ اعتقدت للحظة أن شيئاً قد تملكك. كنت مستعداً لقتل الروح التي كانت قد سلبتك من جسدك".

جلس كوكشو، يقظاً وعيناه حادتان. ظهر تعبير ساخر على وجهه. "تخاف

كثيراً يا تيموج. ليست هناك روح يمكنها أن تؤذيني". كان كلا الرجلين يعرفان الحقيقة تلك اللحظة، لكن لأسباب تتعلق بكل منهما، لم يكن أحدهما يرغب بأن يفصح عنها علانية. حدّقا بعضهما إلى بعض مثل عدوين، وأخيراً، أومأ تيموج برأسه.

قال: "سأجعل الحارس يحمل شقيقي إلى خيمته. هل سيتوقف سعاله، برأيك؟".

هزّ كوكشو رأسه. "ليست هناك لعنة يمكنني العثور عليها. خذه، كما تشاء. ينبغي أن أفكر بما كشفته الأرواح لي".

كان تيموج يريد أن يحطم غرور الرجل بملاحظة جارحة، لكنه لم يستطع التفكير بواحدة وخرج زحفاً من الباب ليجلب الحارس لشقيقه. كان الثلج يعصف حوله عندما دفع المحارب الضخم جنكيز فوق كتفيه وكانت المرارة تبدو على وجه تيموج. كان واثقاً ألا فائدة ترجى من ازدياد نفوذ كوكشو.

نهض زهي زهونغ فجأة على وقع أصوات أحذية على الأرض القاسية. هزّ رأسه ليصحو من النوم وتجاهل تشنجات الجوع التي تنتابه طيلة الوقت. حتى بلاط الإمبراطور كان يعاني من المجاعة. قبل يوم، كان زهي زهونغ قد تناول الطعام مرة واحدة فقط، طبقاً من الحساء. كان قد قال لنفسه إن قطع اللحم الصغيرة كانت من آخر جياد الإمبراطور، التي تم ذبحها قبل عدّة شهور. كان يأمل بأن يكون ذلك صحيحاً. كجندي، كان قد تعلم ألا يرفض وجبة أبداً، حتى إذا كان اللحم فاسداً.

وقف، ورمى جانباً بطانياته ومدّ يده إلى سيفه عندما دخل خادم.

سأل زهي زهونغ: "من أنت لتزعجني في هذه الساعة؟". كان الظلام لا يزال حالكاً في الخارج وكان لا يزال مجهداً من النوم المتقطع. أخفض سيفه عندما رمى الخادم نفسه على الأرض، ووضع رأسه على الحجارة.

قال الرجل من دون أن ينظر إلى الأعلى: "مولاي الوصي، يستدعيك ابن

السماء للمثول بين يديه". تقطب حاجبا زهي زهونغ دهشة. لم يكن الفتى الإمبراطور كسوان قد تجرأ على استدعائه من قبل. كبت الغضب الذي شعر به حتى يعرف المزيد، ونادى عبيده لتجهيز ملابسه وحمّامه.

ارتعش الخادم بشكل ظاهر للعيان عندما سمع النداء. "يا مولاي، طلب الإمبراطور أن تأتي حالاً". قال زهي زهونغ بحدّة زادت من خوف الرجل: "سينتظر كسوان مسروراً! انتظرني في الخارج". زحف الخادم على قدميه وفكّر زهي زهونغ بأن يجعله يسرع بركلة على قفاه.

دخل عبيده، وعلى الرغم من ذلك الجواب، إلا أن زهي زهونغ جعلهم يسرعون. قرر ألا يستحم وعقد فقط شعره الطويل خلف رأسه بمشبك برونزي حتى تدلى على ظهره فوق درعه. كان يشم رائحة عرقه وتعكّر مزاجه أكثر بينما كان يتساءل إن كان وزراء الإمبراطور خلف ذلك الاجتماع.

عندما غادر غرفته، هرول خادمه أمامه، واستطاع رؤية خيوط الفجر الأولى من كل نافذة مفتوحة. كان ذلك الوقت المفضل لديه من النهار، وإن كانت معدته قد تقلصت.

وجد الإمبراطور في حجرة الاستقبال حيث كان زهي زهونغ قد قتل والده. بينما كان الوصي يمر بين الحرّاس، تساءل إن كان أحد قد أبلغ الفتى أنه يجلس على الكرسي نفسه.

كان الوزراء حاضرين مثل سرب من الطيور الملونة. كان روين تشو، الأول بينهم، واقفاً إلى يمين كسوان فيما الفتى جالس على العرش الذي يبدو كبيراً على جسده الصغير. بدا الوزير الأول متوتراً وجريئاً في الوقت نفسه وانتاب زهي زهونغ الفضول بينما كان يقترب ويجثو على ركبة واحدة.

قال بوضوح في الصمت: "استدعاني ابن السماء وقد أتيت". رأى عيني كسوان تستقران على السيف الذي يضعه على ردفه وظنّ أن الفتى يعرف جيداً ما كان قد حدث لوالده. إذا كان الأمر كذلك، لا بد أن اختيار الحجرة كان متعمداً

وسيطر زهي زهونغ على نفاد صبره حتى يعرف ما منح طيور الإمبراطور تلك الثقة الجديدة البادية على وجوههم.

لدهشته، كان كسوان نفسه من تكلم. قال: "مدينتي تتضور جوعاً أيها العاهل الوصي". ارتعش صوته قليلاً، لكنه أصبح حازماً عندما تابع. "مع الانتقاء العشوائي، ربما يكون الخُمس قد ماتوا، بما في ذلك أولئك اللواتي رمين أنفسهن عن الأسوار".

كاد زهي زهونغ يتفوه بجواب لدى تذكيره بتلك الحادثة المؤسفة، لكنه كان يعرف أنه لا بد من وجود المزيد حتى يتجرأ كسوان على استدعائه للمثول بين يديه.

تابع الإمبراطور: "لم يتم دفن الموتى، بوجود الكثير من الأفواه التي ينبغي إطعامها. بدلاً من ذلك، ينبغي أن نتحمل عار تناول لحومهم، أو الانضمام إليهم".

قال زهي زهونغ فجأة، متعباً من كلام الفتى: "لماذا تم استدعائي إلى هنا؟". شهق روين تشو لوقاحته في مقاطعة الإمبراطور. ألقى زهي زهونغ نظرة متعالية باتجاه الرجل، من دون أن يهتم به.

انحنى الفتى على العرش إلى الأمام، مستجمعاً شجاعته.

"لقد رفع خان المغول خيمة بيضاء مرة أخرى على السهل. حقق الجاسوس الذي أرسلته النجاح ويمكننا دفع جزية أخيراً".

شد زهي زهونغ قبضته اليمنى، مندهشاً. لم يكن ذلك النصر الذي أراده، لكن المدينة سرعان ما ستصبح قبراً لهم جميعاً. على الرغم من ذلك، تطلب الأمر جهداً وإرادة كبيرين لدفع ابتسامة على وجهه.

"إذاً، سينجو جلالته. سأذهب إلى الأسوار وأرى تلك الخيمة البيضاء، ثم أبعث برسالة إلى الخان. يمكننا أن نتكلم مجدداً".

رأى ازدراءً على وجوه الوزراء وكرههم لأجل ذلك. كرجل، كانوا ينظرون إليه

كمهندس الكارثة التي حلّت بينكينغ. كان خزي الاستسلام سينتشر عبر المدينة إلى جانب الشعور بالراحة. من البلاط الأعلى مرتبة إلى الصيادين الأدنى طبقة، سيعرفون أنه تم إرغام الإمبراطور على دفع جزية. على الرغم من ذلك، سيعيشون وينجون من مصيدة الجرذان التي أضحت عليها ينكينغ. حالما يتم دفع النقود اللعينة للمغول، يمكن للبلاط السفر جنوباً وجمع قوة واستدعاء حلفاء في المدن الجنوبية. ربما سيلقون الدعم حتى من إمبراطورية سونغ في أقصى الجنوب، ويدعونهم برباط الدم لسحق الغازي. ستكون هناك معارك أخرى مع حشد المغول، لكنهم لن يسمحوا أبداً بأن يُحاصر الإمبراطور مجدداً. بكلتا الحالتين، سوف يعيشون.

كانت غرفة الاستقبال باردة وارتعش زهي زهونغ، مدركاً أنه كان يقف بصمت فيما الإمبراطور والوزراء ينظرون إليه. لم تكن لديه كلمات يمكنها تهدئة الألم المرير لما ينبغي أن يقوم به وحاول الاستخفاف من فداحة الأمر. لم تكن هناك فائدة من رؤية المدينة كلها تتضور جوعاً حتى الموت، ويمكن عندها للمغول تسلق الأسوار والعثور فقط على رجال موتى. في الوقت المناسب، سيكون جنود تشن أقوياء مجدداً. رفعت فكرة الوصول إلى طرف الجنوب معنوياته قليلاً. سيجدون طعاماً وجيشاً هناك.

قال وهو ينحني كثيراً قبل أن يغادر الغرفة: "إنه القرار الصائب يا ابن السماء".

عندما غادر، تقدم أحد العبيد الذين كانوا يقفون عند الجدار إلى الأمام. أشار الإمبراطور الفتى له بعينيه وكان الحقد والغضب ظاهرين آنذاك حيث كان التوتر فقط من قبل.

شد العبد قامته، وبدّل الطريقة التي كان يقف بها. لم يكن على رأسه شعر أبداً، حتى الحاجبان والرموش، وكان يلمع من مرهم كثيف عليه. حدّق الرجل خلف العاهل الوصي كما لو أنه يستطيع الرؤية عبر الأبواب الكبيرة للحجرة.

قال كسوان: "اتركه يعيش حتى يتم دفع الجزية. بعد ذلك، ينبغي أن يموت ميتة مؤلمة للغاية. من أجل فشله ومن أجل والدي".

انحنى سيد الجمعية السرية السوداء احتراماً للفتى الذي يحكم الإمبراطورية. "سيكون الأمر كذلك يا مولاي الإمبراطور".

الفصل الثاني والثلاثون

كان من الغريب رؤية بوابات ينكينغ تُفتح أخيراً. شد جنكيز قامته فوق السرج بينما كان يشاهد أول عربة محملة تخرج نحوه. أظهرت حقيقة أن رجالاً كانوا يسحبونها وليس حيوانات جر حالة المدينة من الداخل. كان من الصعب ألا يضرب بعقبيه على ردفي جواده ويهاجم، بعد أن قضى شهوراً عديدة يحلم بتلك اللحظة. قال لنفسه إنه كان قد اتخذ القرار الصائب، ونظر إلى كوكشو إلى يمينه، يمتطي جواداً من أفضل السلالات الموجودة في القبائل.

لم يستطع كوكشو إخفاء ابتسامة بينما كان توقّعه يصبح حقيقة واقعة. كان قد أخبر جنكيز عن تفاصيل رؤيته، عندما كانت الخيمة السوداء لا تزال تنتصب أمام المدينة، ووعده جنكيز أن ينتقي من الجزية ما يشاء إذا تحقق ذلك. لم تكن قد ازدادت سلطته ونفوذه في القبائل فحسب، وإنما سيصبح أغنى مما كان يحلم. كان ضميره مرتاحاً بينما كان يراقب كنز الإمبراطورية يخرج من المدينة. كان قد كذب على خانه وربما حرمه من تحقيق نصر دموي، لكن ينكينغ قد سقطت وكان كوكشو مهندس انتصار المغول. هتف ثلاثون ألف محارب للعربات التي تقترب منهم حتى بُحّت أصواتهم. كانوا يعرفون أنهم سيرتدون حريراً أخضر قبل أن ينتهي اليوم، وبالنسبة لرجال عاشوا لكسب الغنائم، كان ذلك شيئاً يقولونه لأحفادهم. كان قد تم إرغام الإمبراطور على الخضوع لهم ولم يكن بمقدور المدينة الحصينة سوى أن تلفظ ثروتها بعد هزيمتها.

بعد فتح الأبواب، كان بمقدور قادة الجيش إلقاء نظرة خاطفة على ما يوجد داخل المدينة للمرة الأولى، وشاهدوا طريقاً يمتد إلى ما لا نهاية. سعل جنكيز في قبضته فيما كانت الجزية تخرج مثل لسان، مع رجال يتهامسون حول الرتل بينما كان يشبه عملية عسكرية. كان الكثير منهم يبدون مثل هياكل عظمية

بسبب الجوع. ترنحوا في أثناء عملهم، وعندما حاولوا أخذ قسط من الراحة، ضربهم ضباط تشن بوحشية حتى تحركوا أو ماتوا.

تم إخراج مئات العربات إلى السهل، ووضعها في صف أنيق فيما عادت فرقها التي كانت تتصبب عرقاً إلى المدينة لجلب المزيد. كان تيموج قد عيّن محاربين لحساب العدد الإجمالي، لكن الفوضى كانت عارمة آنذاك وضحك جنكيز بصوت خافت عندما رآه يهرول في الأنحاء أحمر الوجه، يصدر الأوامر وهو يسير على طول شوارع جديدة من الثروة.

سأل كشيون إلى جانبه: "ماذا ستفعل بالجزية؟".

رفع جنكيز بصره بعد أن كان مستغرقاً في أفكاره. هزّ كتفيه استخفافاً. "كم يمكن للرجل أن يحمل من دون أن يكون بطيئاً في القتال؟".

ضحك كشيون. "يريدنا تيموج أن نبني عاصمة خاصة بنا، هل أخبرك بذلك؟ إنه يرسم خططاً للمكان الذي يشبه كثيراً مدينة تشن".

تأفف جنكيز من ذلك، ثم انحنى إلى الأمام فوق سرجه في نوبة من السعال تركته يلهث طلباً للهواء. تكلم كشيون مجدداً كما لو أنه لم يرَ ضعفه.

"لا يمكننا دفن الذهب فحسب يا شقيقي. ينبغي أن نفعل به شيئاً".

عندما أصبح جنكيز قادراً على الرد، كان قد أضاع الجواب الحاد الذي كان سيقوله.

"لقد مشيت معك في شوارع تشن يا كشيون. هل تتذكر الرائحة؟ عندما أفكر في البيت، أفكر في جداول نظيفة وأودية مليئة بالأعشاب النضرة، وليس في فرصة للتظاهر بأننا نبلاء تشن خلف أسوار. ألم نثبت أن الأسوار تجعل الآخرين ضعفاء؟". أشار إلى رتل من العربات كان لا يزال يخرج من ينكينغ لتوضيح مقصده. كانت أكثر من ألف عربة قد غادرت المدينة وكان لا يزال يرى الصف يمتد على طول الطريق في الداخل.

قال كشيون: "إذاً، لن نبني أسواراً. ستكون أسوارنا المحاربين الذين تراهم

حولك، وهم أقوى من أي بناء من الصخر والحجر الكلسي".

نظر إليه جنكيز ساخراً وقال: "أرى أن تيموج كان مقنعاً".

أشاح كشيون بنظره بعيداً، محرجاً.

"لا أهتم لرؤاه عن ساحات الأسواق والحمامات. أتكلم عن أماكن للتعليم، وعن رجال طب يتدربون لمداواة جروح المحاربين. إنه يتطلع إلى وقت لا نكون فيه في حرب. لم يسبق أن كانت لدينا مثل تلك الأشياء من قبل، لكن هذا لا يعني أنه لا ينبغي بنا ذلك".

حدق كلا الرجلين إلى صفوف العربات لبعض الوقت. بالاستفادة من كل جواد متوفر من الأفواج، كان من الصعب للغاية حتى تحريك مثل تلك الأشياء. كان من الطبيعي أن يحلموا بالاحتمالات.

قال جنكيز: "لا يمكنني أن أتخيل السلام. لم أعرفه أبداً. كل ما أريده هو العودة إلى الوطن والتعافي من هذا المرض الذي أصابني. أن أقود حصاني طيلة اليوم وأصبح قوياً مجدداً. هل تريد مني بناء مدن على سهولي؟".

هزّ كشيون رأسه. "ليس مدناً. نحن فرسان يا شقيقي. سنكون كذلك دائماً. لكن ربما عاصمة، مدينة واحدة للأمة التي صنعناها. بالطريقة التي أخبرني عنها تيموج، يمكنني أن أتخيل ساحات تدريب رائعة لرجالنا، مكاناً يعيش فيه أولادنا ولا يعرفون أبداً الخوف الذي عرفناه".

قال جنكيز: "سيكبرون رقيقين. سيجعلهم ذلك ضعفاء وعديمي الفائدة مثل جنود تشن أنفسهم، ويوماً ما، سيأتي شخص على صهوة جواده، ويكون قاسياً ونحيلاً وخطيراً. عندها، أين سيكون شعبنا؟".

نظر كشيون إلى العشرة آلاف محارب الذين يمشون أو يقودون جيادهم عبر المعسكر الشاسع. ابتسم وهزّ رأسه. "نحن ذئاب يا شقيقي، لكن حتى الذئاب بحاجة إلى مكان تنام فيه. لا أريد شوارع تيموج الحجرية، لكن ربما يمكننا صنع مدينة من الخيام، مدينة يمكننا نقلها كلما أردنا إلى مراعٍ جديدة".

أصغى جنكيز باهتمام. "هذا أفضل. سأفكر بالأمر يا كشيون. سيكون هناك وقت كافٍ في رحلة العودة إلى الوطن، وكما تقول، لا يمكننا دفن كل هذا الذهب".

كان آلاف العبيد قد خرجوا مع العربات في أثناء ذلك، ووقفوا بائسين في صفوف. كان الكثير منهم شباباً يافعين، والذين منحهم الإمبراطور الشاب للخان المنتصر.

قال كشيون، وهو يشير إليهم بهزّة من يده: "يمكن أن يبنوها لنا. وعندما نطعن أنا وأنت في السن، سيكون لدينا مكان هادئ نموت فيه".

"لقد قلت إنني سأفكر بالأمر يا شقيقي. من يعرف الأراضي التي اكتشفها وفتحها تسوبودي، جيلم أو خاسار؟ ربما سنذهب معهم ولا نحتاج أبداً إلى مكان ننام فيه".

ابتسم كشيون من كلمات شقيقه، وعرف أن عليه ألا يضغط عليه أكثر.

قال: "انظر إلى هذا كله. هل تتذكر عندما كنا لوحدنا؟". لم يكن بحاجة إلى إضافة تفاصيل. كان هناك وقت بالنسبة إلى كليهما لم يكن الموت بعيداً أكثر من خطوة وكان كل رجل عدواً.

قال جنكيز: "أتذكر". مقارنة بصور طفولتهما، كان منظر السهل بعرباته وبالمحاربين المحتشدين فيه مثيراً للدهشة. بينما كان يحدّق إلى المشهد الذي أمامه، رأى جنكيز شكل وزير الإمبراطور الأول يهرول نحوه. تنهد لنفسه من فكرة الدخول في حديث مجهد آخر مع الرجل. كان ممثل الإمبراطور يتظاهر بالود، لكن كرهه للقبائل كان واضحاً في كل نظرة مرتعشة. كان يشعر أيضاً بالتوتر من التواجد بجانب الجياد وهو كان يصيبها بالتوتر بالمقابل.

فيما كان جنكيز يراقبه، انحنى وزير تشن كثيراً له قبل أن ينشر رقعة.

سأل جنكيز بلغة تشن قبل أن يستطيع روين تشو الكلام: "ما هذا؟". كانت تشاكاهي قد علّمته، وكافأت تقدمه بوسائل مبتكرة.

بدا الوزير مرتبكاً، لكنه استعاد السيطرة على نفسه بسرعة. "إنها لائحة بالجزية يا مولاي الخان".

"سلّمها لشقيقي تيموج. سيعرف ماذا يفعل بها".

احمرّ وجه الوزير وبدأ يلف الرقعة بشكل محكم. قال: "كنت أعتقد أنك سترغب بتفقد الجزية يا مولاي".

تقطب حاجبا جنكيز عبوساً منه. "لم أكن أعتقد أن أي شخص سيكون أحمق بما يكفي حتى لا يفي بما وعد به يا روين تشو. هل تقول إن شعبك لا يتمتع بالشرف؟".

تمتم روين تشو: "لا يا مولاي...".

لوح جنكيز بيده لإسكاته. "إذاً، سينظر فيها شقيقي". فكّر للحظة، وهو يحدق من فوق رأس الوزير إلى صف العربات المحمّلة. "لم أرَ سيدك بعد لعرض الاستسلام الرسمي يا روين تشو. أين هو؟".

أضحى لون وجه روين تشو أكثر احمراراً بينما كان يفكر كيف سيجيب. لم يكن القائد زهي زهونغ قد نجا تلك الليلة وقد تم استدعاء الوزير الجليل إلى مقره عند الفجر. ارتعش عندما تذكر الجروح والعلامات على جسده. لم يكن ذلك موتاً سهلاً.

قال أخيراً: "لم ينجُ القائد زهي زهونغ من تلك الأوقات الصعبة يا مولاي".

نظر إليه جنكيز دونما أي انفعال. "لماذا سأهتم بأي من جنودكم الآخرين؟ لم أرَ إمبراطوركم. هل يعتقد أنني سآخذ هذا الذهب وابتعد من هنا من دون حتى أن أنظر إليه؟".

زم روين تشو فمه، على الرغم من أنه لم يخرج منه أي صوت.

تقدم جنكيز منه. "عد إلى ينكينغ أيها الوزير، واجعله يخرج. إذا لم يكن هنا بحلول الظهيرة، كل كنوز العالم لن تنقذ مدينتكم".

ابتلع روين تشو ريقه بصعوبة، وكان من الواضح أنه خائف. كان قد تمنّى

بألا يطلب خان المغول رؤية الفتى البالغ من العمر سبع سنوات. هل سينجو كسوان الصغير من الاجتماع؟ لم يكن روين تشو واثقاً من ذلك. كان المغول قساة ولم يكونوا يهتمون بشيء. على الرغم من ذلك، لم يكن هناك خيار فانحنى أكثر من ذي قبل.

"كما تشاء يا مولاي".

عندما ارتفعت الشمس في السماء، تم إيقاف قطار الكنوز العظيم للسماح بخروج محمل الإمبراطور إلى السهل. جاء معه مئة رجل يرتدون دروعاً، ويمشون إلى جانبي المحمل الذي يحمله عبيد. جاؤوا صامتين متجهمين وصمت المغول أيضاً عندما شاهدوهم، وبدأوا يندفعون وراء المجموعة فيما كانت تشق طريقها إلى حيث كان جنكيز ينتظر مع قادة جيشه. لم يتم نصب خيمة خاصة للإمبراطور، وعلى الرغم من ذلك، لم يسع جنكيز سوى أن يشعر بالأسى فيما كانت الصفوف تتحرك نحوه. كان من الصحيح أن الفتى لم يكن قد لعب دوراً في تاريخ القبائل. على الرغم من ذلك، كان الرمز الوحيد لكل ما اجتمعوا لمقاومته. أنزل جنكيز يده إلى قبضة أحد سيوف أرسلان على خصره. عندما تم صنعه، كان خاناً لأقل من خمسين رجلاً في معسكر من الثلج والجليد. لم يكن ليجرؤ على الحلم حينها بأن يخرج إمبراطور تشن لملاقاته بناءً على أمر منه.

لمع المحمل في الشمس بينما كان يتم إنزاله على الأرض بلطف كبير. شد العبيد قاماتهم، يحدّقون أمامهم مباشرة. راقب جنكيز بذهول بينما كان روين تشو يفتح ستائر صغيرة جانبية وفتى صغير يخطو على العشب. كان يرتدي سترة خضراء طويلة مرصعة بالجواهر، فوق طماقات سوداء. كانت ياقة عالية قد جعلت الفتى يرفع رأسه عالياً. لم تكن عيناه خائفتين عندما التقت بعيني الخان وشعر جنكيز بالإعجاب من شجاعة الفتى.

تقدم جنكيز خطوة إلى الأمام وشعر بنظرة الجنود القاسية إليه.

قال بلطف: "اجعل هؤلاء الرجال يتراجعون إلى الخلف يا روين تشو". أحنى

الوزير رأسه وأصدر الأمر. وقف جنكيز بثبات بينما كان الضباط يحدّقون إليه قبل أن يتراجعوا مسافة قصيرة. كانت فكرة قيامهم بحماية الفتى الصغير في قلب معسكر المغول مثيرة للسخرية، لكن جنكيز شعر بولائهم الشديد. لم يكن يرغب بإفزاعهم وجعلهم يشنون هجوماً عليه. حالما تحركوا، لم يعد يفكر في وجودهم واقترب من الإمبراطور.

قال بلغة تشن: "أهلاً بك في معسكري".

حدّق إليه الفتى الصغير من دون أن يرد، ورأى جنكيز أن يديه ترتعشان.

قال كسوان فجأة بصوت عالٍ وحاد: "حصلت على كل ما تريده".

رد جنكيز: "كنت أريد وضع حدٍّ للحصار. هذه نهاية واحدة". رفع الفتى رأسه أكثر، وكان يقف مثل تمثال عرض يلمع في الشمس.

"هل ستهاجمنا الآن؟".

هزّ جنكيز رأسه. "لقد قلت إن كلمتي حديد أيها الشاب. أعتقد ربما أنه إذا كان والدك واقفاً أمامي الآن، كنت سأفكر بالأمر. هناك كثيرون بين شعبي سوف يستحسنون هذه الاستراتيجية". توقف ليبتلع ريقه عندما آلمته حنجرته ولم يستطع منع نوبة سعال انتابته حينها. لغضبه، بقي صفير مسموع عندما تابع كلامه.

"لقد قتلت ذئاباً. لن أصطاد الأرانب".

رد الفتى الصغير: "لن أبقى صغيراً دائماً يا مولاي الخان. ربما تندم على الإبقاء على حياتي".

ابتسم جنكيز من عرض التحدي المبكر، حتى عندما فزع روين تشو. بحركة سلسة، شهر جنكيز سيفه ووضع مقدمة النصل على كتف الفتى، ومس بها ياقته.

"كل الرجال العظماء لديهم أعداء أيها الإمبراطور. سيسمع أعداؤك أنك وقفت وسيفي على عنقك من دون أن تكون كل جيوش ومدن تشن قادرة على

رفعه. في الوقت المناسب، ستفهم لماذا يجعلني ذلك راضياً أكثر من قتلك". تسبب سعال آخر بجعل حنجرته تنقبض ومسح فمه بيده الحرة.

"لقد عرضت عليك السلام أيها الفتى. لا يمكنني القول إنني لن أعود، أو أن أبنائي وقادة جيشهم لن يقفوا هنا في السنوات القادمة. لقد اشتريت السلام لسنة، وربما لسنتين أو لثلاث. هذا أكثر مما كان شعبك قد منحه لي على الإطلاق". مع تنهيدة، أغمد سيفه.

"شيء واحد أخير أيها الفتى، قبل أن أعود إلى الوطن حيث أراضي طفولتي".

رد كسوان: "ما الذي تريده بعد؟". كان قد أصبح شاحباً آنذاك بعد أن تم رفع السيف عن عنقه، لكن عينيه كانتا باردتين.

قال جنكيز: "اجثُ لي أيها الإمبراطور، وسأغادر". لدهشته، امتلأت عينا الفتى بدموع غاضبة.

"لن أفعل ذلك!".

اقترب روين تشو، يتحرك بعصبية وراء الإمبراطور.

همس: "ابن السماء، ينبغي أن تفعل ذلك". لم يتكلم جنكيز مجدداً، وأخيراً، استرخت كتفا الفتى دلالة على الهزيمة. حدّق من دون أي انفعال بينما كان يجثو أمام الخان.

وقف جنكيز في النسيم واستمتع بلحظة طويلة من الصمت قبل أن يشير إلى روين تشو ليساعد الفتى على النهوض على قدميه.

قال جنكيز بهدوء: "لا تنسَ هذا اليوم أيها الإمبراطور، عندما تكبر". لم يرد الفتى بينما كان روين تشو يقود خطواته عائدين إلى المحمل ويراه بأمان في الداخل. تشكل الرتل حوله وبدأ السير عائداً إلى المدينة.

راقبهم جنكيز يذهبون. كان قد تم دفع الجزية وجيشه ينتظر أمره بالتحرك. لم يكن هناك شيء يربطه بالسهل اللعين الذي سبب له الضعف والإحباط من اللحظة التي وطئته فيها قدماه.

قال لكشيون: "لنذهب إلى الوطن". صدحت الأبواق عبر السهل وبدأ الحشد الضخم لشعبه بالتحرك.

ساء المرض في صدر جنكيز في الأسابيع الأولى من السفر. كان جلده حاراً عند مسه ويتعرق بشكل مستمر، ويعاني من طفح جلدي عند فخذيه وإبطيه، حيثما كان الشعر ينمو بكثافة. كانت أنفاسه تخرج مجهدة، حتى إنه كان يصفر كل ليلة ولا يستطيع أن يتنحنح. كان يحن إلى الرياح الباردة النظيفة في جبال وطنه، وبخلاف المنطق، كان يقضي كل يوم على السرج، ينظر إلى الأفق.

كان قد مضى شهر منذ غادروا ينكينغ، وكانت ضواحي مملكة الصحراء في مرمى النظر وتوقفت القبائل عند نهر للتزوّد بالماء اللازم للرحلة. هناك، جاء آخر المستطلعين الذين كان جنكيز قد تركهم خلفه إلى المعسكر. لم ينضم اثنان منهم إلى زملائهم حول نيران المعسكر، وبدلاً من ذلك، قادا جواديهما مباشرة إلى خيمة الخان على العربة.

كان كشيون وأرسلان هناك مع جنكيز وخرج الرجال الثلاثة لسماع التقرير النهائي. راقبوا بينما كان المستطلعان يترجلان عن فرسيهما. كان كلاهما مغطيين بالغبار والتراب وتبادل جنكيز نظرة مع شقيقه، وابتلع ريقه ليخفف من وخز حنجرته المجروحة.

شرع أحد المستطلعين يقول: "مولاي الخان". ترنح بينما كان واقفاً وتساءل جنكيز عما يكون قد دفع الرجل لإجهاد نفسه.

"لقد ترك الإمبراطور ينكينغ يا مولاي، ويتجه جنوباً. خرج أكثر من ألف معه".

سأل جنكيز غير مصدق: "هل هرب؟".

"جنوباً يا مولاي. لقد تركوا المدينة مفتوحة، وهجروها خلفهم. لم أبقَ لأرى كم عدد الأشخاص الذين نجوا في الداخل. أخذ الإمبراطور العديد من العربات والعبيد، وكل وزرائه".

لم يتكلم أحد آخر بينما كان جنكيز يسعل في قبضته المغلقة، ويحاول جاهداً التقاط أنفاسه.

قال جنكيز أخيراً: "لقد منحته السلام. على الرغم من ذلك، يصرخ للعالم أن كلمتي لا تعني شيئاً له".

قال كشيون: "ماذا يهمنا من ذلك يا شقيقي؟ خاسار في الجنوب. لن تجرؤ أي مدينة على منحه ملاذاً...".

أسكته جنكيز بإيماءة غاضبة. "لن أعود إلى ذلك المكان يا كشيون. لكن هناك ثمن لكل شيء. لقد خرق السلام الذي منحته إياه بهربه إلى جيوشه في الجنوب. ستريه الآن النتيجة".

سأل كشيون: "شقيقي؟".

"لا يا كشيون! لقد اكتفيت من الألعاب. عد برجالك إلى ذلك السهل واحرق ينكينغ عن آخرها. ذلك هو الثمن الذي سآخذه منه".

نظراً لغضب شقيقه، لم يستطع كشيون سوى أن يحني رأسه.

قال: "كما تشاء يا مولاي".

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead

"كانت الطبيعة قد تركت هذه السمة في الدم،
بأن كل الرجال سيصبحون طغاة إذا استطاعوا".
- دانييل ديفو

لا يمكن سوى تقدير تاريخ ولادة جنكيز. نظراً للطبيعة البدوية لقبائل المغول، لم يتم تحديد سنة وموقع ولادته أبداً. إضافة إلى ذلك، كانت القبائل الصغيرة تدوّن السنوات وفقاً لأحداث محلية، مما يجعل توافقها مع التقويم السائد اليوم صعباً. لم تصبح الأوقات معروفة على وجه الدقة سوى عندما أضحى جنكيز على احتكاك بالعالم الخارجي. غزا منطقة كزي كزيا جنوب غوبي سنة 1206 ميلادية ونودي به خاناً لكل القبائل في السنة نفسها. بحسب التقويم الصيني، كانت تلك سنة النار والنمر، في نهاية حقبة تيهي. ربما كان آنذاك بعمر الخامسة والعشرين، أو كان قد بلغ الثامنة والثلاثين عندما وحّد شعبه. لم أُسهب في تقديم سنوات الحرب والتحالفات بينما كان يوحد القبائل معاً تحت قيادته. المثير للاهتمام أن لقصته دائماً مجالاً واسعاً. أوصي بقراءة التاريخ السري للمغول The Secret History of Mongols، ترجمة آرثر ويلي، لكل من يتمنى معرفة المزيد عن تلك الحقبة.

كان تحالف النيمنز آخر ائتلاف رئيسي يقاوم تشكيل الأمة الجديدة. صعد خان النيمنز بالفعل جبل ناخو، وصعد المنحدرات مبتعداً عن جيش جنكيز الذي كان يتقدم نحوه. عرض جنكيز الإبقاء على فرسانه، لكنهم رفضوا وقتلهم حتى آخر رجل. تم استيعاب باقي المحاربين والعائلات ضمن قواته.

كان كوكشو كاهناً عرّافاً قوياً، ومعروفاً أيضاً باسم تب-تنجري. لا يُعرف الكثير بشأن كيف أصبح نافذاً. اشتكت هولن وبورت إلى جنكيز عدّة مرات بشأن الكاهن العرّاف. أصبحت قدرة تأثيره على جنكيز مصدراً كبيراً لقلق أولئك

الذين كانوا حول الخان. كان جنكيز نفسه يعتقد بأب سماء واحد: الذات الواحدة المؤيدة بعالم أرواح الكهنة. بقي كوكشو شخصاً غامضاً. كان أحد قوانين القبائل يحظّر إراقة دم ملكي أو دم الكهنة. لم أنتهِ بعد من سرد قصته.

فيما كانت القبائل تجتمع استجابة لنداء جنكيز، كتب خان اليوغر إعلان ولاء مطابقاً تقريباً لما أوردته هنا. بأي حال، كانت حادثة تعرض خاسار للضرب وإرغام تيموج على الجثو مع أبناء عشيرة خونغخوتان وليس ويلا.

قام جنكيز بالفعل بغمر سهل كزي كزيا بالماء واضطر للانسحاب أمام المياه التي ارتفع منسوبها. على الرغم من أن ذلك كان محرجاً، إلا أن دمار المحاصيل أرغم الملك على الحضور إلى طاولة المفاوضات وحصل جنكيز أخيراً على أراضٍ للشعب المغولي. لم تكن تلك أول مواجهة لجنكيز مع فكرة دفع جزية. كان معروفاً عن القبائل المغولية إجراؤها المفاوضات بتلك الطريقة، على الرغم من أن ذلك لم يكن على نطاق واسع. من المثير للاهتمام التفكير بينما كان جنكيز قد فعله بثروات كزي كزيا، ولاحقاً، مدينة الإمبراطور. لم يكن يستفيد من الممتلكات الشخصية التي لا يستطيع حملها على حصانه. لا بد أن الجزية أثّرت في القبائل وأكّدت هيمنته، لكن بخلاف ذلك لم يكن لها فائدة عملية كبيرة.

ربما كان مصير كزي كزيا مختلفاً لو أن الأمير وي من إمبراطورية تشن قد أجاب نداء الاستغاثة. كانت رسالته مترجمة: "إن من مصلحتنا أن يهاجم أعداؤنا بعضهم. أين يكمن الخطر في ذلك علينا؟".

عندما دار جنكيز حول سور الصين العظيم، فعل ذلك صدفة فقط. ابتعد دربه إلى ينكينغ عبر أراضي كزي كزيا عن السور. بأي حال، من المهم أن نفهم أن السور كان عقبة صلبة فقط في الجبال حول ينكينغ التي عُرفت لاحقاً باسم بكين، ثم بيجين اليوم. في أماكن أخرى، كان السور مهدّماً، أو ليس أكثر من متراس من الأرض مع نقطة حراسة عادية. في قرون لاحقة، تم بناء السور

بأكمله ليصبح فاصلاً متواصلاً ضد الغزو.

من المهم ملاحظة أن لفظ أسماء الأماكن باللغة الصينية تقريبي دائماً، ويتم استعمال أبجدية غريبة لكتابة الحرف نفسه. لهذا، تُلفظ كزي كزيا أحياناً تسي-تسيا، أو هسي-هسيا، وتُكتب تشن أحياناً جن أو حتى كن. تُكتب سونغ سنغ في بعض النصوص. كنت قد استطعت العثور على واحد وعشرين لفظاً لجنكيز، من الاسم الغريب جنتشيسكان وتشن-كس إلى الاعتيادي مثل جنجيز، تشنكيز، جنكز، وجنجز. الكلمة المغولية أوردو أو أردو تعني المعسكر أو مقر القيادة العامة. اشتققنا من هذه الكلمة كلمة الحشد. تقول بعض المعاجم إن العرّاف كلمة من أصل مغولي، وإن غوركاس نيبال ربما اشتقوا اسمهم من غورخان أو خان الخانات.

كان لجنكيز أربعة أبناء شرعيين. كما هي حال كل الأسماء المغولية، هناك اختلافات في التهجئة، تماماً كما تُكتب كلمة شكسبير أحياناً شكسبر، أو بواديسيا بوديكا. يكون اسم جوشي أحياناً جوجي، وتشاغاتي جاغاتي، وأوجيدي أوجادي. كان آخر أبنائه تولي، والذي يُكتب أحياناً تول.

إضافة إلى أميرة كزي كزيا، كان جنكيز يتزوج غالباً من أعدائه الذين يهزمهم. جعل أحد آخر قراراته كل الأبناء شرعيين، على الرغم من أن ذلك لم يكن له تأثير في حق الميراث بين أبنائه.

لطالما كانت المدن المسوّرة مشكلة لجنكيز. في الوقت الذي هاجم فيه ينكينغ، كانت المدينة محاطة بقرى محصّنة تحتوي صوامع وترسانات أسلحة. كانت هناك خنادق مائية حول أسوار المدينة وكان عرض الأسوار نفسها حوالى خمسين قدماً عند القاعدة، ومثل ذلك ارتفاعاً. كان للمدينة ثلاث عشرة بوابة مبنية بإحكام وما كان يعد أطول قناة في العالم، والتي تمتد أكثر من ألف ميل جنوباً وشرقاً إلى هانغزهو. كانت معظم عواصم العالم قد نشأت على ضفاف

نهر عظيم. تم بناء بيجين حول ثلاث بحيرات كبيرة؛ بيهي إلى الشمال، زهونغهي (أو سونغهي) في الوسط ونانهي إلى الجنوب. ربما تكون أقدم مستعمرة مأهولة في العالم، لأنه تم العثور على دلائل تثبت وجود بشر فيها قبل نصف مليون سنة مضت؛ إنسان بكين، كما يُعرف أحياناً.

في الوقت الذي شن فيه جنكيز هجومه عبر ممر بادغر، كانت ينكينغ قد شهدت مدة من النمو نجم عنها بناء أسوار قطرها خمسة أميال وزيادة عدد سكانها إلى ربع مليون أسرة، أو ما يقارب المليون شخص. من الممكن أن نتخيل نصف مليون آخرين لم يكونوا يظهرون في أي سجل رسمي. حتى عندها، لم يكن قد تم بعد بناء المدينة المحرّمة الشهيرة داخل الأسوار وقصر الإمبراطور الصيفي (دمره الجنود البريطانيون والفرنسيون سنة 1860). اليوم، يبلغ عدد سكان المدينة حوالى خمسين مليون نسمة ويمكن قيادة سيارة في الممر الذي كان مرة مسرحاً لواحدة من أشرس المعارك في التاريخ. تاريخ ذلك معروف أيضاً: سنة 1211 ميلادية. كان جنكيز قائد شعبه منذ خمس سنوات في ذلك التاريخ. كان في أوج قوته الجسدية وقاتل مع رجاله. من غير المحتمل أن يكون عمره آنذاك أكثر من أربعين سنة، لكن ربما يكون شاباً بعمر الثلاثين، كما كنت قد كتبت هنا.

تعد معركة ممر بادغر واحدة من أعظم انتصارات جنكيز. كان رجاله أقل عدداً ولم يكن قادراً على المناورة، لكنه أرسل محاربين لتطويق العدو، وتسلقوا جبالاً اعتقد أبناء تشن أنها غير سالكة. تم إرغام فرسان تشن على التراجع نحو خطوطهم من قبل الخيّالة المغول، وحتى بعد عشر سنوات، كانت الهياكل العظمية تملأ الأرض حول ذلك المكان لمسافة ثلاثين ميلاً. نتيجة المشكلات المعتادة للفظ الكلمات الصينية باللغة الإنكليزية، كان الممر معروفاً في أعمال سابقة باسم يوهونغ، والذي يُترجم إلى بادغر.

بعد خسارته المعركة، عاد القائد زهي زهونغ بالفعل أدراجه وذبح الإمبراطور

الشاب، وعين آخر بينما كان يحكم كوصي.

كان قد تم بناء مدينة ينكينغ لتكون منيعة وكان هناك ما يقارب ألف برج حراسة على الأسوار. كان كل منها مزوداً بأقواس ضخمة يمكنها إطلاق سهام كبيرة مسافة ثلثي الميل. إضافة إلى ذلك، كان لديها منجنيقات يمكنها إطلاق حمولات ثقيلة مئات الياردات من فوق الأسوار. كان لديها بارود وقد بدأت استعماله للتو في الحرب، على الرغم من أنه كان في ذلك الوقت يشكل جزءاً من الدفاعات. كانت منجنيقاتها تستطيع إطلاق أوعية فخارية مليئة بزيت معالج؛ بنزين. كان الهجوم على مثل تلك المدينة المحصّنة سيقصم ظهر جيش المغول، لهذا اختاروا تدمير الأراضي حولها وجعل ينكينغ تتضور جوعاً حتى تستسلم.

استغرق الأمر أربع سنوات وكان سكان ينكينغ يأكلون موتاهم في الوقت الذي فتحوا فيه البوابات واستسلموا سنة 1215. قبل جنكيز الاستسلام مقابل جزية لا يمكن تخيلها. سافر بعدها عائداً إلى مراعي شبابه، كما كان يفعل طيلة حياته. مع انتهاء الحصار، هرب الإمبراطور جنوباً. على الرغم من أنه لم يعد بنفسه، إلا أن جنكيز أرسل جيشاً إلى المدينة ليثأر منه. احترقت أجزاء من ينكينغ طيلة شهر.

على الرغم من كراهيته لتشن، إلا أن جنكيز لم يكن الشخص الذي أنهى احتلال أراضيهم وإخضاعهم أخيراً. سيقع ذلك على عاتق أبنائه وحفيده كوبلا. في ذروة نجاحه، غادر الصين واتجه غرباً. صحيح أن الحكام المسلمين رفضوا الاعتراف بسلطته، لكن جنكيز كان صاحب رؤية ولم يكن يتصرف من دون تفكير. إنها حقيقة غريبة، والتي غالباً ما تكون غائبة عن التاريخ، لقد غادر الصين عندما كانت جاهزة لتسقط عند قدميه.

كان يفهم فكرة الأمم والقوانين، وطوّر ببطء نظامه الخاص، المعروف باسم ياسا.

"إذا لم يتقيد العظيم، قادة الجيش والقادة من سلالة الحاكم الذين سيولدون في المستقبل بياسا، عندها ستتحطم قوة الدولة وتنتهي. بغض النظر عن الطريقة التي يبحثون فيها عن جنكيزخان، لن يجدوه". جنكيزخان.

نرى في هذا النص رؤية الشخص الذي شكّل أمة من قبائل متناثرة وفهم ما يتطلبه الأمر ليحكم أرضاً شاسعة.

استعمل جنكيز نظام الخيمة البيضاء، والخيمة الحمراء، والخيمة السوداء كما وصفت. كانت دعاية من نوع ما، مصممة لجعل المدن تسقط بسرعة من الخوف. نظراً إلى أن الرعي كان دائماً قضية تشغل القبائل المغولية، كان ينبغي تفادي الحصار المطوّل متى كان ذلك ممكناً. لم يكن ذلك يناسب سواء مزاجهم أو أسلوب جنكيز في العمليات القتالية التي كانت فيها السرعة والحركة عاملين رئيسيين. بطريقة مشابهة، كان دفع عدو نحو مدينة لاستنفاد موارده أمراً قاسياً شائعاً. بطريقة ما، كان جنكيز عملياً جداً، لكن هناك ميزة لحروب المغول تستحق أن أذكرها هنا: الثأر. كان يتم استعمال جملة لقد خسرنا الكثير من الرجال الطيبين لتبرير شن هجوم شامل بعد الهزيمة.

كان أيضاً مستعداً لتجريب تقنيات وأسلحة جديدة، مثل الحربة الطويلة. كان القوس دائماً السلاح الذي يختاره الفرسان المغول، لكنهم استعملوا الحراب بأسلوب فرسان العصور الوسطى بالضبط، كسلاح هجومي ناجح ثقيل ضد المشاة والخيّالة الآخرين.

الخداع ميزة رئيسية أخرى لفهم العديد من الانتصارات التي حققها المغول. كان جنكيز والرجال الذين يعملون تحت قيادته يعتبرون أن القتال المباشر يضر بسمعتهم. كانت الانتصارات التي يتم تحقيقها بالدهاء تجلب شرفاً أكبر لهم وكانوا دائماً يبحثون عن طريقة لخداع العدو الذي يواجهونه، سواء أكان ذلك انسحاباً زائفاً، أم قوات احتياطية متوارية عن الأنظار أو حتى دمى مصنوعة

من القش موضوعة على جياد إضافية للإيحاء باحتياطيات لم يكونوا يمتلكونها عادة. ربما يهم البعض أن يفكر بأن بادن-باول اعتمد المقاربة ذاتها تماماً في دفاعه عن مافكينغ بعد سبعة قرون، مع حقول ألغام وهمية، وإرسال رجال لوضع أسلاك شائكة ظاهرة للعيان وكل أنواع الخدع والحيل. بعض الأشياء لا تتغير.

حادثة قيام جيلم بمص الدم من عنق جنكيز مثيرة للاهتمام. لم يكن معروفاً أن أحداً قد نجا من السم من قبل، لكن كيف يمكن تفسير ذلك؟ ليس ضرورياً مص الدم المتخثر من جرح في العنق. لا يساعد ذلك على الشفاء، وفي الحقيقة، يمكن لذلك الفعل أن يضر بالشرايين الضعيفة أساساً من الجرح. وقعت الحادثة تاريخياً في وقت أبكر مما ذكرته هنا، لكنها كانت استثنائية للغاية حتى إنني لم أستطع التغاضي عنها. إنها من نوع الأحداث التي تتم إعادة كتابتها في التاريخ، إذا كانت محاولة الاغتيال الناجحة جزئياً تُعدّ ربما شائنة.

هناك حادثة تاريخية لم أوردها وتتعلق بقيام أحد رجال القبائل المنفيين والجائعين بالإمساك بأصغر أبناء جنكيز تولي وتهديده بسكين. لا يمكننا أن نعرف ما كان ينويه لأن جيلم وآخرون قتلوه على الفور.

لم يكن جنكيز ذلك الرجل الذي لا يُقهر وأُصيب بجروح عدة مرات في المعارك. على الرغم من ذلك، كان الحظ دائماً إلى جانبه ونجا مراراً وتكراراً. ربما يستحق ما كان رجاله يعتقدون بشأنه من أنه كان مباركاً والنصر حليفه.

ملاحظة عن مسافات السفر: كانت إحدى الميزات الرئيسية لجيش المغول أنه كان يستطيع التحول إلى أي مكان تقريباً بهجوم مفاجئ. هناك سجلات مؤكدة عن قطعه مسافة ستمئة ميل في تسعة أيام، أي بمعدل سبعين ميلاً في اليوم، أو رحلات أطول مسافة قطعوا فيها مسافة 140 ميلاً في اليوم وكان لا يزال بمقدور الفارس متابعة الطريق. كانت أعظم الرحلات تتضمن تغيير الجياد، لكن ماركو بولو سجّل أن المبعوثين المغول كانوا يقطعون مسافة 250 ميلاً بين شروق

الشمس وحلول الظلام. في الشتاء، كان يتم إطلاق سراح الجياد المرهقة. كانت تأكل ما يكفي من الثلج لإرواء عطشها وتبحث فيه للعثور على الأعشاب تحته. عندما عبر الراهب الفرنسيسكاني جون دو بلان كاربيني السهول لزيارة كوبلا خان، ثم إلى كاراكورم، نصحه المغول باستبدال جياده بجياد مغولية، وإلا سيراها تتضور جوعاً حتى الموت. لم تكن لديهم مثل أسباب القلق تلك بشأن الجياد. كان يتم تربية الجياد الغربية من سلالات تتمتع إما بقوة كبيرة مثل جواد مقاطعة سوفولك بنش، أو لسرعتها في السباقات. لم يتم تربيتها أبداً لقدرتها على التحمل.

حادثة سقوط التويجات صحيحة. ألقت ما يصل إلى ستين ألف شابة أنفسهن عن أسوار ينكينغ بدلاً من رؤيتها تسقط في يدي الغزاة.

---

[1] كِيَرَة: مفردها "كير" وهو زقّ ينفخ فيه الحدّاد.

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead